


المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
الدراسات العليا

# العدل والرحمة في الجهاد الإسلامي

## في عهد النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة

إعداد الطالب
**متعب بن خلف بن متعب السُّلمي**

إشراف
**فضيلة الدكتور/ سليمان الصادق البيرة**

١٤١٩هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## ملخص الرسالة

لقد بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم لإخراج الناس من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الاسلام وصراط الله المستقيم وكانت هذه البعثة أعظم رحمة للناس قال تعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾. فجاهد صلى الله عليه وسلم في سبيل إنقاذ الناس على محورين: الجهاد الدعوي لإزالة الباطل من الاذهان وإحلال الحق محله بالحجة والبرهان، والجهاد القتالي لمن صد عن سبيل الله ووقف حائلاً دون علو دين الله وإظهاره على الدين كله، حتى أنتجت هذه الجهود المباركة خير أمة أخرجت للناس. وتتمثل عدالة هذا الجهاد ورحمته في كونه جهاداً بين فريقين مؤمنين وكافرين. المؤمنون يسعون إلى نشر الخير المنزل عليهم من ربهم وإزالة الباطل بكل صوره وأشكاله. يقابلهم أهل الكفر الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم.

وبين هذين الفريقين دارت رحى معارك عنيفة ابتدأت بالمعارك العقدية التي نتج عنها المعارك القتالية، ومعلوم أن الفريق الذي يهيمن على الآخر يظهر معه تبعاً المنهج الذي يرتضيه ويؤمن به. ولهذا كان الظهور والعلو بالنسبة للمؤمنين وسيلة تستتبع ظهور وإعلاء دين الله على الدين كله، وجعله حكماً بين الناس مسلمهم وكافرهم. ثم إن هؤلاء الصالحين إذا كانت لهم السيادة أزالوا جميع العقبات المادية والمعنوية التي تمنع الناس من رؤية الحق، لتقوم حجة الله على خلقه. ولا يعني إزالة العقبات أن يكرهوا الناس على الدخول في دين الاسلام فإن هذا ينافي معنى التكليف لكن يمنعون أهل الباطل من أن يحولوا بين الناس وبين الاهتداء بنور الله المنزل. كما يمنعوهم من نشر الكفر والضلال وقيادة البشرية بالمناهج التي تعمق الفساد والانحراف. فهذا أعظم معلم من معالم العدل والرحمة في الجهاد في سبيل الله.

لذلك جعل الفصل الأول من هذه الرسالة في بيان أثر الاختلاف العقدي بين المؤمنين والكافرين وأنه هو الأساس الذي تفرعت عنه المعارك القتالية.

أما الفصل الثاني ففي بيان التفصيلات الدقيقة لمعاني العدل والرحمة في الجهاد كالدعوة قبل القتال والنهي عن المثلة وعن قتل غير المقاتلة وعن قتل الرسل، وإعطاء الأمان لمن يريد سماع كلام الله والرفق بالأسرى ونحوها.

أما الفصل الثالث فعرض فيه الجانب العملي بعد بيان الجانب النظري، من خلال نماذج من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم.

| الطالب | المشرف | عميد الكلية |
| --- | --- | --- |
| متعب بن خلف السلمي | د.سليمان الصادق البيرة | د. محمد سعيد بخاري |

# المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد:

فإن البشرية اليوم تتخبط في ظلمات الجاهلية وضلالاتها ـ إلاَّ من رحم الله ـ فنتج عن ذلك انحراف نواحي حياتهم في جميع جوانبها عن الهدى، وانعكس ذلك على حياة الناس، وكثر الشعور بالشقاء، وفقدان معنى الإنسانية، والهدف من الحياة. وأصبحوا يعيشون كما تعيش السوائم همهم الحصول على متاع الدنيا الزائل، والتنافس على حطامها. ونظرًا لحاجتهم إلى تسيير أمور حياتهم فقد أوجدوا مناهج من عند أنفسهم لينظموا بها شؤونهم، ويقضوا على وفقها أيام حياتهم.

ولمَّا كانت تلك المناهج من صنع الإنسان فإنه يعتريها ما يعتريه من الجهل والضعف، والقصور والظلم. فكلما تبين لهم عوارها، استبدلوها بأخرى من جنسها، بعد أن يكون ضحيتها الكثير من البشر، الذين وقعوا في حمأة الفواحش، وعدى القوي منهم على الضعيف، وكثر فيهم الظلم والفساد، وأوقعت كثيرًا منهم في اليأس من الخروج من هذا الشقاء.

إنها الخسارة الحقيقية التي يخسر الإنسان فيها نفسه، يوم لا يعلم لماذا خُلق؟ فيدب على وجهه يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، ويقصر جهده وطاقاته وهمه على ذلك، ثم يتفاجأ عند خروجه من الدنيا أنه فرط في أعظم أمر، وأهمل أعظم الغايات التي من أجلها خُلق.

إن المشكلة الكبيرة التي تعاني منها البشرية اليوم، ويتحدث عنها عقلاؤهم، ويشعرون بوطئتها عليهم، ويلتمسون الحلول لها، ويرونها تعصف بأبناء جنسهم؛ لهي مشكلة البشرية على مرِّ التأريخ. كلما انحرفت عن دين الله تعالى.

وعلاجها الذي احتار فيه كثير من مفكريهم؛ هو مذكور في كتاب الله، الذي أنزله رحمة للعالمين، ومشَخِّص معه المرض الملازم لتركه في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾(١) وهو علاج مبذول لجميع لخلق أنزله الله على رسوله ﷺ، ووصفه بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٢)، وذكر الغاية التي تتحقق للبشرية من إرسال هذا الرسول فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾(٤).

وليس هو علاجًا نظريًا فحسب، بل قد طُبق في حياة الناس في عهد النبي ﷺ فأنتج أعظم جيل بشري عرفته الدنيا، بحيث عاشوا حياةً طيبة في الحياة الدنيا، مع ما ينتظرون من فضل الله تعالى في الآخرة. وقد وصفهم الله تعالى قبل نزول هذا الخير إليهم بقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾(٥).

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٣ـ١٢٦.
(٢) سورة إبراهيم، آية: ١.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.
(٤) سورة الحديد، آية: ٢٥.
(٥) سورة الجمعة، آية: ٢.

ولقد واجه رسول الله ﷺ وضعًا قريبًا من هذا الوضع القائم اليوم، ووضعت في طريقه عقبات وحواجز، كتلك التي توضع في طريق الدعاة اليوم، فسار ﷺ في تحقيق هدفه الذي من أجله بُعث على عين الله. في خطوات منهجية متدرجة نحو الوصول بالبشرية إلى حيث أراد المولى عزَّ وجلَّ لها من الهداية. وأعظم وسيلة شرعها الله عزَّ وجلَّ لإقامة دينه، وإظهاره على غيره من الدين؛ هو الجهاد في سبيل الله الذي استغرق كل حياة النبي ﷺ، ونزل في الجهاد القتالي ـ وهو أحد أنواعه وأعظمها ـ قرابة نصف القرآن المدني.

وقد اعترى حقيقة الجهاد في سبيل الله كثير من سوء الفهم؛، بسبب عدم فهم كثير من الناس للإسلام ذاته، فمن لم يفهم حقيقة الإسلام لايمكنه أن يفهم حقيقة الجهاد في سبيل الله، إذ هما متلازمان. وازداد الأمر سوءًا عندما علم الكفار ـ وخاصة المستشرقين منهم ـ أهمية هذه الشعيرة في إقامة دين الله، وحمايته وتبليغه للناس، فحاربوها أشد المحاربة، وشوهوها بشتى التهم. والتي أبرزها منافاته للعدل والرحمة، وتسلطه على الآخرين، وسفك دمائهم، أو إكراههم للدخول في الإسلام بحد السيف.

لقد وجدت هذه الشبه من المسلمين وغيرهم سمَّاعين لها. فأما غير المسلمين فتَشَوَّه الإسلام لديهم وزهدوا فيه، ولم يصدقوا أنه دِيْن هدى ورحمة حينما شرع القتال، وأماالمسلمون فقد شعر كثير منهم بالإحراج، وجعل يتلمس تأويلات مناسبة يمكن أن تُحمل عليها نصوص القتال في سبيل الله الكثيرة، وهذا صنيع المثقفة منهم، أمَّا من لديهم كراهية للدين مع إظهارهم التمسك به فقد اتخذوا هذه الشبه ذريعة يتملصون بها من تكاليفه، وينخرطون في اتباع مناهج ضُلَّال البشر، وكأن الهداية والنور والحق ليس بين أيديهم فضلوا وأضلوا. ومنهم من أحسن الظن في بعض من انطلت عليه تلك الشبه، فتابعه على قوله. ولو

استبان له وجه الحق لما عدل عنه.

**سبب اختيار هذا البحث وأهميته:**

ولما كانت هذه الشبهة بهذه المكانة بحيث أصبحت حجر عثرة في قبول الإسلام، وفي الزهد في فريضة الجهاد بل والتنصل منها، وتأويلها بشتى التأويلات المخالفة لحقيقتها، وكانت من العقبات التي جعلت البشرية تبحث عن الهدى في غير دين الله تعالى، تساءلت كيف تقبل هذه الشبهة في جهاد صنع علي عين الله؟!، واستغرق حياة النبي ﷺ من بعثته إلى مماته؟!. وهو الذي أنزل الله عليه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]. وأمره ربه بالعدل حتى مع الأعداء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾[3].

فأخذت أتتبع جوانب العدل والرحمة المتعلقة بجهاد النبي ﷺ؛ فوجدتها في كل جزئية منه. بل إنني عثرت عليها في مواطن لم أتوقع وجودها فيها. فلمَّا لم أجد من تتبعها وجمعها في مؤلف مستقل، يقرب الفائدة على طالبيها، إلاَّ ما كان من كتابات منثورة في بطون المؤلفات، هي بحاجة إلى من يلم شتاتها، ويستدل لأكثرها، ويستعين بها على دراسة نصوص الكتاب والسنة، وهي وفيرة بحمد الله. لما سبق، ولأن الله أوجب علينا نصرة دينه، وإظهار حجته، وإزالة الشبه التي تثار حوله، سألت الله العون والتوفيق في دراسة هذا الموضوع لنيل درجة الماجستير، في جامعة أم القرى، قِسْم الكتاب والسنة، وسميته «**العدل والرحمة في الجهاد الإسلامي في عهد النبي ﷺ في ضوء الكتاب**

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.
(٣) سورة المائدة، آية: ٨.

والسنة».

**العدل**: فيه الإشارة إلى أن دفع الاعتداء عن المسلمين - بل وغير المسلمين -، وإزالة العقبات المانعة من حرية الاختيار، ومن وصول دين الله الحق إلى الناس؛ لا يعدُّ من الظلم، بل هو من العدل، ويشمل هذا الدفع، أو الإزالة استخدام جميع الوسائل المناسبة من الحجة والبرهان والسيف والسنان.

**الرحمة**: فيها الإشارة إلى أن الغاية الحميدة التي يُسعى إليها من تشريع الجهاد؛ هي إعلاء كلمة الله، ونصرة دينه الذي أنزله الله رحمة للعالمين، ولا تتحقق هذه الرحمة، وينتشر هذا الدين إلاَّ بالجهاد في سبيل الله.

**في الجهاد الإسلامي في عهد النبي ﷺ**: احتراز من جهاد الأمة في عصورها التالية، وذلك لأن جهاده ﷺ هو الميزان الذي يُقاس عليه غيره. فالله تعالى هو الذي شرعه، ومحمد ﷺ هو الذي طبقه. ولن يبلغ جهاد غيره من موافقة مراد الله ما بلغ جهاده ﷺ، لذلك اعتنت بتفاصيله نصوص الوحي، وخُصصت له سور بأكملها، قد دُوِّنَ فيها أدق تفاصيله، حتى إذا حاد الناس عن هذا المنهج الجهادي ولو قليلاً؛ واجهتهم النصوص الدالة على المخالفة لتصحح المسيرة التي لم يجعل لها هذا الاهتمام؛ إلاَّ لأنها هي الوسيلة التي من خلالها يتحقق الغرض من البعثة، ويقام دين الله، ويعمل على نشره. أمَّا ماسواه من جهاد غيره فهو معرض للقصور والانحراف والخطأ، بل قد يدعي فيه أنه جهاد، وهو ليس كذلك أصلاً، ويحكم عليها بحسب قربها أو بعدها من جهاد النبي ﷺ، وقد جاهد ﷺ من حين أن بعثه الله إلى أن توفاه في سبيل إقامة دين الله، ولكن أصبح القتال في سبيل الله هو المتبادر عند الإطلاق، لمكانته بين بقية أنواع الجهاد، لذلك كانت الهجمة على هذا النوع أشد من غيرها - وإن كان كل مايؤدي إلى إقامة دين الله يحاربه أعداء الله -،

لأجل ذلك سيكون التركيز عليه أكثر، مع عدم إغفال غيره ضرورة تلازم أنواع الجهاد وتكميلها لبعض.

**في ضوء الكتاب والسنة**: أي أن الاعتماد الأساسي عليهما ـ إذ هما مصدر التشريع.

والتلازم بين العدل والرحمة والجهاد تلازم قوي، فالقرآن هو الرحمة التي أنزلها الله لخلقه، كما سماه بذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾(٢). والغرض من إنزال هذه الرحمة إنما هو لإقرار العدل بين الناس، والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾(٣). فمن لم يرضخ للعدل ويدين له ـ حتى وإن بقي على دينه ـ فقد شرعت مجاهدته بالسيف، وقد جمع الله بين إقامة العدل، وذكر الحديد الذي يُنصر به الحق في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾(٤).

والناس يختلفون في تفاصيل العدل والرحمة، وإن كانوا قد فُطِرُوا على المعرفة بهما في الجملة، لذلك لا بد ميزان يوزن به تحقق العدل والرحمة من عدمها، وهو عند أهل الحق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لثبوت العصمة لهما من الزلل. فكل ماكان محقًّا للحق مزهقًا للباطل فهو موافق للعدل والرحمة، وماخالف ذلك فليس من العدل ولا من

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.
(٢) سورة الجاثية، آية: ٢٠.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٣.
(٤) سورة الحديد، آية: ٢٥.

الرحمة، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[1]. وهذايدل على أن الله أراد لتمام عدله ورحمته أن يزول الباطل كله. وكل ماتفرع عنه، أو كان فيه شائبة من باطل، فإن له من البطلان والإزالة، بحسب ذلك الباطل وأثره على ظهور الحق، وأن يظهر الحق كله وبجميع تفاصيله؛ لتحصل الهداية التامة للناس، وأن يميز بينهما ويفرق ليتضح الهدىٰ من الضلالة، والرشد من الغي.

**أغراض البحث:**

آمل أن يحقق هذا البحث الأغراض التالية:

١ـ بيان الصورة الحقيقية لجهاد النبي ﷺ، وتكوين التصور الصحيح اللائق به، وإثبات أنه مشتمل على العدل والرحمة، موافقًا في ذلك بقية شرائع الإسلام، وذلك للحيلولة دون تأثير الافتراءات والشبه المضللة، أو تسرب المفاهيم المنهزمة.

٢ـ الرد ضمنيًا على تلك الطوائف التي تقتل الأبرياء، والأطفال، والنساء. وتتسبب في تشويه صورة الإسلام المشرقة، وتعكس صورة خاطئة عن الجهاد في سبيل الله، فأتاحت بهذه الأفعال الإجرامية فرصة ثمينة لأولئك الأعداء المتربصين، ليجدوا المادة التي بها يدللون على مفترياتهم ـ عندما عجزوا عن وجودها في جهاد المصطفى ﷺ ـ، فشرعوا يؤكدون لمن أضلوهم: أن الذي تفعله هذه الطوائف من قتل الأطفال، والنساء، وسفك الدماء بغير حق هو حقيقة الجهاد الذي أمرهم به محمد ﷺ.

٣ـ بيان أن العلاقة بين الإسلام والجهاد كالعلاقة بين الإسلام وإقامة الإسلام سواء، لأن إقامة الإسلام مساوية للجهاد. إذ هو الوسيلة

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٧ـ٨.

الوحيدة لنشره، وإيصاله إلى الناس، وهو بهذا ليس شريعة كبقية شرائع الإسلام إذا قصَّر فيها بقيت بقية الشرائع، بل هو الشريعة التي إذا فقدت أُعتديَ على الإسلام، وحُرِمَ من لم يعرفه من الاهتداء بنوره. والإسلام يكون نظريًّا ونصوصًا مجردة حتى يقوم المؤمنون بتطبيقه في واقعهم، ويخرجون به إلى الناس لإنقاذهم، وهذا التحرك به والمسير والعناء والصبر هو حقيقة الجهاد.

٤ـ الرد على من زعم أن الإسلام انتشر بإكراه الناس للدخول فيه بحد السيف، ومن زعم أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، بل بالدعوة فقط، فكلا القولين مجانب للصواب، وخطورة القول الثاني أشد من خطورة القول الأول، لأن النفوس إليه أميل، والقائلين به أكثر، والوضع الانهزامي للمسلمين يضغط على الناس بقبوله والترويج له. ومؤدى القولين معًا إبطال فريضة الجهاد في سبيل الله كما سيأتي. وغالب من أخطأ في فهم حقيقة الجهاد، إنما كان خطأه ناتج عن تبنيه لأحد القولين.

٥ـ إبراز الجانب العملي من جهاده ﷺ، إلى جانب المنهج النظري؛ ليُقتفى أثره. مع بيان أهمية إقامة هذه الفريضة العظيمة في تحصيل عزة المسلمين، وتمكينهم في الأرض، وتحملهم للواجب الذي جعلوا خير أمة أخرجت للناس لقيامهم به. فإن فرطوا فيه وتركوا ما أُمروا به؛ حَرموا البشرية الضالة من أعظم خير أنزله الله تعالى لعباده، فكانوا مستحقين لسخط الله وعقابه.

٦ـ إن كثيرًا من المسلمين يرددون آيات الجهاد في سبيل الله، ولو قرأوها ليهتدوا بما تضمنته؛ لأغنتهم عما سواها. ولكن يقرأونها وهم إلى التبرك بها ولاكتساب الأجر الحاصل بترديدها أقرب منهم إلى التطبيق والامتثال، بل لا يرى بعضهم فيها إلاَّ التبرك فحسب. وهذا مخالف للغرض الذي أُنزلت من أجله، المتمثل في إحالتها إلى واقع

ملموس، وجعلها نورًا يضيء مسيرة أهل الحق في مقاومتهم للباطل. وقد أمر الله أن يقرن القول بالعمل، أما القول المجرد عن العمل فقد ذمه الله وعابه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤ ﴾(١)

لأجل ذلك أُريد لهذا البحث أن يبرز آيات الجهاد في صورة تختلف عمَّا ألفه الناس وفهموه في العصور المتأخرة فهمًا خاطئًا عن حقيقة الجهاد، وأن يعاد بها إلى الفهم الذي فهمه الصحابة والأجيال الراشدة بعدهم.

**منهج البحث:**

١ـ حصر الألفاظ التي لها علاقة بالموضوع من قريب أو من بعيد على منهج التفسير الموضوعي، مثل: العدل، الرحمة، الجهاد، القتال، سبيل الله، القوة، الغلبة، الحرب، الظهور، التمكين، الفتح، الغنيمة، الإعداد، النصر، الإحسان، القسط، الحكم، الحق.

وما يقابلها مثل: الهزيمة، والفشل، والضعف، والذلة، والظلم، والجور، والاعتداء، والبغي، والقتل، والباطل ونحوها.

٢ـ جمع الآيات المدلول عليها بالألفاظ السابقة، وفرز ماكان منها في الموضوع عن غيره. والاستعانة على ذلك بمعاجم الألفاظ القرآنية، ومعاجم موضوعات القرآن، ومنها:

أ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي.

ب ـ المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، لمحمد بسَّام رشدي.

ج ـ تبويب آي القرآن من الناحية الموضوعية، لأحمد إبراهيم مهنا.

د ـ الجامع لمواضيع آيات القرآن، لمحمد فارس بركات.




(١) سورة الصف، الآيات: ٢ـ٤.

هـ ـ تفصيل آيات القرآن، لجول لابوم.
و ـ المفردات، للراغب الأصفهاني.

٣ـ تصنيف الآيات من حيث المكي والمدني، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن.

٤ ـ دراسة الآيات ذات العلاقة بالعدل والرحمة، علاقة مباشرة من خلال التفسير التحليلي؛ للوقوف على أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وشرح المبهم، وتفسير الغامض.

٥ـ دراسة سيرة النبي ﷺ دراسة متأنية، من كتب السيرة، ثم من خلال القرآن الكريم، مع محاولة الاقتراب من البيئة التي نزل فيها القرآن، ومعرفة أحوال الناس وطبائعهم، وأوجه الضلال التي وقعوا فيها وجاء القرآن لمعالجتها.

٦ـ ربط آيات الجهاد بالصراع بين الحق والباطل، وأولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والنظر إلى جهاده ﷺ على أنه حلقة من سلسلة جهود الأنبياء قبله، وإن بيان العدل والرحمة فيه يتوقف على معرفة الهدف الذي من أجله بُعث؛ ألاَ وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وانقاذهم مما هم فيه من ضلال، وذلك يقتضي العمل عل إحقاق الحق، وإبطال الباطل الذي هو في الحقيقة هدف الجهاد في سبيل الله، لذلك جعل هذا الأمر هو المحور الذي تدور في فلكه جميع آيات الجهاد التي ستدرس، إذ هو المحور الذي أبرزه القرآن، وركزّ عليه وكرر ذكره.

٧ـ إتباع القرآن في التركيز على الجانب العقدي، وأنه هو المحرك الفعلي للجهاد، وكذا اتباع المنهج القرآني ـ حسب الاستطاعة ـ في حديثه عن الجهاد وعرضه للغزوات.

٨ـ أوردت من الأحاديث الصحيحة ماله علاقة بفهم النص القرآني، مقدمًا ماكان في الصحيحين أو أحدهما. وقد يكون فيهما فاكتفي

بعزوه إلى أحدهما ـ إذ المقصود هو صحة الحديث ـ، فإن لم يكن فيهما أو في أحدهما وكان في غيرهما من الكتب الستة ومسند أحمد عزوت إليها ـ مستقصيًا ما أمكن ـ ودرسته دراسة حديثية مختصرة بناءً على قواعد هذا الفن.

٩ـ إذا وجدت النص في كتب المغازي والسير بحثت عنه ـ أو عن أصله ـ في الكتب الستة ومسند أحمد ليتسنى الوقوف على صحته أو ضعفه. فإن لم أجده عزوت إلى تلك المصادر، ولزمت السكوت مع حرصي أن لا يكون هذا النص معتمدًا عليه في تقرير مسألة إثباتًا أو نفيًا.

١٠ـ حاولت المقارنة أحيانًا بين واقع جهاد النبي ﷺ، وواقعنا المعاصر لتحصل الفائدة، ويعلم الخطأ، ويكون بيانه مقدمةً لتصحيحه.

١١ـ عرضت جهاد النبي ﷺ من خلال الآيات القرآنية، وما يستتبع لفهمها من صحيح السنة وأقوال المفسرين، وجعلت أتتبع دلالاتها وأجريها غالبًا على ظواهرها. مع الحرص على الابتعاد عن كتابات بعض المتأخرين ـ مع الاطلاع عليها ـ الذي ينظر أحدهم بعين إلى نصوص الوحي، وبالأخرى إلى الهجمة الاستشراقية على الجهاد، في الوقت الذي يشعر فيه بمرارة الهزيمة النفسية الناتجة عن الشعور بالتخلف، مع حتمية انتمائه إلى هذا الدين وأهله. فإذا كتب من هذه حاله حاول أن يوفق بين المنهج الجهادي الرباني، وبين الواقع المتردي المنهزم، فكانت كتابته يغلب عليها التبرير والاعتذار، ولَيّ أعناق النصوص بدل التمشي مع دلالاتها، لمحاولة الوصول إلى أن هذه الشريعة المباركة لا تخالف أهواءهم، ولا تتعارض مع مناهجهم. وهذا في الحقيقة تقريب بين منهجين لا التقاء بينهما، وخطأ شنيع في المنهج، فالإسلام وشرائعه لا تكتسب حسنها من موافقاتها لأهواء الناس المنحرفة، وإذا قربت تعاليم الإسلام حتى

توافق أهواءهم، فما الذي يدفعهم حينئذ لترك ماهم عليه واالانخراط في دين آخر يقاربه؟

١٢ـ اقتضت طبيعة البحث أن يسير على وفق الترتيب الزمني لجهاد النبي ﷺ، الذي لم يخرج في كل جزئياته عن العدل والرحمة بمفهومهما الشامل منطوقًا أو مفهومًا، مقدمًا الجهاد الدعوي والتربوي في العهد المكي على الجهاد القتالي الذي شُرع في العهد المدني. والذي لاتزال فيه الدعوة والتربية وإن اتخذت أساليب إضافية على ماكانتا عليه في العهد المكي.

وكلما أردت الكتابة في جزئية استحضرت النصوص المتعلقة بها، ومكانة هذه الجزئية في تحقيق هدف الجهاد في سبيل الله.

١٣ـ أردت أن يكون هذا البحث مشيرًا إلى الخطوط العريضة لأهميتها، والإقلال من التفاصيل والجزئيات البعيدة عن مضمونه. فالنظرة الكلية العامة أدلُّ على المقصود من سرد الجزئيات التي قد تستأثر بالفكر عن ملاحظة المراد.

١٤ـ عزوت الآيات القرانية، وترجمت للأعلام الذين لهم أقوال في الرسالة من غير الصحابة والمعاصرين الأحياء، وقد جعلت ترجمة الأعلام في ملحق اخر الرسالة لئلا تتضخم الحواشي.

وكذا جعلت ملحقا للتوسع في تخريج الأحاديث الواردة في غير الصحيحين أو أحدهما. وقللت الكلام عليها في صلب الرسالة مع الإشارة إلى رقمها في الملحق.

# خطة البحث

١ـ **المقدمة**: وتتضمن:

١ ـ سبب اختيار هذا البحث وأهميته.

٢ ـ أغراض البحث.

٣ ـ منهج البحث.

٤ ـ تفاصيل خطته.

٢ـ **التمهيد: دراسة معاني الألفاظ المتصلة بعنوان البحث.**

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العدل.

المبحث الثاني: الرحمة.

المبحث الثالث: الجهاد في سبيل الله.

٣ـ **الفصل الأول: الدوافع والجذور العقدية في جهاد النبي ﷺ وعلاقتها بالعدل والرحمة.**

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: العداوة الخالدة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

المبحث الثاني: ظلمات الجاهلية وانحرافاتها.

المبحث الثالث: البدء بالتوحيد وأثره في تصحيح الانحرافات.

المبحث الرابع: انقسام الناس ببعثته وسبب العدواة بينهم.

المبحث الخامس: التناقض بين الحق والباطل وأثره في تغذية النزاع.

المبحث السادس: العدوان على المؤمنين وأثره في تقوية موقفهم.

٤ـ **الفصل الثاني: العدل والرحمة في المنهج التشريعي لجهاده ﷺ.**

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: أهمية تشريع الجهاد.

المبحث الثاني: هدف الجهاد في سبيل الله وغايته.

المبحث الثالث: مكانة الجهاد ووسائل تشريعه.

المبحث الرابع: آداب الجهاد ومعاملاته وأحكامه.

**٥ ـ الفصل الثالث: نماذج من غزواته ﷺ وما فيها من العدل والرحمة منهجًا وتطبيقًا.**

وفيه تمهيد وستة مباحث:

المبحث الأول: غزو الأنبياء وقتالهم في سبيل الله.

المحبث الثاني: غزوة بدر في سورة الأنفال.

المبحث الثالث: غزوة أحد في سورة آل عمران.

المبحث الرابع: غزوة بني النضير في سورة الحشر.

المبحث الخامس: غزوة الأحزاب وقريظة في سورة الأحزاب.

المبحث السادس: صلح الحديبية في سورة الفتح.

**٦ ـ الخاتمة**

**٧ ـ ملحق تراجم الأعلام.**

**٨ ـ الفهارس:**

أولاً: فهرس الآيات القرآنية.

ثانيًا: فهرس الأحاديث والآثار.

ثالثًا: فهرس المصادر والمراجع.

رابعًا: فهرس الموضوعات.

هذا ولا يسعني إلاَّ شكر الله تعالى المنعم المتفضل الذي أعانني على إتمام هذا البحث، ثم شكر المشرف الفاضل الدكتور سليمان الصادق البيرة، الذي أمدني بآرائه، وتوجيهاته الي كان لها الأثر الكبير في تقويم هذا البحث. بل قدنفعني الله به منذأن كنت في السنة المنهجية، فجزاه الله عني خير الجزاء، وجعل صبره وتحمله على متابعة أطوار البحث ـ منذ أن كان فكرة حتى استتم ـ في ميزان حسناته يوم القيامة.

كما أشكر صاحبي الفضيلة المناقشين الكريمين سعادة الدكتور/

محمد سعيد بن محمد حسن بخاري، والأستاذ الدكتور أمين محمد عطية باشا على ما أمضيا من وقت وجهد في تقويم هذا البحث وتسديده.

كما أشكر كل من أعانني أو وجهني من قريب أو بعيد.

وفي ختام هذه المقدمة أعترف بأن هذه المحاولة هي أول الدرج في درب الأبحاث العلمية الجادة، ولذلك فإن ماتوصلت إليه من نتائج، وماقمت به من جهد إنما هي محاولة بشرية، ما فيها من صواب فذلك من فضل الله تعالى، وما فيها من خطأ فمني ومن الشيطان. وحسبي أني أردت الخير وحرصت على الوصول إليه. ولا غنى لي عن توجيه شيوخي وإخواني، ولهم من الله الأجر والمثوبة، ومني الشكر الدعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

# التمهيد

# دراسة معاني الألفاظ المتصلة بعنوان البحث

وفيه ثلاثة مباحث :

**المبحث الأول : العدل :**

١ـ العدل في اللغة .

٢ـ العدل في القرآن .

٣ـ مكانة العدل في الإسلام .

**المبحث الثاني : الرحمة :**

١ـ الرحمة في اللغة .

٢ـ الرحمة في القرآن .

٣ـ مكانة الرحمة في الإسلام .

**المبحث الثالث : جهاد النبي ﷺ في سبيل الله :**

١ـ الجهاد في اللغة .

٢ـ الجهاد في القرآن .

٣ـ المفهوم الصحيح لجهاد النبي ﷺ .

**بين يدي التعريفات:**

إن معرفة معاني الألفاظ يعدُّ مدخلاً أساسيًا لتضييق دائرة الخلاف، أو إزالته إذ ما تكاد تجد خلافًا في حكم إلاَّ ويسبقه الاختلاف في تصوره وفهمه على حقيقته. يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إن كثيرًا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملةٍ ومعانٍ مشتبهة حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سئل كل منهما عن معنى قاله لم يتصوره فضلا عن أن يعرف دليله»(١).

وعلى هذا فسنبدأ بتحديد المراد من الألفاظ التي اشتمل عليها عنوان البحث قبل البداية في تفصيلاته.

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٤).

# المبحث الأول
# العـــدل

**١ـ العدل في اللغة:**

قال ابن فارس: العين والدال واللام أصلان صحيحان لكنهما متقابلان كالمتضادين، أحدهما يدل على استواء والآخر يدل على اعوجاج.

**فالأول:**

العدل من الناس: المرضي المستوي الطريقة. يقال: هذا عدل، وهما عَدْل. قال زهير:

متى يشتجر قومًا يقل سرواتهم هم بيننا فهم رضًا وهم عَدْلُ

والعَدْل: الحكم بالاستواء، ويقال للشيء يساوي الشيء هو عِدْله. وعَدَلْت بفلانٍ فلانًا، وهو يعادله، والمشرك يعدِلُ بربه كأنه يسوي به غيره.

والعَدْل: قيمة الشيء وفداؤه. قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[(١)] أي: فدية. والعدل: نقيض الجور. تقول: عدل في رعيته، ويوم معتدل إذا تساوى حالا حره وبرده. ويقال: عَدَلته حتى اعتدل: أي أقمته حتى استقام واستوى، وكل ذلك من المعادلة وهي المساواة.

**أما الأصل الآخر:** فيقال في الاعوجاج عدل، وانعدل: أي انعرج. قال ذو الرمة:

وإني لأنحي الطرف من نحو غيرها حياء ولو طاوعته لم يعادِلِ[(٢)]

أي لم ينعدل[(٣)]. وعدلت عن الشيء إذا ملت

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٣.
(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٦).
(٣) أفاده عبدالسلام هارون محقق المقاييس.

عنه[١].

**٢ـ العدل في القرآن:**

قال ابن الجوزي: «ذكر بعض المفسرين: أن العدل في القرآن على خمسة أوجه:

**أحدها**: الفداء. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[٢].

**والثاني**: الانصاف. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[٤].

**والثالث**: القيمة ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[٥].

**والرابع**: الشرك. ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾[٦].

**والخامس**: التوحيد. ومنه قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[٧][٨].

وقال الراغب: «العَدْل والعِدْل يتقاربان لكن العَدل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[٩]، والعِدْل والعديل فيما يدرك بالحاسة كالموزونات والمعدودات والمكيلات»[١٠]. والعدل المراد به في جهاد النبي ﷺ أنه سار فيه بمقتضى الحق والإنصاف المنافي لأقل الظلم والجور.

---

(١) جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/ ٢٨١).

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٨.

(٣) سورة النساء، آية: ٣.

(٤) سورة النساء، آية: ١٢٩.

(٥) سورة المائدة، آية: ٩٥.

(٦) سورة الأنعام، آية: ١.

(٧) سورة النحل، آية: ٩٠.

(٨) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (١/ ٥٢).

(٩) سورة المائدة، آية: ٩٥.

(١٠) مفردات القرآن (٥٥٢).

### ٣ ـ مكانة العدل في الإسلام:

تجمع العقول على القول بأن العدل أمر محمود والظلم أمر مذموم، ويمكن للعقول أن تقدر بعض المصالح والمفاسد الظاهرة مع اختلافها في ذلك بحسب التجربة، وبما فطر النفوس عليه من معرفة الخير والشر في الجملة كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[(١)]، لكنها لا يمكنها أن تستقل بمعرفة تفاصيل العدل في كل قضية. يقول ابن تيمية: «من العدل ما هو ظاهر يعرفه كل أحد بعقله كوجوب تسليم الثمن على المشتري، وتحريم تطفيف المكيال والميزان، ووجوب الصدق والبيان، وتحريم الكذب والخيانة والغش، وأن جزاء القرض الوفاء والحمد. ومنه ماهو خفي جاءت به الشرائع أو شريعتنا ـ أهل الإسلام ـ فإن عامة مانهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات يعود إلى تحقيق العدل، والنهي عن الظلم دقه وجله»[(٢)].

لقد وصف المولى عزَّ وجلَّ نفسه بالعدل في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[(٣)]، ونفى عن نفسه الظلم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[(٥)]. وأوجب على العباد العدل في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[(٦)]، وحرم عليهم الظلم كما ورد في الحديث القدسي: «**ياعبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»[(٧)].

---

(١) سورية البلد، آية: ١٠.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٨٥).
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨.
(٤) سورة الكهف، آية: ٤٩.
(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨٢.
(٦) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٧) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٠) رقم (٢٩٦٩).

ولمّا لم يكن للعباد القدرة على معرفة تفاصيل العدل الذي أوجبه الله عليهم، ومعرفة تفاصيل الظلم الذي حرّمه الله عليهم، فقد اقتضت حكمته وعدله أن ينزل عليهم الكتب، ويبعث إليهم الرسل؛ ليدلوهم على تفاصيل ذلك، ماعرفوه واستقرَّ في نفوسهم قبل الرسالة، ومالم يعرفوه. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[(٢)]. وعلى هذا فالعدل ليس قاعدة من قواعد الحكم الإسلامي فحسب، وانما هو مثل أعلى من حقائق وقيم الإسلام الكبرى[(٣)]، وجميع ما يتعلق بالمنهج الإسلامي من عقائد، أو عبادات، أو معاملات، أو سلوك مبنية على هذا الأصل. يقول ابن القيم: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه»[(٤)]. وقد أمر به القرآن أمرًا خاصًا وعامًا، حتى مع الأعداء الذين يحملون لنا الشنئآن، ونحمله لهم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ

(١) سورة الحديد، آية: ٢٥.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٣.
(٣) المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان، محمد الصادق عفيفي (١٢٩-١٣٠).
(٤) الطرق الحكمية، لابن القيم (١٩).
(٥) سورة المائدة، آية: ٨.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾[١]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[٢].

وقد ألفَ الناس أن الخصومة إذا وقعت بين غني وفقير أن الغني هو الذي يَظْلِم الفقير استضعافًا له، واعتزازًا بقوته وغناه، فيميلون مع الفقير يرحمونه، وينصرونه على الغني استجابة لدواعي بشريتهم، فجاء القرآن بميزان مخالف لمألوف الناس، لا يميل مع الفقير لفقره، ولا يحابي غنيًا لغناه[٣] محذرًا من اتباع الهوى الذي ينحرف بالإنسان عن تحقيق العدل قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾[٤]. وقد أخرج ابن جرير بسنده عن السدي قال: «نزلت في النبي ﷺ اختصم إليه رجلان: غني وفقير، وكان ضلعه مع الفقير، يرى أن الفقير لايظلم الغني، فأبى الله إلاَّ أن يقوم بالقسط في الغني والفقير، فقال: ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ الآية»[٥].

ولما كان من الغرائز البشرية الميل إلى القرابة وأهل المودة بما قد يزاحم العدل الإلهي، فقد خصه الله بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾[٦]. وعلى هذا يكون قد حذر من تأثير الشنئآن مع الأعداء، والمودة مع الأصدقاء، ليلتزم العبد العدل في كل أحواله

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤٢.

(٢) سورة الشورى، آية: ١٥.

(٣) الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصادق عرجون (٢٨٢).

(٤) سورة النساء، آية: ١٣٥.

(٥) جامع البيان (٩/٣٠٣).

(٦) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[١]. والناس لفظ يعم المسلم والكافر، والعدو والصديق، والصغير والكبير، والغني والفقير. لقد جعل الله العدل حقًّا لكل إنسان، لا يغض من حقه فيه جنس أو لون، أو لغة، أو عقيدة، أو مذهب، أو فكره. فكل إنسان في نظر الإسلام مأخوذ بالعدل، وكل انسان له بموجب العدل حقوق وعليه واجبات[٢].

لقد شمل عدل الله تعالى الذي أنزله جميع مناحي الحياة، فالتوحيد الذي أمر الله به مبناه على العدل، فشهادة أن لاإله إلاّ الله «هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق... فهو سبحانه قائم بالعدل قولاً وفعلاً حيث شهد بها... وأعلم عباده وبين لهم تحقيقها، وصحتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به، وجعل الثواب والعقاب عليها، وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها، فالدين كله من حقوقها، والثواب كله عليها، والعقاب كله على تركها، وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالي في هذه الشهادة»[٣]. ومن أجل إقامة العدل أرسل الرسل لئلا يتظلم متظلم أن الرسالة لم تبلغه، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٤] «إذ لا يجدر بحكمته ولا يليق برحمته وقسطه أن يأخذ الناس بذنوبهم، ويعاقبهم بعدولهم عن الصراط السوي، وهم لا يعرفون السبيل التي ترشدهم إلى الخير، وتحذرهم المعاصي والآثام، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[٥]. »[٦]

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٢) الموسوعة في سماحة الإسلام (٢٧٠) بتصرف.

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٥-٤٥٦).

(٤) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٥) سورة الإسراء، آية: ١٥.

(٦) شهادة الحق، للمودودي (٩).

أما ذكر العدل في المسائل التفصيلية في هذه الشريعة المباركة، فلا يحصرها إلاَّ من أحاط بجميع تشريعات الإسلام، إذ كل جزئية مبناها على ذلك.

وقد قرر ابن تيمية في كلام طويل أن هذه الشريعة مبناها على العدل والإحسان المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾[(١)]، وأن جميع فروع الدين يدخل تحت هذه القاعدة ومثل لذلك بقوله: «فشريعة القرآن تجمع بين العدل والفضل كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فهذا عدلٌ واجبٌ. من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة. ثم قال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾[(٢)] فهذا فضل مستحب مندوب إليه. من فعله أثابه الله، ورفع درجته، ومن تركه لم يعاقبه. وقال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ فهذا عدل ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾[(٣)] فهذا فضل. وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[(٤)] فهذا فضل. وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(٥)] فهذا فضل. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[(٦)] فهذا فضل. وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٠.
(٣) سورة النساء، آية: ٩٢.
(٤) سورة المائدة، آية: ٤٥.
(٥) سورة البقرة، آية: ٢٣٧.
(٦) سورة النحل، آية: ١٢٦.

ٱللَّهِۚ﴾[١] فهذا فضل»[٢]. لأجل ذلك كان إقامة العدل بين الناس - في صدر الإسلام - مسلمهم وكافرهم هي البوابة الكبيرة التي دخل الناس من خلالها في دين الله أفواجًا، حينما رأوا أنهم أمام عدل الله وحكمه سواء. فإن كان الإسلام بمحاسنه المتعددة قد فتح القلوب بتلك السرعة المذهلة، فإن من أبرز خصائص الفتح الإسلامي إقامة العدل وإنصاف المظلوم بقطع النظر عن ديانة الظالم، أو لونه، أو مكانته الاجتماعية.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ٢٣١).

# المبحث الثاني
# الرحمة

**١ـ الرحمة في اللغة:**

قال ابن فارس: «الراء والحاء والميم أصل واحد، يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال في ذلك: رَحِمَه، يرْحَمُه، إذا راق له وتعطف عليه، والرُّحْم، والمرحمة والرحمة بمعنى.

والرَحِم: علاقة القرابة. ثم سميت رحم الأنثى رَحِمًا من هذا، لأن منها مايكون ما يُرحم ويُرَق له من الولد»(١).

قال الليث: يقال: ما أقرب رُحم فلان إذا كان ذا مرحمةٍ وبر. وأنشد:

أحنى وأرحمَ من أم بواحدها    رُحمًا وأشجع من ذي لبدة ضاري»(٢)

**٢ـ الرحمة في القرآن:**

يذكر أصحاب كتب الأشباه والنظائر أنها وردت على معاني مختلفة، ومنهم ابن الجوزي حيث قال: «الرحمة في القرآن على ستة عشر وجهًا:

**أحدها**: الجنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾(٣).

**الثاني**: الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾(٤).

**الثالث**: الإيمان، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/٣٩٨).
(٢) تهذيب اللغة (٥/٥٠).
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٧.
(٤) سورة الإنسان، آية: ٧٦.

وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾(١).

**الرابع**: النبوة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾(٣).

**الخامس**: القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾(٤).

**السادس**: المطر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾(٦).

**السابع**: الرزق، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾(٨).

**الثامن**: النعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾(٩).

**التاسع**: العافية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ﴾(١٠).

**العاشر**: النصر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾(١١).

---

(١) سورة هود، آية: ٢٨.
(٢) سورة الزخرف، آية: ٣٢.
(٣) سورة ص، آية: ٩.
(٤) سورة يونس، آية: ٥٨.
(٥) سورة الأعراف، آية: ٥٧.
(٦) سورة الروم، آية: ٥٠.
(٧) سورة الإسراء، آية: ١٠٠.
(٨) سورة الكهف، آية: ١٠.
(٩) سورة النساء، آية: ١١٣.
(١٠) سورة الزمر، آية: ٣٨.
(١١) سورة الأحزاب، آية: ١٧.

**الحادي عشر**: المنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾(١).

**الثاني عشر**: الرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾(٢).

**الثالث عشر**: المغفرة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(٣).

**الرابع عشر**: السعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾(٤).

**الخامس عشر**: المودة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(٥).

**السادس عشر**: العصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ﴾(٦)»(٧).

وهذه المعاني المذكورة لاتخلو من تكلف، فهل يسوغ أن نقول هذه الآية الرحمة فيها بمعنى الإسلام، وتلك الرحمة فيها بمعنى الإيمان؟ فيقال: أين دليل التفريق والإيمان إذا افترق عن الإسلام كان بمعناه. ثم إن المطر والرزق والنعمة يمكن أن يشملها معنى واحد. وكذا النبوة والقرآن.

---

(١) سورة القصص، آية: ٤٦.
(٢) سورة الحديد، آية: ٢٧.
(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٤.
(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٨.
(٥) سورة الفتح، آية: ٢٩.
(٦) سورة يوسف، آية: ٥٣.
(٧) نزهة الأعين النواظر (١/ ٢١٦ـ٢١٨).

وبتأمل تلك الآيات نجد أن الرحمة الواردة فيها لا تخرج عن معنيين:

١ـ أن يراد بها ذات الصفة وهي الرحمة، سواء وصف بها المولى عزَّ وجلَّ كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾. أو وصف بها العبد كما في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٢ـ أن يراد بها أثرها. فصفة الرحمة صفة ذاتية فعلية قائمة بالله تعالى، وتقوم بالمخلوق، ومن آثار قيامها بالله أنه يرحم بها عباده، وتتمثل رحمته بهم في هدايتهم للإسلام والإيمان الذي يؤول بهم إلى الجنة، ووسيلة ذلك القرآن والنبوة وهذا غذاء الروح. والرزق والمطر والعافية والنعمة وهذا غذاء الجسد. وبقية المعاني المذكورة لاتخرج عما ذكر.

ونخلص إلى أن الرحمة في القرآن لم ترد إلاَّ مرادًا بها ذات الرحمة أو أثرها. وكلاهما مقصود في جهاده ﷺ، فالذي شرعه هو الرحمن الرحيم ذو الرحمة الواسعة، وهذا التشريع هو من آثار رحمته بعباده إذ أمر نبيه ﷺ بمقاتلة كل من صدَّ عن سبيل الله، وحجب نور الله وهداه الذي أنزله رحمة للناس عن الناس.

**مكانة الرحمة في الإسلام:**

الرحمة من الأخلاق القرآنية العظيمة، كما أن للتخلق بها أثره البالغ في إقبال الناس على من يتخلق بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(١). وقد وصف الله بها نفسه الكريمة في مواضع كثيرة من كتابه، وهي صفة ذاتية فعلية. ذاتية باعتبار قيامها

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

بالذات الإلهية، وباعتبار أفرادها فعلية، لأنها متعلقة بالمشيئة، إذ كل صفة متعلقة بالمشيئة فهي فعلية(١). فمن أسمائه سبحانه الرحمن الرحيم «وأسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعاني قامت به، وكل اسم يناسب ماذكر معه واقترن به من فعله وأمره»(٢). «فالرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر. وأما الجمع بين الرحمن الرحيم: ففيه أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾(٣)، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾(٤)، ولم يجيء قط رحمن بهم، فعلم أن (رحمن) موصوف بالرحمة، و(رحيم) هوالراحم برحمته»(٥). وقد دلَّ على سعة رحمته وشمولها جميع مخلوقاته قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾(٦) قال الطبري: أي ورحمتي عمت خلقي كلهم(٧). وقوله على لسان ملائكته الكرام ـ وهم أعلم الخلق بربهم ـ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(٨)، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم(٩). وأمر نبيه ﷺ أن يخبر عن سعة رحمته فقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾(١٠). كما ذكر لزوم صفة الرحمة له، وأنها لاتزول عنه

---

(١) من تعليق الشيخ العثيمين على كتاب التوحيد من صحيح البخاري.
(٢) قاله ابن القيم كما في التنبيهات السنية (٨٠).
(٣) سورة الأحزاب، آية: ٤٣.
(٤) سورة التوبة، آية: ١١٧.
(٥) بدائع الفوائد (١/ ٢٤).
(٦) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.
(٧) جامع البيان (١٣/ ١٥٦).
(٨) سورة غافر، آية: ٧.
(٩) الكشَّاف (٤/ ١٤٨).
(١٠) سورة الأنعام، آية: ١٤٧.

أبدًا، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(١)، وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «إن الله لما قضى الخلق، كتب عنده فوق عرشه، رحمتي سبقت غضبي»(٢). وقال ﷺ: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»(٣). وكما هي عادة الرسول ﷺ في حُسن تعليمه أصحابه رضي الله عنهم، بضرب المثل بما يدرك بالحواس لما لا يدرك بها؛ لتحصيل معرفة الشيء على وجهه، ومن ذلك بيانه ﷺ لعظيم رحمة الله بعباده وتقريب معرفتها لهم بهذا المثال الوارد في الصحيحين من حديث عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ قال: «قَدِمَ على النبي ﷺ سبيٌ فإذا امرأة من السبي، قد تحلّب(٤) ثديها تسعى إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لاتطرحه. فقال رسول الله ﷺ: لله أرحم بعباده من هذه بولدها»(٥). قال ابن حجر: «فيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمةً ما حتى يُقصد لأجلها، فالله تعالى أرحم منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة»(٦).

ومن أجل مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن بعث لهم رسله تترى، وأنزل معهم الكتب لهدايتهم وإرشادهم، فسمى ما أنزله على موسى

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٤.
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب: قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله» (٦/ ٢٧٠٠) رقم (٢٩٨٦).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب: جعل الله الرحمة في مائة جزء (٥/ ٢٢٣٦) رقم (٥٦٥٤).
(٤) تحلّب: اجتمع حليب ثديها. النهاية (١/ ٤٢٣).
(٥) أخرجه البخاري في الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله.. (٥/ ٢٢٣٥) رقم (٥٦٥٣).
(٦) فتح الباري (١٠/ ٤٤٥).

ـ عليه السلام ـ رحمة. قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾(١)، وكذا سمى القرآن في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾(٢)، وذكر أن التمسك به مستجلب للرحمة، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾(٣).

ووصف رسوله محمد ﷺ بالرأفة والرحمة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾(٤). وقد تمثلت رحمته بالناس الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾(٥) في حرصه على هدايتهم، وإنقاذهم من الضلال، حتى كاد يهلك نفسه في سبيل ذلك، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾(٦). وقد ضرب ﷺ مثلاً في حرصه على هداية الناس فقال: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلّتون من يدي**»(٧). ومعلوم أن «الرحمة لاتنفك عن إرادة الإحسان، فهي مستلزمة للإحسان، أو إيرادته، استلزام الخاص للعام، فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام، فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته يستحيل وجودها»(٨). وقد أكد ﷺ ذلك بقوله: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة،**

---

(١) سورة هود، آية: ١٧.
(٢) سورة النحل، آية: ٨٩.
(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٥.
(٤) سورة التوبة، آية: ١٢٨.
(٥) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.
(٦) سورة الشعراء، آية: ٣.
(٧) أخرجه مسلم في الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته (٤/ ١٣٩٠) رقم (٢٢٨٥).
(٨) بدائع الفوائد (٣/ ٢٣).

إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليرحْ ذبيحته»[(١)] وهذا من آثار الرحمة حتى بالحيوانات، ثم هي لاتنافي القيام بأمر الله، وإقامة الحدود، واجتثاث الفساد، ومطاردة المبطلين، بل أن ذلك من الرحمة بالمجتمع، بحيث تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والتغاضي عن أهل الباطل رأفة بهم أمر قد نهى الله عنه في كتابه، قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾[(٢)]، فالرأفة إن لم تظهر في جلد الزاني إلاَّ أنها جلية في طهارة المجتمع من الفواحش، والمحافظة على الأعراض. وإن لم تظهر في قطع يد السارق، فإنها جلية في حق من سُرق ماله بمعاقبة السارق. وإن لم تظهر في قتل القاتل، إلاَّ أنها جلية في حقن دماء المجتمع من الثأرات والنعرات القبلية.

وأهل الكفر ينفون الرحمة عن فريضة الجهاد من هذه الزاوية، فيعرضون تشريع الإسلام للقتال بعيدًا عن أهدافه، ودوافعه، وما تجنيه البشرية من خير بسببه.

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح، باب: الأمر بإحسان الذبح (١٥٤٨/٣) رقم (١٩٥٥).
(٢) سورة النور، آية: ٢.

# المبحث الثالث
# الجهاد في سبيل الله

**١ ـ الجهاد في اللغة:**

الجهاد مصدر الفعل الرباعي جَاهَد. يقول ابن منظور: «جَاهَد العدو مجاهدة وجهادًا، أي: قاتله»[١]. ويضبط صاحب القاموس المصدر الثلاثي ومعناه فيقول: «الجَهْد: الطاقة، ويضم، والمشقة»[٢]، وذكر هذا الراغب وأضاف: «وقيل: الجَهْد ـ بالفتح ـ المشقة، والجُهْد: الوسع»[٣]. وقصره الحافظ على المشقة، فقال: «الجهاد بكسر الجيم أصله لغة المشقة. يقال: جَهَدت جهادًا: بلغت المشقة»[٤]. وقال ابن الأثير: الجهاد محاربة الكفار، وهو المبالغة، واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل»[٥]. وتدل صيغة «جاهد» على المشاركة والمغالبة بين طرفين، كل منهما يبذل جهده وطاقته في دفع صاحبه، قال الماوردي: «وأصل المجاهدة: المفاعلة من قولهم جهد كذا، إذا أكدَّه وشق عليه، فإن كان الفعل من اثنين كل واحد منهما يكابد من صاحبه شدة ومشقة، قيل: فلان يجاهد فلانًا»[٦].

وهنا ملاحظة وهي ورود «محاربة الكفار» و«مقاتلة العدو» ونحوها في التعريف بكلمة «جهاد»، فإن أريد التعريف اللغوي فحسب،

(١) لسان العرب (٤/ ١٠٧).
(٢) القاموس المحيط (٣٥١).
(٣) مفردات القرآن (٢٠٨).
(٤) فتح الباري (٦/ ٥).
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣١٩). وقد وردت معاني مقاربة لما ذكر يمكن مراجعتها في الصحاح (١/ ٤٥٧). ومعجم مقاييس اللغة (١/ ٤٨٦). والمغرب (٩٧). وأساس البلاغة (١/ ١٤٤) وغيرها.
(٦) النكت والعيون في تفسير القرآن (١/ ٢٨٥).

فيقال: هذه العبارات: الكفار والمحاربة والعدو لا تدلُ عليها كلمة «جاهد» مجردة. وتكون حينئذ مما استفادته اللغة العربية من القرآن والسنة. إذ أن كلمة «جهاد» لم تذكر في دواوينهم مرادًا بها القتال ـ فيما وقفتُ عليه ـ، ثم إن كلمة الكفار لها مدلولها الشرعي الذي لا تدل عليه أيضًا كلمة جاهد. وعلى هذا يقال: الجهاد في أصله اللغوي يدل على بذل الجهد والطاقة مطلقًا، أو بين طرفين. ثم جاء الإسلام وأقرَّ هذا المعنى، وجعله مقصورًا على إقامة دين الله والجهاد في سبيله. وهذا المعنى الشرعي موافق للمعنى اللغوي إلاَّ أنه أخصَّ منه، إذ هو كما قال ابن تيمية: «بذل الوسع في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق»(١)، لذلك لازمت «في سبيل الله» لفظ الجهاد والقتال الذي هو بمعناه في جميع مواردهما إلاَّ ماندر للدلالة على هذا القصد. وهذا يخرج كل جهدٍ وطاقة تبذل لغير إقامة دين الله وإعلاء كلمته من دائرة الجهاد الشرعي، وإن بقيت في نطاق الجهاد اللغوي.

**٢ـ الجهاد في القرآن:**

ورد «الجهاد» في القرآن على عدة معاني:

١ـ بذل الجهد مطلقًا ولو من غير المسلم، موافقًا في ذلك للمعنى اللغوي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾(٣)، والآباء المشركون لا يتصور منهم الجهاد بمعناه الشرعي. إلاَّ إنه في حق الإبن المؤمن من جهاد النفس العظيم الذي

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩١).
(٢) سورة العنكبوت، آية: ٨.
(٣) سورة لقمان، آية: ١٥.

يوفق فيه بين مصاحبته لوالديه الكافرين بالمعروف، وبين القيام بواجبات دينه.

٢ـ مجاهدة النفس على العمل ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾[١]، قال ابن عطية: هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته[٢]. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: «هي في الذين يعملون بما يعلمون»[٣].

٣ـ بذل الجهد في الدعوة إلى الله ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾[٤]، وهي سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفَّار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن. وكذلك جهاد المنافقين، إنما بتبليغ الحجة وإلاَّ فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٥][٦]

٤ـ بذل الجهد في الهجرة إلى دار الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾[٧]، على أن «جهادًا» مصدر في موضع الحال[٨]، والتقدير: حال كونكم خرجتم مجاهدين في سبيلي، وعلى هذا يكون نفس الخروج جهادًا. وممَّا يؤيد ذلك قوله

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية (١١/٤١٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/٢٤٢).
(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٥١ـ٥٢.
(٥) سورة التوبة، آية: ٧٣.
(٦) زاد المعاد (٣/٥).
(٧) سورة الممتحنة، آية: ١.
(٨) التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/١٢١٧).

تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾(١)، ومعنى «مراغمًا»: «هو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه، بأن يغلبه على مراده. فكأن كفَّار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أنوف قريش لحصوله على منعة منهم»(٢) وهذا فيه معنى المجاهدة. لذلك ساق ابن كثير في تفسير هذه الآية ما ورد عن النبي ﷺ: «**من خرج من بيته مجاهدًا في سبيل الله ـ ثم قال وأين المجاهدون في سبيل الله ـ فخرَّ عن دابته فمات، فقد وقع أجره على الله. أو لدغته دابة فمات، فقد وقع أجره على الله. أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله**»(٣) وهو مشابه لمدلول الآية. ثم إن هذه المراغمة مذكورة في سياق آيات الجهاد فقد سبقتها مباشرة: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾(٤) وعلى هذا تكون الهجرة نوعًا من الجهاد، وتركها يعد من القعود المنهي عنه إذا وجبت.

٥ـ بذل المال لإعلاء كلمة الله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾(٦)، وقدم المال على النفس في كل الآيات التي تحدثت عن الجهاد عدا قوله تعالى:

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٢٣).
(٣) مسند أحمد (٤/ ٣٦). وفيه: محمد بن عبدالله ابن عتيك لم يوثقه إلا ابن حبان. ينظر لسان الميزان (٥/ ٢١٨).
(٤) سورة النساء، آية: ٩٥.
(٥) سورة الحجرات، آية: ١٥.
(٦) سورة التوبة، آية: ٢٠.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(١) لما للمال من دور في تحقيق غاية الجهاد.

٦ـ مقاتلة الكفّار في سبيل الله، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾(٢)، «فالقاعدون» الواردة في الآية فسرت «المجاهدين» بأنهم الخارجون للقتال في سبيل الله، وكذا قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾(٣).

وهذا يدل على أن الجهاد يطلق في القرآن على ماهو أعم من القتال في سبيل الله. وإن كان هذا قد غلب على المسمى لأهميته بين تلك الأنواع جميعًا، حتى أصبح لا يُفهم عند الإطلاق المجرد من القرينة إلاّ هو.

### ٣ـ المفهوم الصحيح لجهاد النبي ﷺ:

إن جهاد النبي ﷺ لا تفهم حقيقته مالم ينظر إليه من خلال الهدف من بعثته، فقد بعثه الله لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام. وكان هذا الهدف شاقًا لمن تأمله، فإخراج الناس ـ كل الناس ـ من عقائدهم، وأخلاقهم الباطلة وعوائدهم ومحبوباتهم، ومما توارثه الآباء والأجداد وقتًا طويلاً حتى أشربته نفوسهم وألفته. وإبدالهم بذلك كله عقائد وأخلاقًا وعبادات وسلوكًا يحتاج جهودًا عظيمة، ودعوة دؤوبة، وصبرًا وعناءً ومقاومة وتحملاً.

لقد أنزل الله عليه القرآن وجعله هدى ونورًا لجميع الناس، قال

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.
(٢) سورة النساء، آية: ٩٥.
(٣) سورة التوبة، آية: ٨١.

تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(١)، فكان من لازم وصوله إلى كل الناس أن يدعى إليه الأفراد، ثم تكون من مجموعهم القاعدة الصلبة التي تتمثل دين الله في نفوسها خير تمثيل، وتسير به إلى الناس تدعوهم إليه بلسان حالها ومقالها، وتدفع عنه أثناء مسيرته للآخرين، وتزيل العقبات والحواجز من طريقه.

بدأ هذا النور ينتشر فانقسم الناس تجاهه إلى قسمين: منهم من آمن به، ومنهم من كفر. وقد اختلفت دوافع الكفرة، فمنهم من امتنع عن قبول الحق المنزل احترامًا للمورثات، أو تصديقًا للشائعات المضللة، أو خوفًا على فوات مصالح معينة، أو لكل أو بعض أو غير ماسبق.

ولقد تميز أتباع الحق عن أتباع الباطل: في المعتقد، والسلوك، والهدف. فكان ذلك مولدًا طبيعيًا لنواه المجتمع الإسلامي المضاد للمجتمع الجاهلي في كل شيء. فبدأ الصراع بين الحق والباطل. فالمبادىء التي يدعو إليها الدين الإسلامي تزلزل عروش أهل الباطل بما تحمله من معالم الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وأهداف سامية، متمثلة في إنقاذ البشرية كلها بتقديم الحلول العملية الواقعية لجميع مطالب البشر. والتدليل بأصح الحجج وأقوى البراهين على كون هذا الدين منزلاً من عند الله. وأن ما هم عليه هو الباطل المخالف للعقل والفطرة. فكان هذا مؤذنًا بزوال سلطة المتسلطين، وذهاب مصالح النفعيين التي لاتتحقق إلاَّ في ثبات الوضع المنحرف. وإبطال مناهجهم وموروثاتهم وعوائدهم، وماكانوا به يفتخرون. فوقفوا في وجه هذا الذي حسبوه خطرًا صفًا واحدًا، ورموا هذا الدين الجديد عن قوس واحد، واستخدموا للقضاء على الحق جميع الوسائل الممكنة، بدءًا من

(١) سورة سبأ، آية: ٢٨.

السخرية حتى القتل، والتي تزداد فعاليتها كلما ازداد خوفهم من تنامي قوة المسلمين وعددهم.

لقد وضع المولى عزَّ وجلَّ منهجًا حكيمًا لبلوغ هذا الدين إلى الناس كافة، يتمثل في غرسه في نفوس المؤمنين بإحكام، حتى إذا ما تحرك أحدهم بعد ذلك كانت تصرفاته، وأقواله، وأفعاله تفسيرًا مطابقًا لما يحمله من هدى، وكان تأثيره فيمن يدعوهم أتمًا. فأمر نبيه ﷺ بالبدء بالأفراد الأقربين ـ ضرورة التدرج الحكيم ـ ثم الذين يلونهم، يدعوهم إلى كلمة واحدة ذات مدلول شامل، وهي كلمة «لا إله إلاَّ الله» التي تعني إفراد الله تعالى بالعبادة، والخضوع والانقياد والتسليم له في كل شيء. وترك كل مايخالف هذه العبودية أو ينافيها. فتربى المؤمنون على مدلولها، وأصبحت لهم منهج حياة، لا يزاحمها غيرها من المناهج، أو الأعراف، أو العادات. فكانت قوة الإسلام الناشئة تزداد كمًا وكيفًا. فالمؤمنون تتزايد أعدادهم يومًا بعد يوم بفضل الدعوة المستمرة، وممارسة المؤمنين للدعوة ودفعها في أوساط المجتمع الجاهلي وصبرهم على الأذى في ذلك تربية قائمة بذاتها. ويزيد هذه التربية عمقًا في نفوسهم نصوص الوحي الموجهة للمسيرة والتي تتابع مراحلها وظروفها، وما يعترض في سبيلها بدقة متناهية. لقد كانت هذه المسيرة الآخذة في التمدد والانتشار تسير إلى هدف معلوم، ألاَ وهو إقامة دين الله في الأرض، والعمل على نشره، وكل ما يبذل في سبيل الوصول إلى هذا الهدف يعد من الجهاد في سبيل الله بمعناه العام. وكان من لازم الوصول إلى الهدف أن تكون لهم دولة يستظلون بظلالها، وتشرف على تطبيق تعاليم الدين، وتربية المؤمنين عليه. وتعمل في الوقت نفسه على جمع الجهود، وتوزيع المهام، ودفع المسيرة إلى الأمام، وإزالة ما يعترضها من عقبات كما وصفها الله بقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(١). فكان هذا التوسع والتمدد لهذه الدولة الذي لم توجد إلاَّ من أجله، يفرض عليها منازلة خصومها الذين يرون في هذا التمدد خطرًا يجب إزالته أو إيقافه ومحاصرته. وحالهم في هذا كحال المريض الذي يقاوم إرادة الطبيب المشفق على صحته وإزالة ما به من علل.

لقد كان خروج هذه الأمة المختارة الحاملة لدين الله تعالى عن طريق توسيع دولتهم القائمة على التوحيد شيئًا فشيئًا، لتبلغ حدودها كل أرض يسكنها بشر إذ أن هذا الخير المنزل لا يختص به أحد دون أحد، بل هو للجميع كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، وكان هذا الهدف الكبير يفرض على الدولة الإسلامية امتلاك القوة التي لم تعد إلاَّ لمقاتلة الذين يريدون إطفاء نور الله تعالى، أو يحولون بينه وبين الناس. ومن تأمل مقدار الجرم الذي يحصل بمنع الناس من أعظم خير أنزله الله لهداية خلقه، عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن مقاتلة أولئك المعتدين الصادين عن دين الله هو من صميم العدل والرحمة، وموافق لأحكام صحيحات العقول. ولمَّا كانت هداية البشر متوقفة على إقامة دين الله ونشره، وإقامته لاتكون إلاَّ على كواهل المؤمنين ـ كما قدَّر الله ـ فقد أمرهم الله بالجهاد في سبيله، ووعدهم على ذلك بالأجور العظيمة المناسبة لعظيم الهدف الذي يسعون إليه. فمن مات منهم وهو يسعى للوصول إلى ذلك الهدف فهو شهيد عند ربه، وقد عوضه عن حياته القصيرة التي قدمها لإعلاء كلمة الله بحياة خالدة، ونعيم مقيم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾(٢)، ومن بقي منهم وعده بالنصر والتمكين كما قال تعالى:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[١]. وهذه الأجور العظيمة التي خصَّ بها المولى عزَّ وجلَّ فريضة الجهاد بحيث لا تبلغها غيرها من بقية الفرائض، إنما ذلك ليقبل عليها المؤمنون، ويتنافسوا فيها، وتكون عونًا لهم على تحمل المشاق، ونشر دين الله في الآفاق، ثم إن تلك الأجور تناسب مكانة الجهاد من الإسلام، فلولا جهاد النبي ﷺ وصحابته الكرام ومن سار على نهجهم لم ينتشر الإسلام، ولم تقم حجة الله تعالى على خلقه، ولبقي الناس كما هم في الظلمات. وعلى هذا فالجهاد هو وسيلة الإسلام في إحقاق الحق وإبطال الباطل ـ وهذا عينه هو الهدف من البعثة ـ، وتركه يعرض دين الأمة للنقص، وهويتها للذوبان، وخيراتها للنهب، وأبناءها للقتل والتشريد وهتك الأعراض. ومن هنا يظهر الفرق بينه وبين بقية الفرائض والتكاليف الأخرى. ونظرًا لأهميته فقد كان محور حياة النبي ﷺ منذ أن بعث إلى توفاه الله تعالى، وهذا بمعناه العام، أما بمعناه الخاص ـ أي القتال ـ فقد شغل الحيز الأكبر من حياته في المدينة، وقدانتقل هذا الاهتمام به إلى الصحابة الكرام، إذ جعلوا حياتهم موقوفة عليه، نظرًا لفهمهم لحقيقته، فلم يكتفوا بغزوهم مع الرسول ﷺ بل واصلوا المسيرة، ووسعوا سلطان الدولة على خطوات الرسول ﷺ الذي بين لهم الطريق، وسار في أوله وأمرهم بمتابعة المسير، وكان استمرار الخير ونماؤه مرهونًا بتعلم وتأثر الجيل الثاني بالجيل الأول والآخذ عنهم الإسلام كما فهموه والمنهج الذي انتشر به. وغني عن التأكيد أن الذين دخلوا في الإسلام لم تتح لغالبهم التربية التي تلقاها الرعيل الأول. فكان تمسكهم بدين الله، ووضوح الهدف للأمة الإسلامية، ودورها بين الأمم، والغرض من تشريع الجهاد وفهم حقيقته كل ذلك قد اعتراه بعض الضعف والقصور

(١) سورة الحج، آية: ٤٠.

إذا قيس بما هو عليه في عهد الصحابة، ثم لم تزد مرور الأيام وتباعد الزمان هذا الضعف والقصور إلاَّ عمقًا.

لقد فرض على كثير من الأتقياء والصالحين اعتزال الشؤون العامة، ومُنعوا من تولي المناصب العليا، وقُدِّم إليها من هو أقلّ صلاحًا وتقوى، وغالبهم لايستحضر الهدف الأسمى لخير أُمة أخرجت للناس، ومنهم من لا يفهم حقيقة الجهاد التي تستلزم تمسك المجاهدين بتعاليم الإسلام غير منقوصة، ثم الدعوة إليها، ومقاتلة من منع دين الله أن يعلو على الدين كله، فوقعت بعض الأخطاء من القادة وبعضها من الأفراد، وضعفت الروح الدينية الحريصة على هداية الناس، وانعكس ذلك على قبول الناس لهذا الدين، وأصبحت سلوكيات المسلمين لاتؤثر على غيرهم بالقدر الذي كان على عهد الرسول ﷺ وخلفائه الكرام، فتأثرت حركة المد الإسلامي، وتناقص عدد الداخلين في دين الله، وتبع ذلك أن البلدان التي فتحت في هذه الفترة لم يستقر الإسلام ويرسخ في نفوس أبنائها. ولعل بعضهم قدرَّ أن هؤلاء الفاتحين إنما خرجوا للحصول على الغنائم ـ كما هو حال بعض الناس فعلاً ـ. فكان فقدان الهدف الأسمى، أو ضعفه المتمثل في هداية الناس هو العامل المؤثر على توقف حركة المد أو ضعفها، حتى قصرت رسالة الأمة والدولة على سد الثغور، وحراستها، والحفاظ على المكتسبات، ومدافعة أهل الباطل، وصد عدوانهم بدل غزوهم وفتح بلدانهم. فاستقرَّ هذا الوضع زمنًا طويلاً، وضعف أمر الجهاد في النفوس. فدال العدو المتربص على المسلمين، ومزَّق جسد دولتهم إلى أشلاء متناثرة متنافرة، مستذكرًا ما فعلته به أيام قوتها. ولم يكتف بذلك بل عمد إلى السلاح الذي لا يعيد الأمة إلى أمجادها إلاَّ هو ـ ألاَ وهو الجهاد ـ فشوهه وأوجد لنصوصه الكثيرة في القرآن والسنة تفسيرات تكفي للقضاء عليه، وإن بقيت تلك النصوص مقروءة مرغبة ومرهبة. ومن ذلك قولهم: «**إن الجهاد لم يشرع إلاَّ للدفاع**

فقط»، ولا تكمن خطورة هذا القول في ترديد الكفّار له، ولكن تكمن في تصديق المسلمين لهذا الزعم الباطل، وتسابق المتأخرين[١] من كتابهم إلى ترديده وتحسينه، جهلاً بخطورة ما يحمله من إبطال لشريعة الجهاد. مخالفين بذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فمن كتاب الله، قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ۝٢٩﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾[٤] وهذا كله من آخر مانزل على النبي ﷺ. ولم تخالف سنته وسيرته ما دلّ عليه القرآن الكريم، بل هي موافقة لها تمامًا. ومن ذلك قوله ﷺ: **«اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله»**[٥]. وقال ﷺ: **«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»**[٦]، وقال ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله»**[٧]. فقوله ﷺ: «اغزوا»

---

(١) أسهب في ذكر من قال بهذا القول الشيخ: علي العلياني، وذكر من ردَّ عليهم من أهل العلم مع بيان أسماء كتب الفريقين، وذكر أن أول ظهوره كان على أيدي أصحاب المدرسة العقلية الحديثة أمثال: جمال الأفغاني ومحمد عبده وتلامذتهم. وأثبت أنه خلاف إجماع سلف الأمة. ينظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية (٣١٨-٣٤٩).

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٩.

(٣) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٤) سورة التوبة، آية: ٥.

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: جواز الإغارة على الكفار. (٣/ ١٣٥٧) رقم (١٧٣١).

(٦) أخرجه أبوداود في الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو (٢/ ١٣) رقم (١٧٣١). وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٧٥) رقم (٢١٨٦): صحيح. انظر: ملحق (٢) ص(٤٢٦).

(٧) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: ﴿فإن تابوا..﴾ (١/ ١٧) رقم (٢٥)، ومسلم في =

و«جاهدوا» و«أمرت» كلها دالة على ابتداء الكفار. فإذا أمرنا بجهاد الطلب، فلأن نؤمر بجهاد الدفع من باب أولى. لكن المحظور أن نتنكب حقيقة جهاد النبي ﷺ ونحصره في جهاد الدفع، مع أن واقع حاله وحال أصحابه وحركة المد الجهادي التي أحدثوها كلها تدل على ابتداء الكفار. ولعل من حصر جهاده ﷺ في جهاد الدفع لا يستحضر الغرض من الجهاد المتمثل في إقامة دين الله في أرض الله، وإظهاره على الدين كله ودعوة الناس إليه. وإلاَّ فهل يعقل أن يقال: أن رسول الله ﷺ أقام دولته بالمدينة ثم شرع في الدفاع عنها من الإخطار المحيطة بها؟ فإنه حينئذ طَالبُ مُلْك، لاداعي هداية وحاشاه من ذلك. إن هذه الشبهة لا يردها أفضل من استحضار الهدف من رسالته ومن جهاده ﷺ. فإذا علم أنه جاء لإنقاذ الناس، فإن وسيلته في ذلك التي اختارها الله له، هي الجهاد في سبيل الله، الذي تسبقه الدعوة إلى دين الله، ولا يقتصر ذلك على قطر دون آخر، فالدين للناس كافة، وإبلاغهم جميعًا مما فرضه الله على الرسول ﷺ في حياته، وعلى أمته بعد مماته.

يقول أكرم العمري: «وقد أوضحت النصوص الإسلامية أن تشريع الجهاد ليس مؤقتًا بظرف طارىء، وإنما هو فرض ديني دائم، ففي الحديث: «**الجهاد باق إلى يوم القيامة**»(١)، و: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق**»(٢). وكان النداء بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله، والمساواة بين الناس، وتكريم الإنسان

---

= الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس (١/٥١) رقم (٢٠).

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد، باب: في الغزو مع أئمة الجور (٢/٢٢) رقم (٢٥٣٢) بلفظ: «الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجَّال». ينظر: الملحق (٢) ص(٤٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: ذم من مات ولم يغز (٣/١٥١٧) رقم (١٩١٠).

أيًا كان لونه أو جنسه يسبق قوات المسلمين حيثما توجهت، فيجتذب النداء بالمباديء السامية القلوب قبل أن تصدعها السيوف، وهذا هو السر في انتشار الإسلام وانتصار قواته. ويلاحظ من دراسة الرسائل المتبادلة بين الخلفاء وقادة الفتوح، ومن متابعة أخبار الفتح الأخرى مدى سيطرة العقيدة على الجند، وتحقيقها للانضباط الدقيق في صفوفهم، وأن المثل العليا والرغبة في هداية الناس كانت تمثل الروح المهيمنة علي القيادة ومعظم الجيش. ثم ذكر قول المنهزمين فقال: «وهناك تفسير آخر لحركة الفتح يتسم بالطابع التبريري، وهو أن حركة الفتح ذات صبغة دفاعية، وأنها استخدمت الهجوم للدفاع عن الدولة الإسلامية أمام خصومها الأقوياء، وهذا التفسير يسود معظم الكتابات التي حررتها أقلام المؤرخين العرب والمسلمين، فهم أمام المفاهيم السلمية التي سادت «إيدلوجيات»[1] القرن العشرين[2]، وكراهية الناس للحرب لآثارها السيئة في دمار الحضارات وإهلاك البشر وابتلائهم بالعاهات والتشرد، ولظهور المؤسسات الدولية المعنية بالتوفيق بين مصالح الدول المتعارضة والمساعدة في إقرار السلام الدولي، وإحلال التفاوض والحوار لحل المشاكل الدولية بدلاً من الحروب.

فروح العصر جعلت كثيرًا من الكتاب عن حركة الفتح ينحون منحىً تبريريًا يهدف إلى التوفيق بين روح العصر الحديث وفكرة الجهاد في الإسلام، ويرجع ذلك إلى عوامل نفسية وفكرية متداخلة، منها سيطرة مفاهيم الحضارة الغربية على الكثير من المتعلمين من المسلمين بسبب الغزو الفكري، وما ولّده ذلك من الإحساس بالضعف أمام الغرب، ومحاولة تبرير كل مايتعارض مع روح حضارته، وتصوراتها

---

(١) في لغتنا ما يغنينا عن هذه الألفاظ المستوردة كالأفكار والعقائد والمذاهب.

(٢) وكذا التعبير «بالقرن العشرين» فهذا التأريخ يخص الأمة النصرانية، ونحن لسنا تبعًا لهم في ذلك، وعليه فنحن في القرن الخامس عشر بموجب التأريخ الهجري للمسلمين.

الفكرية والسلوكية، ومنها عدم فهم حقيقة الجهاد وأهدافه. . . إن وصف حركة الفتح بأنها دفاعية، هو محاولة تبريرية لاتصمد لأي مناقشة جادة، فهل اعتدى سكان الأندلس أو ماوراء النهر على حدود المسلمين ليفتحوها؟ وهل تأمين الحدود يقتضي التوغل في القارات الثلاث آسيا وأوربا وأفريقيا حيث وقعت الأحداث الخطيرة، والمواقع الحاسمة بعيدًا عن جزيرة العرب؟»[(١)] .

وهناك أمرٌ آخر يعتري مفهوم الجهاد، ألا وهو استغلاله في غير ما شُرِع له، ولتوضيح ذلك يُقال: إن كثرة النصوص الواردة في الكتاب والسنة المتعلقة بالجهاد في سبيل الله إضافة إلى تأريخ الأمة الطويل مع هذه الفريضة، أوجد لدى الأمة الإسلامية رصيدًا كبيرًا من محبتها والاستجابة لمن دعا إليها، وقد استغلَّ هذا الشعور لدفع كثير من البسطاء ـ ممن يدفعه الحماس الديني والرغبة في الاستشهاد والحصول على ما وعد الله به المجاهدين من عظيم الأجر ـ لتحقيق أمور لا تخدم الغرض الذي من أجله شرع الجهاد، وهو إقامة دين الله ونصرته. فكان هؤلاء البسطاء يقتلون تحت رايات قومية أو مذهبية، أو وطنية، أو طائفية، ويحققون مكاسب سياسية وعسكرية تخدم قوى الضلال، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ويعدون أنفسهم مجاهدين، ومن قُتل منهم شهداء.

وفي هذا عدَّة محاذير، منها:

١ـ أن هذا تفريغ للفظ شرعي ـ وهو الجهاد ـ من محتواه ومضمونه وإبداله بمعنى آخر لا علاقة له به.

٢ـ أنه انحراف بهذه الشعيرة المباركة عن هدفها العظيم السامي التي اكتسبت رفعة مكانتها في الإسلام من أجله.

---

(١) المجتمع المدني في عهد النبوة (١٩ـ٢٣).

٣ـ أن فيه تشويه لصورة الجهاد مما يؤدي إلى تنفير الناس منه.
٤ـ كما أن فيه تغريرًا بالناس الذين ضَحُّوا في سبيل تلك الغايات وظنُّوا أنفسهم مجاهدين وموتاهم شهداء، وهم ليسوا كذلك.

فالمعنى الصحيح للجهاد هو ما فسَّره الرسول ﷺ فيما رواه أبوموسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أعربيًّا أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرجل يُقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[١] وقد وردت ألفاظ أخرى في حديث السائل أجملها الحافظ ابن حجر بقوله: «الحاصل من رواياتهم أن القتال يقع بسبب خمسة أشياء: طلب المغنم، وإظهار الشجاعة، والرياء، والحمية والغضب، وكلٌّ منها يتناوله المدح والذم»[٢].

ثم قال: «وفي إجابة النبي ﷺ بما ذكر غاية البلاغة والإيجاز وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله، لاحتمل أن يكون ماعدا ذلك كله في سبيل الله، وليس كذلك، فعدل إلى لفظ جامع عدل به عن الجواب عن ماهية القتال إلى حال المقاتل فتضمن الجواب وزيادة»[٣].

يقول محمد الشباني ـ محذرًا من استغلال فريضة الجهاد وتوظيفها في غير ما شُرعت لأجله ـ: «إن على المسلمين أفرادًا وجماعات أن يكونوا على حذر من الدعوات التي تُطلق باسم الجهاد، فلا ينخدع المسلم بكل من رفع راية الجهاد، وزعم أن رايته راية إسلامية، وعليه أن يتحقق من صحة دعوى الجهاد التي يطلقها الزعماء والقادة وأتباعهم، ممن يزعم العلم والصلاح، وذلك بعدة أمور:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٣/ ١٠٣٤ رقم ٢٦٥٥).
(٢) فتح الباري (٦/ ٣٤).
(٣) فتح الباري (٦/ ٣٥).

١ـ النظر إلى المنهج الفكري للداعي للجهاد وهل هو منهج إسلامي أم غير إسلامي، وهل من يدعو إلى الإسلام يمارس الإسلام قولاً وسلوكًا وتنظيمًا ونظامًا، أم إن الدعوة جاءت لجذب الأنصار وللتضليل مع أن منهج الداعي في منظمته أو دولته يتعارض مع الإسلام ومبادئه؟ لهذا ينبغي النظر بدقة إلى واقع الداعي، ومدى التزامه بالإسلام فعليًا من عدمه.

٢ـ دراسة وتمحيص التأريخ الشخصي للقادة الذين ينادون بالجهاد، ومنظري ذلك من أتباع القادة من المفكرين الذين يؤطّرون لهؤلاء القادة من خلال دراسة مدى سلامة عقيدتهم وسلوكهم قبل وصولهم إلى مراكز القيادة.

وهل كانوا ذوي ارتباطات سابقة مع أعداء الله. . .؟ وعلى ضوء هذا يتم تحديد صدق دعوة ذلك الزعيم من عدمها؛ فإذا كان القائد الداعي إلى الجهاد معروفًا بعدائه السابق للإسلام وتشريعاته أو كان حربًا على التوجهات الإسلامية، فلا يمكن الركون إليه ولا إعانته، حتى لو أظهر للناس ـ عند الحاجة ـ مظاهر الإسلام لخداعهم.

٣ـ معرفة أهداف القتال ومراميه، الذي من أجله طلب من الناس القيام بواجب الجهاد، وهل هذا القتال من أجل محاربة الكفار وصد عدوانهم على مجتمع يعيش فيه المسلمون أو محاربة وجودهم في أرض الإسلام؟ ففي هذه الحال ينبغي تلبية الداعي، ولو كان فاسقًا في نفسه، ومنحرفًا في سلوكه.

وكذا إن كان الغرض من القتال هو العمل على إقامة حكم يلتزم بشرع الله، وذلك بتحكيم الإسلام في كل أمور الحياة، وينبغي حينئذ أن يكون ذلك سياسة معلنة لا غموض ولا لبس فيها. . .

فإذا تأكد المسلم من توافر هذه الشروط والأحوال فيمن يدعو لجهاد أعداء الله من الكفار، وأصبح للداعي تميز مكاني، وأصبح

للجماعة المنادية للجهاد أرض تمارس فيها حكم الله، ومن موضعها يتم الانطلاق للجهاد، فعندئذ يصبح الجهاد فرضًا على كل قادر، بل إن الهجرة لهذا المكان واجبة على القادرين لمناصرة المسلمين، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ حينما هاجر إلى المدينة، وأصبح للمسلمين دار إسلام، ودار منعة، وأصبح للأمة قائد يتولى أمرها»[١].

إن الناس إذا فهموا حقيقة الجهاد، والغرض من تشريعه، وانقادوا فقط لمن دعاهم للجهاد الصحيح، حفظت حينئذ طاقات الأمة، وفجرت فقط في السبيل الذي أراده الله وسار عليه رسول الله ﷺ وصحابته ومن سار على منهجهم، وكان لهم من الله العون والتأييد وتحقق من خلالهم وعد الله في إظهار دينه على الدين كله، ونصرة عباده المؤمنين.

---

(١) تأملات في فقه الجهاد، مقال في مجلة البيان العدد (١٠٧) ص(٣٧،٣٨) بتصرف يسير.

# الفصل الأول
# الدوافع والجذور العقدية
# لجهاد النبي ﷺ وعلاقتها بالعدل والرحمة

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : العداوة الخالدة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

المبحث الثاني: ظلمات الجاهلية وانحرافاتها.

المبحث الثالث: البدء بالتوحيد وأثره في تصحيح الانحرافات.

المبحث الرابع: انقسام الناس ببعثته وسبب العداوة بينهم.

المبحث الخامس : التناقض بين الحق والباطل وأثره في تغذية النزاع.

المبحث السادس : العدوان على المؤمنين وأثره في تقوية موقفهم

# المبحث الأول
# العداوة الخالدة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

**بداية العداوة:**

إن الصراع بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمرٌ قديمٌ، نشأ منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر.

وقد ذكر الله هذه القصة في سبع سور من القرآن وهي: سورة البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

وأتم سياق ورد لهذه القصة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١١-٢٤.

وقصة آدم ـ عليه السلام ـ مع إبليس مَعْلَمٌ بارزٌ من معالم عدل الله تعالى ورحمته بعباده، فمن رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ أنه عرَّف آدم وذريته على عدوهم الذي ابتلوا به في الحياة الدنيا، ليتجنبوا الوقوع في حبائله إذ هو عدوهم الذي يسعى إلى إضلالهم وصدهم عن المقصد الذي من أجله خلقوا، فيفوتهم خير الدنيا والآخرة، بل ويقعوا في الشقاء في الدنيا والآخرة، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1]»[2].

وكونها من عدله؛ لأن فيها إقامة الحجة على الناس حتى لا يعتذروا بعدم العلم، وليتحمل كل منهم مسؤولية نفسه، بعد أن كشف الله تعالى له عدوه، فمن ضل بعد ذلك البيان فإنما يضل على نفسه.

لقد أكثر القرآن من ذكر عداوة إبليس فقد ورد بلفظ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مفردًا سبعين مرة، وبلفظ الجمع ﴿شَيَٰطِينَ﴾ ثمان عشرة مرة، وغالب ذكره في السور المكية، وهي التي ركزت على جانب الإيمان والأخلاق، ولتكون التربية على عداوته أصيلة تأصل هذا الدين في النفس.

**وسيلة أغواء الشيطان:**

وبتأمل القصة نجدأن آدم ـ عليه السلام ـ أتي من جهتين، وهما:

**١ـ الشهوة:** ممثلة في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ[3] وَمُلْكٍ

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٠)، والضوء المنير (١/ ٢٠٤) بتصرف يسير.

(٣) وقد اختلف المفسرون في تسمية هذه الشجرة، والذي يظهر أنه لا يترتب على العلم بها فائدة معينة وإلاَّ لأخبرنا الله تعالى بها فيكفينا أن نقول: «شجرة معينة معلومة لآدم وزوجه» والذي يهمنا منها هو أهمية التقيد بأمر الله ونهيه وأثر مخالفته وكفى، ثم إن البحث في الإسرائيليات لتحديد نوع تلك الشجرة يخرج القرآن عن منهجه في التركيز على المهم وعدم الانشغال بأمور لا طائل تحتها، ويقال ذلك في جميع الإسرائيليات بلا استثناء؛ لأن الله تعالى قد أكمل الدين بدونها وأغنانا عنها.

﴿لَا يَبۡلَىٰ ۝١٢٠﴾(١)، فقد تضمنت الآية حب الخلود وحب التملك.

٢ـ **الغفلة**: ممثلة في نسيانه للعهد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ۝١١٥﴾(٢).

وهما داء ذريته ووسيلتا الشيطان لإضلال بني آدم.

ولقد توعد اللعين ذرية آدم ـ عليه السلام ـ بما ذكر الله عنه في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾(٣).

وفي أخرى أضاف إلى الإغواء التزيين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾(٤).

وفي الآية التي سبق ذكرها في سورة الأعراف فصَّل إتيان البشرية. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾: أُشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾: أشهي لهم المعاصي، ولم يقل من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم(٥).

هذه نواياه قد كشفها الله تعالى ولقد توقع ضعف ذرية آدم، وأن أكثرهم سيتبعونه، وينسون العهد، فصدق في ظنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٠﴾(٦).

وهؤلاء المؤمنون هم الأقلون الموصوفون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢﴾(٧) ووصفهم بالإيمان والتوكل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٤) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٢٠٥).
(٦) سورة سبأ، الآية: ٢٠.
(٧) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[١] فبيَّن أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين، ولهذا قال في قصة يوسف ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٢]»[٣].

**التحذير من الشيطان:**

ولقد كثرت تحذيرات القرآن من غواية الشيطان، وأبرزت عداوته وأكَّدت في أساليب متنوعة.

فتارة ينهى عن اتباع خطواته، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾[٤].

وتارة يُشير إلى عاقبة اتباعه مقرونًا بالتأكيد على عداوته، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[٥].

وتارة يذكر بماضيه مع أبوي الذرية، ليستجيش حميتهم، فيأنفوا من اتباعه كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[٦].

وتارة يذكر عداوته لجنس الناس فيشمل من اتبعه ومن عصاه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾[٧].

وتارة يعرض بعض تفاصيل إضلاله ويعقب عليها ويفندها كما في

---

(١) سورة النحل، الآيات: ٩٩-١٠٠.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) التحفة العراقية لابن تيمية (٦٦).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.
(٥) سورة فاطر، الآية: ٦٠.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٧) سورة يوسف، الآية: ٥.

قوله تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ(١) ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٢).

وتارة يذكر مشهدًا من مشاهد يوم القيامة حين يوبخ أولياء الشيطان على اتباعه كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾(٣).

ومشهدًا آخر، حين يتبرأ من أتباعه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(٤).

وقددلَّت كثرة النصوص الورادة في هذاالصدد على أهميتها، وأنها هي القضية التي ستفترق فيها البشرية إلى فريقين: فريق هدىً، وفريق ضلالة. «ووقعت بين الفريقين العداوة، الفريق الذي أجاب دعوة الرسل، فهؤلاء أولياء الرحمن، وأما الفريق الذي أعرض واستكبر فهم أولياء الشيطان.

**علاقة قصة آدم ـ عليه السلام ـ وإبليس بالجهاد:**

إن العداوة التي وقعت بين آدم ـ عليه السلام ـ وبين إبليس هي عداوة قائمة بين إبليس وبني آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتأريخ البشرية كله ما هو إلاَّ مصداق لحقيقة انقسام الناس إلى فريق

---

(١) البتك: قطع خاص يقارب البت. «مفردات ألفاظ القرآن: ١٠٦»، وعمدة الحفاظ (١/ ١٥٦)

(٢) سورة النساء، الآيات: ١١٨ـ١٢٠.

(٣) سورة يس، الآيات: ٥٩ـ٦١.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

الهدى والرشاد، وفريق الهوى والشيطان، ولذلك فإنه لا التقاء بين الفريقين في الدنيا ولا في الآخرة»(١).

وليس الحديث عن تفاصيل تلك العداوة بل المقصود هو اتباع المنهج القرآني في غرسها في الضمير، واستحضارها أثناء الحديث عن الجهاد في سبيل الله تعالى، فهي ركيزة أساسية في فهم الصراع بين الحق والباطل، ومعناهما، وفي تفسير الآيات المتعلقة بالهدى والضلال، والخير والشر، والإيمان والكفر، وفي معرفة سبب ضلال الأمم وانحرافها، وفي فضل الأنبياء على البشرية، وأهدافهم السامية.

كما أنها ذات أهمية خاصة في فهم نصوص الجهاد في سبيل الله إذ هي بمثابة الجذور لكل معركة بين المؤمنين والكافرين، وفي تمييز الفريقين وصفات كل منهما، كما أنها متضمنة عدالة الرسل وأتباعهم في جهادهم لإقامة دين الله تعالى ونشر هداه ومبينة ظلم أهل الباطل وعدواتهم في الصد عن سبيل الله.

أما علاقتها بجهاد النبي محمد ﷺ خاصة فإن عدالة المعركة بينه ﷺ وبين أهل الجاهلية فرعٌ عن عدالة الصراع بين أولياء الرحمن، وفي مقدمتهم آدم ـ عليه السلام ـ وبين أولياء الشيطان.

وهذا الربط بين حاضر الجهاد في سبيل الله وجذوره البعيدة هو منهج القرآن في عرضه لنصوص الجهاد بحيث يربط حس المجاهد في معركته مع الباطل بأصوله القديمة، ويذكِّره بأنه من الفريق الذي ينتمي إلى الله، وأن خصمه من أتباع عدو الإنسانية الشيطان، وأنه يدافع عن الحق الذي يستمد عدالته من المولى سبحانه في حين أن خصمه مبتور الصلة بربه، قد استزلته الشياطين، وإلى ذلك أشار المولى عز وجل بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني (١١٦).

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾(١).

كما يذكر حضورة يوم بدر، وتزيينه للكفار كثرتهم، وخذلانهم في آخر المطاف ـ كما هي عادته مع مَن أغواهم ـ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤٨﴾(٢). وهذا هو السبب الذي جعلنا نقدم هذا المبحث في صدر الحديث عن جهاده ﷺ لتتبين عدالة القضية في مقاتلة أهل الباطل أتباع الشيطان؛ إذ جهاده ﷺ ما هو إلاَّ حلقة من سلسلة جهاد من سبقه من الأنبياء الذين جاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ونشر دينه، وقد بعثهم الله تعالى ليكونوا للإنسانية منارات هدى، وأعلامًا للفضيلة تضيء للبشرية طريق الخير وترشدهم إلى السعادة، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية، وتخرجهم من الظلمات إلى النور، فيتطهر المجتمع من أدران التحلل والفساد والفوضى والاضطراب، ويقوم بعبادة ربه تلك الغاية التي لم يُخلَقُوا إلاَّ لأجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾(٣)، كما أن من حكَم بعثة الرسل إقامة الحجة على الناس، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾(٤)، وفي الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين**»، وفي لفظ: «**من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه**»(٥)

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد، باب: قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله» (٦/٢٦٩٨) رقم (٦٩٨٠)، ومسلم في اللعان (٢/١١٣٦)، رقم (١٤٩٩).

قال ابن تيمية: «ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده، وأشرف منة عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالاً منها»[١].

**جهاد الرسل لأقوامهم:**

إن طبيعة دعوة كل نبي السير إلى الناس ومصابرتهم، والتلطف في دعوتهم ليلاً ونهارًا وسرًّا وجهارًا، في إطار منهج قد حدَّده الله تعالى ليس على النبي إلاَّ تطبيقه والسير على ضوئه.

فيفزع هذا المسير وهذا الاستمرار في الدعوة الملأ من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم، وأصحاب المصالح التي لا تتحقق إلاَّ في ظل الانحراف عن منهج الله تعالى، فيقاومون الدعوة النبوية الإصلاحية معنويًّا وماديًّا، وتتخذ هذه المقاومة أشكالاً مختلفة، ولكن يجمعها محاولة الصد عن هذه الدعوة وتشويه مقاصد القائمين عليها، واتهامهم بما يكفل عزوف الناس عنها، والزهد فيها.

ويلفت نظر المتأمل في جهاد الرسل ودعوتهم لأقوامهم، مقاومتهم للباطل بكل شجاعة ورباطة جأش، فلا تجدهم يحيدون عن المنهج الذي أمرهم الله تعالى بالسير على وفقه، ولا يتخاذلون أو يقصرون في تبليغ ما أُمروا بتبليغه ولا يساومون على الالتقاء مع أقوامهم بترك بعض ما أُمروا به، بل يسيرون في تبليغ رسالة ربهم، صابرين على ما يلاقونه من العناء ومشاق الطريق، ومجادلة الخصوم، إنه جهادٌ شاقٌّ ذاك الذي يقومون به في سبيل نصرة دين الله تعالى وإعلاء كلمته، وإقامة حجته على خلقه، يتعنت الأقوام في الطعن في مقاصدهم، وتكذيبهم في دعواهم الرسالة، ورد ما جاءوا به عن ربهم، ويعترضون سبيل دعوتهم بالصد عنها، وتشويهها، واتهام من يؤمن بها، وتعذيبهم

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠٠).

ومطاردتهم، فلا يزيد أولئك الرسل الكرام إلاَّ إصرارًا وصلابة ومضيًّا إلى حيث أمرهم الله، أملاً في قرب نصر الله تعالى الذي وعد به عباده المؤمنين.

ويقوي موقفهم وأتباعهم شعورُهم النابع من إيمانهم العظيم بأنهم على الحق، وأنهم يدعون إليه مريدين الخير للبشرية الضالة، وأن ما يقومون به مستمدًا من إرادة الله الذي بيده مقاليد السموات والأرض، فهو سبحانه الذي أمرهم بذلك ووعدهم بالنصر، كذلك من إيمانهم بأن خصومهم على الباطل، ومهما انتفخ وانتفش فإن مردَّه إلى الاضمحلال والزوال.

وشعورهم بأنهم محل عناية الله تعالى ورعايته، يهون عليهم وقع المصائب والابتلاء، لعلمهم أنه بإذن الله وتقديره، وهو سبحانه لا يُقدِّر لأوليائه إلاَّ خيرًا.

وتفسر تلك المحن بأنها لغرضٍ سامٍ وهو تكفير سيئاتهم، ورفع درجاتهم، وتعويدهم على الصبر ومقارعة الخصوم، حتى إذا مُكِّنَ لهم في الأرض قاموا بما أوجبه الله تعالى عليهم حقَّ القيام، وأن هذه المصابرة وتحمُّل المشاق، هي عبادة لله تعالى يتقربون بها إليه بغض النظر عمَّا تحققه من نتائج، فإذا ترك الخصوم المحاجة ـ بعد بلوغهم الدعوة ـ وانتقلوا للمواجهة وُجد النبي أعظم ما يكون شجاعة من الرجال، يطلق من الكلمات ما يشعر السامع أن ثقته غير متناهية في الاعتماد على ربه، بل وتزداد ثقته ويزداد أمله في النصر كلما اشتدت وطأة أهل الباطل، كقول هود ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾[1].

(١) سورة هود، الآيات: ٥٤ـ٥٦.

وتفصيل مواقفهم مع أقوامهم ليس هو مجال حديثنا، وإنما أشرنا إليها لأن كثيرًا من الطاعنين في جهاد محمد ﷺ واتهامة بمخالفة العدل والرحمة ـ كما زعموا ـ يقرون ـ أو بعضهم ـ بجهاد الأنبياء السابقين، ويثنون عليه، ويرونه موافقًا للحق الذي رضيه الله وأمر به.

فيقال: هذا النبي الكريم ﷺ لم يخالف ما سار عليه إخوانه من الأنبياء بل سار على نهجهم وقد أمره الله بذلك في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[1].

والتفريق بين الرسل الكرام كفرٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾[2]، فالمشرّع واحد، والهدف واحد، والمسيرة واحدة يثني المتأخر على المتقدم، ويبشر المتقدم بالمتأخر.

ثم إنه لا يوجد كتابٌ غير القرآن الكريم وضع الأنبياء في الموضع اللائق بهم، وأزال عن مسيرتهم الجهادية في سبيل إقامة دين الله ما تراكم عليها من اللوثات المادية والوثنية المزعومة حتى حجبتها عن الأنظار، كما أنه يمسح عن سيرة الأنبياء ما تعلَّق بها من رجس أو دنس أو تحريف ليعود بها للبشرية نقية طاهرة، تمثل معنى القدوة والهداية التي منَّ الله بها عليهم.

وبهذا يكون القرآن قد جمع بين دفتيه مواقف وتجارب أولئك الأنبياء الكرام، الذين واصل السير على طريقهم نبينا محمد ﷺ، وعلى التأسي بهم في جهادهم ربّى أصحابه، حتى إنه ليخيل لمن يقرأ هذه الآيات التي تصف قتال الأنبياء السابقين أنها نزلت في محمد ﷺ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠، ١٥١.

وأصحابه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾[١]، أو قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[٢].

ولقد طمست تعاليم الأنبياء الفترةُ التي سبقت مبعث النبي الكريم ﷺ، حتى ضلَّت السبل، وأصبح الناس يعيشون في جاهلية جهلاء، سواء أهل الكتاب أو غيرهم. فبعثه الله تعالى داعيًا وخاتمًا لدين من سبقه من الأنبياء، ومبينًا ما اندرس منه، وأمره بالتمسك بما أنزل عليه والجهاد في سبيل إقامته، وإزالة ما خالفه من أمر الجاهلية.

وسنبدأ الحديث بوقفة موجزة عن ظلمات الجاهلية التي انصب جهاده ﷺ على إزالتها وإحلال الحق محلها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

# المبحث الثاني
# ظلمات الجاهلية وانحرافاتها

**معنى الجاهلية:**

ورد لفظ «الجاهلية» في الكتاب الكريم أربع مرات هي: قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[4].

ومن مجموعها يتبين لنا أن لفظ الجاهلية ورد مقترنًا بعمل معين، فظن الجاهلية، وحكم الجاهلية، وتبرج الجاهلية، وحمية الجاهلية، كلها أعمالٌ مذمومة، ولا يستثنى ظن الجاهلية، فإنه قد نتج عنه قولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هـٰهُنا.

أما في السنة فقد وردت مطلقة ومقيدة.

فمن ورودهامطلقة قوله ﷺ: «**ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع**»[5]، وقوله: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة**» وذكر منهم: «**ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية**»[6].

ومن ورودهامقيدة قوله ﷺ: «**من مات وليس في عنقة بيعة مات**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٥) أخرجه مسلم في الحج، باب: حجة النبي ﷺ (٢/٨٨٦) رقم (١٢١٨).
(٦) أخرجه البخاري في الديات، باب: من طلب دم امرىء بغير حق (٦/٢٥٢٣) رقم (٦٤٨٨).

**ميتة جاهلية**»[١]، وقوله: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»[٢].

ومن مجموع النصوص السابقة يتبين أنها تطلق على ما يقابل الإسلام «وتستعمل للدلالة على كل مخالفة للمنهج الإلهي اعتقادًا أو قولاً، أو عملاً، كلاً أو جزءًا، من الأفراد والمجتمعات على سواء، وفي الذنوب المكفرة وما دونها، وهي كلمة مختارة بدقة لسعة دلالتها على كل مخالفة لدين الله تعالى وعلى اتصاف صاحبها بالجهل في كل معانيه اللغوية، فهي وصف ذم باطراد والمدار في إطلاقها هو تحقيق معناها وأوصافها في كل زمان ومكان وأمة وليست خاصة بزمن معين»[٣].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «الناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال، إنما أحدثه لهم جُهَّال، وإنما يفعله جاهل، وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة.

فأما بعد ما بعث الله الرسول ﷺ فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يُسلم، فإنه يكون في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام، فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ، فإنه لاتزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة[٤] والجاهلية المقيدة قدتقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين كما قال ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية**»[٥] وقال لأبي ذر: «**إنك امرؤ**

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين (٣/ ١٤٧٨) رقم (١٨٥١).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية (١/ ٢٠) رقم (٣٠).

(٣) المنهاج القرآني، عبدالستار فتح الله سعيد (١٤٤).

(٤) يشير إلى مافي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٦٧) رقم (٦٨٨١)، وصحيح مسلم (١/ ١٣٧) رقم (١٥٦). واللفظ له من قوله ﷺ: «**لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين**».

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز، باب: التشديد في النياحة (٢/ ٦٤٤) رقم (٩٣٤).

فيك جاهلية»[١] ونحو ذلك»[٢].

والجاهلية باعتبار نشأتها انحراف طارىء على البشرية، وضلال سبقته هداية، وتفرُّق بعد وحدة، واجتماع، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[٣].

قال ابن عباس وقتادة: المراد بالناس، القرون التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة، كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله نوحًا فمن بعده[٤].

وقال الطبري: «أمة واحدة على الإيمان ودين الحق»[٥].

ومن رحمته سبحانه أنه عالج هذا الانحراف ببعثه الرسل وإنزال الكتب ليدلهم على الحق الذي اختلفوا فيه، ويبين لهم ما خالفه من أمر الجاهلية ليحذروه، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[٦].

**الجاهلية لا تنافي العلم:**

وجديرٌ بالذكر أن الجاهلية التي انحرفت إليها الأمم على مر التأريخ وحذرت منها الرسل عليهم السلام لا تعني بكل حال انتفاء العلم والمعرفة عمَّن هذه صفته، بدلالة أن الله تعالى حينما وصف أهل الجاهلية أثبت لهم علمًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ۝٧﴾[٧]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ

(١) سبق تخريجه ص(٦٦).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٧٨، ٧٩).
(٣) سورة يونس، الآية: ١٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٨٠).
(٥) جامع البيان (٣/ ٢٢).
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٧) سورة الروم، الآية: ٧.

﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾(١) فدل على أن الاتصاف بالعلم الدينوي لا ينافي الاتصاف بالجاهلية، كما هي حال كثير من الدول الكافرة اليوم الذين بلغوا في العلوم التجريبية شأوًا بعيدًا، لكن ما أدل قول الله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ على واقعهم.

**حال البشرية قبل البعثة:**

وقد بلغت البشرية وقت مبعث النبي ﷺ مبلغًا من الانحراف استحق أن يصفه المولى - عز وجل - في كتابه بوصفين يغنيان عما سواهما، فوصف الحال التي هم عليها بالضلال المبين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾(٢).

وفي أخرى بالظلمات، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)، والظلمات هنا ليست مقصورة على جانب دون آخر، بل تشمل ظلمات الشرك والوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتقاليد، وظلمات التصورات والقيم.

فالإنسان إذا ضلَّ طريق الهدى عُرضت له متاهات كثيرة، تفوت الحصر، ووقع في أنواع من الجهل والضلال ضرورة اختلاف العقول والأهواء، وقد أشار إلى كثرة سبل الانحراف رسول الله ﷺ فيما رواه ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «**خط رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا وخط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلاَّ عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

(١) سورة غافر، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٩.

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[(١)]»[(٢)].

ولقد قارن القرآن بين حال الإنسان قبل هدايته وبعدها، كما هو منهجه في عرض المتقابلات ليستصدر حكمها من العقل، فقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[(٣)].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفقه لاتباع رسله»[(٤)].

ولقد أشار النبي ﷺ إلى عموم الفساد لجميع الأجناس في جميع المجالات الذي أصاب أهل الأرض قبل مبعثه فقال: «ألا إن ربي أمرني أن أُعلِّمكم ماجَهِلتُم ممَّا علَّمني يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب...»[(٥)].

أشار الحديث إلى انحراف الحياة البشرية عمومًا وبخاصة في الجوانب التالية:

١ـ انحراف الأوضاع الدينية، سواء بالردة عن الدين الحق، أو تحريفه وتبديله، وأهم جوانب هذا الانحراف الشرك بالله تعالى.

٢ـ انحراف الأوضاع التشريعية حيث حرموا أنواعًا مما رزقهم الله كالبحيرة، والسائمة والوصيلة، والحامي، وإليها الإشارة بقوله:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، والنسائي في التفسير (١/ ٤٨٧)، ينظر: الملحق (٢) ص(٤٢٦).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٧٣).

(٥) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧) رقم (٢٨٦٥).

«وحرمت عليهم ما أحللتم لهم».

٣ـ أشار الحديث إلى خلو الحياة من المصلحين، وأنه لا يوجدإلاّ أفراد منعزلون عن التأثير والإصلاح.

٤ـ لم يستثن الحديث العلماء وحملة الدين، فدل على ضلالهم وفسادهم، وأكّد القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، بل وجُعلوا أربابًا تُعبد من دون الله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[2] ومعلوم أن ضلال من يعظمه الناس أشد خطرًا من غيره، سيما إذا توسَّموا فيه الصلاح، كما فعل عمرو بن لحي الذي غيَّر دين إسماعيل ـ عليه السلام ـ[3].

ويحسن أن نزيد هذه الانحرافات إيضاحًا ليتبين فضل الله تعالى على الناس إذ بعث فيهم رسوله ﷺ ليجاهد في سبيل إصلاحها ويقوّم ما اعوج من أحوالهم، فيقال: أعظم انحراف وقعت فيه البشرية، هو الانحراف عن هدى الله ودينه، الذي عهد به إلى آدم وذريته في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[5].

فالانحراف في الإيمان هو الذي استتبع بقية الانحرافات في

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٣) فتح الباري (٦/ ٦٤٣)، وأصله في صحيح البخاري في التفسير، باب: ﴿ما جعل الله من بحيرة...﴾ (٤/ ١٦٩٠) رقم (٤٣٤٧)، ومسلم في كتاب الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون... (٤/ ٢١٩١) رقم (٢٨٥٦).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٨.
(٥) سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك.

وهذه الانحرافات هي السمة العامة في كل العالم آنذاك والذي يتصدره دولتان تتقاسمان العالم المتمدن، هما: فارس والروم، ومن ورائهما اليونان والهند، ولا يتسع المجال لعرض انحرافاتها وما بلغته من تردي، وسأكتفي بما قاله أبوالحسن الندوي مصورًا هذا القرن:

«كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحط أدوار التأريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء منذ زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلاَّ بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ولاذوا إلى الأديرة والكنائس، والخلوات، فرارًا بدينهم من الفتن، وضنًا بأنفسهم، أو رغبة في الدعة والهدوء، ومن بقي منهم اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم وأكل أموال الناس بالباطل»(١).

**حال العرب خاصة قبل البعثة:**

أما حال الجزيرة العربية التي بعث فيها محمد ﷺ وجعلت المنطلق لرسالة الإصلاح الشامل فلا تختلف عن غيرها في حجم الضلال، وتشارك غيرها في كثير من أنواعه، وإن كان لها بعض الجوانب الإيجابية التي قدمتها على غيرها وجُعلت من أجلها مهبطًا للوحي(٢).

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٣٦).

(٢) ينظر في هذه الجوانب بالتفصيل ما ذكره صاحب كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص(٦١) و«منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية» (٧١).

وأصدق مصدر يعتمد عليه في بيان حال أهل الجزيرة هو القرآن الكريم من خلال مجادلاتهم وعرض واقعهم، وإقامة الحجج على بطلانه، وكذلك السنة المطهرة.

وسأختصر بيان حالهم في النقاط التالية:

١ـ أنهم كانوا على دين إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ ثم حرَّفوا وبدَّلوا حتى لم يبق من هذا الدين إلاَّ القليل من الشعائر كتعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة وإهداء البدن، والختان، ونحوها، أما الدين الذي يحكم حياة الناس فلا وجود له.

٢ـ الإقرار بربوبية الله تعالى في الجملة والاعتراف بأنه الخالق الرازق المحيي المميت، الذي يدبر الأمر، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

ويظهر أن هذا الاعتراف مما ورثوه من ديانة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكن لم يكن له أثر في حياتهم بل هو معرفة باهتة أشبه ما تكون بمعرفة المتكلمة بالعقيدة أو باعتراف النصارى بالإله الذي خلق ثم ترك شؤون خلقه.

٣ـ ومع اعترافهم بالله تعالى وأنه الخالق الرازق، فإنهم لا يعرفونه على الوجه المقتضي لخوفه ورجائه ومحبته وتعظيمه والتقرب إليه والاستعانة به والاستغاثة والتوكل عليه، ومراقبته، وطلب مرضاته

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٨٤ـ٨٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣١.

وغير ذلك من أنواع العبادة.

وكانت معرفتهم له سبحانه وتصورهم له فيها قصور ونقص كثير حيث شبَّهوه بخلقه، فنسبوا له الولد، وخَصُّوه من الولد بالبنات، مع أنهم يكرهونهن قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾[(٢)].

«كما أنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا ملكًا ليس له معاونين وحاشية يستحقون التقديس والعبادة»[(٣)].

وظاهر النصوص تدل على أن تلك الآلهة المُشرَكة في العبادة في درجة أقل من الخالق سبحانه ـ لكنها وسائط قادرة ـ في نظرهم ـ على أن تقرب الناس إلى خالقهم أو تشفع لهم عنده، ثم تجاوزت ذلك حتى رجى منها جلب النفع أو دفع الضر، ويفهم هذا من هذه الآيات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ﴾[(٥)].

٤ـ إنكار البعث، وهذا له تعلق بالانحراف في الإيمان بالله بأسمائه وصفاته وأفعاله التي قد وقعوا فيها بدلالة قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ﴾[(٦)].

وذلك أن إنكار البعث في الحقيقة لم يكن إلاَّ إنكارًا لقدرة الله تعالى،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٧.

(٣) مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبدالله دراز (٧٥).

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٥) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

ويدل على ذلك أن الآيات التي أثبتت البعث قد تضمنت إثبات قدرته سبحانه التي لا يعجزها شيء، وسأكتفي بدليلين على ذلك:

أ ـ قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ ثم بيّن عظيم قدرته بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[1].

ب ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[2].

٥ـ ولم يزل أمر الوثنية يقوى ويستفحل حتى عبدوا جنس الحجارة، روى البخاري عن أبي عطاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجرًا هو خيرٌ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة نحلبها عليه ثم طفنا به[3].

٦ـ الاعتداء على حق التشريع فأحلوا وحرّموا من عند أنفسهم ـ كما يفعل كثير من الناس اليوم ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[5].

٧ـ كما وقعوا في ضلالات أخرى ـ أطوي ذكر أدلتها وأشير إلى أشهرها ـ وذلك كالعرافة والكهانة والطيرة، والاستقسام بالأزلام، والتنجيم، والسحر، وأكل الميتة، وشرب الخمر، والتعامل بالربا،

---

(١) سورة يس، الآيات: ٧٨ـ٨١.
(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.
(٣) صحيح البخاري (٤/ ١٥٩١) رقم (٤١١٧).
(٤) سورة يونس، الآية: ٥٩.
(٥) سورة النحل، الآية: ١١٦.

والقمار، والأنكحة التي لا تختلف كثيرًا - في بعض صورها - عن الزنا، ووأد البنات - عند بعضهم - وكراهيتهن، وقتل الأبناء خشية أو بسبب - الفقر - عند بعضهم، وظلم النساء وعضلهن، وأكل مال اليتامى بغير حق، وغير ذلك من الصفات التي تتوفر - أو معظمها - في كل مجتمع جاهلي تنكب طريق الهدى، وإن اختلفت المظاهر حسب الأمنة والأمكنة.

«إن كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح وتشغل باله وقد تستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولايزول فسادها»[(١)].

فكيف تم له ﷺ إصلاح كل تلك الانحرافات وأبدل الناس بها منهجًا ربانيًا يحكم جميع شؤون حياتهم، ويستمدون منه تصرفاتهم وقيمهم ويجاهدون في سبيل إعلائه ونصرته؟ هذا ما سننتقل للحديث عنه في المبحث التالي.

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٨٩-٩٠) ملخصًا.

## المبحث الثالث
## البدء بالتوحيد وأثره في تصحيح الانحرافات

**بداية العداوة بين الرسول ﷺ وقومه:**

لم يكن بين الرسول ﷺ وبين قومه قبل بعثته ما يذكر من العداوة - فيما نعلم - بل كان ﷺ محترمًا في أوساطهم، لِمَا عُرِف عنه من جميل الصفات، ومحاسن الأخلاق، والتي أجملت زوجه خديجة - وهي من أعرف الناس به - طرفًا منها بقولها: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقريء الضيف، وتُعين على نوائب الحق»(١).

ولكن العداوة بينه وبين أهل الضلال ابتدأت من الوقت الذي دعاهم فيه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية، وبعبارة أخرى: حينما شرع في الإصلاح فصادم عقائد الناس ونادى ببطلانها، وانتقص موروثاتهم، وسفه آباءهم وواجه أهواءهم.

فمن أوائل من عاداه عمه أبولهب حينما قال له أمام الناس: «تبًّا لك»(٢) ثم استمرت علامات الاستياء تجاهه ممثلة في قولهم: الصابىء، المجنون، الساحر، الكاهن... مع شهادتهم له بالأمس القريب بحسن السيرة.

وكان ذلك نتيجة لسنة اجتماعية أوضحها الله في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾(٣)، وذكرها ورقة بن نوفل في قوله: **«لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلاَّ عودي»**(٤).

لقد بدأ ﷺ دعوته كما بدأها كل رسول بالدعوة إلى التوحيد والصدع بكلمة «لا إله إلاَّ الله» ذات المدلول الشامل في وسط عربي

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب: كيف بدء الوحي (١/ ٥) رقم (٣).
(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: تفسير سورة ﴿تبت يدا..﴾ (٤/ ١٩٠٢)، رقم (١٦٨٧).
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٩.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب: كيف بدء الوحي (١/ ٥) رقم (٣).

يعرف لغته جيدًا، ويدرك أن المراد من هذه الكلمة هو إرادة التغيير الشامل لجميع جوانب الحياة بما يتفق مع مراد الله تعالى. فالإله فيما يعلمون من لغتهم هو: المعبود المطاع الذي يستحق أن يُعبد بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب والمخضوع له غاية الخضوع(١).

كما علموا أن هذه الكلمة لا يُكتفىٰ منها أن يقرّ لله تعالى بالعبادة فحسب، بل لابد من البراءة من كل معبود سواه، سواء كان ذلك المعبود كبيرًا معظمًا، أو عادة محترمة، أو طقوسًا مقدسة، أو وثنًا يرجى نفعه ويُخاف ضره، أو غير ذلك.

ويدل على فهمهم أن كلمة «لا إله إلاَّ الله» تقتضي البراءة مما يعبدون والكفر بها وهجرها، ما في الصحيح أن النبي ﷺ قال لعمه أبي طالب: «**يا عم! قل: لا إله إلَّا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**» فقال أبوجهل وعبدالله بن أبي أُمية: يا أباطالب: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟(٢) فعرفوا أن قولها يستلزم البراءة من دين عبدالمطلب(٣).

وهذا الذي فهموه هو ما ورد صريحًا في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾(٥)، وقوله ﷺ: «**من قال لا إله إلَّا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُمَ ماله ودمه وحسابه على الله**»(٦).

إنهم يقرون بأن الله تعالى وحده هو الخالق الرازق المحيي المميت

---

(١) الكلمات النافعة، عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت... (١/ ٤٥٧) رقم (١٢٩٤)، ومسلم في الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (١/ ٥٤) رقم (٢٤).

(٣) مجموعة التوحيد (١٣٤) بتصرف.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٥) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس.. (١/ ٥٣) رقم (٢٣).

الذي بيده الأمر - كما سبق - ومع ذلك أنكروا إفراده بالعبادة، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾(١) فدل على أن الإله عندهم هو المعبود.

والحقيقة أنه لا مجال للعجب ممن يدعوهم إلى التوحيد، فالعقل السليم يقر ويشهدأن الذي يخلق ويرزق ويدبر الأمر يستحق أن يفرد بالخضوع والاستسلام والخوف والمحبة والرجاء وغيرها من أنواع العبادة، وأن غيره ليس له حق في ذلك مطلقًا.

بل العجب ممن يتوجه إلى المخلوق المحتاج الضعيف ويشركه ظلمًا في العبادة التي هي حق لله وحده.

وقد أشار المولى عز وجل إلى هذه الحقيقة مخاطبًا فيها العقل بطريقة السؤال فقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾(٤) أي: أم أنزلنا عليهم كتابًا بما يقولونه من الشرك والكفر(٥)؟ وهذا سؤال استنكاري.

وفي أخرى يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾(٦).

فهم حينما أقروا بالخلق ألزمهم بعبادته، وهذا هو منطق العقل، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة ص، الآية: ٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩١.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٧.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٤٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٦٢).
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٤.

﴿تَتَّقُونَ ۝٢١﴾[(١)] وبهذا يظهر أن التعجيب الذي صدر منهم ليس نابعًا من قناعاتهم الذاتية، ولا مما دلتهم عليه عقولهم بقدر ماهو وسيلة لدفع الحق كما فعل فرعون مع موسى ـ عليه السلام ـ فيما ذكره الله عنه في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾[(٢)]، وهذا القول المستمع إليه في منتهى إقامة الحجة إذ لم يدع فرعون ولا غيره أنه رب هذه المخلوقات المشار إليها، وغاية ما زعم قوله: «أنا ربكم الأعلى» ولكنه قصد الاستخفاف وإثارة التعجب ليلفت النظر عن تدبر الحجة ولو كان منصفًا لقارع الحجة بمثلها ـ إن كان يملك ـ لكنه لا يملك، ولم تطاوعه نفسه المتألهة بقبولها فما كان متوقعًا منه إلاَّ الإتيان بهذا الوسيلة التي يوشك أن تتفق عليها عقول المعاندين.

**أهمية البدء بالتوحيد للإصلاح الشامل:**

وهنا سؤال ـ كما يُقال ـ يطرح نفسه، وبالإجابة عليه نتعرف على بوابة الإصلاح في دعوته ﷺ وهو: لماذا بدأ ﷺ بالدعوة إلى التوحيد ومامناسبتها للتغيير الشامل وإصلاح جميع جوانب الحياة؟.

والجواب: أن يقال هذه الانحرافات التي يقع فيها العبد من الكفر فما دونه إنما منشؤها من انعدام الإيمان أو ضعفه، ومعلوم أن علاج ذلك إنما يكون بتحقيق الإيمان قولاً واعتقادًا وعملاً.

وقد دل على ارتباط الإيمان بجميع ما يصدر عن العبد من قول أو فعل سلبًا أو إيجابًا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[(٣)].

والمراد: «لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٢٣ـ٢٥.
(٣) سورة المائدة: الآية ٨١.

ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين»[(١)] وقد ربط بين موالاة الكفار وانتفاء الإيمان ربط السبب بمسببه.

وأشار ﷺ إلى أن الأعمال تتناسب مع الإيمان قوة وضعفًا، في قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[(٢)]. وقوله: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[(٣)].

وعليه، «فمن حقّق الإيمان فإنه لا تقع منه المعاصي، وإن وقعت سرعان ما يملي عليه إيمانه التوبة منها، والندم على ما بدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾[(٤)]»[(٥)].

فبوابة الإصلاح لجميع الانحرافات الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية، وغيرها هو تحقيق الإيمان أولاً وغرسه في الضمير وبعناية أتم فإذا ما استقر زالت جميع المخالفات والانحرافات.

ولقد أجمل القرآن وفصَّل في التأكيد على أن كل رسول دعا قومه إلى كلمة التوحيد بمعناها الشامل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[(٦)]، وقالها بلفظها هود[(٧)]، وصالح[(٨)]، وشعيب[(٩)] ـ عليهم السلام ـ وقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٦).
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب: النهي عن المنكر من الإيمان (١/ ٦٩) رقم (٤٩).
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب: نقصان الإيمان بالمعاصي (١/ ٧٧) رقم (٥٧).
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٥) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٤٦٨) بمعناه.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.
(٧) سورة هود، الآية: ٥٠.
(٨) سورة هود، الآية: ٦١.
(٩) سورة هود، الآية: ٨٤.

﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾[١]، وهي بمعناها، وكذا قالها عيسى ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢ ﴾[٢]، وقالها محمد ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ ﴾[٣].

بل قد أمر بها كل نبيٍّ قومه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥ ﴾[٥].

وهذه النصوص الكثيرة تدل على أن الدعوات الإصلاحية التي لا تبدأ بالتوحيد قبل كل شيء فإنها مخالفة لمنهج الرسل الكرام.

**انحسار معنى التوحيد:**

ومن الجدير بالذكر أن معنى التوحيد قد انحسر عند بعض الناس، وفي بعض جزئياته تحوّل كليًّا عن معناه إلى معنى آخر، لا علاقة له بالتوحيد الذي دعت إليه الرسل، وكرر ذكره في القرآن، فأصبح عندهم خليطًا من علم أهل الكلام والفلسفة، وأقاويل الطوائف الضالة وسرد شبهاتهم التي لو استقرت واحدة منها في عقل السامع لاحتاج إلى وقت طويل لكي يتخلص منها، إن شمله الله عز وجل بعنايته ووجد من يستطيع استلالها من عقله، ولا يؤمن أن يتبقىٰ لها بقية تمنع الإفادة من نور الوحي المنزل وتزاحمه.

والأولى أن يفرد هذا النوع عن كتب التوحيد ويسمى «نقد أباطيل الطوائف الضالة وشبهاتهم» أو نحو هذا، أما التوحيد فالواجب أن

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٤) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

يعرض من الكتاب والسنة، ويستسقي منهما منهجُ عرضه، وطريقة محاجة المخالفين، وألاَّ تعرض شبهة غير موجودة عند المخاطب ثم يُتكلف الرد عليها، بل يعامل المخاطب بما لديه، فينتزع ما عنده من انحرافات عقدية، ثم يغرس الحق محلها مدعومًا بدليله في الحالين.

ويبدأ ذلك بتعريف المؤمن بربه الذي خلقه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الكريمة، كما يعرضها القرآن والسنة معرفة تدفع العبد إلى محبته وتعظيمه وخوفه ورجائه والاستغناء به عما سواه، كما تقتضي استشعار مراقبة الله تعالى التامة له في كل صغيرة وكبيرة، وأن كل ما دونه محتاج إليه، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وأن التدبير كله بيده سبحانه، وأنه ما من دابة إلاَّ هو آخذ بناصيتها، فتغرس هذه المعاني في نفس العبد، ويدلل عليها بالآيات المسطورة في القرآن والمنظورة في الكون.

ويعلم أن الغرض من خلقه إنما هو للعبادة، وأن الله سيجازي العباد يوم القيامة على أعمالهم فيعرض اليوم الآخر بما فيه من بعث وحساب وميزان وجنة ونار بأدلته، فيدفعه ذلك إلى إحسان العمل ليوم العرض.

وتعرض عليه سيرة الرسل الكرام وأخلاقهم ومواقفهم، وكيف جاهدوا في سبيل إعلاء دين الله وصبروا حتى نصرهم الله تعالى، فيتخذهم قدوة. ويعرض عليه الإيمان بالملائكة وأن منهم من وكل بحفظ أعمال العباد فيتولد لديه الحياء منهم إذا علم أنهم كرام على الله تعالى، وهكذا بقية مسائل التوحيد.

فبهذا يستحق التوحيد أن يبدأ به لأنه يربط العبد بربه أولاً فإذا تم له ذلك استجاب لكل ما يأمره الله به وانتهى عما ينهاه عنه خوفًا من عقابه ورجاء في ثوابه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ

وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[(١)].

«إن هذا الدين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة، ويحدد منهجه في بناء نفسه وامتداده ويجعل بناء العقيدة وتمكينها وشمولها لشعاب النفس كلها ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، ومتى استقرت هذه العقيدة استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه «لا إله إلاَّ الله» وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة واستسلمت ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تفرض عليها تفصيلاته وتشريعاته؛ لأن الاستسلام ابتداءً هو مقتضى الإيمان، فلما صدرت التشريعات فعليًّا، تلقتها النفوس بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منها، ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له»[(٢)].

وقد أشارتْ أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى هذا المنهج وأهميته في تصحيح الانحرافات فقالت: «إنما نزل أول ما نزل منه ـ أي من القرآن ـ سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[(٣)] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلاَّ وأنا عنده»[(٤)].

**المنهج الإلهي في بناء النفس البشرية:**

إن منهج القرآن هو التركيز على الأهم فالمهم، لذلك قدَّم بناء أصل الدين وقاعدته في داخل النفس البشرية دون التطرق إلى التفصيلات التشريعية ودون التعرض لمظاهر الفساد المتمثلة في شرب الخمر والزنا، بل ولم يشرع تحطيم هياكل الأصنام الكثيرة الجاثمة حول

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٢) معالم في الطريق (٣٧)، ومنهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية (٢١٠) بتصرف يسير.
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٦.
(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن (٤/ ١٩١٠) رقم (٤٧٠٧).

الكعبة، وإنَّما شرع في إيقاظ الفطرة وتوعية الضمير وإنارة العقل بالحجج والبراهين الدالة على بطلانها ليصحح أولاً الفساد العقدي الذي أودعته الجاهلية في خبايا النفس العميقة وعنه نتجت تلك الانحرافات الظاهرة التي لا تعدو أن تكون دالة على الانحرافات الباطنة وثمرة من ثمراتها، فإذا حصل التصحيح الداخلي سقطت مظاهر الفساد بنفسها أو بأقل مجهود ثم إنه في الوقت نفسه لم يغفل الإشارة إلى السلوكيات الحميدة والأخلاق الرفيعة التي تعيد الإنسان إلى كرامته اللائقة به.

وهذا المنهج الإلـٰهي المتدرج نحو الكمال الإنساني هو الذي جعل بعض الصحابة الكرام يتوقعون تشريع بعض الأحكام قبل نزولها، ومنهم عمر بن الخطاب الذي دعا ربه قائلاً: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»[١]. قبل أن يستتم تحريم الخمر بالكلية، وما ذاك إلاَّ لرؤيته للخط الذي تسير عليه التربية واتجاهها بحيث أنه لا يمكن أن تقر في دين هذا منهجه أم الخبائث.

هكذا كانت التربية القرآنية تترك الفروع إلى أن تصلح القواعد، وتستأصل ما ينافيها من انحراف ثم تشرع من الأحكام بعد ذلك ما يكفل إزالة ما تبقىٰ بالحدود والتعازير التي لم يلجأ إليها مع وجود التربية القرآنية المتدرجة إلاَّ نادرًا[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥٣) وغيره وفيه انقطاع ـ انظر: ملحق (٢) ص (٤٢٦).
(٢) مقتبس بمعناه من «معالم في الطريق» ٣٤.

# المبحث الرابع
# انقسام الناس ببعثته وسبب العداوة بينهم

لقد جاء ﷺ بالحق من ربه تعالى، والناس أحوج ما يكونون إليه، لعظيم الضلال والظلمات التي يتخبطون فيها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾(١).

وكانت بعثته منة عظيمة تستحق الحمد والشكر لله المنعم المتفضل بها كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾(٢).

**انقسام الناس إلى فريقين:**

ومع وضوح أدلة كونه رسولاً من عند الله وأن ما جاء به لا يليق أن ينسب إلاَّ له سبحانه فقد انقسم الناس تجاه دعوته المباركة إلى قسمين:

١ ـ مؤمنين. ٢ ـ وكافرين.

وقد ناصبه الكفار العداوة والبغضاء من حين أن دعاهم إلى الله تعالى، والسؤال الذي سنتلمس الإجابة عليه هو: ما سر تلك العداوة التي أدت بعد ذلك إلى المقاتلة بين الطرفين مع أن ما يدعوهم إليه مما تشهد له العقول الصحيحة والفطر المستقيمة، ومع تفوق دعوته وخيرية مقاصدها مقارنة بما هم عليه من ضلال؟

ودراستنا لتلك العدواة مهمة في بيان عدالة الإسلام ورحمته في تشريع الجهاد، فقد أوجدها الصراع العقدي، ثم أصبحت ركيزة أساسية للصراع العسكري بعد ذلك بين أهل الحق وأهل الباطل على مر التأريخ،

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

لذلك لابد من بيان دوافعها وأسبابها لنصل إلى التعرف عليها، وهل هي عداوة بحق أم بباطل، لنحكم على ما يترتب عليها من صراع تبعًا لها.

وللإجابة يقال: إن الرسول ﷺ لم يكن من المتألهين الذين عرفهم أهل الجاهلية الذين يعبدون ربهم ويدعون الناس وشأنهم، ولكنه رسولٌ من رب العالمين، تملي عليه مهمته التي بعثه الله من أجلها، تبليغ الدعوة إلى الناس وإقامة الحجة عليهم، واتباع ما يأمره الله به، بلا زيادة ولا نقصان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾[1]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

**محاور تبليغ الدعوة:**

وقد سار ﷺ في إبلاغ دعوته على محورين متلازمين، وهما مدلول شهادة أن لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله.

**المحور الأول:** مهاجمة الجاهلية ونقدها والتدليل على بطلان ما تقوم عليه، وتحطيم قداسة أوثانها ومعبوداتها في الأنفس، ثم إزالة أثرها منها

**المحور الثاني:** إحلال البديل محلها ـ وهو الحق الذي أنزله الله عليه ـ، وإثباته والبرهنة عليه.

وهٰذا في حقيقته هو نوعٌ من الجهاد ـ وهو الجهاد الدعوي ـ وقد سمَّاه الله تعالى جهادًا كبيرًا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾[3]، وهذه الآية نزلت قبل تشريع القتال بدلالة كون السورة التي وردت فيها مكية.

لقد نازل رسول الله ﷺ المشركين بنصوص الوحي لاجتثاث موروثاتهم الباطلة؛ لأنها شكلت عقبة حقيقية أمام مسيرة الدعوة، فتناخرت لها أنوف أصحابها، فلما انقطعت حججهم لجأوا للقوة

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

لإسكات الحق ولكن يأبىٰ الله إلاَّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

**وسائل اجتثاث الجاهلية من النفوس:**

**١ـ مهاجمة تراث الآباء والأجداد المنحرف:**

وهذا هو الطاغوت الأكبر الذي يقف في طريق دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ فقد ذكر الله تعالى أن قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ منعتهم متابعة آبائهم وتقليدهم من الاهتداء بنور الله، فقد خاطبهم ـ عليه السلام ـ بما ذكره الله عنه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾[1].

وفي آية أخرى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2] فبعد أن بيَّن الحجة في كونها لا تضر ولا تنفع قام بتحطيمها في أرض الواقع ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[3]، فشرعوا في الانتصار لآلهتهم ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فأنجاه من بيده ملكوت السموات والأرض بقدرته وبطريقة خارجة عن مألوف البشر بحيث أمر الله تعالى النار أن تخرج عن طبيعتها ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[4].

ويتكرر مشهد هذه العقبة أمام الدعوة من قوم موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[5].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٧٠ـ٧٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.
(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٨، ٦٩.
(٥) سورة يونس، الآية: ٧٨.

وتقع هذه الأمة في عبادة هذا الوثن وتقدمه على ما أنزل الله، فلم تثن هذه العقبة صاحب الدعوة ﷺ عن دعوته مع خطورة المساس بها، إذ هي منبع الشرف لهم، وأساس الفخر، ولسان حال معظميها يقول: لقد تتابع الآباء والأجداد على هذه الطريقة، والعمل بموجبها مع رجاحة عقولهم من غير نكير، لذلك نتهم من خالفهم ولا نتهمهم. فزلزل ﷺ هذه العقبة بأمثال هذه الآيات ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[1]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[2] فنفى عن آبائهم العلمَ ليصفهم بالجهل، والعقلَ ليصفهم بالسفه، والهدايةَ ليصفهم بالضلال، بل إنه لينعى عليهم المتابعة في الضلال ويربطه بجذوره القديمة حينما أخذ الشيطان على نفسه ضلال بني آدم، ومن ذلك تزيينه طريقة الآباء المخالفة لشرع الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾[3].

«وليس من شأن القرآن أن يتعرض للأنساب، ولا مثالب البيوت والأسر وهو كتاب الهداية والتربية العالية، ولكن حينما تتخذ الجاهلية من الأباء ذريعة للضلال والإضلال وتقف بإرثهم الباطل حجر عثرة في وجه دعوة الحق المنقذة الهادية، كان من عين الحق والعدل أن تزال هذه العقبة من طريق الهداية، لذلك تناول القرآن آباءهم من هذه الزاوية فحسب فرماهم بما يستحقون من صفات»[4].

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٢١.
(٤) المنهاج القرآني في التشريع (٢٣٢).

**٢ـ مهاجمة معبوداتهم المزعومة :**

معلوم مكانة الإله الذي يرجى نفعه ويخشى ضره في نفس عابده، فإن التعرض له بالتنقص والإزدراء ليعني الاعتداء على ما هو مقدس، وكانت لقريش وغيرها من العرب آلهة تعبد مستقلة، أو تشرك مع الله تعالى في العبادة، فجاءت نصوص الوحي تدلل على بطلان عبادتها، وتعد ذلك من الشرك الذي لا يغفره الله، وكثير من هذه الأدلة عقلية يُراد منها توعية العقل واستصدار حكم بطلانها منه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾(٣). وأمثالها كثير.

**٣ـ إبطال نسبة شرائعهم إلى الله :**

كانوا ينسبون ما هم عليه من ضلالة إلى الله تعالى ليحظىٰ بالقبول، فهم يعظمون الله كما يعظِّمون غيره من آلهتهم، فلما دعاهم النبي ﷺ إلى ترك الفواحش ممثلة في الطواف عراة بالبيت(٤)، زعموا أنه من فعل الآباء، وعليه أمر الله تعالى، فأقرهم الله على الأولى، وكذبهم في الثانية، وهذا من عدله سبحانه في الرد على الخصوم، قال تعالى:

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٤ـ١٩٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٠٩).

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[١]، وهذا هو الجانب الأول من منهج الإصلاح وهو الإبطال لما كانوا قد زعموه والجانب الثاني وهو إحلال الحق محله، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ ﴾[٢].

**٤ـ إبطال حقهم في التشريع:**

ومن الضلال الذي وقعوا فيه اعتداؤهم على حق الله تعالى في التحليل والتحريم، والحكم والتشريع، وكانت تلك الأحكام التي شرعها أولئك الطواغيت متناقضة هزيلة تنبيء عن قصور أصحابها فأوردها القرآن وناقشها، وبيَّن عوارها من جهتين: من جهة أصل الاعتداء عليها، ومن جهة التناقض الحاصل فيها.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[٣]، فإذا كانت هذه الآية وردت بأسلوب الاستفهام الإنكاري بقصد إيقاظ العقل ليؤدي وظيفته في الحكم، فإن آية أخرى كانت أشد وقعًا في أسلوبها وفي ألفاظها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[٤]، فقد وردت الآية بأسلوب النهي المباشر عن التحليل والتحريم، ثم وصفتهم بالكذب ثلاث مرات في نفس الآية ـ مع قصرها ـ ليكون أبلغ في الزجر.

وأجمع الآيات التي تبين تناقضهم وظلمهم فيما أنتجته عقولهم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥٩.
(٤) سورة النحل، الآيتان: ١١٦، ١١٧.

القاصرة المنحرفة عن الحق هي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾(١).

هذه الآيات تناقش وضعًا قائمًا وتتناوله بالتفصيل، وتعرض أماكن النقد فيه وتبرزها تمهيدًا للقضاء عليها، وتطهير النفوس منها، ولا يخفى شدة وقعها عليهم، فالنصوص القرآنية تعنيهم مباشرة إذ هم يمارسون هذه الأحكام في حياتهم وواقعهم اليومي كما تعني من سن هذه الأحكام من آبائهم المعظمين لديهم.

وقد حملت في ثناياها ألفاظًا قوية في محق الباطل وتسفيه فاعليه فقد تكرر فيها «بزعمهم» مرتين، و«يفترون» مرتين، و«افتراء» مرتين، كما ورد فيها «ساء ما يحكمون»، و«سفهًا بغير علم»، و«قد ضلوا وما كانوا مهتدين».

ثم بعد أن فنّد باطلهم بيّن الحق الذي ضلوا عنه جريًا على منهج الإصلاح السابق الذكر فقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٣٦-١٤٠.

طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾(١)، ويلاحظ قرن الحكم بعلته التي أوجبت تحريمه «فإنه رجسٌ أو فسقًا» بخلاف حكم أهل الجاهلية الذي يفرقون فيه بين المتماثلات بلا موجب، ثم بيَّن تفوق المنهج الإسلامي في تشريعاته عامة، فقال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

وبعد عرض المقطعين السابقين لا يملك العقل ـ أيًّا كان صاحبه ـ إلاَّ المقارنة بين ما هم عليه، وبين ما يُدْعَوْن إليه، فلا يملك صاحب العقل السليم إلاَّ أن يشهد بتفوق الدين المنزل بتعاليمه السامية تفوقًا ينزه عن مقاربة ما أنتجته عقولهم القاصرة.

وهذه التفوق البيِّن الناتج عن المقارنة بين ما شرعه أهل الجاهلية وبين ما شرعه الله تعالى، يزلزل ثقتهم فيما هم عليه من تشريعات يشهد العقل ببطلانها، ويخافون على أتباعهم ومقلديهم أن يشعروا بذلك التفوق فيزهدوا فيما هم عليه ويلحقوا بركب الدعوة، لأجل ذلك كانت إعادة التشريع لله تعالى وحده لا شريك له، هي إحدى العقبات التي دارت فيها رحى معارك عنيفة، وتسببت في المزيد من العداوة بين

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة الأنعام، الآيات: ١٥١ـ١٥٣.

الطرفين حقيقتها أن أهل الباطل ضلوا الطريق واعتدوا على حق الله تعالى في التشريع ظلمًا وعدوانًا، والرسول ﷺ حال بينهم وبين ذلك بما أنزله الله عليه من وحي، فدلهم على الهدى وطالبهم بالتنازل عمَّا ليس لهم بحق، ويقال هٰذا في معالجته ﷺ لبقية الانحرافات فإنه لم يخاصم الناس إلاَّ ليعيد الحق إلى نصابه وينقل الناس من الضلال إلى الهدى في الاعتقاد والأخلاق والسلوك، وهذامعلم بارز من معالم العدل والرحمة في جهاده ﷺ لمن تأمله.

ثم إنه من عوامل اشتداد العدواة تجاه دعوة النبي ﷺ ومحاربتهاووقوفهم في خندق واحد لمقاومتها بكل الوسائل الممكنة، والإكثار من تحذير الناس منها، وملاحقة أتباعها حتى بعد هجرتهم بعيدًا إلى الحبشة والمدينة، هو شعورهم بالخطر الداهم على مقدساتهم وموروثاتهم، وهو إقرار ضمني منهم بأثرها وشدة وقعها في النفوس، وزلزلة الأفكار والعقائد المنحرفة، واستقطاب أصحاب العقول السليمة ممن لم يجعل المصالح الدنيوية تحول بينه وبين قبول الحق إذا ما تبين له

**ركائز القوة في مسيرة الدعوة:**

وتتمثل قوة تأثير الدعوة التي قد جلبت عداوة خصومها في:

**أ- القرآن الكريم:**

**١- من حيث نسبته إلى الله تعالى:**

فالناس المخاطبون به يعظمون الله - في الجملة - بل إنهم يقصدون من عبادتهم لمن دونه التقرب إليه كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] ويقرون بكونه الخالق الرازق المحيي المميت - كما سبق - وبالتالي فهم يعلمون أن إقرارهم بكون القرآن من عند الله يعني امتثال أوامره ونواهيه وتصديق أخباره، لذلك لم يفتأ رسول الله ﷺ

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

يعرضه على الناس، ويؤكد نسبته إلى الله تعالى، بل قد ورد في ثناياه تأكيد نسبته إلى الله كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾(١).

وقد تضمنت هذه الآيات نسبة هذا الكتاب إلى الله تعالى والدليل على صحة ذلك ممثلة في «أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها»(٢).

وفي آيات أخرى ينفي تقوّل الرسول ﷺ له قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٣).

لقد استعظم الكفار نسبته إلى الله، فلم يستسغ بعضهم أن كلام الله يتنزل على البشر فرشحوا لحمله وتبليغه الملائكة وإليه أشار بقوله تعالى عنهم: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾(٤).

ونزول الوحي بعد فترة طويلة تراكم فيها الضلال على طريق الهداية حتى طمسه، لا شك أنه أمرٌ عظيم، وقد عظمه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾(٥).

وقد عظَّمه الصحابة رضي الله عنهم أيضًا تعظيمًا يناسب كونه من عند الله فاستولىٰ على اهتماماتهم يفرحون بنزوله ويبكون عند قراءته استشعارًا لعظمة من أنزله، ويتدبرون معانيه ويسارعون إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، زهدوا في موروثاتهم لأجله وخالفوا التقاليد والعادات

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ـ١٩٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٤٨).
(٣) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤ـ٤٦.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١٤.
(٥) سورة ص، الآيات: ٦٧ـ٧٠.

ـ على قوة سلطانها ـ إلى إرشاداته وهدايته.

فالكفار والمؤمنون استعظموا نسبته إلى الله تعالى، ولكن استعظام الكفار لكلام الله دفعهم أن لا يقروا بأن هذا المقروء هو كلام الله ووحيه، وهذا هو نفس الطريق الذي سار عليه من بعدهم من الكفرة والملاحدة في أنحاء الأرض، وإن تباعد الزمان واختلف المكان، فالكفر ملة واحدة، والقلوب المنكرة متشابهة، كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾[1]، وأما استعظام المؤمنين له فدفعهم إلى شدة التمسك به بعد أن علموا صحة دلائل نسبته إلى من أنزله سبحانه.

لذا تمثل جانب من قوة تأثيره على الكفار في صحة حججه الدالة على كونه من عند الله، فمن لم يقبله خاف على غيره منه وعمل على مقاومته، ومعاداته، ومن تبينت له دلائل صحته زهد في موروثاته، وأصبح في صفوف من بالأمس يعاديهم.

**٢ ـ من حيث التأثر بسماعه:**

فالقرآن يحمل دلائل عظمته، وصدق نسبته إلى الله، فجانب من قوة تأثيره تحصل عند تدبره، كما أوصى الله بذلك في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[2]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾[3].

فما إن يستمع إليه منصف مدرك لمعانيه إلاَّ ويتأثر بما سمعه منه خاصة إن كان يدرك من أسرار اللغة التي نزل بها ما يدركه العرب من لغتهم حين نزوله. وقد علم ﷺ تأثيره على الناس، فكان يقرن بين دعوة الناس إلى الإسلام وإسماعهم القرآن.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.
(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

فيحصل من التأثر بسماعه ما يجعل بعضهم يسلم مكانه كما حصل لأبي ذر(١) وغيره. وبعضهم يشتد تأثره به لكن تمنعه مكانته الاجتماعية أو احترام الموروثات أو هيبة المخالفة لقومه أو غيرها، كما حصل من الوليد بن المغيرة حينما قال بعد سماعه القرآن: «والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا وما يُعلىٰ، وإنه يحطم ما تحته»(٢).

وقد أدرك المشركون أن لهذا الكلام لشأنًا فخافوا على أبنائهم ونسائهم من سماعه، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلَّىٰ بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله، ومن جاء به. فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾(٣).

ولنفس السبب أرادوا منع أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ من قراءة القرآن بفناء داره، ففي الصحيح أن قريشًا قالت لابن الدَّغِنَةِ حينما أجار أبا بكر: «مر أبابكر فليعبد ربه في داره، فليصلِّ فيها، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا» وفيه: «ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبوبكر رجلاً بكَّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: إسلام أبي ذر رضي الله عنه (٣/ ١٤٠٢) رقم (٣٦٤٨).
(٢) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٠٧)، وقال: صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والدلائل للبيهقي (٢/ ١٩٨) من هذا الطريق، وجامع البيان للطبري (٢٤/ ٢٤)، وطريق الحاكم إسناده صحيح.
(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿ولا تجهر بصلاتك...﴾ (٤/ ١٧٥٠) رقم (٤٤٤٥)، والآية ١١٠ من سورة الإسراء.

قريش فأرسلوا إلى ابن الدَّغِنَةِ. . .»[١].

وفي هذا الحديث خاصة يتبين أن سماع القرآن، ومشاهدة آثاره على المؤمنين في قوة تمسكهم به وشغفهم بقراءته تضاعف خوف المشركين من عزوف أهلهم عن دينهم.

**٣ـ من حيث طريقتُهُ في الإقناع:**

ومن عوامل قوة تأثير القرآن التي أخافت المشركين طريقته في الإقناع، ومعلوم أن الإقناع لا يتم إلاَّ عن طريق العقل، الذي ميَّزه الله عن غيره من المخلوقات بالقدرة على الحكم على الأشياء ـ في نطاق معين ـ والتمييز بينها.

وقد يتأثر ببعض العوامل التي تعطله عن وظيفته الأساسية والتي منها: تطويقه بربقة التقليد، والتعود على الانقياد الأعمى، والاكتفاء بعقول الآخرين، وغير ذلك من العوامل التي تحدث ـ أو بعضها ـ لديه بعض التشويهات والقصور والضعف، بل والانحراف أحيانًا حتى لا يحسن الحكم على الأشياء.

فكانت طريقة القرآن في سبيل استصدار الحكم المناسب منه على ما يعرض عليه أنه شرع في تنشيطه وتدريبه على الحكم على الأشياء السهلة والبدهية التي لا تحتاج درجات عليا من صحة العقل لإدراكها وجعلها في صيغة السؤال وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٢].

فبداهة العقول تقضي بأن لكل حادث موجدًا، وهم لم ينكروا أن الله سبحانه هو خالقهم، ولكنه يريد أن يرتب عليها ما أنكروه من إفراده بالعبادة، وهذه الآية هي التي قال عنها جبير بن مطعم عندما سمعها «كاد

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: هجرة النبي ﷺ... (١٤١٨/٣) رقم (٣٦٩٢) في حديث طويل.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٥.

قلبي أن يطير»(١).

ومن تلك الأسئلة المستقرة إجابتها في العقول مهما قصَّرت وضُعفت قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾(٣) والعقول لا تنكر أن الابتداء أصعب من الإعادة، وأن الذي خلق السموات لا يعجز عن إعادة خلق ما دونها. فهذه حقائق عقلية مجردة، وقد تكون الحقائق التي يلفت إليها النظر أحداثًا مشاهدة، كالأحداث الموسمية المتكررة والتي يستدل بها على الحياة بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾(٤)، وقد تكون حقائق كانت قائمة ثم اندثرت سواء كانت:

١ـ حقائق فطرية جبلت على معرفتها النفوس، وركزت في الفطر كتوحيد الخالق، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾(٥)، فطمست هذه الحقيقة بلوثات الشرك حتى أنها لم تعد تستيقظ إلاَّ عند الشدائد، فتفرده بالدعاء، فاحتج القرآن بهذه اليقظة المؤقتة الواردة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾(٦)، والعقل يقر أن من يُدعى في الشدة يجب أن يُدعى في الرخاء كذلك.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: تفسير سورة الطور (١٨٣٩/٤) رقم (٤٥٧٣).
(٢) سورة القلم، الآية: ٣٥.
(٣) سورة يس، الآية: ٨١.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

٢ـ أو حقائق تأريخية مجهولة كمعرفة أن الناس كانوا على التوحيد ثم طرأ عليهم الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾(١)، أو معلومة ومجحودة كحال اليهود مع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾(٢)(٣).

وبهذا يتضح أن القرآن يعتمد في قوة حجته على حقائق موجودة في داخل النفس كالحقائق العقلية والفطرية، أو خارجها كالحقائق الحسية في الكون والحياة، أو حقائق مندثرة تحت ركام التأريخ يخرجها ويصفيها ويحذف عنها الشوائب، وهذا يسهل مهمة العقل، ولا يستطيع مناصًا من الاقتناع الذي يستتبع الانقياد وترك المعارضة.

**٤ـ من حيث إعجازه وتحديه:**

وجانب آخر من جوانب قوة تأثير القرآن هو تحديهم أن يعارضوه إن أصروا على تكذيب نسبته إلى الله تعالى، فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، قال تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾(٤)، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾(٥)، ثم طالبهم بسورة واحدة مثله في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾(٦)، ثم بسورة واحدة من مثله في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾(٧).

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٣) مدخل إلى القرآن الكريم، ص(٨٥) أشار إلى هذه الحقائق.
(٤) سورة الطور، الآية: ٣٤.
(٥) سورة هود، الآية: ١٣.
(٦) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

«وهكذا تنزل معهم من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل وأباح لهم أن يستعينوا بمن شاءوا»(١).

ثم حكم عليهم والعالم بالعجز في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾(٢)، وكان هذا العجز المسجل على أهل اللغة الذين لم يبلغ غيرهم شأوهم دليلاً على صدق الرسول ﷺ وآية على نبوته، كما قال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلَّا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(٣).

«لقد دلَّهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو أن يجيئوا بكلام مثل الذي جاءهم به، وكانت الأسباب الباعثة على المعارضة موفورة متضافرة، وأي شيء أقوى من استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذي توجهه إليه معلنًا فيه عجزه عن مضاهاة عملك؟ إن هذا التحدي كافٍ وحده في إثارة حفيظة الجبان، وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته، فكيف لو كان الذي تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به هو صناعته التي بها يفاخر، والتي هو فيها المدرب الماهر؟ وكيف لو كنت تبتغي من وراء هذه الحرب الجدلية هَدْمَ عقائده، ومحو عوائده، وقطع الصلة بينه وبين ماضيه.. ؟

لقد أيقظ هذا التحدي همم المعارضين حتى كان أمر محمد ﷺ والقرآن هو شغلهم الشاغل حتى لم يدعو وسيلة من وسائل مقاومته باللطف أو العنف إلاَّ قاموا بها ماعدا معارضته ومحاولة الإتيان بمثله، حتى كان القتل والأسر والفقر والذل أهون عليهم من ركوب هذا الطريق

(١) النبأ العظيم، محمد دراز (١٠٥).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي (٤/ ١٩٠٥) رقم (٤٦٩٦)، ومسلم في الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٤) رقم (١٥٢).

الوعر»[١].

لقد علموا أن بقاء هذا الصوت مسموعًا يزيد في خلخلة عقائدهم ويستقطب أفرادهم في الوقت الذي لا يملكون مقارعة الحجة بالحجة فلجأوا إلى إسكاتها في آخر المطاف بالقوة.

**ب ـ شخصية الرسول ﷺ:**

بعد ذكر القرآن وما فيه من جوانب القوة المؤثرة تأتي شخصية الرسول ﷺ، إذ أن الجانب العملي والتطبيقي لنصوص القرآن الكريم، قد تمثل في شخصيته ﷺ حيث أحال تعاليمه إلى واقع ملموس حتى كأنه أصبح قرآنًا يسير على الأرض وهذا ما ذكرته عائشة ـ رضي الله عنها ـ حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «**كان خلقه القرآن**»[٢].

وقد مدحه ربه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[٣] وكان هذا الكمال الخلقي يفرض على المدعوين مزيدًا من الاحترام ويفتح لدعوة الله تعالى آفاقًا من القبول، وقد علم ﷺ من نفسه كما علم الناس منه أنه لم يكذب قط، فكان يستشهد بحسن سيرته على قبول دعوته كما قال ﷺ لقومه: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[٤].

بل قد شهد له أعداؤه بالصدق، فأبوسفيان لما سأله هرقل عن صدقه وقال له: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبوسفيان: لا، قال هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليذرالكذب على الناس ويكذب على الله»[٥].

---

(١) النبأ العظيم (١٠٨ـ١١٠) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب: جامع صلاة الليل (١/٥١٣) رقم (٧٤٦) بنحوه

(٣) سورة القلم، الآية: ٤.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب: تفسير سورة ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ (٤/١٩٠٢) رقم (٤٦٨٧).

(٥) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي (١/٧) رقم (٧).

فإذا أُضيف إلى هذه الصفة بقية صفاته كالتواضع والحياء والمروءة والوفاء، والزهد، والأمانة، والحلم، والعفو، والصفح، والكرم، والإحسان، وغيرها من صفاته الكريمة، كان لا يتمالك من رآه أو سمع دعوته إلاَّ أن تنجذب نفسه لها.

ومع ما هو عليه من محاسن الأخلاق وكريم الشمائل فإنه قد بذل كل طاقته في إبلاغ هذا الدين والحرص على هداية الناس حتى عاتبه ربه بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[٣]، ووصفه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[٤].

أما أسلوبه في الدعوة فكان يتمثل قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٥].

ويتبين جانبٌ من أسلوبه الدعوي المؤثر مع عتبة بن ربيعة الذي جاء يعرض على النبي ﷺ الملك أو السيادة أو المال أو الزواج أو الطب، ويكف عن دعوته إلى الله، فلما فرغ من مقاله قال له النبي ﷺ: «**أفرغت يا أباالوليد؟**» قال: نعم، قال: «**فاسمع مني**» قال: أفعل، فقال: «**بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٣.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾[١]».

فأثر الأسلوب مع الكلام في نفسية أبي الوليد، فرجع إلى قومه، فقال لهم: «قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ. . .»[٢].

ثم مع ما سبق كان ثابتًا على دين الله تعالى، لا يتزحزح، صابرًا في سبيل تبليغه إلى الناس، كما أمره الله عز وجل بذلك في قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[٤]، فسار ﷺ على المنهج الذي أمره الله به مصرًّا على تقرير العبودية لله وحده بلا مشاركة من سلطان عادة أو عرف أو عظيم، أو غير ذلك، متمثلاً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾[٥].

وبهذه القوة التي لم أعرض إلاَّ الشيء اليسير منها، سارت الدعوة إلى الله في الوسط الجاهلي سيرًا حثيثًا، مخالفة أهل الأهواء والشرك وغير مهادنةٍ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾[٦]، فكانت هذه القوة المبنية على الحجة والبيان والصبر والثبات تهدد كيان الجاهلية وتزلزل عقائد أهلها، فاتفقوا ـ على اختلاف مشاربهم ـ على الوقوف في وجهها ومحاولة الصد عنها بكل ما يملكون من وسائل مادية

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ١ـ٧.
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٦٢).
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٤.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٦) سورة القلم، الآية: ٩.

ومعنوية كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾[١]، وكان هذا التصادم الذي وقعت بوادره في مكة بين الفريقين هو مقدمة القتال فيما بعد بين من يريد إخراج الناس من الظلمات إلى النور وهدايتهم إلى دين الله الذي فقدوه وبين من ضل طريق الهدى وأصبح يتخبط في الظلمات فأعشاه نور الإيمان فهب لإطفائه.

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

## المبحث الخامس
## التناقض بين الحق والباطل وأثره في تغذية النزاع

إن العداوة التي وقعت بين الرسول ﷺ وأهل الكفر سببها الاختلاف الجوهري بين ما جاء به وبين ما هم عليه، فالذي جاء به هو الحق كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾(١)، وقوله: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾(٢).

أما الذي هم عليه فهو الباطل كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾(٣)، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾(٤).

وليس بين الحق والباطل التقاء، ودعوة الرسول ﷺ استهدفت إظهار الحق ونشره نقيًّا غير مشوبٍ بشيءٍ من الباطل، فالحق المخلوط بالباطل مرفوض عند الله تعالى بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾(٥)، واللبس هو الخلط(٦)، وقد دل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾(٧) أن إظهار الحق كله وإبطال الباطل كله مراد لله بدلالة الألف واللام الداخلة على الجنس المفيدة

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣١.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١.
(٣) سورة الحج، الآية: ٦٢.
(٤) سورة محمد، الآية: ٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٤٢.
(٦) مفردات ألفاظ القرآن (٧٣٥).
(٧) سورة الأنفال، الآيتان: ٧، ٨.

للاستغراق[١].

**أوجه الاختلاف بين الجاهلية والإسلام:**

ونشير إلى بعض جوانب الاختلاف الحادة بين ما جاء به ﷺ وما هم عليه والتي يتعذر معها الالتقاء وتوجب العداوة بينهما[٢]:

١ـ اختلاف وجهة كل فريق عن الآخر، فالإسلام يقوم على التوحيد المطلق والجاهلية تقوم الشرك والوثنية.

٢ـ الإسلام يقوم على الاستمداد والتلقي من الله تعالى بواسطة رسوله منهاج الحياة ونظامها، في حين أن الجاهلية تقوم على إعطاء القياد الإنساني لغير الله وتتلقى شرائع الحياة وأنظمتها وأنماط سلوكها وتصوراتها عن غير الله، مما تنتجه عقول البشر المبنية على الضعف والظلم والجهل.

٣ـ الإسلام يقيم كل شرائعه على أسس أخلاقية، ويحل ويحرم على نمط يتفق مع حقيقة الإنسان ومهمته في الحياة الدنيا وارتباطه بالآخرة، بينما الجاهلية تقوم على مناهج مرسلة انفصمت عن العروة الوثقىٰ ابتداء فأباحت ما يجلب لها المصالح العاجلة مهما كانت آثمة.

٤ـ الإسلام دين ذو هيمنة شمولية على ما سواه وهو ما نزل إلاَّ لتكون له الكلمة العليا، حيث وجد في جميع أنشطة الحياة وعلائقها من حوله، ويزيل معالم الباطل والفساد، ويجتثها ويحل الحق محلها، وطبيعي أن يخالف رغبات أصحاب المصالح التي بنيت مصالحهم على الباطل، وغالبًا مايكونون من الملأالذين أكثر القرآن من ذكرهم، واعتراضهم سبيل الإصلاح، وأكثروا من الصد عن سبيل الله تعالى.

٥ـ الإسلام ليس دينًا نظريًّا مجردًا، بل هو دين واقعي عملي، يتولى تربية الفرد من حين نطقة بالشهادتين، ثم يصعد به عمليًّا من واقعه الذي

---

(١) القواعد الحسان لعبدالرحمن السعدي ص(٩).

(٢) المنهاج القرآني في التشريع (١٧٨ـ١٧٩) ملخصًا.

هو فيه إلى حيث تكتمل إنسانيته وعبوديته، ومن تلك التربية تكليفه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يجعل المسلم في صدام مستمر مع الباطل لإزالته، وهذه هي علاقة الجهاد في سبيل الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا رأى أهل الباطل هذا الزحف الإصلاحي الذي لن يستثنى تصحيح أوضاعهم شرعوا في صده والوقوف في طريقه.

٦ـ التناقض الحاد بين الجاهلية والإسلام في كل شيء بدءًا من العقائد حتى المخالفة المقصودة في الأسماء والوسائل.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وقد بعث الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ بالحكمة التي هي سنته وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة: أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين، وأمر بمخالفتهم في الهدي الظاهر، وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة؛ لأمورٍ منها: أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

ومنها: أن مشاركتهم في الهدي الظاهر توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهرًا بين المهديين المرضين، وبين المغضوب عليهم والضالين... هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلاَّ مباحًا محضًا، لو تجرد عن مشابهتهم، فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر...»[1].

**القرآن يعمق التمايز بين الفريقين:**

وقد جاء القرآن مؤكدًا حقيقة عدم التقاء المؤمنين مع الكافرين،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١١ـ١٢).

ولم يدع في شيء من آياته إلى تقريب وجهات النظر بين الفريقين، بل أشار إلى أن قبول أنصاف الحلول من مطالب أهل الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾(١).

وقد وردت آياتٌ كثيرة تدعو المؤمنين إلى التميز التام عن أهل الكفر، ليتبين بوضوح نقاء الحق وصلاحه في مقابل ظلمة الباطل وفساده، حتى إذا ما رآه الناس ناصعًا غير مشوب بشيء من الباطل اقتنعت بفضله عقولهم، ودعتهم إلى الالتحاق بركبه عواطفهم، وبهذا يكون تمحض الحق وسيلة من وسائل نشره والدعوة إليه.

أما عندما خلطه المنتسبون إليه بأهوائهم وانحرافاتهم وعرضوها على الآخرين على أنها الإسلام فإن الناس زهدوا في الإسلام كله، واستدلوا على بطلانه بتصرفات المنتسبين إليه المشينة.

ومن أجل هذا التمايز المشار إليه سمي القرآن فرقانًا، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾(٢) قال الطبري: «الفرقان: الفصل بين الحق والباطل»(٣).

وقد عمَّق القرآن التمايز بين الفريقين بأمورٍ منها:

١- عقد المقارنة والمقابلة بين صفات الفريقين لتحصل المفارقة التامة كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾(٤)، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾(٥)، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي

(١) سورة القلم، الآية: ٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٣) جامع البيان (٣/٤٤٨).
(٤) سورة محمد، الآية: ٣.
(٥) سورة الملك، الآية: ٢٢.

ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾(١).

فهذا في الدنيا، أما في الآخرة، فقارن بين مصيريهما، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾(٢).

ولو تتبعنا المقارنة الواردة بين الفريقين في القرآن لخرجنا بالبحث عن مقصوده، ولكن يكفينا القول أن المقارنة بدأت بالعقائد وبلغت حتى المسميات، فسمى الكفار حزب الشيطان في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾(٣)، وبعدها بآيتين سمى المؤمنين حزب الله، فقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾(٤).

٢ـ وصف الكافرين بالصفات الذميمة، وأثنى على المؤمنين بالصفات الحميدة، ومدحهم بها.

فمن الصفات الذميمة الواردة في القرآن للتنفير من مسلك الكافرين: اتصافهم بالظلم، والإشراك، والجهل، واتباع الهوى، والإعراض عن الحق وكراهيته، والصد عن سبيل الله، والإفساد في الأرض، والطغيان، والكبر، والسفه، والتعلّق بالدنيا، والغفلة والفسق، وارتكاب الفواحش، وأكل الحرام، وغير ذلك من الصفات التي تحمل الإنسان عى كراهية من اتصف بها.

ووصف المؤمنين بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وطاعته وطاعة رسوله، والانقياد لحكمه وشرعه، وإفراده بالعبادة، وإقام الصلاة،

---

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٩ـ٢٢.
(٢) سورة الروم، الآيات: ١٤ـ١٦.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٩.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

وإيتاء الزكاة، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، وحسن الخلق، وجماع ذلك آمنوا وعملوا الصالحات.

وهذا يغرس في شعور السامع محبة المؤمنين بالقدر الذي يبغض فيه الكافرين.

٣ـ الأمر بموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يعلن البراءة من الكفر وأهله في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[(١)]، وتتضح البراءة والمفاصلة للكفار في سورة (الكافرون)، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها[(٢)] . . فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين»[(٣)]

**عقيدة الولاء والبراء وأثرها في تغذية النزاع:**

وعقيدة الولاء والبراء هي الركن الأساس لحقيقة التوحيد، بحيث لا يتم الإيمان بدونها، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[(٤)]، وقد رسّخ القرآن هذه العقيدة في قلوب المؤمنين بذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبراءته من معبودات قومه الباطلة في قوله تعالى ـ مادحًا له ـ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤١.

(٢) يشير إلى قوله ﷺ لنوفل: «اقرأ قل يا أيها الكافرون، ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك» أخرجه أبوداود (٢/ ٧٣٣) رقم (٥٠٥٥)، والترمذي (٥/ ٤٤٢) رقم (٣٤٠٣) بنحوه، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٤٥) رقم (٣٦٤٣): «صحيح».

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٣٨).

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[١].

وفي آية أخرى ذكر براءته من قومه وبغضه وعداوته لهم وأمر المؤمنين بالاتساء به في ذلك قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤﴾[٢].

يقول الإمام الطبري: «قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم إلاَّ في قول إبراهيم: «لأستغفرن لك»، فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك؛ لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فتبرأوا من أعداء الله، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرأوا من عبادة ما سواه وأظهروا لهم العداوة والبغضاء»[٣].

وعقيدة الولاء والبراء هي أول مقتضيات كلمة التوحيد، ومن مستلزماتها التي لا تنفك عنها، ويستحيل على عبد أن تستقر في مسارب نفسه عقيدة التوحيد، ثم لا تثمر الحب لله ولأوليائه والبغض لأعداء الله، وتتفجر أعمالاً على الجوارح، فتنتج سلوكًا وأخلاقًا وأنظمة على وفق المنهج الذي أنزله الله، وأدلة ذلك كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨﴾[٤]،

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٧٥ـ٧٧.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٣) جامع البيان (١٣/٣١٨).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[1]، قال الطبري: «يقول: فإن من تولاَّهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل ملتهم ودينهم»[2]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[3] يقول الشيخ حمد بن عتيق ـ مبينًا كثرة النصوص الواردة في ذلك ـ: «إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم ـ أي الولاء والبراء ـ بعدوجوب التوحيد وتحريم ضده»[4].

وقال محمد بن عبدالوهاب: «إنه لا يستقيم للإنسان إسلام ـ ولو وحَّد الله وترك الشرك ـ إلاَّ بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[5]»[6].

وهنا قد يسأل سائل فيقول: كيف تناسب هذه العداوة والبغضاء سمو الإسلام وغاياته النبيلة؟

والجواب أن يقال: إنها عداوة بحق تنبع من محبة ما يحبه الله تعالى وبغض ما يبغض الله تعالى، فمن أحب الله تعالى، وأحب رسوله ﷺ وما أنزل عليه من ربه واعتقد أن ذلك هو الحق اقتضاه ذلك أن يبغض ما خالفه من باطل ضرورة تناقض الحق مع الباطل، وأعلى درجات هذا البغض يتمثل في مقاتلة أعداء الله في سبيل الله.

يقول ابن تيمية ـ بعد أن قرر أن محبة الله ورسوله أصل الدين ـ:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٢) جامع البيان (١٠/ ٤٠٠).
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٤) الولاء والبراء في الإسلام للقحطاني ص(٩).
(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٦) مجموعة التوحيد ص(٢٤) ستة مواضع من السيرة.

«إن المحبة مستلزمة للجهاد؛ لأن المحب يحب ما يحبه محبوبه ويبغض ما يبغض محبوبة، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهى عمَّا ينهى عنه»(١).

ويقول: «وحقيقة الجهاد هو الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، وفي دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان... فإذاترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه»(٢).

كما أن عداوة المؤمن للكافر عداوة إيجابية ينتج عنها النشاط الدءوب لإنقاذ أهل الباطل من ضلالهم بكل الوسائل المشروعة، كما فعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما أحال عداوته إلى عمل مثمر مستمر لم يجعل له غاية دون إيمان قومه بالله وحده، وكذلك بغضه ﷺ حمله على الجهاد في سبيل الله تعالى لإزالة الباطل وتطهير الأرض منه.

وهذا خلاف لما قد يظن أنها كراهية وبغضاء مجردة عن العمل النافع يكتفى منها بسب الكافر أولعنه، وهذا سوء فهم اقتضاه بُعد المسلمين عن معرفة كثير من مقاصد دينهم العظيم، فالرسول ﷺ كان يغشىٰ الكفار في مجالسهم وأسواقهم، فيدعوهم إلى الله تعالى، ويتلطف بهم، حرصًاعلى هدايتهم واستنقاذًا لهم من النار، حتى عاتبه الله تعالى بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾(٣)، فالناس لا يبغضون لذواتهم، وإنما يُبغضون لما قام بهم من الصفات الجاهلية.

وبعد هذا العرض يتضح للمتأمل التناقض بين الوجهتين بما لا يصعب معه التنبوء بما يؤول إليه مصيرهما، سيما إذا علمنا أن المؤمنين مطالبون بدفع مسيرة الدعوة في أوساط الكافرين بما في هذه الدعوة من

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٨).
(٢) المرجع نفسه (١٠/١٩١-١٩٣).
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٣.

كمال وجمال وقوة حجة وبرهان، والعمل على رد الأمور كلها لله تعالى، ورفض كل الآلهة المدعاة، وتسفيه أحلام عابديها، وردها إلى أوضاعها الطبيعية: أحجارًا أو أشجارًا، أو تماثيل لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، ونبذ المعتقدات الضالة في الملائكة والجن، وتغيير العوائد الاجتماعية والقبلية وغيرها، بما يتفق مع الدين الجديد.

لو تصورنا هذا لأدركنا طبيعة المعركة التي كان لابد أن تثور بين الوضع الجاهلي الموروث وبين الدعوة الجديدة الناشئة(١).

(١) الغرباء الأولون (٧١) بتصرف.

# المبحث السادس
# العدوان على المؤمنين وأثره في تقوية موقفهم

لقد استحالت عداوة الكفار ـ السالفة الذكر ـ إلى عدوان يستهدف القضاء على دعوة الحق وإطفاء نور الله تعالى، وذلك حينما شعروا بقوة تأثيرها الذي بينا بعض جوانبه، فحاربوها بشتى الوسائل، ووضعوا العقبات في طريقها، وحاصروها بالشائعات لتطويقهاوتشويهها عند من لم يعرف حقيقتها.

**وسائل الكفار في الصد عن سبيل الله :**

وقد تنوعت وسائلهم في الصد عن سبيل الله، فمنها ما وُجِّه للقرآن الكريم، ومنها ما وُجِّه للرسول ﷺ، ومنها وما وجه لاتباعه وهذه هي منافذ الدعوة التي أرادوا ضربها من خلالها، وكان أكثر هجومهم على الرسول ﷺ لإبطال مفعول ما يحمله من هدى كما يقال: «نطعن في الناقل ليبطل المنقول».

وسنعرض ـ باختصار ـ لما قاموا به من أعمال لتطويق الدعوة واحتوائها وحصرها في بيئة واحدة ليسهل القضاء عليها، ليتضح جانبًا من ظلمهم ممثلاً في منع الهدى الذي لا نجاة للبشرية إلاَّ به، وتقديم مصالحهم الشخصية وأهوائهم وما أملته عليهم عقولهم الضيقة على المصلحة العامة للناس الذين هم في أشد الحاجة إليها، ونعلم من وراء ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾[1] كما نعلم عدالة الإسلام في تشريع قتالهم فيما بعد، لكسر الطوق الذي حاولوا ـ ويحاولون ـ أن يفرضوه على مسيرة الحق، وإزالة الحواجز والعقبات التي تمنع الناس من الهداية.

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

فمن تلك الوسائل :

**١ـ الإعراض عن الحق وعن الاستماع إليه والتواصي بذلك:**

قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ ﴾[١]، وتواصوا بعدم الاستماع إليه وبالتشاغل عند قراءته بالخرافات والهذيان حتى يغلبوا القارىء على قراءته[٢]، وتفقد فائدته، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦ ﴾[٣] .

**٢ـ الاتهامات الباطلة والإشاعات المضللة :**

وأشد تلك الاتهامات اتهامه ﷺ بالكذب والسحر، ويلفت النظر ورودهما مقرونتين في كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾[٤]، وقوله: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ ﴾[٥]، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ ﴾ وبعدها بثلاثة آيات: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾[٦] .

وسنقف قليلاً مع هاتين التهمتين، فهما موجهتان للناقل والمنقول، ولكن تهمة الكذب ألصق بالناقل، وتهمة السحر ألصق بالمنقول، فالأولى تفقد الثقة في الرسول ﷺ، والثانية تبطل أثر القرآن في النفوس، فالناس يعلمون أن الساحر يفرق بين المرء وزوجه، والمرء وقريبه، وكلامه ليس من معهود كلام البشر، وهذا القرآن يفعل نفس

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) الكشاف (٤/ ١٩٢) بنحوه.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٤) سورة ص، الآية: ٤.

(٥) سورة المدثر، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٦) سورة الفرقان، الآيات: ٤ـ٨.

الأثر، فإذا استغلت هذه الموافقة لدى من لم يعلم من حقيقة السحر إلاَّ ذاك ولا يستطيع التمييز بين أباطيل السحرة وكلام الله المنزل على الأنبياء، فإنه قد تنطلي عليه هذه الفرية ويصدقها، ولعل هذا هو السبب في اختيار وصف الرسول ﷺ بالساحر عند قدوم القبائل للحج؛ لإمكان رواج هذه التهمة عليهم، حتى قال قائلهم: «إن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا... وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلاَّ عرف أنه باطل، وأن أقرب القول فيه أن تقولوا إنه ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه والمرء وأخيه» فتفرقوا على ذلك[1].

أما الاتهام بالكذب فهي من الافتراءات التي يقصد منها عزل المفترىٰ عليه عن مواضع التأثير، وأن ينفض الناس من حوله فهي صفة ذميمة استقر قبحها في العقول.

والعقول السليمة إذا تجردت في الحكم على حال النبي ﷺ وما هو عليه من الكمال الإنساني قبل البعثة، وبعدها جزمت ببراءته من هذه التهمة، ولكن ليس كل العقول متساوية في نفيها ذلك، بل وليس كلها يستطيع أن يتجرد عن الهوى وتأثير الشائعات في حكمه، كما أن الآيات الدالة على صدق نبوته يتفاوت الناس في الاقتناع بها، فمنهم من يتبين صدقها لأول وهلة، ومنهم من يحتاج مزيدًا من الوقت للنظر والتأمل، بل إن منهم من لا يكلف نفسه مجرد النظر إليها، اكتفاءً بما هو عليه، أو تصديقًا لشائعات سبقت إليه، كما أن منهم أصحاب العقول الضعيفة التي تستهويها أقل الشبه، وتصدها عن الحق أقل الموانع.

وقد شهدوا له بالصدق في مناسبات كثيرة منها قولهم: «ما جربنا عليك كذبًا»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام(١/ ٣٠٣-٣٠٤)، وجامع البيان(٢٤/ ٢٦)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٤)
(٢) سبق تخريجه ص(١٠١).

ومع هذه الشهادة الجماعية فإن موقفهم قد تغيَّر تجاهه بدافع طمس ما جاء به من الحق، وكان موقف من لا يعرف صدقه أن يقول: القوم أعرف بصاحبهم، لذلك لم تكد قبيلة من قبائل العرب تفكر أول الأمر بالاستجابة لدعوته أو إيوائه، وقد كان وقع هذه التهمة على نفسه شديدًا، وجعلت مهمته في إقناع الناس عسيرة لمحاولتهم إسقاط أعظم ركيزة يتحلى بها الداعي وهي الصدق.

وقد اتُهِم ﷺ باتهامات أخرى كالجنون، والشِعْر، والكهانة، وهي أقلُّ خطرًا مما سبق لكونها مما يمكن اكتشافه بسرعة، وتزول غالبًا بمجرد الحديث إليه ﷺ.

كما اتُهِم بالإتيان بالأساطير والتتلمذ على الأعاجم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾[1] ولم يقولوا: كتبها، لعلمهم أنه لا يكتب، ومن حكمة الله تعالى أن بعثه أميًّا لئلا تكون حجة من خالفه مؤثرة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]، بل قد بلغ من لجاجهم في الخصومة أن زعموا أن الذي علمه هذا القرآن العربي المبين هو من غير الناطقين بالعربية، كما قال تعالى مبينًا ضلالهم ورادًّا عليهم: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[3].

قال ابن كثير: «فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل كيف يتعلم من رجل أعجمي لا يقول هذا من له أدنى

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

مسكة من عقل»[١].

وقوله ـ رحمه الله ـ: «لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل» يحتاج إلى تأمل فأعداء الدعوة لا يقولون تلك التهمة معتقدين أن ذلك الأعجمي قد علم النبي ﷺ هذا القرآن المبين وإنما هي المعاندة والخصومة، كما قال الله عنهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾[٢]، وقد ذكر الله تعالى أن أمثال تلك التهم ليس مماتمليه عليهم عقولهم بل ممايدفعهم إليه طغيانهم، كما قال: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢﴾[٣]، قال الطبري: «ما تأمرهم بذلك أحلامهم وعقولهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ طغوا على ربهم»[٤] وهذا هو المناسب لحالهم وعنادهم.

وخاتمة القول أنهم أكثروا من تلك التهم ونوعوها كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥﴾[٥]، ولعل تنويعهم لتلك التهم لتوافق تنوع عقول ومدارك المدعوّين فمن لم تقنعه هذه فتلك، وقد جاء في القرآن ما يدل بظاهره أنهم يشهدون بأنه جاء بالهدى من ربه، ولولا خوفهم من الناس لاتبعوه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ فرد الله عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾[٦]، وهذا يؤيد القول بأنهم علموا بأنه من عند الله، ولكن أرادوا أن يدفعوه ويردوه شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان، ويحتمل أن طائفة منهم نوعوا تلك التهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٨٧).
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الطور، الآية: ٣٢.
(٤) جامع البيان (٢٢/ ٤٨٠).
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٥.
(٦) سورة القصص، الآية: ٥٧.

اضطرابًا في أمره وجهلاً بحقيقة ما جاء به[١].

وكان هذا الحاجز الإعلامي المضروب على الدعوة وصاحبها يؤدي نتائجه حتى إنه لا يتجاوزه إلاَّ من تحرر من تلك الشائعات، وكان ممن يستطيع التمييز بنفسه بين ما يدعو إليه وبين ما اتهم به.

وللجمع بين المقال والمثال نورد ما في الصحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذا الريح فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه فقال: يا محمد، إني أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد**» فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[٢] قال: فقال هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي»[٣].

فهذا الرجل وقف على دعوى ما قالوا بنفسه، ولكن كم هم أولئك الذين يفعلون كما فعل، ويتأكدون من صدق ما يقال بأنفسهم، ولا يكتفون بحكم غيرهم من المغرضين في مجتمع ضال يردد الشائعات ويتناقلها بمجرد سماعها، إذ لم يترب على التبين الذي زكى الله تعالى به

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٧٤)، وفتح القدير (٣/ ٣٩٩) بنحوه.

(٢) قال الألباني في تعليقه على «مختصر صحيح مسلم» ص(١١٢): «وكذا وقع في مسلم في جميع النسخ، ومال ابن الأثير إلى أنه تصحيف من بعضهم، وأن الصواب «قاموس البحر» كما في سائر الروايات في غير «مسلم» أي وسط البحر ولجته».

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٣) رقم (٨٦٨).

عباده الصالحين، إن الغالبية هم الذين يتأثرون بأمثال هذه الشائعات في المجتمعات الجاهلية، فيبقى أثرها في أذهانهم، ولو لم يكن لها من أثرٍ إلاَّ تجنب صاحب الدعوة، أو التريث في قبول دعوته أو طلب المزيد من دلائل صدقه، أو التردد ـ على الأقل ـ لكان مقصدًا لمن أطلقها وهم يعلمون أنه ليس كل أحد يتأكد من صدق تلك الشائعات بنفسه.

إن طبيعة المعركة القائمة لتملي على أصحاب الباطل أن يقاوموا الحق بكل ما يملكون من وسيلة يظنون أنها تؤثر في ضعف الدعوة وأصحابها وليس من المنتظر أن يشهدوا للرسول ﷺ أمام الناس بالصدق والأمانة، وأنه أتى بكلام عجيب لا تصح نسبته إلاَّ لله ثم يظهرون المخالفة بعد ذلك، فإنهم بذلك يحكمون على عقولهم بالسفه وعلى موروثاتهم وجاهليتهم بالاضمحلال الذي يعقبه الزوال، لذلك أكثروا من تلك الشائعات ـ التي لا يزال ورثة كفرهم يتعاطونها ـ حتى إذا رأوا أنها لا تكفي لصد الناس عن الحق، ولا تصمد أمام نصوص الوحي دفعهم ذلك إلى:

**٣ ـ عدم السماح للقادمين بالاستماع إليه:**

كما يدل على ذلك ما ورد في قصة إسلام أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ وفيها: أن أخاه قال له: «كن على حذر من أهل مكة، فإنهم قد شنفوا[(١)] له وتجهموا» قال أبوذر: فأتيت مكة فتضعّفت رجلاً منهم، فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابىء؟ فأشار إلي فقال: الصابىء، فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيًا عليَّ»[(٢)].

وكذا ماورد في قصة إسلام عمرو بن عبْسة وفيها: «فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ

---

(١) شنفوا له: أي أبغضوه. (النهاية: ٢/ ٥٠٥).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي ذر (٤/ ١٩٢٠) رقم (٢٤٧٣).

مستخفيًا جُرَآء[١] عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه مكة»[٢]. وواضح من السياق دلالته على الحصار المضروب عليه ومنع الناس منه.

**٤ـ أذىٰ المشركين للرسول ﷺ وأصحابه:**

واتَّخذ الأذىٰ صورًا شتَّىٰ حتى بلغ بهم أن وضعوا سلا جزور بين كتفيه وهو ساجد[٣] وتعاهدوا على قتله[٤] وإلى ذلك أشار القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[٥].

أما أصحابه فقد تعرضوا للضرب والتعذيب وغصب الأموال والمحاصرة الاقتصادية، ولو ذهبنا نمثل لذلك لطال بنا المقام، ويكفي أن نورد ما ذكره ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: كان الإسلام ـ يعني المسلمين ـ قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه، وإما يعذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة»[٦].

هذا وأساليب أهل الباطل لم تقتصر على ما ذكرت بل مارسوا غيرها كالتعنت في طلب المعجزات والسخرية به والاستهزاء والتعالي على المؤمنين، ومحاولة إغرائه بمتاع الدنيا والتأثير عليه من خلال أقربائه، وغير ذلك ممَّا ظنوه يثنيه عن هدفه وكذبوا في ظنهم.

**أثر الاضطهاد في تقوية الصف المسلم:**

لقد جاءت اعتداءات الكفار على المؤمنين واضطهادهم بنتائج

---

(١) جُرَآء: بوزن علماء، جمع جرىء: أي متسلطين عليه غير هائبين له. النهاية (١/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة (١/ ٥٦٩) رقم (٨٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: الدعاء على المشركين (٣/ ١٠٧٢) رقم (٢٧٧٦).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٣، ٣٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٨): رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح. ينظر: الملحق (٢) ص(٤٢٧).

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٦) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ (٤/ ١٦٤٠) رقم (٤٢٤٣).

طيبة قوّت جانب الصف المسلم، وزادته صلابة، ومهّدت لتحملهم أعباء الدعوة فيما بعد والجهاد في سبيلها. فأهل الجاهلية لا يملكون الحجة الكافية لإقناع من أسلم بالعدول عن إسلامه لذا يعوضون هذا النقص باللجوء إلى القوة في الوقت الذي اقتنع فيه الفرد بسلامة موقفه وصحة دينه فلا تزيده تلك الاضطهادات إلاَّ ثباتًا.

ثم إن العداء المتبادل بين الفريقين جعل الهوة واسعة بينهما، بحيث لا يقدم أحد على الدخول في الإسلام إلاَّ بعد الاقتناع التام بصحة ما أقدم عليه، وبعد أن وطّن نفسه لتحمل الظروف القاسية التي يرى أهل الجاهلية يفرضونها على من أسلم.

وهذا يفسِّر شدة تمسك المسلمين الأوائل بدينهم لعلمهم أن مفارقتهم لجاهليتهم ودخولهم في الإسلام تعني الانتقال من مجتمع له خصائص وعقائد وسلوك إلى مجتمع آخر مخالف له في الخصائص والاعتقادات والسلوك، وأنه ليس بين المجتمعين إلاَّ المعاداة والمغالبة لظهور أحدهما على الآخر، ثم ازدادت هذه المفارقة المكتسبة من عداء أهل الجاهلية لهم وعدوانهم عليهم، عمقًا من جهة أخرى، حينما أدركوا أن «لا إله إلاَّ الله» ليست كلمة تقال باللسان فحسب بل هي مقتضية للانخلاع من كل ما كان عليه في الجاهلية مما يخالف دين الله تعالى ومعاداته والبراءة منه والانضمام إلى المجتمع الإسلامي الجديد بقيادته الجديدة، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته(١).

فعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ والذي هو من أشد خصوم الدعوة قبل الإسلام، والذي قال فيه سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ: «لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم»(٢) ـ قد انقلبت حاله

---

(١) معالم في الطريق (١٩) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: إسلام عمر رضي الله عنه (٣/ ١٤٠٤) رقم (٣٦٥٤).

تمامًا بعد إسلامه مباشرة وشرع في موالاة المؤمنين ونصرتهم بالقدر الذي عادى فيه الكفار وأظهر فيه بغضهم ومفارقتهم، فما أن سمع الكفار بإسلامه حتى «ثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلوه حتى قامت الشمس على رؤوسهم وقعدوا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا»[١]، بل لقد عملوا على قتله، ففي الصحيح عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما هو ـ أي عمر ـ في الدار خائفًا، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي، فقال له: مالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت، قال: لا سبيل إليك»[٢] فردهم عنه.

وكذا عندما أسلم أبوذر قاموا إليه فضربوه حتى أضجعوه[٣] ـ كما سبق ـ، وعندما أسلم ثمامة قال لقريش: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[٤].

والأمثلة كثيرة دالة على المفارقة التامة بين من آمن وبين أهل الجاهلية من بداية الطريق يغذيها شعور المسلم باستعلائه بالإيمان وكونه على الحق الذي يحبه الله تعالى، وأن عدوه على الباطل، وشعوره بمعية الله تعالى ـ الذي بيده مقاليد كل شيء ـ له، وعلمه بأن الله ناصر الحق وأهله في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[٥]، وأن الآجال لا يتقدم إليها العبد ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٦]، وكذلك علمه بأن عداوة الكفار وكيدهم له لا

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٤)، وأسد الغابة (٣/ ٦٤٦).
(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: إسلام عمر بن الخطاب (٣/ ١٤٠٣) رقم (٣٦٥١).
(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: إسلام أبي ذر (٣/ ١٤٠٢) رقم (٣٦٤٨).
(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب: وفد بني حنيفة (٤/ ١٥٨٩) رقم (٤١١٤).
(٥) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

تضره إلاَّ إذا شاء الله ذلك، وهو لا يشاء أمرًا للمؤمن إلاَّ وفيه خير، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾(١).

فإذا كانت نفسية المؤمن بهذه القوة، أمكن التعرف على مستقبل العلاقة بين الفريقين، وانطلاقًا من هذا، فقد شعر المسلمون بضرورة عبادة ربهم بحرية، وحماية أنفسهم، وما يحملون من حق ومجابهة العدو بوسائل تكافىء وسائله فجاءوا إلى النبي ﷺ يلتمسون منه الإذن في القتال.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «**إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم**»(٢).

وهذه هي مرحلة الصبر والتحمل الوراد ذكرها في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٣).

وهنا يبرز سؤال وهو:

**لماذا لم يستجب الرسول ﷺ لمطلب الصحابة في تشريع الجهاد بمكة، مع شعورهم بالحاجة إليه؟**

**وما مردود الصبر والتحمل وكف اليد على مسيرة الدعوة؟**

**الجواب**: أن الرسول ﷺ إنما يسير على منهج إصلاحي شامل أمره الله تعالى به، وهو كفيلٌ بالوصول إلى غايته لأنه من لدن حكيم خبير، ومرحلة كف اليد وتحمل الأذى جزء من ذلك المنهج، وله تعلق

(١) سورة التوبة، الآية: ٥١.

(٢) سنن النسائي (٦/٣ رقم ٣٠٨٦)، والحاكم في المستدرك (٢/٦٦، ٣٠٧)، وقال في الموضعين: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وأقره الذهبي، وقال الوادعي (في الصحيح المسند من أسباب النزول: ٨١): «الأولى أن يقال رجاله رجال الصحيح».

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٧.

بالهدف الأعلى الذي أخرج الله هذه الأمة من أجله، فهي لم تخرج إلاَّ لهداية الناس، وليس القتال في سبيل الله ـ مع أهميته ـ إلاَّ وسيلة لتلك الغاية، وهي وسيلة حادة إذا وقعت في أيدي من لم يترب التربية الإيمانية الكافية، فلربما أساء استخدامها ووظفها في غير ما شرعت له، فحصلت تلك التربية المرجوة في مرحلة الإعداد هذه، وقد آتت هذه المرحلة ثمارًا عظيمة أفادت الدعوة في مسيرها، منها:

١ـ بيان طبيعة تحمل دين الله تعالى وأنه طريق مليء بالمخاطر والتضحيات، فمن رامه فعليه الاستعداد لذلك، فالأجور العظيمة التي نصبها الله تعالى لمن جاهد في سبيل إعلاء كلمته لا ينالها إلاَّ مستحقها، ولا يتماير الناس في صدقهم في ذلك من عدمه إلاَّ بالابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾(١).

٢ـ التمييز بين الصادقين والكاذبين كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾(٣).

ومعلوم أن البناء الذي يُراد له أن يتحمل ما يشاد عليه، لابد من العناية بقواعده وأسسه واختيارها وإبعاد الضعيف والرخو الذي لا يعتمد عليه وقت الشدة، وكذلك بناء المؤمنين الذين سيقام دين الله على أكتافهم لابد من اختيارهم بعناية، والتمييز بين من يصلح ومن لا يصلح، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ

(١) سورة محمد، الآية ٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١ـ٣.
(٣) سورة محمد، الآية ٣١.

يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[(١)].

فالصبر على الابتلاء والشدائد رجاء ما عندالله من الفرج والنصر في الدنيا والثواب في الآخرة، هو دليل على إيمان صاحبه، إذ لا مصلحة للدخلاء والمنافقين من تحمل شدائد لا يرجون منها منفعة، فالابتلاء كفيل بتصفية الصف المسلم وفي نفس الوقت يزداد به المؤمن هداية وبصيرة[(٢)]، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[(٣)]. يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته، ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له، ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلاَّ بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذه الدار وإلاَّ ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة»[(٤)].

٣ـ إن الابتلاء يفيد الدعوة إلى الله والقائمين عليها في معرفة رجالها ومدى الاعتماد على كل واحد منهم، ومعرفة صلابتهم في المواقف وتنوع مواهبهم، فالناس في الرخاء مستورون، والشدائد هي التي تفرق بينهم، فإذا حصل التمييز بين الأفراد وكفاءاتهم تولى كل منهم ما يناسبه، أما الذين فشلوا في الابتلاء أو ضعفوا فيه فحقهم أن تزداد تربيتهم في الجوانب التي قصروا فيها مع بقائهم مستظلين بظلال الدعوة لكن لا توكل إليهم مقاليد الأمور.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٣).
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٤) زاد المعاد (٣/ ١٨).

٤ـ لقد قدم الكفار باضطهادهم للمسلمين أهم ما يحتاج إليه الصف المسلم من الصبر على الأذى في سبيل الله الذي أوصى الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(١)، والممدوح أصحابه في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾(٢).

وكذا استفادوا التربية على ضبط النفس، وحبس دواعي الانطلاق، والتعود على الانضباط والإحكام، واقتفاء أوامر الله ورسوله ﷺ، وعدم الافتئات على القيادة، وهذا هو أهم ما في النظام العسكري فيما بعد.

ولم تكن نفوسهم قبل ذلك ترضى بأن تحتمل ضيمًا أو تصبر على إهانة، ولكنها التربية الحكيمة التي تعدهم إلى قيادة البشرية بأجمعها، بعد تخليهم عن الأنانية والانتقام للنفس، والثورة لأتفه الأسباب، وغيرها من المساوىء التي لو لم يتربوا على التخلي عنها مدة كافية تربية عملية لأمكن أن يُشوهوا نضارة ما يحملون من هدى ونور، ولما حصلت تلك الفتوحات الكبيرة في مثل ذلك الوقت القصير «ثلاث عشر عامًا تمر في تربية الضبط والإحكام وتمهد للأعوام العشرة المدنية التي تلتها والتي تم فيها فتح الجزيرة العربية وهذه تمهد للأعوام التي تلتها والتي امتد فيها الإسلام إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب»(٣).

«فإعداد الصف المسلم لمواجهة الجاهلية وإزالة شركها لا يمكن أن يتم في الرخاء إنما يتم في الشدة المحرقة، فكما يدرب الجيش المحارب في الصحراء على احتمال العطش، والرمضاء، ودرجات

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٣) سيبل الدعوة الإسلامية، محمد أمين المصري (١١١).

البرد، والريح العاصفة، فكذلك تم تدريب الجيل الأول من الصحابة حتى يعودهم على الجهد، فلا يجهدهم بعد ذلك العمل ولا الاستمرار فيه. من أجل ذلك حصل الابتلاء الذي يتعود فيه المؤمنون على الحرمان من متاع الأرض، والتخفف من جواذبها، والقدرة على الانفلات منها في أي لحظة عند الداعي لذلك.

إن الابتلاء يكتشف به المؤمن طاقة من الصبر لم يكن يظنها موجودة في نفسه أو لم يظنها بهذا القدر، وفي هذاتثبيت له على الابتلاء وتشجيع على احتمال مثله إذا تعرض له في ظرف آخر كأي تجربة جديدة، قد يخشى الإنسان من خوضها فإذا خاضها بنجاح لم تعد تكرثه من بعد، وإن كانت تكلفه الكثير من الجهد.

كما يكتشف به أن كثيرًا من لوازم الحياة التي تظن في الرخاء ضرورات لتتكشف وقت البلاء بأنها ليست كذلك بدلالة أنه حرم منها فلم يفقد إلاَّ القليل بل قد زادت حياته غنى واتساعًا، بألوان من المشاعر رفيعة عالية، ما كان يتذوق طعمها في الرخاء.

ومن هنا يتخرج نماذج فائقة من البشر استطاعت أن تتجرد لله وأن تتحمل المشقة في سبيل الله، وتستعلى بإيمانها على جميع العقبات التي توضع في طريقها لتمنعها من إبلاغ رسالة ربها وإقامة دينه وعدله بين الناس»[١].

٥- ومن نتائج الابتلاء أنه وحَّد الصف تجاه العدو المشترك الذي فرض على المؤمنين وحدة المصير برميهم عن قوس واحد، فالتف المؤمنون على بعضهم في مواجهة الخطر حتى أصبحوا كالجسد الواحد، وليس تلك الوحدة ناتجة عن إدراكهم لأهمية اتحاد الصف في مواجهة الأعداء فحسب، بل هي وحدة أملاها عليهم الإيمان

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب (٢/ ٦٤-٦٨) مفرقًا بتصرف.

بدين تعانقت فيه أرواح المؤمنين، وتحابوا في الله، وتكافلوا، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(١)]. وقوله ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»[(٢)].

وقد أدى هذا التلاحم إلى بناء محكم «بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغًا لولا أنه وقع بالفعل لعد من أحلام الحالمين»[(٣)].

٦ـ تعميق التوحيد ممثلاً في تربية المؤمنين على تقديم محبوبات الله على محبوبات النفس، وألاَّ يثوروا إلاَّ غضبًا لله تعالى ولنصرة دينه، ومع أن الانتصار للنفس مشروع بدلالة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾[(٤)]، فإن المنهج الرباني جعله تابعًا للهدف المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[(٥)]، لا هدفًا بذاته جمعًا بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[(٦)].

ويتمثل التوحيد في الابتلاء أن المؤمن يضع نفسه في الموضع اللائق بعبوديته لله يراعي ما يأمره به مولاه، فإن أمره بالصبر على الأذى صبر وكف يده، لا ذلاً، ولا استخذاء لأعدائه، ولكن طاعة لله رب العالمين، ثم لما أمره بالجهاد بالنفس والمال قدمها لله بنفس سخية لإعلاء كلمة الله تعالى.

٧ـ إن المسلم ـ وهو يتحمل أذى المشركين ـ ثم تعرض عليه سيرة

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم (٥/٢٢٣٨) رقم (٥٦٦٥).

(٣) طريق الدعوة في ظلال القرآن، أحمد الفائز (١/١٨٨).

(٤) سورة الشورى، الآية: ٣٩.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(٦) سورة التوبة، الآيتان: ١٤، ١٥.

المؤمنين السابقين مع رسلهم وكيف صبروا على الشدائد ليغرس في نفسه الشعور بالانتماء إلى تلك القافلة المباركة، ويشعر بوشائج الصلة تربطه بهم، فيصبر كما صبروا، بل ويتلقى ذلك الأذى بنفس راضية حين يستشعر أن عاقبة هذاالابتلاء الجنة، وقد جاء الوحي مؤكدًا هذاالمعنى في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[(١)]، وقولهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ فيه إيحاء بما يعانونه من عذاب أوقعه عليهم أعدائهم مع استبطائهم حصول النصر الذي وعد الله به المؤمنين في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[(٢)].

وكان ﷺ يربي أصحابه على التأسي بمن سبقهم من المؤمنين، ويحدثهم عن شدة ما لاقوا في سبيل الله، ويأمرهم بالصبر على مثل ما صبروا عليه، فعن خبَّاب ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ﷺ ـ وهو متوسد بردةً في ظل الكعبة ـ ولقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يارسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه**» وفي لفظ: «**ولكنكم تستعجلون**»[(٣)] وهذا الاستعجال موافق لقول من سبق: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ فدل على تكرره من المؤمنين أوقات الشدة والابتلاء، وأنه لا ينافي الإيمان بدلالة أن الله تعالى أثبت لهم وصف الإيمان مع استبطائهم للنصر، ودلَّت آية أخرى أن النصر المنتظر «يتنزل عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب: علامات النبوة (٣/ ١٣٢٢)، رقم (٣٤٢٦).

في أحوج الأوقات إليه»[١] كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[٢] وبهذا يكون كلما زاد الابتلاء زاد معه الأمل في حصول النصر الموعود.

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٩٨).
(٢) سورة يوسف، الآية: ١١٠.

# الفصل الثاني
# العدل والرحمة في المنهج التشريعي لجهاده ﷺ

وفيه تمهيد وأربعة مباحث :

**المبحث الأول: أهمية تشريع الجهاد.**

**المبحث الثاني: هدف الجهاد في سبيل الله وغايته.**

**المبحث الثالث: مكانة الجهاد ووسائل تشريعه.**

**المبحث الرابع: آداب الجهاد ومعاملاته وأحكامه.**

# تمهيد

بعد أن عرفنا أثر دعوة الإسلام في الوسط الجاهلي، وما أفرزته من العداوة بين أهل الحق والباطل، بما لا يمكن التقاؤها إلاَّ على وجه التنازع، ثم تبين أنه لابد من وقوع المعارك بين الطرفين ضرورة أن أهل الحق يسعون إلى إزالة ظلمات الجاهلية، وأهل الباطل يرون في ذلك هدم لما اعتادوه من أوضاع منحرفة، فقاوموا دعوة الحق وحاربوها، واضطهدوا أتباعها وضيَّقوا عليهم، وكان ذلك بمثابة الإرهاصات التي تسبق تقاتل الفريقين.

وهذا الوضع يكاد يدفع المتأمّل إلى الجزم بأن حكمة الله تعالى الذي أنزل هذا الدين رحمة للغالمين، لابد أن تشرع من الوسائل ما يكفل إعزاز هذا الدين المنزل وأهله، وإبطال الباطل، وخذلان أهله، ليتحقق موعود الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾(١).

فكان تشريع القتال في سبيل الله الذي انتظره المؤمنون وتشوَّفوا لتشريعه لمسيس الحاجة إليه، وسنتناول منهج تشريعه من خلال المباحث التالية:

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

## المبحث الأول
## أهمية تشريع الجهاد في سبيل الله

شُرع الجهاد القتالي بعد الهجرة التي تُعد بداية مرحلة جديدة من مراحل العمل؛ لإقامة دين الله تعالى.

وقد سبقت هذه المرحلة مرحلةُ بناء هذا الدين في نفوس الأفراد المؤمنين، وإخراج ما خالطها من أدران الجاهلية، فلما كانوا كذلك أمرهم المولى عز وجل بإقامته على الأرض واقعًا ملموسًا متمثلاً في دولة تحميه وتقوم على نشره، ويحال فيها منهج الله الذي آمنت به القلوب وامتلأت بحبه إلى عمل مثمر وسلوك سوي، ونظام يسيطر على كافة شؤون الحياة.

لأجل هذا أمر بالهجرة إلى أرض لا سلطان فيها لغير المسلمين، وذلك لتكوين القاعدة الصلبة، والتي هي نواة الأمة، ومركز انطلاقها لتبليغ دين الله تعالى.

**التلازم بين الهجرة والجهاد:**

كان كثير من العبادات والمعاملات والسلوك والآداب التي تنظم حياة المجتمع المسلم، والتي لا يتسنَّىٰ تطبيقها إلاَّ في ظل دولة تحميها، لم تنزل في مكة؛ لأنها لو نزلت فيها والسلطة ليست بأيدي المؤمنين، فقد لا يتمكن كثير من المؤمنين من إقامتها، بل ولا يمكّنهم الكافرون من ذلك، فيعيش المؤمن في تناقض بين ما يمليه عليه دينه وبين ما يمليه عليه واقعه المخالف، فيؤثر ذلك على تربيته وتكوين شخصيته.

وبهذا تكون الهجرة خطوة هامة في سبيل إقامة دين الله، من خلال تجمع المؤمنين من كل مكان لممارسة تعاليم الإسلام من جهة، ومن جهة أخرى لإقامة الدولة التي ستحمي وتحمل الإسلام، والتي هي في أشد الحاجة إلى تكثير سواد أهل الحق، وتنظيم جهودهم، وإظهار قوتهم، ودعم قيادتهم في وسط مجتمع مختلط فيه المشركون

والمنافقون واليهود، ويحيط به الأعراب المتربصون، ومن هذا الجانب فقد وافقت الهجرة هدف الجهاد وغايته، إذ كل منهما مقصود لإقامة دين الله تعالى وإظهاره ونشره.

ولعل هذا هو السبب الذي قرن بينهما في الذكر في كثير من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ﴾[3] وغيرها.

ولكن تختلف الهجرة عن الجهاد في كونها تشريع اقتضته مصلحة بداية تكوين الدولة وحاجتها إلى المهاجرين حتى إذا تحقَّق الغرض الذي من أجله شرعت وحصلت الكفاية أوقفت بدلالة قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيّة**»[4]، فالحديث يدل على إيقاف الهجرة واستمرار الجهاد، وهذا هو وجه الاختلاف بينهما، وقد ورد حديث صحيح يدل على بقائها، وهو قوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفّار**»[5].

ويُجمع بينهما: بأنه لا هجرة من مكة بعد أن أصبحت دار إسلام،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١٠.
(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: هجرة النبي ﷺ.. (٣/١٤١٦) رقم (٣٦٨٦)، ومسلم في الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام.. (٣/١٤٨٨) رقم (١٨٦٤)
(٥) أخرجه أحمد (١/١٩٢)، والنسائي في كتاب البيعة، باب: ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة (٧/١٤٦) رقم (٤١٧٢)، وصححه الألباني. انظر: ملحق (٢) ص(٤٢٧).

كما أن الهجرة التي كان يبايع عليها أصحابه رضي الله عنهم، ولها عظيم الأثر في حياة المجتمع المسلم الناشيء لم تعد الحاجة إليها قائمة كما يُفهم من قوله ﷺ: «**ذهب أهل الهجرة بما فيها**»[(١)].

أمَّا إذا جاء زمان احتاج المسلمون فيه أن يتجمَّعوا لإقامة دين الله، ووُجِدَت الظروف المقاربة لتلك التي حصلت في صدر الإسلام، فهذه الحال تتنزل عليها الآيات الكثيرة الورادة في فضل الهجرة، وكذا قوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو**»، وعلى هذا يُقال: إن تشريع الهجرة وإيقافها بعد فترة ليست بطَويلة يدل دلالة واضحة أن الإسلام في تشريعاته يراعي طبيعة المرحلة التي تمر بها مسيرة الدعوة، فيشرع لها ما يناسبها، وهذا مستسقى من فهم عائشة ـ رضي الله عنها ـ للهجرة إذ قالت حين سُئِلَت عنها: «**لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسول الله ﷺ مخافة أن يُفتن عليه، فأمَّا اليوم فقد أظهر الله الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية**»[(٢)].

وهذا فهمٌ دقيقٌ للهجرة، فهي مرتبطة بحالٍ معينةٍ توجد بوجودها، وتزول بزوالها، وهي المخافة من الفتنة التي توجد عند ضعف المؤمنين، وظهور أعدائهم عليهم، بحيث لا يكون لهم شوكة تمنع غيرهم من الاعتداء عليهم، فتشرع في هذه الحال الهجرة، وتشعر كثرة الآيات الواردة في فضلها بأنها تشريع باق ما احتيج إليه. ثم إن الناس الذين يقومون على دين الله تعالى لايزالون تعتريهم حالات الضعف والقوة، وهم مُكلَّفون بإقامته على ضوء المنهج الذي أقامه به ﷺ وبنفس الطريق الذي سار عليه، قال ابن حجر: «مادام في الدنيا دار كفر فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي الفتنة»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: من شهد الفتح (٤/١٥٦٦) رقم (٤٠٥٤).
(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: هجرة النبي ﷺ (٤/١٤١٦) رقم (٣٦٨٧).
(٣) فتح الباري (٧/ ٢٧٠).

**قلتُ**: واحتاج إليه المسلمون إن توقفت المصلحة على هجرته، أو انتفع ببقائه المشركون، فليس كل الصحابة الذين هاجروا إلى المدينة في أول الأمر يقتصر سبب هجرتهم على الخوف من الفتنة، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يُضرب فيقتل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[1]، فذكر رضي الله عنه تكثير السواد، وهي منفعة ظاهرة للمشركين وجعلها من أسباب وجوب الهجرة المدلول عليه بالآية

**خوف المشركين من الهجرة والنصرة:**

لقد علم المشركون أن هجرةرسول اللهﷺ وصحابته إلى المدينة لا تعني قطع صلاتهم بمكة، بل تعني تقوية جانبهم حتى يتمكنوا من منازلة خصومهم ومقاتلتهم، فطبيعة هذا الدين المنزَّل تتطلب الانتشار والتقدم إلى الناس كافة، ودعوتهم إلى الحق وإزالة ما هم عليه من باطل.

لذلك عملوا ما في وسعهم لصد المؤمنين عن الهجرة[2]، وكذا رسول الله ﷺ وإليه أشار المولى عز وجل في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

وقد كان الأمر الذي خافته قريش وحاولت تفاديه ـ بعدما أدركت خطورته على مكانتها ـ هو الذي سعى إليه رسول الله ﷺ حتى لحق بأصحابه الذين شاركوا المشركين في الفهم بأن إيواءه ونصرته تعني حمايته والمقاتلة دونه، كما فهموا أن ذلك بمثابة إعلان الحرب بين أهل

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ (٤/١٦٧٨) رقم (٤٣٢٠) والآية ٩٧ من سورة النساء.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٠) مفصلاً.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

مكة الذين أخرجوه وأهل المدينة الذين آووه، ويدل على ذلك ما جاء في بنود بيعة العقبة الثانية التي ذكر فيها أمورٌ تتعلق بالقتال المرتقب من: النصرة، والحرب، والمنعة، والقتل، والسيف، والصبر، ونحوها، فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال في سياق حديثه لتلك البيعة: «قال رسول الله ﷺ: «**وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قَدِمْت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة**» فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زُرارة ـ وهوأصغرهم ـ فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلاَّ ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف. . .»(١).

ويدل على أن قريش اعتبرت مجرد الإيواء والنصرة بمثابة إعلان الحرب ما في الصحيح من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار فلقيهما أبوجهل، فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبوجهل: ألاَ أراك تطوف بمكة آمنًا، وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أمَا والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا. . .»(٢).

فسعد ـ رضي الله عنه ـ لم يُمَكَّن من الطواف بعد الهجرة إلاَّ في جوارٍ، لعلمه بعداوة قريش له، وأن سببها هو إيواء رسول الله ﷺ والمهاجرين ونصرتهم.

فإذا عُلِمَ هذا، فإننا لا نتكلف معه البحث عن المبررات والدوافع

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٣٢٢)، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٦٣): «رواه أحمد بإسناد حسن». انظر: ملحق (٢) ص(٤٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر (٤/ ١٤٥٣) رقم (٣٧٣٤).

لكل حرب تقع بين الرسول ﷺ وبين خصومه خارجة عن طبيعة هذه العداوة، والتي ابتدأت منذ إعلان المفارقة بين المؤمنين والكافرين في أول العهد المكي، ولم تزدد مع الأيام إلاَّ رسوخًا، حتى إذا وجَد أهل الحق من ينصرهم ويؤيهم انصب غضب أهل الباطل عليهم وعلى من آواهم، وآذنوهم بالحرب. وهذا يؤدي إلى القول بأن المسلمين حتى لو لم يقاتلوا أعداءهم فإن أعداءهم سيقاتلونهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾(١)، فمادام المسلمون متمسكين بدينهم، فهذا هو الدافع الذي يغري الكفار بمقاتلتهم ـ كما هو ظاهر الآية ـ فإذا أُضيف مفهوم الهجرة وما دلت عليه من معاني القتال برزت أهمية تشريع القتال بعد مرحلة كف اليد المكية.

**إقامة الدولة وسيلة لإقامة الدين:**

ومن دواعي تشريع القتال كذلك الشروع في إقامة الدولة الإسلامية التي تعتبر قاعدة الانطلاق لهذا الدين وحصنه الحصين، فالرسول ﷺ مأمور بتبليغ دين الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك عن طريق تكوين أمة تتمثل هذا الدين في حياتها ثم تخرج به إلى الناس، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(٢).

فكان خروجهم الذي دلَّ عليه واقع صنيعهم عن طريق تثبيت دعائم دولتهم وغرس مبادئها في أفرادها، ثم توسيع دائرة نفوذها بدعوة القبائل المجاورة، وعقد المحالفات والموادعات معهم لضمان تعاونهم أو حيادهم ـ على الأقل ـ ثم بإبراز قوة المسلمين التي تحقق مزيدًا من الموادعات مع محبي القوة ومحترميها، وتهدد الأعداء وحلفاءهم.

وذلك لأن الناس الموجهة لهم الدعوة ينتمون إلى قبائل وشعوب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

مكونين وحدات ذات روابط معينة، تملي عليهم هذه الروابط تكاتف الجهود لمقاومة ما يعدونه خطرًا يهدد وحدتهم، أو يعرض مجتمعهم للتفكك.

إن إقامة الدولة الإسلامية جزء لا يتجزأ من إقامة دين الله تعالى، إذ هي الوسيلة التي تحمي مسيرة الدعوة، بحيث تدفع عنها، وتستظل بسلطانها، وتستفيد من هيبتها، والناس دخلوا في دين الله أفواجًا عندما رأوا الإسلام متمثلاً في دولة تحميه، ويزداد سلطانه بزيادة سلطانها.

ثم هي بواسطة قيادتها تشرف على تهيئة الجو المناسب الذي يكفل مزيدًا من التربية الإيمانية والسلوكية في الوقت الذي تعين فيه المقصرين وضعاف الإيمان على التمسك بدين الله بما تقيمه من حدود وعقوبات، وبما شرعه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد قام ﷺ بتوطيد دعائم دولته من خلال ما يأتي:

١ـ مبايعة أصحابه له على أنه ولي أمر المسلمين له حق السمع والطاعة والحماية والنصرة، وأنه يلي دون غيره إدارة شؤون المدينة، ولا يقطع أمر ذو بال دونه، وقد دل على ذلك ما ورد في الوثيقة التي كتبت بين أهل المدينة، وفيها: «**وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله**»(١).

قال ابن تيمية: «وكان رسول الله ﷺ في مدينته النبوية يتولى جميع ما يتعلَّق بولاة الأمور، ويولي في الأماكن البعيدة عنه... وكذلك كان يؤمر على السَّرايا ويبعث على الأموال الزكوية السعاة، فيأخذونها ممَّن هي عليه، ويدفعونها إلى مستحقيها...»(٢).

٢ـ البدء ببناء المسجد الذي لم يعد لأداء الصلاة فحسب، بل كان مركزًا

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله (٦٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٨١).

للقيادة، بحيث تعقد فيه الألوية، وتُبعث منه البعوث، وتُقام فيه الدروس، وتستقبل فيه الوفود والرسل، ويأوي إليه أهل الصُّفَّة، إضافة إلى ما يحققه من التآلف والمحبة بين المؤمنين الذين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم، وإن لم يكن كلهم، فرؤوسهم وكبراؤهم.

٣ـ تمتين العلاقة بين المهاجرين والأنصار بما عقده من رابطة التآخي بينهم التي بلغت درجة التوارث، يقول ابن القيم: «آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾(١) ردَّ التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة»(٢).

٤ـ إذابة النعرات القبلية والفوارق الطبقية، ورفع مستوى الأفراد من الشعور بالانتماء إلى القبيلة إلى الانتماء إلى الأمة المسلمة المختارة التي يجتمع أفرادها على دين الله تعالى، وقد رفعت الرابطة الإيمانية والأخوة في الله إلى موضع يعلو على جميع الروابط الأخرى، بل إنه لا قيمة لبقية الروابط إذاما فقدت رابطة الإيمان، وهذا ما أثبته المولى عز وجل في كتابه حيث نفى رابطة النسب بين نوح ـ عليه السلام ـ وابنه حينما انتفت رابطة الدين، فقال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾(٣).

٥ـ عقد المعاهدة بين المسلمين واليهود من سكَّان المدينة لضمان تماسك الجبهة الداخلية ضد أي عدو خارجي، وذلك بكتابة صحيفة وضِّح فيها التزامات الأطراف المشاركة، وهذه الصحيفة ركيزة مهمة

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.
(٢) زاد المعاد(٣/ ٦٣)، وقد أخرجه البخاري بنحوه(٤/ ١٦٧١) رقم(٤٣٠٤) دون ذكر العدد.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٦.

في فهم سياسة رسول الله ﷺ للدولة، كما هي أيضًا مهمة في تفسير موقف رسول الله ﷺ من اليهود الذين نقضوا العهد، فعاملهم ﷺ بما يستحقون حيث أخرج بعضهم وقتل بعضهم الآخر، ومما ورد في تلك الصحيفة: «**وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة**»(١).

**الأخطار المحدقة بالدولة الناشئة:**

وما كادت هذه الدولة الناشئة تقوم وترسي دعائمها حتى تتابعت إليها جموع المهاجرين الذين فرضت عليهم الهجرة في أول الأمر، مما يجعل الناظر يجزم بأن هذه الجموع المتدفقة ـ التي لا يجمع بينها إلاَّ دين الله ـ ستدعم مكانة المسلمين في المدينة، وتقويهم على من سواهم.

فبدأت معالم الصراع تظهر بين هذه الدولة وبين خصومها التي التقت مصلحتهم في الداخل والخارج، وتضافرت جهودهم على سحق قوتها المتنامية وتفتيت وحدتها الداخلية الصلبة.

وقد تمثل الخطر الداخلي على الدولة من طائفتين من طوائف المدينة:

١ـ **اليهود**: الذين تبيَّنوا أمر الرسول ﷺ وعَلِمُوا أنه صاحب رسالة يسعى إلى إظهار دين الله الحق المخالف لما هم عليه، وأنه يستشهد على صدق ما يقول بمعرفتهم له، إذ هو مذكور عندهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾(٢)، فهم وإن كذبوه ظاهرًا أمام الناس إلاَّ إنه ممَّا يضعف موقفهم تجاهه أنهم يقرون به فيما بينهم، وهذا يضعف مقاومتهم المعنوية سيما وأن بعض أكابرهم قد دخلوا في دينه وجزموا بانطباق الصفات المذكورة في النبي المنتظر عليه كما فعل عبدالله بن سلام

(١) مجموعة الوثائق السياسية (٦٢).
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

ـ رضي الله عنه ـ.[١]

ثم زاد من عداوتهم له أنه ألَّف بين الأوس والخزرج، وأزال ما بينهم من شحناء وحروب، حتى أصبحوا بنعمة الله إخوانًا، وهذا أمر يسوء يهود الذين سعوا منذ وقت طويل إلى احتلال مكانة مرموقة في المدينة بين قبيلتيها المتنازعتين، سيما وهذا النزاع يثري الناحية الاقتصادية المهمة عند يهود على مر التأريخ، حيث أنهم يبيعون السلاح على الطرفين بأسعار مكلفة مع ما يصاحبها من التعامل الربوي[٢].

يضاف إلى عداوتهم للرسول ﷺ أن المهاجرين المكيين دخلوا الميدان التجاري، ولهم من الخبرة بشؤون التجارة ما نافسوا به يهود، بل تفوقوا في التعامل عليهم بحيث عاملوا الناس على أسس جديدة، جاء بها الإسلام، فلا ربًا ولا إرهاقًا، ولا طرقًا ملتوية تذهب بأموال الناس، إذ المال وجمعه عنصر حسَّاس عند اليهود، يستبيحون لأنفسهم في سبيله ما لا يباح من دين أو شرف[٣].

لهذا كله تنكر اليهود لعهودهم ومواثيقهم الرخيصة، وسعوا إلى تحطيم الوضع الجديد في الداخل والخارج.

في الداخل بإثارة الفتن والأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج لتفتيت الوحدة المباركة، وتارة أخرى بالتشكيك في الدين الجديد حتى أعلن بعضهم الدخول في الإسلام ثم الخروج منه لإيهام الناس أن هذا الدين ليس بشيء، وقد كشف المولى عز وجل مرادهم من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: ﴿وإذ قال ربك للملائكة...﴾ (٣/١٢١١) رقم (٣١٥١).

(٢) ينظر للعلاقات بين الأوس والخزرج وأثر اليهود في ذلك مفصلاً ما ذكره أحمد إبراهيم الشريف في «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول» ص(٣٥٦ـ٣٦٨).

(٣) المرجع السابق (٤٣٦) بتصرف يسير.

ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾[١].

أمَّا في الخارج؛ فقد اتصلوا بأعداء الرسول ﷺ وفضَّلوا وثنيتهم على ما جاء به من التوحيد الخالص حسدًا وكيدًا، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[٢].

**٢ـ المنافقون**: الذين لا يزالون على كفرهم، وكان على رأسهم بعض الزعماء الذين فاتتهم مصالح مؤملة، وعجزوا عن مقاومة الوضع الجديد، فأظهروا مسايرتهم له في الظاهر، وعملوا على النيل منه في الباطن، وكان خطر هذا العدو المتربص أشد من غيره، فإنه يربك الصف ويشاهد من العورات ما لا يطَّلع عليه غيره، ويذيع الأسرار، ويدل على الثغرات، ويوهن العزائم، ويتولى نشر الشائعات.

فوافقوا اليهود في إرادة تحطيم الدولة الناشئة؛ لأجل ذلك سمَّاهم الله إخوان اليهود، كما في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٣]، ومواقفهم من النيل من المسلمين لا تقل خبثًا عن موقف اليهود.

**٣ـ المشركون**:

أما **الخطر الخارجي فهم قريش** ومن ارتبط بهم من قبائل العرب، بحيث أعلنوا الحرب على المدينة بسبب الإيواء والنصرة ـ كما سبق ـ واتصلوا بالطوائف المناوئة للدعوة في الداخل، ورغَّبوهم ورهَّبوهم من تبعات الإيواء، وممَّا قالوه لهم: «إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتِلُنَّه أو لتخرجُنَّه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٥١، ٥٢.
(٣) سورة الحشر، الآية: ١١.

ونسبي نساؤكم»[١].

**الحاجة الملحة إلى تشريع الجهاد:**

لقد أبرزت هذه الأخطار المحيطة بالدولة الناشئة الحاجة الملحة إلى تشريع القتال في سبيل الله، وإعداد العدة للمواجهة المرتقبة مع خصوم الدعوة، سواء من ظهرت عداوته في وقت مبكر، أو ممن ستصل إليه الدعوة الآخذة في الانتشار، ويقف منها موقف من سبقوه ممَّن تحتم عليه المخالفة العقدية المنازلة في الميدان العسكري.

وهذا هو عين الحكمة، إذ لا يليق بدولة ناشئة تحيط بها الأخطار من كل جانب إلاَّ أن تعمل على تقوية جانبها، وترتب حساباتها على اجتياز تلك العقبات الموضوعة في طريق بلوغها أهدافها، سواء عن طريق استقطاب المناوئين للدخول فيها أو تحييدهم إلى حين التفرغ لهم، من غير انعدال ـ في مسيرة الدعوة عن خطها الذي شرعه الله تعالى لها ـ أو محاولة التقارب على حساب دين الله تعالى، فإن لم يُجْدِ ذلك فمقاتلتهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه، والاعتماد بعد الله تعالى على سواعد المؤمنين، وتشكيلهم في قوة ترهب الأعداء، وتموت بها العداوة في صدورهم أو يموتوا بها.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٢].

وهذه العدة المأمور بها ليست حالة طارئة أملتها الظروف على الدولة الإسلامية، بل حالة دائمة مستلزمة للترقي والتقدم والتطوير للآلة الحربية، وأن تكون مسايرة لتطور قوة الأعداء بل ـ إن أمكن ـ أكثر منها تقدمًا وفعالية إلى الدرجة التي يصدق عليها قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ

(١) أخرجه أبوداود في الخراج، باب: كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٢/١٧١) رقم (٣٠٠٤) وصحَّحه الألباني. انظر: ملحق (٢) ص(٤٢٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[١]، وإرهاب العدو لا يكون إلاَّ بالتفوق عليه بالقوة، كمًّا أو كيفًا، أو هما معًا، ودوام الحاجة إلى الجهاد في سبيل الله تنبع من دوام مقاتلة الكفار للمؤمنين، حتى وإن أخفوا رايات هذه المقاتلة، فإن العليم بخلقه يشهد بها وينبه المؤمنين عليها ليأخذوا حذرهم، لئلا يغتروا بإنكار الكفار لها في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[٢]، ولكن لو حصلت هذه المقاتلة بلا إثارة المسلمين حولها وتنبههم لها فإن هذا يكون في صالح الكفار، بحيث لا يهبُّ المسلمون جميعًا في وجه عدوهم، وكثيرًا ما يغيّر الكفار راية الحرب القائمة ويضعونها تحت الحرب العرقية أو الاقتصادية، أو التنافس على النفوذ، أو غيرها من الرايات المرفوعة للتمويه، وهذه وإن وجدت فإن الدافع الأقوى لها هو الاختلاف في الدين بشهادة الواقع والتأريخ وقبل ذلك الوحي المعصوم.

**٦ـ ترتيب منازلة الأعداء:**

لقد رتَّب رسول الله ﷺ منازلته لأعدائه بحسب مقاومتهم للدعوة ونيلهم منها، يقول ابن القيم: «لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسمٌ صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم، وأموالهم، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة، وقسم تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه»[٣].

لقد عالج رسول الله ﷺ موقف المنافقين بالحكمة والأناة، فقبل ظاهرهم، وظل يتقي خطرهم الذي ظل يتناقص بعد تكشف نفاقهم، وهداية بعضهم للإسلام.

أما اليهود الذين جمعوا بين معرفة الحق والصد عنه وتشويهه،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٣) زاد المعاد (٣/١٢٦).

عند من لم يعرفه، ونقض ما أبرموه من عهود، ومحاولة قتل الرسول ﷺ، والتآمر مع العدو إلى درجة أن خيانتهم كادت تقضي على الدولة الإسلامية قضاءً تامًّا، كما حصل في غزوة الأحزاب(١)، فهؤلاء لم يكن لهم علاجٌ أنجع من أن يُقاتَلوا في سبيل الله على مراحل متزامنة مع خياناتهم، حتى تطهرت المدينة نهائيًا من رجسهم، وإثارتهم للفتن بين الناس، التي مهروا بها حتى خصهم الوحي بالاتصاف بها في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾(٢).

أمَّا القبائل فقد كان موقفها مرتبطًا بمصالحها، والجانب القوي هو الذي سيحظى بدعم أكثرهم له، وتناسب تحولهم تدريجيًا إلى جانب الرسول ﷺ مع تزايد قوة المسلمين حتى لم تمض ثمان سنوات إلاَّ وموقف غالب القبائل قد انعدل لصالح الدولة الإسلامية بالمدينة بسبب تشريع الجهاد في سبيل الله حيث دخلوا في دين الله أفواجًا رغبًا أو رهبًا.

وأصبحت الجزيرة العربية كلها قاعدة الانطلاق لهذا الدين بعد أن كانت محصورة في المدينة.

أما قريش فكانت عقبةً كؤودًا، وعدوًّا ظاهرًا، قد أعلن الحرب على المسلمين، وكانت العرب تنتظر بإسلامهم الفتح، ويقولون ـ كما ذكر عنهم عمرو بن سلمة ـ: «اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق»(٣).

فلما كانت كذلك جعلها رسول الله ﷺ في مقدمة أولوياته حتى أزال أثرها بالصلح عام الحديبية، والذي سبقه عدة وقائع، فانفسح طريق الدعوة، فسمىٰ الله تعالى ذلك الصلح فتحًا كما قال البراء ـ رضي الله

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (٤٣٧).
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: من شهد الفتح (٤/ ١٥٦٥) رقم (٤٠٥١).

عنه ـ: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[١]، وذلك أنه لما أُزيلت تلك العقبة دخلت الدعوة مرحلة جديدة، وكسبت أنصارًا ومؤيدين ـ كما سيأتي ـ.

وبهذا يتبين أهمية تشريع الجهاد في سبيل الله لإقامة دين الله ونشره، وإزالة الأخطار التي تعترضه أثناء مسيرته لإنقاذ البشرية الضالة.

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤/ ١٥٢٥) رقم (٣٩١٩).

# المبحث الثاني
# هدف الجهاد في سبيل الله وغايته

أعظم جانب من جوانب العدل والرحمة في تشريع الجهاد يتمثل في الغرض الذي من أجله شُرع، والهدف الذي يُراد تحقيقه، والغاية التي ينتهي إليها، إذ هو هدفٌ أخلاقي، يغاير سائر مقاصد البشر في قتالهم

**هدف الجهاد هو هداية الخلق ونشر الحق:**

وهذا الهدف لا يختلف عن هدف الإسلام ذاته، فإذا كان هذا الدين أُنزل لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور رحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]، فإن وسيلة الإخراج العملية هي الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الذي يفعله المجاهدون في حقيقة أمرهم أنهم يبذلون أموالهم وأنفسهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومايفعله الكفار من الصد عن سبيل الله هو إبعاد الناس عن نور الله تعالى، والعمل على إطفاء ذلك النور.

قال تعالى ـ مبينًا هذه الحقيقة التي خفيت مع وضوحها على كثير ممَّن أعرض عن هذه الفريضة وغاب عنه معناها ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[١].

فآية سورة البقرة تبين أن الله تعالى أنزل هذا الدين لِيُنير للناس طريقهم في الحياة الدنيا، ويدلهم على ما ينتظرهم في الآخرة، وتسميته بالنور مناسبة لوصفه، والرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين الذين أنقذهم الله من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام مطالبون بالعمل على إنقاذ بقية الناس لينالوا من الخير مثل الذي نالوا، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾[٢]، وهذه الآية وردت في سورة مكية، وكان الخطاب فيها موجهًا للرسول ﷺ، وكأن إخراج الناس ـ كما هو ظاهر الآية ـ خاص به دون غيره.

فلما قامت دولة الإسلام، وتكوَّنت الأمة المسلمة المطبقة لدين الله، توجَّه إلى مجموعها الخطاب الذي كان موجَّه للرسول الله ﷺ في أسلوب المدح المتضمن الأمر في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٣]، «فهذه الآية تضع على كاهل المؤمنين واجبًا ثقيلاً بقدر ما هو إكرام لهم ورفع لمقامهم»[٤].

وفي آية أخرى بصيغة الأمر المباشر: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[٥].

ويقابل هؤلاء المؤمنون أهل الطغيان الذين لم يكتفوا بما هم عليه من ضلال حتى أضافوا إليه إضلال غيرهم بإخراجهم من النور إلى الظلمات، وتوحي لفظة «الظلمات» التي هي جمع الظلمة، وإفراد

---

(١) سورة الصف، الآيات: ٧ـ١١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٤) في ظلال القرآن (١/٤٤٦) بتصرف.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

«النور» في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ و﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بأن طريق الله الموصل إليه لا يتعدد، في مقابل كثرة مناهج الضلالة التي تعترض سبيل السالكين وأن الانحراف عن الحق يعني الوقوع في ظلمات شتى في العقيدة والعبادة والأخلاق والسلوك، وليس بالضرورة أن يعلم أهل الكفر أن ما يدعون إليه هو في حقيقته ظلمات، بل قد يعتقدونه خيرًا، ولكن العبرة بما في نفس الأمر.

وعلى هذا فجرمهم المتمثل في إخراج الناس من النور إلى الظلمات عظيم.

وقد أضافت آيات سورة الصف في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ معنىً جديدًا، وهو عدوانهم على المصدرالمنير نفسه يريدون إطفاءه ووسيلة الإطفاء كما هو واقع حالهم ما يثيرونه من شبهات يظنونها تطفىء هذا النور المنزل، ناسين أو متناسين أنهم يعارضون إرادة الله تعالى التي لا رادَّ لها، كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾[(١)]. وقوله «بأفواههم» يفيد ضعف الوسيلة التي بها يحاولون إطفاء ذلك النور العظيم المنسوب لله تعالى، فهو محلق ومضيء ومرتفع، وفي من يعترض سبيله شبه بالمخلوقات الهزيلة التي يعشيها النور ولا تعيش إلاَّ في الظلام.

وإرادة الله إظهار هذا النور إنما هو لهداية الناس؛ ولأنه الحق وما سواه باطل كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[(٢)]. فـ«الهدى» يدل على أن ما خالفه ضلالة، و«دين الحق» يدل على أن ما سواه باطل، وتعداد أوصافه من النور والهدى، ودين الحق وهي إنما تدل على ذات واحدة من إظهاره على الدين بالقول.

(١) سورة الصف، الآية: ٨.
(٢) سورة الصف، الآية: ٩.

**المجاهدون هم وسيلة نشر الحق وإظهاره:**

أمَّا وسيلة ظهوره عمليًّا فإنما هي كواهل المؤمنين بجهادهم في سبيل الله تعالى التي أشار إليها المولى ـ عز وجل ـ في سياق إظهاره للناس، فبعد أن بيَّن أنه سيظهره وإن رغمت أنوف أهل الكفر، وجَّه الخطاب إلى أوليائه ـ الذين هم على النقيض من أعدائه الكفرة في كل شيء ـ وأمرهم بالقيام بهذا الواجب ووعدهم عليه بالنصر، مع ما لهم من أجور عظيمة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾، ولم يكتف بإعلامهم بأنه خير فحسب بل ذكر بعض جوانب تلك الخيرية في قوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾، فقد قدم ذكر ما ينتظرهم في الآخرة؛ لأنها خيرٌ وأبقىٰ، وعلم أن النفوس تريد حظها من العاجل، فقال: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾(١).

فكما أن هذه الآيات ربطت بين إرادة ظهور هذا الدين، ووسيلة ظهوره، والعقبات المانعة من ذلك، فقد تكرر ذلك في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾(٢).

وهذه آيات مذكور في سياق الأمر بالجهاد، والحث عليه، فقبلها ورد الأمر بمقاتلة الكفار في قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾(٣).

وبعدها بأربع آيات جاء الوعيد الشديد على ترك مقاتلة الكفار في

(١) سورة الصف، الآية: ١٠ـ١٣.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢، ٣٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١]

ويشعر قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أنهم الوسيلة المتحملة لأعباء هذا الدين ونشره، فإن قصروا في حمل هذا الواجب جاء الله بقوم غيرهم، ليسوا كهؤلاء الناكصين، ولن يدع الله إظهار حجته على الناس من أجل تقاعس هؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[٢] أمَّا هؤلاء المستبدَلين فأشارت الآيات إلى أنهم لا يُكتفى بتركهم بل لابد من عذابهم الذي منه استيلاء العدو[٣]، وأما أولئك المؤهلون لأن يحلوا محل الناكصين فمن أبرز صفاتهم محبة الله عز وجل المستتبعة محبة رسوله ﷺ وما جاء به من ربه وموالاة المؤمنين، وبغض الكافرين، وإظهار العزة عليهم، والجهاد في سبيل الله، وإن خالفهم في ذلك من خالفهم، وهذا هو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾[٤]، فقدم محبته لهم على محبتهم له للدلالة على اصطفائه لهم.

ومن ليس هذه صفته فمفهوم المخالفة يدل على أن الله لا يحبهم، وبالتالي لا ينصرهم؛ لأن محبة الله مقتضية نصرته، كما قال ﷺ: «من **عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، ولايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى**

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٥١٠).
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

أحبه»[١] الحديث.

وبالمقارنة بين الهدف الذي شرعه الله للمؤمنين في قتالهم في سبيل الله، والمتمثل في إظهار نور الله ونشره، وبين إرادة الكفار في الصد عن سبيل الله، وإطفاء نوره يتجلىٰ بوضوح معنى العدل والرحمة في الغرض من تشريع الجهاد بقدر ما يتضح ظلم أولئك الصادين عن سبيل الله، واستحقاقهم للقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة بسبب منع الناس من الاهتداء بأعظم خير وهبه الله تعالى لبني آدم.

ثم إن هذا الهدف العظيم لم يكن ناتجًا عما استحسنه المؤمنون من تلقاء أنفسهم، وإنما هو مما أمر الله عز وجل به في كتابه، وسار عليه رسوله ﷺ وصحابته الكرام.

**سبب مقاتلة الكافرين:**

والسؤال الآن هل قتال الكفار لظلمهم أم لكفرهم[٢]؟

وهذ المسألة من المسائل المختلف فيها بين أهل العلم، قديمًا، وحديثاً، وسببه الاختلاف في فهم قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٣]، ونظيرتها الواردة في سورة البقرة ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[٤].

فقد رتبت فيها المقاتلة على أمرين:

١ ـ حتى لا تكون فتنة.

٢ ـ ويكون الدين كله لله.

فما هي الفتنة التي يلزم إزالتها بالقتال؟ وكيف يكون الدين كله لله؟

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: التواضع (٥/ ٢٣٨٥) رقم (٦١٣٧).

(٢) غالبًا ما يطرح بصيغة: لكفرهم أم لحرابتهم، ورأيت أن كلمة «ظلمهم» أدل؛ لأنها هي الواردة في القرآن ولأنها تشمل عموم الصد عن سبيل الله، سواء بدأوا بالحرب أو شكلوا قوة تمنع دين الله من العلوفي الأرض، في حين أن كلمة «حرابتهم» تشعر ببعض ذلك فقط

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

أولاً المراد بالفتنة :

اتفق من وقفت على كلامه من المفسرين أن الفتنة الواردة في الآية يراد بها الشرك أو الكفر(١) .

ولكن اختلفوا في المقصود من الآية هل المراد مقاتلة الكفار حتى يزول كفرهم ويدخلوا في دين الله؟ أم المراد مقاتلتهم حتى تزول فتنتهم المتمثلة في فتن المؤمنين عن دينهم وردهم إلى الشرك؟

وكثير من المفسرين على القول الأول، وممَّن قال به ابن جرير حيث قال: «الفتنة: الشرك.. والمعنى: قاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا يكون شرك بالله، ولا يعبد دونه أحد»(٢) .

وقال القرطبي: «حتى لا تكون فتنة: أي كفر فجعل الغاية عدم الكفر»(٣) .

ويمكن أن يستدل لهذا القول بقوله ﷺ: **«أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلَّا الله، وأن محمَّدًا رسول الله، ويُقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلَّا بحق الإسلام وحسابهم على الله»(٤) ويفهم من ظاهر الحديث أن الكافر يُقاتل حتى يسلم وأنه لا يعصم دمه وماله إلَّا بذلك.**

**القول الثاني**: أن الفتنة التي تزال بالقتال هي التي يسلطها الكفار على من أسلم حتى يرتدوا عن دينهم.

قال الشوكاني: «الفتنة.. هي رجوعكم إلى الكفر»(٥) ويدل على أن هذا هو المراد قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ

(١) جامع البيان (٣/ ٥٧١)، والتسهيل (٢٩١)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٢٢٨)، والجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٣٦)، وفتح القدير (١/ ١٩١) وغيرهم.
(٢) جامع البيان (٣/ ٥٧٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٣٦).
(٤) سبق تخريجه ص(٤٦).
(٥) فتح القدير (١/ ٢٥٩).

ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾(١).

قال ابن كثير في قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾: «قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل»(٢).

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ فيه معنى استمرارهم في فتن المؤمنين عن دينهم فكأنه قال: كانوا ولازالوا وسيستمرون.

بل قد صح عن ابن عمر أنه فسر «الفتنة» الواردة في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ بأنه رد المؤمن عن دينه فقال: «كان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه، وإما يعذبونه حتى كثر الإسلام ـ يعني المسلمين ـ فلم تكن فتنة»(٣).

وعلى هذا يترجح أن معنى الآية: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي قاتلوهم حتى تزول فتنتهم التي يسلطونها على المؤمنين، ويصدون الناس بها عن سبيل الله، وليس المراد مقاتلتهم حتى يدخلوا في دين الله، فإن من فهم هذا من الآية يلزمه أن يقول بإكراههم على الدين، وهذا لا يصح لأمور:

١ـ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾(٥)، وعليه فالمعتبر في أمر العقائد الاقتناع لا الإكراه، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٥٥).
(٣) سبق تخريجه ص(١٢٢).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٥) سورة يونس، الآية: ٩٩.

بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(١)، فإذا كان المتلفظ بالكفر مع اطمئنان قلبه بالإيمان لا يكفر عند الإكراه، فكذلك المكره على التلفظ بالإيمان مع بقائه على كفره لا يعد مؤمنًا.

٢ـ إن المبيح لقتالهم هو عدوانهم وصدهم عن سبيل الله، وليس مجرد كفرهم وقد دل على ذلك ماورد في الصحيح عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان، وفي لفظ: «**فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان**»(٢) وفي بعض السنن قال ﷺ: «**ما كانت هذه لتقاتل**»(٣) فلما ربط الحكم بإمكانية المقاتلة دل على أن من لا يتأتى منه المقاتلة لا يُقاتَل يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى، والزمن ونحوهم، فلا يقتل عند جمهور العلماء إلاَّ أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع إلاَّ النساء والصبيان لكونهم مالاً للمسلمين، والأول هو الصواب لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾(٤).

. . . وذلك أن الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(٥) أي: أن القتل وإن كان فيه شر وفساد، ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ماهو أكبر

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: قتل النساء في الحرب (٣/ ١٠٩٨) رقم (٢٨٥٢).
(٣) أخرجه أبوداود في الجهاد، باب: قتل النساء (٢/ ٦٠) رقم (٢٦٦٩)، وصحّحه الألباني انظر: ملحق (٢) ص (٤٢٨).
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

منه، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلاَّ على نفسه»(١).

٣ـ أن مقاتلة الناس حتى يدخلوا في دين الله يتنافى مع قول رسول الله ﷺ وفعله، فقد قال ﷺ: «**إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهنَّ أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام... فإن أبوا فاسألهم الجزية... فأن أبوا فاستعن عليهم بالله وقاتلهم**»(٢) فهذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾(٣) يفيدان «أن الجزية تؤخذ من كل كافر كتابي أوغير كتابي عربي أو غير عربي لقوله: «عدوك» وهو عام»(٤) وأما الآية فنص في أهل الكتاب، أما فعله ﷺ فإنه أقر كثيرًا من الكفار من أهل الذمة والمعاهدين على ما هم عليه، ولو كان مأمور بقتال الناس حتى يدخلوا في الإسلام لم تُشرع الجزية.

٤ـ أن الصحابة لم يفهموا من الرسول ﷺ أن الكفار يقاتلون حتى يخرجوا من دينهم ويدخلوا في الإسلام بل يقاتلونهم إلى أن يعلو دين الله ويستظل الناس به ويخضعون لدولته ويتحاكمون إلى عدله، ومن أراد البقاء على دينه فلا يكره في الدخول في الإسلام، بل عليه الجزية، وهذا ما أشار إليه المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ في قوله: «فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم أو تؤدوا الجزية»(٥).

بقي الإجابة عن حديث «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا**

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥٤ـ٣٥٥).
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء... (٣/ ١٣٥٧)رقم(١٧٣١).
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٤) سبل السلام (٤/ ٩٢).
(٥) أخرجه البخاري في الجزية، باب: الجزية والموادعة (٣/ ١١٥٢) رقم (٢٩٨٩).

إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله . . . » السابق الذي يفيد بظاهره قتال كل من امتنع عن التوحيد، فقد كفى في ذلك الحافظ ابن حجر وذكر له ستة أوجه يمكن حمله على أحدها، وأقربها ما جاء فيه «أن يكون المراد بالقتال هو أو ما يقوم مقامه من جزية أو غيرها»(١).

**ثانيا : كون الدين كله لله :**

أما قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ فالمراد علوه وظهوره على غيره بدلالة قوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾(٣) وهي بمعنى قوله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٤)

يقول ابن القيم: «المقصود إنما هو أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، وليس في إبقائهم بالجزية ما يناقض هذا المعنى . . فإن من كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصغاره، وضرب الجزية على رؤوس أهله . . . ولا يناقض هذا إلاَّ ترك الكفار على عزهم وإقامة دينهم كما يحبون بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة»(٥).

**الجمع بين تشريع القتال وعدم الإكراه على الدين :**

وبهذا نصل إلى نتيجة مهمة، أوقعت بعض المغرضين في التجني على الإسلام ـ وعلى شريعة الجهاد خاصة ـ فزعموا أن الإسلام إنما قام على إكراه الناس على الدخول فيه بحد السيف(٦)، واستغلوا الآراء الواردة المرجوحة التي تقول: أن الكفر هو سبب المقاتلة، وما بني على هذا القول من قول أبعد منه وهو: القول بنسخ قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي

(١) فتح الباري (١/ ٩٧).
(٢) سورة الصف، الآية: ٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٤) سبق تخريجه ص(٥٠).
(٥) أحكام أهل الذمة (١/ ١١٠-١١١).
(٦) منهج الإسلام في الحرب والسلام (١٣٤)، وقد ذكر بعض أقوال المستشرقين في ذلك.

ٱلدِّينِۖ﴾[١]، وما في معناها.

والحقيقة إننا نحن الذين أعطيناهم الفرصة ليقولوا بهذا القول المخالف لنص الكتاب الكريم ولواقع جهاد النبي ﷺ «الذي لم يثبت أنه أكره أحدًا على الإسلام»[٢].

وقابلهم فريق آخر تظاهروا بالإنصاف وقالوا: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها كما فعل المستشرق توماس أرنولد[٣].

يقول البوطي: «لقد أشاعوا وروَّجوا أولاً أن الإسلام دين بطش وحقد على الآخرين، ثم انتظروا إلى أن آتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين، وإنكار هذا الظلم في حق الإسلام، وبينما المسلمون يلتمسون الرد على هذا الباطل، قام من أولئك المشككين أنفسهم من اصطنع الدفاع عن الإسلام. . . ، وراح يرد هذه التهمة قائلاً: إن الإسلام ليس كما قالوا: دين سيف ورمح وبطش، بل هو على العكس من ذلك، دين محبة وسلام، لا يشرع فيه الجهاد إلاَّ لضرورة رد العدوان المداهم، ولا يرغب أهله في الحرب ما وجدوا إلى السلام من سبيل.

فصفق بسطاء المسلمين طويلاً لهذا الدفاع «المجيد» في غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الأول، وصادف ذلك في نفوسهم المتحفزة للرد قبولاً حسنًا، فأخذوا يؤيدون ويؤكدون، ويستخرجون البرهان تلو الآخر على أن الإسلام فعلاً كما قالوا: دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين، إلاَّ إذا داهموه في عقر داره، وأيقظوه من هدأته وسباته، وفات أولئك البسطاء أن هذه هي النتيجة المطلوبة، وهذا بعينه هو الغرض الذي التقى عليه في السر كل من روَّج الشائعة الأولى، ثم أشاع

---

(١) جامع البيان (٥/٤٠٧ـ٤١٤) مع ترجيحه عدم النسخ، وتفسير القرآن العظيم (١/٣١٢)، والجامع لأحكام القرآن (٣٠/١٨٢)، وفتح القدير (١/٣٤٩). والآية من سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) هداية الحيارى (٣٦).

(٣) الدعوة إلى الإسلام (٥).

الباطل الثاني، فالمقصود هو السلوك بمقدمات ووسائل مدروسة مختلفة، تنتهي إلى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين»[١].

والذي نخلص منه بعد عرض القول بالإكراه على الإسلام بحد السيف، ونقيضه القائل أن الإسلام إنما انتشر بالدعوة السلمية، نقول كلاهما قول مدخول، وفي كل منهما حقٌّ وباطل، فالإسلام انتشر بالسيف من حيث أنه أزال الأنظمة والقوى التي تمنع تحاكم الناس إلى دين الله واستظلالهم بظلاله، وفي الوقت نفسه لم يكره أحدًا على الدخول فيه بالسيف ممن لم يعترض إقامته وعلوه على الدين كله إذا ما أدُّوا الجزية، بل اكتفى بدعوتهم وإقامة الحجة عليهم. ومن زعم أنهم أُكرهوا فقوله مردود بدلالة وجود أهل الذمة بين ظهراني المسلمين إلى اليوم.

وهذا القول تجتمع به الأدلة الآمرة بقتال الكفار والناهية عن إكراههم، والدالة على أن الإسلام جمع بين الدعوة والسيف، ووضع كلاًّ منهما في موضعه المناسب.

**أهداف أخرى للجهاد:**

ومع هدف القتال الآنف الذكر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٢]، فقد بيَّن المولى ـ عز وجل ـ أهدافًا له أخرى لا تخرج عن مضمون الهدف السابق، ولكنها تلقي مزيدًا من الضوء على المعاني الأخلاقية الملازمة للغرض من تشريع القتال، وما فيه من عدل ورحمة، ومنها:

**١ ـ إزالة الظلم:**

وهذا هدف أخلاقي تجتمع العقول السليمة والفطر المستقيمة على قبوله، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

(١) فقه السيرة (١٧٢).
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾(١).

قال الشوكاني: الباء في (بأنهم ظُلموا) للسببية أي بسبب أنهم ظُلموا(٢). وهذا يبين «أن علة تشريع الجهاد في الإسلام هو وجود الظلم... فمادام الظلم موجودًا فالقتال موجود كذلك بقرينة واقع الحال، والتقابل بين الظلم والقتال تقابل بين الفعل ورده»(٣).

والظلم الذي يُراد إزالته لا ينحصر في كونه واقعًا على المسلمين، بل ويشمل حتى ما يوقعه أهل الطغيان على سائر الناس من صدهم عن سبيل الله، ومنعهم من الاهتداء به، فهذا من الظلم الذي فرض الجهاد في سبيل الله لإزالته، عن شعوب الأرض بالتقدم إليهم، وإزالة الحواجز التي تحجب عنهم نور الإسلام، سواء تمثلت في نظم يخشون مخالفتها فتزال بالسيف أو تقاليد وشبهات تمنع الاهتداء بنور الله، فتزال بالحجج.

٢ـ رد الاعتداء مع النهي عن العدوان:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾(٤). قال ابن عباس وعمر بن عبدالعزيز ومجاهد: هي محكمة، أي: قاتلوا الذي هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان وشبههم، قال أبوجعفر النحّاس: وهذا أصح القولين في السنة والنظر(٥).

٣ـ إنقاذ المستضعفين:

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٢) فتح القدير (٣/ ٤٥٥).
(٣) الجهاد في الإسلام للركابي (٢٣٢).
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٣٢).

لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[١]، ويعبر عن ذلك بحماية الأقليات المسلمة التي تعيش خارج دولة الإسلام، فإذا وقع عليهم ظلم وجب على إخوانهم مد يد العون والنصرة، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾[٢].

**٤ـ صيانة العهود والمواثيق:**

قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[٤].

ففي هذه الآيات جُعل نقض العهد أحد الأغراض التي من أجلها يشرع القتال فإذا علم العدو أن المسلمين يحترمون عهودهم ومواثيقهم وفي نفس الوقت مستعدون لشن الحرب على من نقضها أو أخل بها أكسبها ذلك قيمة واحترامًا، وأصبح لها مردود أخلاقي وإعلامي في صالح المسلمين، ولا يخفى ما في ربط صيانة العهود بتشريع القتال من الحث على التمسك بأصول الأخلاق وحمايتها ليس فيما بين المسلمين بل بين سائر المجتمعات.

إن هذه الغايات النبيلة التي يسعى إليها الإسلام من تشريعه للجهاد لو علمها الناس على حقيقتها بعيدًا عن تشويه المغرضين وأصحاب

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
(٣) سورة التوبة، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٦.

المصالح العاجلة لأطلقوا على المجاهدين لقب: منقذي البشرية، ولفتحوا لهم بلدانهم وقلوبهم، وأعانوهم على بلوغ غايتهم، وهذا هو الذي حصل في صدر الإسلام فعلاً، فإنهم حين علموا أن هؤلاء الغزاة لم يخرجوا للعلو في الأرض ولا لطلب التسلط على رقاب الآخرين ولا للاستحواذ على خيرات الشعوب، وإنما قصدهم أن ينشروا دين الله الذي أنزله على رسوله ﷺ، ويحملوا الناس على التحاكم إليه، وينشروا عدله بين الناس وأن يزيلوا الظلم بكل صوره عن المسلمين وغير المسلمين، على أنهم لا يكرهون أحدًا على ترك دينه لكنهم يقيمون عليه الحجة بالدعوة إليه بعد إزالة جميع القوى والعوائق التي تمنعه من اختيار الحق إذا لاح له صوابه حين علم الناس ذلك هجروا جاهليتهم وانضموا إلى الدين الجديد عن قناعة وبلا أدنى إكراه.

يقول أكرم العمري: «إن الجهاد لا يهدف إطلاقًا إلى فرض العقيدة الإسلامية على الناس بل يهدف إلى إزالة معوقات انتشار الإسلام في الأرض سواء بإضعاف القوى السياسية المعاصرة أو القضاء عليها بحيث يتم استعلاء المسلمين في الأرض، وتمتنع فتنة أحد عن الإسلام حيثما كان.

إن ارتباط الجهاد بفرض العقيدة على الناس مبعثه الدعاية والتموية الذي شحنت به الدراسات الاستشراقية[١]، وإن فك الارتباط بين الأثنين ضروري لتصور الحقيقة ويكفي أن القرآن الكريم أوضح بما لا يقبل الشك حرية الناس في اختيار الإسلام أو البقاء على النصرانية واليهودية[٢]، حتى داخل المجتمع الإسلامي، وضمن سيادة الدولة

(١) وهذه قد اعتمدت على أقوال بعض علماء المسلمين ـ كما سبق ـ الذين أشاروا إلى الإكراه، وخالفوا صريح القرآن في عدة آيات، لذا لا لوم على أهل الدراسات الاستشراقية الذين تملي عليهم مخالفتهم للحق وعدم الإيمان به البحث عن مبررات للطعن فيه، لحماية خرافهم الضالة، ولربما لو كنا مكانهم لفعلنا فعلهم.

(٢) مع فرض الجزية والصغار ليكون ذلك حافزًا لهم على تأمل الحق الذي يدعون إليه، وليس=

الإسلامية، وهذا ما تثبته آيات القرآن الكريم، وتدعمه الوقائع التأريخية الصحيحة حيث رحبت الشعوب بتحرير الإسلام لها من سيطرة الرومان والفرس، وعبر القبط في مصر، واليعاقبة في الشام عن سرورهم بالحرية الدينية التي أعلنها الإسلام ولولا هذا الإعلان الصادق لحرية المعتقد لذابت سائر الأقليات الدينية في المسلمين، ولما حافظت على وجودها حتى الوقت الحاضر رغم مرور أربعة عشر قرنًا على ظهور الإسلام»(١).

لقد كان المسلمون وهم يفتحون العالم لا يدعون الناس إلى تطبيق أهوائهم وشهواتهم وتنفيذ دساتيرهم التي أملتها عقولهم إنما يدعونهم إلى وحي منزل ثبتت دلائله وقامت حججه وبراهينه، فمن قبل ذلك أصبح واحدًا منهم عليه ما عليهم من الواجبات، وله ما لهم من الحقوق، في عدالة بين المؤمنين لا تعترف بالعصبية أو التمييز بين الناس بسبب الجنس أو اللغة أو اللون أو المنشأ بل المفاضلة بالتقوى ومدى التمسك بالدين المنزل والاهتداء بهداه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٢).

وبهذا يمكن لأي فرد من أفراد المؤمنين أن يرتقي إلى أعلى المناصب والمستويات في الدولة الإسلامية إذا حصل على المؤهل المشار إليه في قوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾(٤).

فأي مقصد يستحق أن يُقاتل من أجله، وترخص فيه الدماء يقرب

= هو اختيار مستوي الطرفين، إلاَّ من حيث أنهم لا يكرهون على اعتناق ما لا يعتقدون، وقد دل على التخيير وصيته ﷺ لقواده بين الإسلام والجزية والقتال كما ثبت في الصحيح، وعلى عدم الإكراه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ وغيرها.

(١) المجتمع المدني في عهد النبوة (٢٢).

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

ـ فضلاً عن أن يساوي ـ هذا المقصد الذي يسعى إلى إعادة الناس إلى ربهم وخالقهم، وتحاكمهم إلى شريعته بدل تحاكمهم إلى أهواء أمثالهم من ظالمي البشر وجهالهم؟ ومتى تكون الحرب عادلة إذا لم يكن الجهاد في سبيل الله عادلاً؟.

**حرص الشارع على التمسك بهدف الجهاد:**

ولئلا ينحرف الجهاد في سبيل الله عن غايته السامية، فقد احتاط له الشارع الحكيم، وجعله عبادة كسائر العبادات، لا تقبل ما لم تكن خالصة لوجه الله تعالى، لذلك ورد تقييد لفظ القتال والجهاد في غالب موارده بكلمة «في سبيل الله» الدالة على الإخلاص، وأمر ﷺ صحابته بذلك، وأبطل كل مقصد لغير الله، فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[(١)].

كما أخبر ﷺ عن رجل كان في أصحابه قتل بعدما قاتل قتالاً حسنًا ـ في أعين الناس ـ بأنه من أهل النار[(٢)] لأنه «لم يقاتل لله، وإنما قاتل غضبًا لقومه»[(٣)] وكذا أخبر أن «**من أوّل من تُسعَّر به النار من قاتل ليقال له: جريء**»[(٤)].

ولقد أعان على إخلاص نية الجهاد لله تعالى، وجعل هذه الشعيرة العظيمة بعيدة عن استغلالها وتوظيفها في غير ما شرعت من أجله ذلك المنهج الربَّاني في تهيئة المؤمنين إيمانيًّا وأخلاقيًّا، بحيث لا يكون قيامهم إلاَّ لله ليس لهم من ذلك حظٌّ ولا نصيب، وذلك عن طريق تقوية

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: لا يقال فلان شهيد (٣/ ١٠٦٢) رقم (٢٧٤٢).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٠٦).

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: من قاتل للرياء... (٣/ ١٥١٣) رقم (١٩٠٥) في حديث طويل.

الوازع الإيماني، وإيقاظ الضمير والشعور بمراقبة الله في السر والعلن، وهذه التربية سبقت تشريع القتال في سبيل الله الأمر الذي وجَّهه الوجهة الصحيحة المحققة للغرض من تشريعه.

ويدل على تربية الرسول ﷺ صحابته على هذا التجرد والإخلاص لله بعيدًا عن حظوظ النفس وشهواتها ما في الصحيح عن المقداد بن الأسود أنه قال: يارسول الله أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفَّار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله، أفأقتله يارسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتله**» قال: فقلت: يارسول الله إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**»[(١)]. فحتى لا يكون قتال المجاهد انتقامًا لنفسه ونيلاً لحظوظها نهاه عن قتله مع أنه يمكن إنما قالها تعوذًا من السيف.

فالشارع الحكيم لم يجعل المحرك والدافع على القتال إلاَّ إرادة إعلاء دين الله تعالى. وعلى هذا فالمسلم إذا تمكَّن من عدوه لا يتعامل معه كما يتعامل الكافر إذا تمكن من المسلم. فهذا تقيده أوامر المولى عز وجل ونواهيه، وذاك تحركه نفسه وهواه، وشتَّان بين الأمرين.

قال ابن تيمية: «الناس ثلاثة أقسام، قسمٌ يغضبون لنفوسهم ولربهم، وقسمٌ لا يغضبون لنفوسهم ولا لربهم، والثالث ـ وهو الوسط ـ الذي يغضب لربه لا لنفسه كما في الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئًا قط، إلَّا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء فانتقم لنفسه قط، إلَّا أن تنتهك حرمات الله، فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله**»[(٢)] فأمَّا من يغضب لنفسه لا لربه أو يأخذ لنفسه ولا يعطي

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا (٤/ ١٤٧٤) رقم (٣٧٩٤).
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام (٤/ ١٨١٤) رقم (٢٣٢٨).

غيره فهذا القسم الرابع شر الخلق، لا يصلح بهم دنيا ولا دين»[١].

**قلت**: وغالب مقاتلة الناس من القسم الرابع التي يغضبون فيها لأنفسهم لا لربهم، ومن ذلك مقاتلة المسلمين لعدوهم في عصور الانحطاط حينما غابت عنهم إرادة إعلاء دين الله ونصرة الحق، فلذلك يكثر تعثرهم وتسليط عدوهم عليهم، ولو قاموا غضبًا لله ونصرة لدينه لنصرهم الله تعالى تحقيقًا لما وعد في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾[٢]، وقد يوجد من يغضبون لنفوسهم ولربهم، وهم بذلك دون أتباع المنهج الربَّاني صحابة رسول الله ﷺ الذين وحَّدوا ربهم في جهادهم ولم يشركوا معه في ذلك أحدًا كما دل عليه حديث المقداد السابق وغني عن القول ما في هذا الإخلاص لله وحده من جانب أخلاقي رفيع تتقاصر دونه كافة المقاصد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

## المبحث الثالث
## مكانة الجهاد ووسائل تشريعه

لما كانت غاية الجهاد إنقاذ الناس من الضلال وهدايتهم إلى الدين الحق، وإزالة جميع الحواجز والعقبات التي تمنع من تحقيق عبودية الله في الأرض، جعل الله لهذه الشعيرة العظيمة مكانة رفيعة وأجور عظيمة لم تجعل لغيرها من العبادات.

ولم يرد في القرآن ولا في السنة ترغيب في فريضة من الفرائض بمثل ما ورد في الجهاد في سبيل الله، وهذا مناسب للعمل العظيم الذي يجاهد في سبيله بالمال والنفس، وهو إحقاق الحق، وإزهاق الباطل إذ هو المقصود من البعثة.

والناظر في القرآن الكريم يجد أن آيات الجهاد والقتال قد شغلت حيزًا كبيرًا حتى كادت أن تبلغ نصف القرآن المدني(١)، كما استولى على اهتمامات الرسول ﷺ بالمدينة حتى غزا بنفسه تسع عشرة غزوة(٢)، وبلغت عدد السرايا التي أرسلها بقيادة أصحابه سبعًا وأربعين سرية(٣).

كما أن الدولة الإسلامية زمن رسول الله ﷺ قد وضعت إمكاناتها ومواردها وطاقاتها وكذلك إمكانات الأفراد في خدمة هذه الفريضة(٤).

ولقد بلغ من العناية بالجهاد أن فُصِّل في القرآن تفصيلاً قلَّما يوجد في غيره من الفرائض وسلك في غرسه في روح الأمة بوسائل متعددة تأكيدًا لأهميته وبيانًا لمكانته، ومن ذلك:

**١ـ الترغيب فيه بنصب الأجور العظيمة:**

١ـ فوصفه بالتجارة الرابحة التي تنجي من العذاب، والنجاة من

---

(١) آيات الجهاد في القرآن الكريم للدقس ص(٥).
(٢) اخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة العشيرة (٤/ ١٤٥٣)، رقم (٣٧٣٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٥).
(٤) العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، عارف أبوالعيد (١٢٣) بتصرف يسير.

عذاب الله تعالى من أعظم ما يحرص عليه المؤمن، لما استقر في نفسه من شدته وهوله، فكيف إذا أُضيف إلى هذه النجاة مغفرة الذنوب ودخول الجنة، والتلذذ بما فيها من نعيم، وهذا في الآخرة، أما في الدنيا فهو الطريق إلى النصر والعزة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾(١).

٢ـ ربطه بمحبة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾(٢).

وقد كان الصحابة الكرام يتنافسون على الحصول على هذه المنقبة الواردة في الآية، كما دلَّ عليه حالهم يوم خيبر، حينما قال ﷺ: «**لأعطينَّ الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، يفتح الله على يديه**» فبات الناس يدوكون ليلتهم أيُّهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها(٣).

وبهذا يعلم مقدار الترغيب الحاصل بربط الجهاد في سبيل الله بمحبته سبحانه.

٣ـ تفضيله على بقية الأعمال كما في قوله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾(٤).

٤ـ الوعد المؤكد بدخول من قتل في سبيل الله الجنة، كما في قوله

---

(١) سورة الصف، الآيات: ١٠ـ١٣.

(٢) سورة الصف، الآية: ٤.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة خيبر (٤/١٥٤٢) رقم (٣٩٧٣).

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٩. وينظر سبب نزولها في تفسير القرآن العظيم (٢/٣٤٢)، وأنها وردت عندما اختلف بعض الصحابة في المفاضلة في بعض الأعمال

تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾[1].

قال ابن القيم: «فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجلَّه، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جنات النعيم، والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر»[2].

ولما كانت النفس تطمع في ذلك الأجر العظيم، لكن قد يحول بينها وبينه ما جبلت عليه من كراهية الموت، فقد عالج القرآن هذه العقبة حتى أزالها أو أذلها بأن أعلمهم أن الموت له أجل محدد لا يتقدم ولا يتأخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾[3]، وأن الحذر منه لا يمنعه، كما في قوله: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾[4].

وبهذا تكون النفس المؤمنة طليقة من الجبن والخوف ومن ترقب شبح الموت الذي لابد منه.

٥- قد جاء الوحي مؤكدًا أن الشهادة في سبيل الله تعقبها حياة حقيقة في عيشة هنية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾[5]، فقوله: «أحياء»، «يرزقون»، «فرحين»، «يستبشرون»، «ولا هم

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٧٢).
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

يحزنون» صفات لا تتوفر إلاَّ في حي حياة حقيقة.

٦ـ عقد المقارنة بين المجاهدين والقاعدين ونفي التساوي بينهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾(١).

وقد فصلت السنة قدر الدرجات التي يفوق بها المجاهدون غيرهم، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»(٢).

٧ـ فضل السابق إلى النفقة والجهاد على المتأخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾(٣).

٨ـ وقد جاءت نصوص ترغب في الجهاد بالمال خاصة، ومنها قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٤) ففيها بيان فضل الإنفاق في سبيل الله ومضاعفة الله له وتقريب ذلك إلى الحس بالأمثلة المعهودة في حياة الناس ليكون وقعها في النفس أعظم.

أما ما ورد في السنة من الترغيب فيه، فكثيرٌ جدًّا، تولد لدى

(١) سورة النساء، الآيتان: ٩٥، ٩٦.
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: درجة المجاهدين... (٣/١٠٢٨) رقم (٢٦٣٧).
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

المسلم الحسرة على ما فاته من تلك الأجور في هذه الأزمان التي ضعفت فيه هذه الشعيرة، ومن تلك الأحاديث:

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يكلم في سبيله ـ إلاَّ جاء يوم القيامة اللون لون الدم والريح ريح المسك**»(١).

٢ ـ وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أحيا، ثم أقتل**»(٢).

٣ ـ وعن عبدالرحمن بن جبر، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اغبرَّت قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسَّه النَّار**»(٣).

٤ ـ وعن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتَّان**»(٤).

٥ ـ وعن عبدالله بن أبي أوفىٰ، أن رسول الله ﷺ قال: «**واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»(٥).

٦ ـ عن مسروق، قال: سألنا عبدالله ـ هو ابن مسعود ـ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾(٦) قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «**أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم**

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: من يجرح في سبيل الله (٣/ ١٠٣٢ رقم ٢٦٤٩).
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: تمني الشهادة (٣/ ١٠٣٠ رقم ٢٦٤٤).
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: من اغبرت قدماه في سبيل الله (٣/ ١٠٣٥ رقم ٢٦٥٦)
(٤) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله (٣/ ١٥٢٠ رقم ١٩١٣).
(٥) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: الجنة تحت بارقة السيوف(٣/ ١٠٣٧ رقم ٢٦٦٣).
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

**تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع عليهم ربهم إطلاعة، وقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»**[١].

**٢ - الترهيب من تركه:**

فقد أوعد على ذلك بالعذاب الأليم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[٢].

والأليم عند الله تعالى أليم، ويشمل العذاب في الدنيا من تسليط الكفار كما يشهدُ به الواقع وكما يدل عليه قوله ﷺ: **«لئن تركتم الجهاد وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمَنكم الله مذلةً في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا إلى ما كنتم عليه»**[٣]، والذلة التي تحدث عنها ﷺ الملازمة لترك الجهاد تعتبر من دلائل صدق نبوته، ونحن نشاهدها اليوم ماثلة لا ينكرها إلاَّ مغفل أو جاهل، وكثير من المسلمين يحاولون الخروج من حمأتها ويلتمسون العزة في غير ما أشار إليه النبي ﷺ، وسيبقون فيما هم عليه من الهوان حتى يصدقوا رسول الله ﷺ في قوله ويعودوا إلى الجهاد في سبيل الله.

كما يشمل أيضًا العذاب في الآخرة على ترك فريضة فرضها الله يتوقف هداية الناس وإقامة الحجة عليهم بها.

كما حذر رسول الله ﷺ من تركه في قوله: **«من مات ولم يغز ولم**

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (٣/ ١٥٠٢ رقم ١٨٨٧).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٩.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٨٤)، وانظر: ملحق (٢) ص(٤٢٨).

يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق»[١]، فالربط بين القعود وبين ترك الجهاد جعل المؤمنين يحذرون أشد الحذر من التخلف، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[٢].

**٣ ـ المرحلية في تشريعه:**

لم يشرع الجهاد في سبيل الله إلاَّ بعد شدة الحاجة إليه وطول الانتظار لتشريعه ليكون الإقبال عليه أتم والتمسك بأحكامه أشد.

وحيث أنه من التشريعات التي فيها مشقة على النفس في بادىء الأمر فقد تدرج القرآن في تشريعه على مراحل لتألفه النفوس، ثم إن تلك المراحل متزامنة مع نمو الدولة واتساع رقعتها، وكثرة أعدائها، ومراعىٰ فيها حال المكلفين وتربيتهم واستعدادهم، وطبيعة الظروف التي يمرون بها، ويمكن أن يوصف نمو الدولة الإسلامية وتمددها لإقامة دين الله على عين الله بالحركة التوسعية التي تشبه تموج الماء، إذا ما ألقى فيه حجر، ولهذا فإن تلك المراحل متداخلة، يصعب تحديد بداية كل مرحلة ونهايتها على وجه الدقة، وإنما ذلك على وجه التقريب.

**المرحلة الأولى**[٣]: مرحلة الإذن في القتال بعد المنع المدلول عليه لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٤]، وقد دلَّ على هذا الإذن قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾[٥]، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٧).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٥.

(٣) لم أذكر مرحلة كف اليد التي يذكرها أكثرهم، فهي من مراحل الجهاد بمفهومه العام، لكنها ليس من مراحل القتال في سبيل الله، بل هي المرحلة التي سبقته، وشملت كل المرحلة المكية، ومعلوم أن تلك المرحلة لم يشرع فيها قتال.

(٤) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٥) سورة الحج، الآية: ٣٩.

أبوبكر: آذوا نبيهم حتى خرج ليهلكُن! فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾، فقال أبوبكر: لقد علمت أنه سيكون قتال[١].

ويلاحظ أن الظلم الذي علل به تشريع الإذن في القتال، قد طوي ذكر تفاصيله، وقد لا يتبادر حجمه لمن لم يعرف الواقع الذي سبق هذا التشريع، أما الصحابة الذين وقع عليهم الظلم المشار إليه، فمدلول كلمة «بأنهم ظلموا» غير مدلولها لمن بعدهم في عمقها وتفاصيلها، فإذا قرأ أحدهم هذه الكلمة لم يكلف نفسه إلاَّ أن يستذكر تلك المرحلة المكية وما فيها من محن، قد غرسها أهل البغي في نفسه، حتى أصبحت نفسه جزءًا من ذلك التأريخ، بل أصبحت جزءًا من هذا الدين، وهذا يدل على أن جذور القتال في سبيل الله مغروسة بعمق في العهد المكي، ومن أغفل تلك الفترة في دراسته لجهاد النبي ﷺ فلن يخرج إلاَّ بصورة مبتورة لا تمثل حقيقة ذلك الجهاد العظيم، الذي بدأ بالصبر حتى تمت التربية ثم عقبه الإذن بعد القدرة على المواجهة وتمايز الصفين.

**المرحلة الثانية**: قتال من يقاتلهم دون من يسالمهم:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾[٢]، وقوله: «ولا تعتدوا» أي: لا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم، وقيل: قاتلوا من قاتلكم وكفوا عمن كفَّ عنكم[٣]. والقول الأول الذي يفسر الاعتداء بقتل النساء والصبيان ونحوهم هو المروي ـ كما سبق ـ عن ابن عباس ومجاهد وعمر بن عبدالعزيز، وهو القول الراجح كما قال النحاس:

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب (٢٣) من سورة الحج (٥/ ٣٠٤) رقم (٣١٧١) وقال: حديث حسن، والنسائي في الجهاد، باب: وجوب الجهاد (٦/ ٢) رقم (٣٠٨٥)، وصححه الألباني. انظر: ملحق (٢) ص(٤٢٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) جامع البيان: (٣/ ٥٦١ ـ ٥٦٤).

وهذا أصح القولين في السنة والنظر[١].

والذي يظهر أن سبب ترجيحه أنه من غير المعهود أن يوصف أمر بأن الله لا يحبه ويسميه عدوانًا ثم يأتي تشريع آخر يبطل ذلك وينسخه، ويأمر بنقيضه، ولا يعدُّهُ عدوانًا، فهذا من الأخبار، ومعلوم أن الأخبار التي توصف بالتصديق والتكذيب لا يجوز نسخها إذ هو تكذيب لها، فالوصف الوارد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ خبر عن صفة من صفات الله لا يرد عليها النسخ، وليس من الاعتداء ابتداء الكفار بالمقاتلة بل ذلك مما شرعه الله وأحبه وجعله من أعظم القربات كما في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾[٢].

وعلى هذا تضعف دلالة الآية على قتال من يقاتلنا والكف عمن كف عنا، ولكن في سورة النساء ما يمكن أن يستدل به على هذه المرحلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ۝٩١﴾[٣]، فهؤلاء مع أنهم باقون على كفرهم ـ على ما ذكر ابن جرير ـ[٤] فإن مفهوم المخالفة يدل على أنهم لا يقاتلون إذا ما كفوا أيديهم.

**المرحلة الأخيرة**: قتال جميع الكفار حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد دلَّ عليها الآيات الواردة في سورة التوبة ـ وهي من آخر ما نزل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٢٣).

(٢) جامع البيان (٢/ ٤٧٢)، والإتقان (٣/ ٦١)، ومناهل العرفان (٢/ ٢٠٢). والآية من سورة التوبة: ٤١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩١.

(٤) جامع البيان (٩/ ٢٩).

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . . .﴾[١]، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[٢].

وجدير بالذكر أن هذا التدرج يدل على عناية الله تعالى بهذه الشريعة العظيمة حيث شرعها عبر مراحل، كل مرحلة تعتمد على التي قبلها ليصل بها إلى مقصودها بشكل أتم، كما أنها معتمدة على الجهد الإنساني وطاقته، وهذا يقودنا إلى القول بأنه ليس شيء من مراحل القتال في سبيل الله منسوخًا[٣]، فإذا ما شابه حال المسلمين حال الرسول ﷺ وصحابته في بعض تلك المراحل ـ ولو كانت متقدمة ـ فإن العمل على إقامة الدين بنفس الطريقة التي شرعها الله تعالى لرسوله ﷺ وسار عليها هو وأصحابه هو المتعين مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الأحكام التي احتاجت إليها الأمة المسلمة لتخطي واقعها، يجب أن تنتقل منها بالتدرج المشروع للوصول إلى الأحكام النهائية في تشريع الجهاد متى أصبحت قادرة على ذلك.

وهذا ما فهمه السيوطي حيث قال بعد ذكر: ناسخه ومنسوخه: «الثالث: ما أمر به لسبب ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والقلة، بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال وهذا في الحقيقة ليس نسخًا بل هو من قسم المنسأ، كما قال تعالى: «أو ننسها» فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما لهج به الكثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٣) وأعني به ما استقر في اصطلاح المتأخرين.

ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر»[١].

والمتعين أن لا يستعجل بالقول بالنسخ ولينظر إلى الآيات وهي تتابع مسيرة الدعوة وتغرس هذا الدين في النفوس، وتقيم دولته على الأرض، على فترات مختلفة حتى بلغت الهدف الذي تسير إليه، وقد خلّد المولى عز وجل هذه الآيات في كتابه الكريم لتكون هي المنهج الذي يسلكه السائرون لإقامة دين الله إلى قيام الساعة.

وعلى ضوء ذلك يظهر بعد القول القائل: «نسخت آية السيف مائة وأربعًا وعشرين آية ثم نسخ آخرها أولها»[٢] إذ اعتقاده يبطل نصوصًا كثيرة من الكتاب الكريم بلا دليل إلاَّ لمجرد توهم المعارضة.

**٤ ـ فرضيته:**

فرض المولى عز وجل هذه الشعيرة المباركة على المؤمنين بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[٣]، ولا فرق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ فبابه واحد باعتبار الآمر به.

وقد تكاثرت النصوص الدالة على أن هذه الفريضة تشمل جميع القادرين من المسلمين ولا يستثنى إلاَّ أهل الأعذار المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[٤].

فمفهوم الآيات يدل على أن من ترك الجهاد وهو ليس من أهل

---

(١) الإتقان (٣/ ٦١).

(٢) المرجع نفسه (٣/ ٦٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٩١، ٩٢.

الأعذار فإن عليه حرجًا وهذا هو الذي فهمه الصحابة الكرام أنها فريضة تلزم الجميع إلا من عذر الله تعالى، وقد ربَّاهم الوحي على هذا الفهم، حتى كان أهل الأعذار يحتاجون أن يقولوا كما قال عبدالله بن أم مكتوم الأعمى: «والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت»(١) فينزل عذره من السماء.

وقد أكدت هذا المفهوم آيات صريحة، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾(٤).

وكانت هذه النصوص وأمثالها هي التي تحرك جيل الصحابة الكرام، ومنها يأخذون الفقه مباشرة، فإذا ما حاول أحد أن يثنيهم عن الجهاد بحجة أنه إذا قام به من تحصل به الكفاية عذر غيرهم، ردوا عليه بمثل قول أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ عندما كبر سنه: «أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبانًا جهزوني يا بني»(٥).

وكان أبوأيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلا أجدني إلاَّ خفيفًا أو ثقيلاً(٦).

وقال رجل للمقداد بن الأسود ـ وقد كبر حتى حمل على تابوت ـ: «لقد أعذر الله إليك» فقال المقداد: أبت علينا سورة البحوث

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿لا يستوي القاعدون﴾ (٤/١٦٧٧) رقم (٤٣١٦).
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٨.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤١.
(٤) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٦٠).
(٦) جامع البيان (١٤/٢٦٧).

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[١] .

لقد تربَّى الصحابة رضي الله عنهم على أن هذا الجهاد لازم لكل قادر لا يتخلف عنه إلاَّ المستأذن من رسول الله ﷺ، فيأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[٢] .

ومن الأمر الجامع مقاتلة العدو[٣] . ويفيد ذكر الاستغفار أنهم قد أتوا ما يستحقون معه الاستغفار وذلك حتى لا يكثر منهم.

بل قد وردت آيات تنص على أن الاستئذان في التخلف عن الجهاد ليس من شأن المؤمنين إنما هو من علامات المنافقين، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٤] .

فهذه الآيات تدل على ما ذكرنا أن الجميع لابد له من إذن في التخلف عن الجهاد من رسول الله ﷺ حتى اضطر المنافقون إلى ذلك، وكان استئذانهم في التخلف علامة على نفاقهم، ولو لم يرد في أمر التخلف عن الرسول ﷺ أثناء خروجه للجهاد إلاَّ هاتان الآيتان لكان كافيًا للصحابة في ملازمة الغزو.

وبهذا يتضح جليًا أن الأمة التي رباها رسول الله ﷺ كانت أمة مجاهدة بل إن هذه الصفة هي أبرز صفاتها على الإطلاق حتى بلغ من

---

(١) المصدر نفسه (١٤/١٦٧).
(٢) سورة النور، الآية: ٦٢.
(٣) جامع البيان (١٩/٢٢٨)، والكشاف (٣/٢٥٢).
(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

استجاباتهم لداعي الجهاد أنه لم يتخلف عنه ﷺ في غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها إلاَّ ثلاثة من المؤمنين، ثم نزل بهم من العقوبة والهجر ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1].

وبعد أن أصبحت الأمة بفضل هذا المنهج الرباني يتسابق أفرادها على القتال، وضمن استمرار تدفق المجاهدين عند الحاجة وردت آيات تشير إلى أن من تخلَّف عند الاستغناء عنه فلا حرج عليه في مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾[2].

فهاتان الآيتان نزلت في أسلوب يراعي منهج التشريع الذي تربت عليه الأمة من الاهتمام بالجهاد، فبدأت بنفي المساواة بين المجاهد والقاعد، ثم نصت على أفضلية المجاهدعلى القاعد بما يدفع حتى أولئك الذين وعدوا بالحسنى مع قعودهم إلى ترك القعود والإقبال على الجهاد لما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[3].

وهذا هو المنهج الذي وجَّه إليه رسول الله ﷺ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها**» فقالوا: يارسول الله: أفلا نبشر الناس؟ قال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله**

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٨.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٥، ٩٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٥.

للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[(١)].

فالصحابة الذين قالوا: «أفلا نبشر الناس» فرحًا بهذا الخبر الذي تضمن العلم بأن حتى من لم يجاهد، فإن مصيره الجنة لم يتركهم النبي ﷺ يذيعوا ذلك فيتباطأ الناس عن الجهاد، بل سرعان ما قرن به فضل الجهاد على غيره حتى إذا لم يدفعهم إليه الإلزام بالتكليف دفعهم إليه الرغبة في فضله، وهذا مشابه تمامًا للآية، وهذا المنهج الذي شرع من خلاله الجهاد حتى استقر في روع الأمة هو الضمان لبقاء الأمة مجاهدة.

ونظرًا لأن حال الأمة اليوم قداختلف عن الحال التي كانت عليه وقت الرسول ﷺ وصحابته، لأجل ذلك ينبغي ـ إن لم نقل يتعين ـ أن يراعى هذا التغير ويعالج على ضوء جهاد النبي ﷺ، وأن يكون الجهاد في هذه الأزمان مراعى فيه تغير الحال.

وقد كان السلف يراعون حال السائل ويفتونه بما يحمله على الامتثال ومن ذلك ما أخرجه البخاري بسنده أن رجلاً سأل ابن عمر عن استلام الحجر، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله، قال الرجل: أرأيت إن زحمت، أرأيت إن غلبت، قال: اجعل أرأيت باليمن. رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله»[(٢)].

فظاهر كلام الرجل يفهم منه الترخص، فأراد ابن عمر أن يعظم اتباع السنة في نفسه فأفتاه بالنص، ولم يذكر له الحكم من كونه سنةً أو واجبًا، وكان ذلك مناسبًا لحاله.

وكذا ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فعن سعد بن عبيدة قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: ألمن قتل مؤمنًا متعمدًا توبة؟ قال: لا، إلاَّ النار، قال: فلما ذهب قال له جلساؤه: أهكذا كنت تفتينا؟ كنت تفتينا أن لمن قتل توبة مقبولة، قال: إني لأحسبه رجلاً مغضبًا يريد

(١) سبق تخريجه ص(١٧٣).
(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب: تقبيل الحجر (٢/ ٨٥٣ رقم ١٥٣٣).

أن يقتل مؤمنًا، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك[١]. فابن عباس ـ رضي الله عنه يعلم أنَّ لقاتل المؤمن عمدًا توبة، لكنه راعى حال السائل، ومقصد الشرع، فغيَّر الفتوى ليستفيد منها السائل، ويتجنب القتل.

ومعلوم أن حكم الجهاد مرتبط بالحال والظروف التي تمر بها الأمة. والمقصد الذي من أجله شرع جهاد النبي ﷺ قائمًا إلى اليوم وإلى قيام الساعة، وأن المسلمين مطالبون بإقامة دين الله وإعلائه على الدين كله، وإعادة إقامته بنفس المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ.

وقد استقر حكم الجهاد عند جمهور علماء المسلمين بأنه فرض كفاية لكن «يجب أن يعلم أن المراد بفرض الكفاية الذي إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين أن تكون تلك الطائفة كافية للقيام به حتى يسقط، وليس المراد مجرد قيام طائفة ولو لم يكن قيامها كافيًا، فلا يصح إسقاط فرض الجهاد عن المسلمين كلهم بقيام طائفة منهم به في جزء من الأرض...»[٢].

يقول ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «والجهاد فرض على المسلمين فإذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم، ويحمي ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقين وإلا فلا»[٣].

ويقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «الأدلة الواردة في فرضية الجهاد كتابًا وسنةً أكثر من أن تكتب هنا، ولكن لا يجب ذلك إلا على الكفاية فإذا قام به البعض سقط عن الباقين، وقبل أن يقوم به البعض هو فرض عيني على كل مكلف»[٤]. ثم يقول: «أما غزو الكفار ومناجزة أهل الكفر وحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية أو القتل فهو معلوم من الضرورة الدينية... وما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق

(١) الدر المنثور (٥/ ٦٢٩)، والجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢١٤).
(٢) الجهاد في سبيل الله للقادري (١/ ٦٣).
(٣) المحلى لابن حزم (٧/ ٢٩١).
(٤) السيل الجرار (٤/ ٥١٥).

المسلمين، بما ورد من إيجاب المقاتلة لهم على كل حال مع ظهور القدرة عليهم والتمكن من حربهم وقصدهم إلى ديارهم»(١).

ومن تأمل حال المسلمين اليوم علم أن الكفاية لم تحصل. وأنه فرض عيني إلى أن يقوم به من تحصل بهم الكفاية. وحتى إذا حصلت لا يقال: يسقط عن الباقين. بل يفتى بما يضمن تدفق الأمة وإقبالها على ذلك الفريضة مراعاة لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ . . .﴾ الآية وحديث المائة درجة الآنف الذكر ليبقى مغروسًا في حس الأمة كما أراده الله تعالى.

**٥ ـ التسديد والتقويم:**

مما يدل على مكانة الجهاد وأهميته أن المولى ـ عز وجل ـ تابع مسيرته بكل تفاصيلها مسددًا ومقومًا لها لكي تكون نموذجًا يهتدي بها المجاهدون على تعاقب الأزمان.

فمسيرة الجهاد في سبيل الله متكونة من جانبين:

**الجانب الأول:** نصوص الوحي المعصومة.

**الجانب الثاني:** جهود البشر التي تعمل على تطبيق هذه النصوص إلى واقع عملي.

وقد وضع الشارع الحكيم في اعتباره هذه الجهود البشرية التي أوكل إليها إقامة هذه الفريضة، فشرع ما يصحح المسار من التقويم والإرشاد، والحث على الأفضل، والإشارة إلى جوانب التقصير وطريقة تلافيها.

إن المراجعة لما تم إنجازه، وتقويم الجهود ببعدها أو قُربها من الأهداف المراد تحقيقها لهي سمة أساسية من سمات المنهج الجهادي.

ومعلوم أنه لا يمكن لأحد من الناس أن يقوم بهذه الفريضة على الوجه المطلوب كما فعل رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، ومع ذلك فلم يعف المولى ـ عز وجل ـ ذلك الجيل الفريد من التقويم والمراجعة ليعلم من يأتي بعدهم أن ذلك منهج لازم لكل عمل يعتمد في إقامته على جهود البشر.

---

(١) المرجع السابق (٤/ ٥١٨).

إن منهج التسديد والتقويم ليدلل على أهمية هذه الفريضة، وإرادة غرسها بعمق في الأنفس، وذلك أن الإرشادات المؤثرة في النفوس هي تلك التي تأتي عند الحاجة إليها، أو تسبقها محاولات - ولو غير صحيحة - فإذا ما صححت بعد ذلك، كانت بمثابة الدرس العملي الذي لا يُنسىٰ.

وهذا هو المنهج البنَّاء الذي يذكر الخطأ أو خلاف الأولى، لا على وجه التَّشَفِّي بإبراز عيوب الآخرين، وإنَّما على وجه مقارنة الجهود المبذولة بالأعمال المطلوبة، وبعد النتائج عن الأهداف المرسومة، ثم توظف تلك التوجيهات في تربية الصف المسلم وتقويم مساره.

لقد عرض القرآن بعض غزات النبي ﷺ بشكل مفصل، وفي كل ما عرض من غزوات يبرز المواقف التي تحتاج إلى تقويم أو إرشاد ويبين ما حصل من ضعف أو تقصير، على المستوى الفردي أو الجماعي.

فبعد غزو بدر وقع شيء من الاختلاف بين الصحابة على قسمة الغنائم، وكاد أن يؤدي إلى اختلاف القلوب، وتفرق الكلمة ووحدة الصف، فأشار إليه في أول سورة الأنفال، وعالجه بأمرهم بتقوى الله وإصلاح ذات البين. كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾[1].

وبعد غزوة أحد كان المسلمون يعانون آلام الهزيمة، وكأن بعضهم كان مستبعدًا وقوعها، فهؤلاء الجند هم حزب الله وعباده المؤمنون يقاتلون أعداء الله، وعلى رأس قيادة الجيش المسلم رسول الله ﷺ، فمع هذه المقدمات الموجبة للنصر حصل الاستغراب لوقوع الهزيمة، فقال

(١) سورة الأنفال، الآية: ١.

بعضهم: «أنىٰ هذا؟» سواء بلسان حالهم أو بلسان مقالهم، فجاءت الإجابة: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾[١]، ثم يحدد سبب تخلف النصر بوضوح في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾[٢].

فمع أنه تعالى قد عفا عنهم، فإنه تفضل عليهم ببيان الخلل الذي حصلت بسببه الهزيمة، والذي كان خافيًا على بعضهم، حتى قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما كنت أرى أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ﴾»[٣].

وفي حنين نزل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[٤].

وفي غزوة تبوك نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾[٥].

فهذه أمثلة فقط، وإلاَّ فالتقويم الوارد في القرآن للمسيرة الجهادية أكثر من ذلك، وقد استبعد بعض العلماء حصول بعض الأخطاء من

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٣) أخرجه أحمد (١/٤٦٢)، زفيخ ضعف. انظر: ملحق (٢) ص (٤٢٩).
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٥.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

الصحابة رضي الله عليهم والتي لا تقدح في مكانتهم كما فعل القرطبي عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾(١)، فاختار رحمه الله أن تكون في المنافقين، مخالفًا لما ورد عن ابن عباس أنها في عبدالرحمن بن عوف وبعض أصحابه(٢)، وقال بعد ذلك: «ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابي كريم، يعلم أن الآجال محدودة والأرزاق مقسومة... إلاَّ أن يكون قائله ممن لم يرسخ في الإيمان قدمه ولا انشرح بالإسلام جنانه»(٣).

وهذا القول يدل على إجلاله للصحابة الكرام، وهم لهذا الإجلال أهل، ومع ذلك فإنه لا يخلو من نظر إذ لم يكونوا معصومين، ولا طباعهم إلاَّ من جنس طباع البشر، مع فضلهم عليهم بسبب التزكية والعلم الذي تلقوه عن الوحي مباشرة، على يد رسول الله ﷺ، ولكن تبقى أحاسيسهم، ومشاعرهم، وتقلبهم بين الضعف والقوة من جنس ما يعرف الناس من نفوسهم، وهذا هو الذي ذكره الله تعالى عنهم في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾(٥)، فالمجادلة في الحق بعدما تبين، والهمُّ بالانصراف عن الرسول ﷺ وقت الشدة والحرب وغير ذلك يمثل الجانب البشري الآخذ في النمو ولم يكتمل بعد.

فإذا ما حصلت هذه الهفوات ثم جاء الوحي مقومًا لها كان حالهم بعد نزوله أكمل من حالهم قبل ذلك، كما أن ذلك الفعل الذي

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.
(٢) سبق تخريجه ص(١٢٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٨١).
(٤) سورة الأنفال، الآيتان: ٥، ٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.

نزل القرآن بسببه أو حَذَّر منه بعد وقوعه ليعدُّ هو التفسير الحقيقي لذلك النص ويلحق به ما قاربه أو شابهه.

إن إبراز حياة الصحابة على حقيقتها من غير زيادة أو نقص ليجعل نصوص الوحي تتنزل على معانيها الحقيقية، بلا شطط أو وكس، حتى إذا قرئت تلك النصوص وعلم الواقع الذي خاطبته آنذاك أمكن عندئذ نقلها إلى مجتمعاتنا، واستفدنا منها، كما استفاد الأوائل.

أما من تصور أن مجتمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ خالٍ من الأخطاء والمخالفات الملازمة للبشر، فإنه قد يستغلق عليه فهم كثير من النصوص التي تناولت مسيرتهم الجهادية، وترقت بهم في مدارج الكمال.

ثم إنه ليس من المجافاة في حقهم أن يذكر ما وقع فيه بعضهم على وجه الاستفادة والتدرج في التربية، وكيف استجابوا لداعي الحق مع النوازع البشرية التي يعانون مجاهدتها كما يعاني غيرهم، فإن ذلك أكمل في التأسي بهم، ولئلا ينقطع الطمع في محاولة السير على خطاهم.

ثم ها نحن نستفيد من منهج القرآن الذي لم يعف حتى الأنبياء بدءًا بأبينا آدم ـ عليه السلام ـ وأكله من الشجرة، ونعد ذلك معصية، لكنها أفادته، فأصبح حاله بعد التوبة أكمل بدلالة قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾(١).

وانتهاء بنبينا محمد ﷺ الذي وردت إليه آيات توجهه إلى الأكمل والأفضل كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ

(١) سورة طه، الآية: ١٢١، ١٢٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾[(٢)]، وبهذا نعلم عظمة هذا المنهج الذي لا يكتفي بتشريع الأحكام، بل شرع متابعة تطبيقها في أرض الواقع وحظ ذلك التطبيق من الصواب.

**٦ـ التكرار:**

لقد كرر المولى عز وجل كثيرًا من النصوص القرآنية المتعلقة بالجهاد وذلك لغرسها في النفوس سواء تكرار اللفظ أو تكرار المعنى، فمن تكرار اللفظ تكرر عبارة «في سبيل الله» المقيدة للقتال والجهاد، للدلالة على الإخلاص، وكذا تكرر ذكر الهدف في آيتين هما، قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾[(٤)]، فالثانية لا تخالف الأولى إلاَّ في لفظ «كله» الدال على التأكيد.

وتكرار المعنى مع اختلاف يسير في اللفظ عند التأكيد على أن دخول الجنة مرتبط بالجهاد في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾[(٥)]، وقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[(٦)]، وقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[(٧)]

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.
(٧) سورة التوبة، الآية: ١٦.

فهذه الآيات مفسرة لبعضها، ومن مجموعها يخرج معنى إضافي زائد عمَّا تدل عليه إحداها منفردة.

ـ فآية البقرة ربطت بين حصول الابتلاء ودخول الجنة.

ـ وآية آل عمران ربطت بين الجهاد والصبر ودخول الجنة.

ـ وآية التوبة ربطت بين الجهاد والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والمقتضي البراءة من الكافرين وبين دخول الجنة.

فعلم أن دخول الجنة يسبقه الابتلاء والصبر، والجهاد الحاصل بسبب عقيدة الولاء والبراء.

ولما أراد سبحانه بيان حقيقة النصر، وأنه من عند الله وليس ناتجًا من العدد والعدة، وأن كثيرًا من الناس سريعًا ما ينسون هذه الحقيقة، فقد كرر ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

وبنفس الألفاظ تقريبًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[2].

ولتأكيد أهمية جهاد الكفار والمنافقين فقد تكرَّر الأمر بذلك مُخاطبًا فيه رسول الله ﷺ في آيتين متطابقتين في اللفظ والمعنى.

في سورة التحريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾[3].

وفي سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[4].

ولبيان إرادة الله في إظهار دينه المخالفة لإرادة الكافرين في إطفاء

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٠.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

نوره فقد أكد هذه الحقيقة بآيتين تطابقتا في المعنى مع اختلاف يسير في اللفظ، فالأولى في سورة الصف في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[١].

والثانية في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾[٢].

أمّا الآيات المتفقة في المعنى ومختلفة في اللفظ اختلافًا بيّنًا فكثيرة تغني كثرتها عن ذكرها.

**٧ـ التناسب بين المعاني والألفاظ:**

فقد ربط الشارع الحكيم المعاني التي طلب تحصيلها بالألفاظ الحسنة المشجعة على الإتيان بها كما ربط ما نهى عنه بألفاظ منفرة، ومن ذلك على سبيل المثال:

ـ قوله تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾[٣]، ومثلها: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٤]، فكلمة «اشترى» أدل على المقصود وأوقع في النفس من كل كلمة غيرها فهي توحي بالإلزام بين البائع والمشتري حتى كأن ثمن السلعة «الجنة» حقٌّ ثابت للمشتري، فلا يقاربها في الدلالة أثابهم[٥] أو عوضهم[٦] أو سواها.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨، ٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٢، ٣٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٤.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٥) الكشاف (٢/ ٣٠٢).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٦٨).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾(١)، فلفظ «المستضعفين» يوحي بالشفقة ويحمل أكثر من معنى المظلومين أو المعتدى عليهم، فإضافة إلى الاعتداء والظلم فإنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لضعفهم ويكتفون بالدعاء ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا . . .﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾(٢)، وهما الشهادة أو الظفر(٣)، فلفظ «الحسنى» الذي اختير للدلالة على الشهادة والنصر يقوي قلب المؤمن بالعاقبة التي يسعى إليها، إذ هو متقلب بين أمرين كلاهما موصوف «بالحسنى»، فإن فاتت واحدة أصاب الأخرى.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(٤)، وقد تكاثرت الآيات على التنفير من الشيطان حتى استقرَّ ذلك في النفوس، فلما أراد التنفير من التولي ربطه بما استقرَّ قبحه في نفوسهم.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٥)، فلما أراد التنفير أيضًا من القعود والتخلُّف أشار إلى أنه ناتج عن هوانهم على الله تعالى وكراهيته لخروجهم، وعلى هذا يشعر من همَّت نفسه بالتخلُّف بأنه ليس أهلاً ليكون من المجاهدين في سبيله الذين وصفهم بمحبته لهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾(٦)، فيدفع هذا الشعور المؤمن الحق إلى اللحاق بركب المجاهدين بدل التماس المعاذير التي يقنع بها نفسه

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٦٣).
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٦.
(٦) سورة الصف، الآية: ٤.

وغيره.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[١]، والمراد: لا تقتلوهم بل خلوا سبيلهم بدلالة ما سبق من قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[٢]، ولكن التعبير بقوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، تضمن مزيدًا من النهي، وكأنه قال: لا تقتلوهم لأنهم أصبحوا إخوانكم في الدين، وقد علمتم حق تلك الأخوة الدينية، كما أن قتل المؤمن لأخيه مستقرٌّ حكمه في النفوس، فرتب الحكم عليه لثباته، ولمزيد تثبيته.

يُضاف إلى ما سبق من الوسائل التي غُرس بها الجهاد في الأمة وتدل على العناية به وتفضيله على غيره من الشرائع أمورًا أذكرها باختصار.

* ذكر أحداثه في قالب القصة لتؤدي دورها في التأثير وأخذ العبرة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ـ إلى قوله: ـ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[٣] وكذا قصة نكوص بني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة.

* استخدام الألفاظ المغايرة لما عليه أهل الجاهلية التي يصفون بها حروبهم كتسميته بالجهاد والمقتول بالشهيد، والقتل بالشهادة، والمشاركون في القتال من الطرفين مؤمنون وكافرون، ونحو ذلك مما يُشعر بأنه تشريع مخالف لمعهود اقتتال البشر.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٦ـ٢٥١.

* ربط أحكامه بعللها لتقبلها النفوس ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[(١)]، ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾[(٢)] وغيرها.
* وصف العدو بصفات تشحذ همة المجاهد لمقاتلته ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[(٣)].
* ذكر العوائق التي تحول دون النصر وتجلب الهزيمة، نحو قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾[(٤)]، وكذا الذنوب المشار إليها في قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ ﴾[(٥)].
* ذكر الآثار المترتبة على الجهاد من التمكين في الأرض وتحقيق العبودية لله ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[(٦)].

وفي هذا كفاية ـ إن شاء الله ـ للتدليل على مكانة هذه الفريضة التي تنوعت وسائل تشريعها بطرق شتى وبأساليب مختلفة، وهذه المكانة مناسبة للمهمة المراد تحقيقها، من هذه الفريضة ذات النفع المتعدي والأهداف المتطابقة مع الهدف من البعثة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.
(٦) سورة الحج، الآية: ٤١.

* ربط أحكامه بعللها لتقبلها النفوس ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾(١)، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾(٢) وغيرها.

* وصف العدو بصفات تشحذ همة المجاهد لمقاتلته ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾(٣).

* ذكر العوائق التي تحول دون النصر وتجلب الهزيمة، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾(٤)، وكذا الذنوب المشار إليها في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ﴾(٥).

* ذكر الآثار المترتبة على الجهاد من التمكين في الأرض وتحقيق العبودية لله ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾(٦).

وفي هذا كفاية ـ إن شاء الله ـ للتدليل على مكانة هذه الفريضة التي تنوعت وسائل تشريعها بطرق شتى وبأساليب مختلفة، وهذه المكانة مناسبة للمهمة المراد تحقيقها، من هذه الفريضة ذات النفع المتعدي والأهداف المتطابقة مع الهدف من البعثة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.
(٦) سورة الحج، الآية: ٤١.

# المبحث الرابع
# آداب الجهاد ومعاملاته وأحكامه

**تمهيد :**

إن قتال النبي ﷺ وصحابته لم يكن كقتال الجبَّارين الذين يعيثون في الأرض فسادًا، وإذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزَّة أهلها أذلة، بل كان قتاله ﷺ قتال نبوة، شرعه الله، وأظلته الرحمة، ورعته العدالة، وقد قال ﷺ عن نفسه: «**أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي الرحمة**»[١] وفي رواية: «**ونبي الملحمة**»[٢]، «والرحمة والملحمة متلاقيتان في دعوته إذ ما كانت الملحمة إلاَّ لنشر المرحمة.. ولولا جهاده ﷺ ما عرف الناس وجه الصواب في استعمال السيف»[٣].

لذلك قد ارتفع قتاله ﷺ وقتال أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ عن معهود قتال الناس، وإن كان من جنسه، بحيث التزموا في حروبهم أسمى وأكرم المبادىء الإنسانية والأخلاق الرفيعة، ولقد كانوا مضرب المثل في معاملتهم لأعدائهم، وترفعهم عن دناءات العدو، والسبب أنهم أصحاب رسالة سماوية ودعاة هداية وحكمة.

وإذا كانت الغاية لا تبرر من الوسائل إلاَّ ما يليق بها عند المسلمين، فإن الحرص على كسب النصر على العدو لا يبرر التنازل عن الأخلاق والآداب الإلـٰهية التي تؤثر في نفوس العدو ـ ربما ـ أكثر من

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: في أسمائه ﷺ (٤/١٨٢٨) رقم (٢٣٥٥).

(٢) وردت هذه اللفظة في صحيح مسلم على ما ذكره في تحفة الأشراف (٦/ ٤٧٢) رقم (٩١٤٧) في سياق الحديث الذي قبلها بدل و«نبي الرحمة» التي في المطبوع، فلعلها نسخة اطلع عليها المزي رحمه الله، وقد أخرجها أحمد في مسنده في موضعين (٤/ ٣٣٩، ٤٠٤) بلفظ: «الملحمة».

(٣) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة للحداد (٣/ ١٢٨٠).

التأثير الحاصل بسبب النصر في المعارك العسكرية.

وذلك أن هزيمة الخصم روحيًا، والتفوق عليه في المبادىء والأخلاق قد تقوده إلى الانخراط في صفوف عدوه، فإن لم يحصل ذلك فإن إرادة القتال لديه قد تضعف إذا لم تنشل بالكلية.

فالعدو الذي يُقاتل المسلمين هو من الناس، ولديه أحاسيس ومشاعر وضمير وفطرة، فإذا ما بلغته الدعوة إلى الله، وعلم أن هؤلاء الناس يقاتلون لإعلاء دين الله، ثم رأى معاملاتهم مع أعدائهم منضبطة بأوامر الله، مع وجود دواعي التشفي والانتقام وأنهم لا يجارون العدو في إسفافه في المعاملة، فإنه إذا لم تخمد جذوة فطرته، ويمت ضميره سيدعوه ذلك إلى التساؤل عن مصدر تلك المعاملات الكريمة، وهذا مقصد دعوي قائم بذاته، يهدف من خلاله إلى هداية الناس إلى هذا الدين الحق، وبهذا تلتقي أهداف الوسائل الجزئية مع المقصد الأعظم من البعثة.

وللتدليل على ذلك سنعرض طائفة من الآداب والمعاملات والأحكام المتعلقة بالجهاد في سبيل الله لنرى آثار العدل والرحمة فيها:

## ١- الدعوة قبل القتال

فالقتال إنما شُرع من أجل الدعوة، وليس من العدل الشروع في مقاتلة المخالفين وهم لا يعلمون علامَ يُقاتَلون، فإذا ما قامت عليهم الحجة بالعلم المنافي للجهل ثم أعرضوا عن القبول ورفضوا دين الله تعالى فإنهم حينئذ من الظالمين لأنفسهم وعقوبتهم عند الله في الآخرة، أما إذا منعوا غيرهم من قبوله وأصبحوا عقبة في سبيل وصول الخير إلى الآخرين فإنهم قد جمعوا إلى ظلم أنفسهم ظلم غيرهم فهؤلاء تعد إزالة ضررهم ومقاتلتهم على بغيهم من أعظم القربات.

وقد تنوع هدي الإسلام في معاملة المخالف تبعًا لموقفه من الدعوة وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: فمن الناس من لم تبلغه الرسالة، أو بلغته على غير وجهها الصحيح، فهؤلاء يبين لهم الحق، ويُدْعَوْنَ إليه بالحسنى، وتُزال ما لديهم من شُبهات بالحجج والبراهين، وفي نطاق الأسلوب الهادىء المقنع، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[١].

ولا يبدأون بقتال ما لم تسبقه الدعوة كما دل عليه عموم قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[٢]، وتسليط المؤمنين على الكافرين بقتلهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم نوع من العذاب الدنيوي - وإن كان ما ينتظرهم في الآخرة أشد - ودلَّ على كونه عذابًا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾[٣].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥. وغني عن التأكيد بعد القول بنسخها عن الصواب الذي أشار إليه القرطبي في تفسيره (١٠/١٣١)؛ لأن الدعوة بالحكمة والموعظة لا تنافي القتال وقد جمع بينهما رسول الله ﷺ فدعاهم أولاً ثم قاتلهم بعد ذلك.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٣.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ من أرضهم وديارهم لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي(١).

**ثانيًا:** ومنهم من يريد التبين والاستزادة من معرفة الحق، فهذا تحسن معاملته ويمكن من ذلك، ولا يعترض له بسوء، حتى لو كان حربيًا، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾(٢).

وإذا كانت الآية قد نصَّت على أمان المشرك، حتى يسمع كلام الله، فإنها تشمل كذلك الكتابي، إذ العلة من هذا الأمان هو إرادة حصول الهداية التي لا تقتصر على المشرك، بل وتشمل الكتابي(٣).

«وليس يريد بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ مجرد الإصغاء.. وإنما أراد فهم المقصود من دلالته على النبوة، وفهم المقصود به من التكليف.. إذ الشيء إنما يُراد لمقصوده، فإذا عدم المقصود فكأنه لم يوجد، فأمر الله بالرفق بهم والإمهال لهم، حتى يقع الاعتبار إنْ منَّ الله بالهدى والاستبصار»(٤).

وقد ختمت الآية بالداعي إلى إعطائهم الأمان، وهو حصول العلم الذي يتبينون به حقيقة الإسلام، وكونه حقًّا منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ، وفيه الإشارة إلى أن تمسكهم بشركهم، وعدم دخولهم في الإسلام إنما سببه الجهل بما هم عليه وبحقيقة ما يُدعون إليه، والذي لا دواء له إلاَّ بالعلم.

وهذا هو حال كثير ممن أعرض عن الإسلام، سواء ممَّن ينتسب إليه ظاهرًا، أو ممَّن لم ينتسب إليه، ولا يكفي لإقناع غالبهم في الدخول

---

(١) جامع البيان (٢٣/٢٦٧).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٢/٤٥٦) بمعناه، آثار الحرب في الفقه الإسلامي (٢٧٧).

(٤) أحكام القرآن (٢/٤٥٩، ٤٦٠).

في الإسلام أن تصنف في بيان محاسنه الكتب، وتدبج في مدحه الخطب ما لم يقرن ذلك بتطبيق المؤمنين له في أخلاقهم وسلوكهم ومعاملاتهم.

وهذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة، ومنها: هديه ﷺ حينما قدم عليه وفد ثقيف، قال موسى بن عقبة: «**وأنزل رسول الله ﷺ وفد ثقيف في المسجد وبنى لهم خيامًا، لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلُّوا**»(١)، ومثله ما فعله بثمامة بن أثال حين ربط بالمسجد فآل به ذلك إلى قبول الإسلام بل ومحبته(٢)، وذلك بعد أن زال عنه الجهل بسبب ما حصل له من الوقوف على حقيقة هذا الدين ورآه واقعًا مطبقًا في حياة طائفة من الناس قد ارتفعوا بفضل التمسك به واتخاذه منهجًا عن غيرهم من البشر.

**ثالثًا**: ومنهم من بلغته الرسالة، وقامت عليه الحجة، فآثر ما كان عليه على ما جاءه من الحق، فهذا إذا لم يشكل خطرًا على مسيرة الدعوة وقيام دولة الإسلام وحكم الله في الأرض، فإنه يبقى على ماهو عليه مع تيسير السبل الكفيلة ببيان محاسن الإسلام له، ليزهد فيما هو عليه من موروثات الجاهلية، ويقبل على هدى الله الذي أنزله لعباده، ومن ذلك بره ومعاملته بالقسط المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾(٣).

وهذا الأدب الإلهي العظيم هو المناسب لهداية الناس والرحمة به، وتألُّفهم على الإسلام، خلافًا لمن اشتط وقال أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(٤)، وقد أورد ابن جرير

(١) زاد المعاد (٣/٥٩٦).

(٢) سبق ذكره ص(١٢٤).

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥.

الطبري أقوال القائلين بنسخها ثم تعقبها بقوله: «وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: لا ينهاكم عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم. . . ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ»(١).

وفي الصحيح: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة، في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «**نعم صلي أمك**»(٢).

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: رأى عمر حُلَّة على رجل تباع، فقال للنبي ﷺ: ابتع هذه الحلة تلبسها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفود، فقال: «**إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة**» فأتى رسول الله ﷺ بحلل، فأرسل إلى عمر منها بحلة، فقال عمر: كيف ألبسها، وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: «**إني لم أكسكها لتلبسها، تبيعها أو تكسوها**» فأرسل بها عمر إلى أخٍ له من أهل مكة قبل أن يسلم(٣).

**رابعًا**: ومنهم من بلغته دعوة الحق، وآثر ما كان عليه على ما جاءه من الحق، وقاوم الدعوة، وصد عن سبيل الله، سواء دفعه إلى ذلك محافظته على التقاليد الموروثة أو العصبيات الضالة، أو الخوف على مصالحه، أو كراهيته للتغيير، أو الكبر والعناد، أو الجهل وعدم التبين، أو غير ذلك، فإن مقاتلة هؤلاء قد شرعها الله عز وجل.

ويدل على دعوتهم قبل قتالهم ما جاء في الصحيح أن عليًّا ـ رضي الله عنه ـ قال يوم خيبر: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً**

(١) جامع البيان (٢٣/ ٣٢٣).
(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب: صلة المرأة أمها (٥/ ٢٢٣٠) رقم (٥٦٣٤).
(٣) أخرجه البخاري في الهبة، باب: الهدية للمشركين (٢/ ٩٢٤) رقم (٢٤٧٦).

واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْر النعم»(١).

وقال ﷺ: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهنَّ أجابوك إليها، فاقبل منهم وكفّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم**...»(٢).

ولقد ارتبط القتال بالدعوة حتى أصبح بلوغ الدعوة شرطًا للقتال، يقول ابن رشد: «فأما شرط الحرب فهو بلوغ الدعوة بالاتفاق»(٣).

وورد في السير الكبير وشرحه: «وإذا لقي المسلمون المشركين فإن كانوا قومًا لم يبلغهم الإسلام فليس ينبغي لهم أن يقاتلوهم حتى يدعوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾(٤)، وبه أوصى رسول الله ﷺ أمراء الجيوش، فقال: «**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**» ولأنهم ربَّما يظنون أننا نقاتلهم طمعًا في أموالهم، وسبي ذراريهم، ولو عَلِمُوا أننا نقاتلهم على الدين، ربما أجابوا إلى ذلك من غير أن تقع الحاجة إلى القتال، وفي تقدم عرض الإسلام عليهم دعاء إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة فيجب البداية به.

فإن كان قد بلغهم الإسلام ولكن لا يدرون أنا نقبل منهم الجزية، فينبغي أن لا نقاتلهم حتى ندعوهم إلى إعطاء الجزية»(٥).

وتمثل الكتب التي بعثها رسول الله ﷺ تنفيذ الحكم الشرعي في وجوب تبليغ الدعوة إلى الإسلام إلى الناس جميعًا شعوبًا وقيادات، قبل النهوض إلى جهاد من يقف عقبة في طريق تلك الدعوة ويمنعها من الوصول إلى غاياتها التي حددها الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام (٣/ ١٠٧٧) رقم (٢٧٨٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل علي رضي الله عنه (٤/ ١٨٧٢) رقم (٢٤٠٦).

(٢) سبق تخريجه ص(١٥٩).

(٣) بداية المجتهد (١/ ٦٦٢).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٥) شرح السير الكبير (١/ ٧٥، ٧٦).

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار[١] يدعوهم إلى الله تعالى. . . »[٢].

أمَّا مضمون تلك الرسائل، فكتابه إلى هرقل ـ عظيم الروم ـ نموذج منها وملخصه الدعوة إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده ونفي الشرك بجميع صوره، وهذا نصُّه:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلمْ، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**[٣] و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾»[٤].

(١) وقد أورد صاحب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» نصوصًا كثيرة يمكن أن تفسر هذه العبارة «كتب. . . إلى كل جبار».

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار (٣/ ١٣٩٧) رقم (١٧٧٤).

(٣) الأريسيون: هم الخدم والخول، وقيل: الأكارون: أي الفلاحون والزارعون، وقيل غير ذلك. انظر: النهاية (١/ ٣٨).

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي (١/ ٨) رقم (٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (٣/ ١٣٩٦) رقم (١٧٧٣).

## ٢ـ تخيير العدو في ثلاث وإمهاله ثلاثًا

وقد دل على هـٰذا الخلق الرفيع قوله ﷺ: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهنَّ أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكفّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم... فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم فإن هم أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم...**»(١).

وقد التزم رسول الله ﷺ وصحابته هذا المبدأ ـ أعني مبدأ إعلان الحرب ـ والذي لم يتوصل إليه العالم بأجمعه إلاَّ عام ١٣٢٧هـ، في اتفاقية لاهاي الثانية، والتي جاء فيها: «يجب أن لا تبدأ الحرب إلاَّ بعد إخطار سابق غير غامض سواء أكان في صورة إعلان للحرب مع ذكر الأسباب أو في صورة إنذار نهائي يوضح فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين بعد مهلة محددة إذا لم تجب الدولة التي وجه إليها الإنذار بقبول طلبات الدولة التي وجهته»(٢)، وحتى مع وجود هذه الاتفاقية ـ التي يبدو أنها مقتبسة من معاملات المسلمين لأعدائهم ـ فإنها «أضحت في العصر الحديث في أزمة فلم تحترم في كثير من الأحوال في الفترة التي تقع فيما بين الحربين العالميتين، مما جعلها تضعف وتضمحل حتى لكأنها في الوقت الحاضر لا وجود لها..»(٣).

أما الصحابة الكرام فقد مارسوها عمليًّا، ونفذوا ما أوصاهم به رسول الله ﷺ، فعن أبي البختري قال: لما غزا سلمان ـ رضي الله عنه ـ من أهل فارس، قال: كفوا حتى أدعوهم كما كنت أسمع رسول الله ﷺ

---

(١) سبق تخريجه ص(١٥٩).

(٢) الوسيط في القانون الدولي العام لمحسن الشيشكلي (٣٤٦/١)، والعلاقات الخارجية في دولة الخلافة، أبوالعيد (١٦٦).

(٣) العلاقات الدولية في الإسلام لوهبة الزحيلي (٤١).

يدعوهم، فأتاهم فقال: «إنا ندعوكم إلى الإسلام فإن أسلمتم فلكم مثلُ مالنا وعليكم مثل ما علينا، وإن أبيتهم فأعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإن أبيتم قاتلناكم» قالوا: أما الإسلام فلا نسلم، وأما الجزية فلا نعطيها، وأما القتال فإنا نقاتلكم، فدعاهم كذلك ثلاثًا فأبوا عليه، فقال للناس: «انهدوا[١] إليهم»[٢].

وقالها خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ يوم اليرموك حينما سئل إلى ما تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمَّدًا عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم، قال: فإن لم يعطها، قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله»[٣].

وقال النعمان بن مقرن ليزدجرد: «إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه. . . فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنَّا عليه من العداوة والضيق، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا. . . فإن أجبتم خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن أتيتمونا بالجزية قبلنا ومنعناكم، وإلاَّ قاتلناكم»[٤]. وهذا من أوضح ما يبين حقيقة الجهاد ومقاصده.

وقال نحو هذه المقالة ربعي بن عامر، فقال له رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم؟ يومًا أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل

(١) أي: انهضوا.
(٢) الخراج لأبي يوسف (١٩١).
(٣) البداية والنهاية (٧/١٣).
(٤) المرجع نفسه (٧/٤٢).

رأينا ورؤساء قومنا، فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل»(١).

بل لقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في الالتزام بهذا المبدأ حينما حكم عليهم قاضيهم بالخروج من البلد الذي دخلوه دون إنذار. قال البلاذري: «لما استخلف عمر بن عبدالعزيز، وفد عليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم جُميع بن حاضر الباجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء»(٢).

(١) المرجع نفسه (٧/ ٤٠).
(٢) فتوح البلدان (٥٩٣).

# ٣ـ التثبت في القتال

جاء الإسلام بصون الأنفس، وعدم الاستعجال في سفك الدماء، إلاَّ بعد التبين، وترك قتال من أظهر الإسلام، ولو تعوذًا من السيف، حتى تعرف حقيقة أمره.

ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١].

قال الطبري في معنى الآية: «يقول: إذا سرتم مسيرًا لله في جهاد أعدائكم.. فتأنَّوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمره، ولا تتقدموا[٢] على قتل أحد إلاَّ على قتل من علمتموه يقينًا حربًا لكم ولله ولرسوله... ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم مظهرًا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم: لست مؤمنًا، فتقتلوه ابتغاء عرض الحياة الدنيا»[٣].

وورد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «مرَّ رجل من بني سُليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه غنم له، فسلَّم عليهم، قالوا: ما سلَّم عليكم إلاَّ ليتعوذ منكم، فقاموا فقتلوه، وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.
(٢) لعلها: ولا تُقْدِموا.
(٣) جامع البيان (٩/ ٧٠، ٧١).

إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾[١]»[٢].

وفي هذا المعنى حديث أُسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ وفيه: «فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلاَّ الله فطعنته، فوقع في نفسي، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**قال: لا إله إلَّا الله وقتلته؟**» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا**» فمازال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ[٣].

وهذا أبلغ ما يكون من الزجر «حتى لا يقدم أحد على قتل من تلفظ بالتوحيد»[٤] وبهذا يتبين حرص الشارع على هداية الناس لا على قتلهم.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام﴾ (٤/ ١٦٧٧) رقم (٤٣١٥) مختصرًا، والترمذي في التفسير، باب (٥) من سورة النساء (٥/ ٢٢٤) رقم (٣٠٣٠)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري في الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿ومن أحياها﴾ (٦/ ٢٥١٩)، رقم (٦٤٧٨) بنحوه، ومسلم في الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (١/ ٩٦) رقم (٩٦).

(٤) فتح الباري (١٢/ ٢٠٣) رقم (٦٧٨٢).

# ٤ ـ تجنب قتال غير المقاتلة من النساء والصبيان ونحوهم

فمن عدالة الإسلام ورحمته في تشريع القتال أنه لم يأذن إلاَّ في قتال المقاتلة الذين يقاتلون بالفعل أو الرأي. وهذا تشريع يناسب حالهم وما صدر منهم من مقاومة للحق وصد عن سبيل الله تعالى، وقد دل على ذلك:

ـ ما رواه رباح بن ربيع قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً فقال: «**انظر علام اجتمع هؤلاء**»، فجاء فقال: على امرأة قتيل، فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**» قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد فبعث رجلاً فقال: «**قل لخالد: لا تقتلن امرأة ولا عسيفًا**»[١].

فقوله: «**ما كانت هذه لتقاتل**» اشتملت على العلة الموجبة للقتل وهي المقاتلة، ودلت بمفهومها على الكف عن قتال من لا يقاتل ـ كما سبق ـ.

وفي هذا المعنى وردت أحاديث أخرى مؤكدة دلالة هذا المفهوم، وفيها خُصَّ بالذكر أنواع، ممَّن نهي عن قتلهم.

فمنها ما ورد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان[٢].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً**

---

(١) سبق تخريجه ص (١٥٨).
(٢) سبق تخريجه ص (١٥٨).

صغيرًا ولا امرأة»[١].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ كان إذا بعث جيوشه قال: «**لا تقتلوا أصحاب الصوامع**»[٢].

وعلى ضوء العلة السابقة فقد ألحق العلماء من في حكم المذكورين بجامع عدم المقاتلة.

قال ابن دقيق العيد ـ عقيب حديث المرأة المقتولة ـ: هذا حكمٌ مشهورٌ في من لا يقاتل. . . ولعل سر هذا الحكم أن الأصل عدم إتلاف النفوس، وإنما منه ما يقتضيه رفع المفسدة، ومن لا يقاتل ولا يتأهل للقتال في العدة ليس في إحداث الضرر كالمقاتلين فرجع إلى الأصل فيهم وهو المنع[٣].

وقال الكاساني ـ مراعيًا تلك العلة ـ: «أما حال القتال فلا يحل فيها قتل امرأة، ولا صبي، ولا شيخ فانٍ ولا مقعد، ولا يابس الشق، ولا أعمى، ولا مقطوع اليد والرجل من خلاف»[٤].

أمَّا إذا حصل من هؤلاء قتال أو إعانة عليه، فيدل على قتلهم عموم قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[٥]، بل قد ورد ما هو أخصُّ من ذلك، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لم يقتل من نسائهم ـ تعني بني قريظة ـ إلاَّ امرأة، إنها لعندي تحدِّث تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا، قلت: وما شأنك؟ قالت: حدث أحدثته، قالت:

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد، باب: في دعاء المشركين (٢/ ٤٤) رقم (٢٦١٤)، وفيه ضعف. انظر: ملحق (٢ ) ص (٤٢٩).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥) وفيه ضعف، انظر: ملحق (٢) ص (٤٢٩).
(٣) أحكام الأحكام (٤/ ٢٣٦).
(٤) بدائع الصنائع (٩/ ٤٣٠٧).
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

فانطلق بها فضربت عنقها. . . »[١].

قال ابن رشد: لا خلاف بينهم في أنه لا يجوز قتل صبيانهم، ولا قتل نسائهم ما لم تقاتل المرأة والصبي، فإن قاتلت المرأة استبيح دمها[٢]

وقد وردت أحاديث يدل ظاهرها على خلاف ماذكرنا:

١ـ فقد أخرج البخاري عن الصعب بن جثّامة أن الرسول ﷺ سئل عن أهل الدار من المشركين يبيتون فيصاب من ذراريهم ونسائهم فقال: «**هم منهم**»[٣].

قال الزيلعي: وأجيب عنه بوجهين: أحدهما: أنه منسوخ، نقله الحازمي في «الناسخ والمنسوخ» عن سفيان بن عيينة[٤]، وقد ذكره أبوداود عن الزهري[٥]. والثاني: أن حديث الصعب هذا إنما هو في تبييت العدو إذا أُغير عليه فقتل من الذرية من غير قصد ضرورة التوصل إلى العدو»[٦]. وهذا أشبه.

٢ـ وحديث: «**اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرخهم**»[٧].

فعلى فرض صحته ينزل على الشيخ الذي بقي فيه نفع للكفار، ولو بالرأي، فإن دريد بن الصمة قتل يوم حنين، وقد نيف على المائة، وكانوا قد استحضروه ليدبر لهم الحرب، فلم ينكر النبي ﷺ[٨].

---

(١) أخرجه أبوداود في الجهاد، باب: في قتل النساء (٢/ ٦٠) رقم (٢٦٧١)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٠٨): «حسن».

(٢) بداية المجتهد (١/ ٦٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: أهل الدار يبيتون. . . (٣/ ١٠٩٧) رقم (٢٨٥٠).

(٤) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار (٣١٨).

(٥) سنن أبي داود (٢/ ٦١)، ولفظه: «قال الزهري: ثم نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن قتل النساء والولدان».

(٦) نصب الراية (٣/ ٣٨٧).

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ١٢) وغيره، انظر: ملحق (٢) ص (٤٢٩).

(٨) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة أوطاس (٤/ ١٥٧١) رقم (٤٠٦٨) في سياق حديث طويل.

# ٥ ـ النهي عن المثلة والحرق بالنار

وقد دل على ذلك ما ورد عن عبدالله بن زيد، عن النبي ﷺ أنه نهى عن النهبة والمثلة[(١)].

قال الشافعي: «وإذا أسر المسلمون المشركين فأرادوا قتلهم بضرب الأعناق، لم يجاوزوا ذلك إلى أن يمثلوا بقطع يد، ولا رجل، ولا عضو، ولا مفصل، ولا بقر بطن، ولا تحريق، ولا شيء يعدو ما وصفت لأن الرسول ﷺ نهى عن المثلة»[(٢)].

ومما يتصل بالمثلة التحريق بالنار، فقد نهى عنه النبي ﷺ، في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعثٍ فقال: **إن وجدتم فلانًا وفلانًا فأحرقوهما بالنار**» ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: «**إني أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا، وإن النار لا يعذب بها إلّا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما**»[(٣)].

وإذا كان الإسلام قد أقرَّ مبدأ المعاملة بالمثل في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[(٥)].

فإنه لا يجيز مجاراة العدو، إذا ما انتهك الفضيلة، بل إن المثلية التي أقرها الشارع لم تخرج عن نطاق التقوى كما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب: ما يكره من المثلة... (٥/ ٢١٠٠) رقم (٥١٩٧).
(٢) الأم للشافعي (٤/ ١٦٢).
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: لا يعذب بعذاب الله (٣/ ١٠٩٨) رقم (٢٨٥٣).
(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

﴿ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾[(١)].

ولو أطلقت المثلية، وتابع المؤمنون تصرفات أعدائهم الكفار لخرجوا عن تعاليم الإسلام ولذهب التفوق الأخلاقي الذي يميز قتال أهل الحق عن قتال أهل الباطل، وهم لا ينطلقون في قتالهم مع المؤمنين، إلاَّ بما تمليه عليهم نفوسهم المريضة، وأهواؤهم المنحرفة، وبما يحقق لهم التشفي وإرواء الغليل، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾[(٢)].

«وبهذا نعلم أنه ليس من المعقول أن يكون باعث الجهاد في سبيل الله هو نشر الفضيلة والخير بين الناس، وفي الوقت نفسه تنتهك الفضيلة مجاراة للمعتدين»[(٣)].

وفي «السير الكبير»: أنه قُدم على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ برأس يناق البطريق، فأنكر ذلك فقيل له: يا خليفة رسول الله إنهم يفعلون ذلك بنا، قال: فاستنان بفارس والروم؟ لا يُحمل إلي رأس وإنما يكفي الكتاب والخبر[(٤)].

ولنعلم أهمية التمسك بالمبادىء الأخلاقية، والترفع عن محاكاتهم في نفوس الأعداء، نورد شهادة الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون وهو يقارن بين فعلين، فعل لريكارد أحد قادة الجيش الصليبي، وفعل صلاح الدين، فيقول: «كان أول ما بدأ به ريكارد أنه قتل صبرًا أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم، سلَّموا أنفسهم إليه بعد أن أعطاهم عهدًا بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف هذا القتل والسلب، وليس من السهل أن يتمثل المرء درجة تأثير هذه الكبائر في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠.
(٣) منهج الإسلام في الحرب والسلام (١٩٥)-بتصرف يسير.
(٤) السير الكبير (١/١٨).

صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس، فلم يمسهم بأذى، والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأزواد أثناء مرضهما»[١].

ثم يذكر ما أدت إليه هذه المعاملة من الدخول في دين الله، فيقول: «والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، وإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما كان يتصف به العرب من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله»[٢].

بقي أن نجيب عن حديث العرنيين ولفظه: عن أنس قال: قَدِمَ أناس من عكل أو عرينة، فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا فلما صحّوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النعم، فجاء الخبر في أول النهار، فبعث في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم، فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم، وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون[٣].

قال الحافظ: «فيه المماثلة في القصاص، وليس ذلك من المثلة المنهي عنها»[٤]. وهذا الجزاء يناسب جرمهم الذي قال فيه أبوقلابة: «قتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله ﷺ وسعوا في الأرض فسادًا»[٥].

وذهب آخرون إلى أن ذلك منسوخ، قال ابن دقيق: «روى محمد بن الفضل بإسناد صحيح منه إلى ابن سيرين قال: كان شأن العرنيين قبل أن تنزل الحدود التي أنزل الله عز وجل في المائدة من شأن المحاربين أن يقتلوا أو يصلبوا، فكان شأن العرنيين منسوخًا بالآية التي

(١) حضارة العرب لوبون (١٤٥).

(٢) المرجع نفسه (١٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء، باب: أبوال الإبل... (١/٩٢) رقم (٢٣١)، ومسلم في القسامة، باب: حكم المتحاربين والمرتدين (٣/١٢٩٦) رقم (١٦٧١).

(٤) فتح الباري (١/٤٠٧).

(٥) قاله عقيب الحديث السابق.

يصف فيها إقامة حدودهم»[١].

ورد ابن القيم على من قال بالنسخ فقال: «يفعل بالجاني كما فعل، فإنهم لما سملوا عين الراعي سمل أعينهم، وقد ظهر بهذا أن القصة محكمة غير منسوخة، وإن كانت قبل أن تنزل الحدود، والحدود نزلت بتقريرها لا بإبطالها»[٢].

وقد جانب أبوزهرة ـ رحمه الله ـ: الصواب، وترك مقاييس نقد الحديث، وتكلَّم على حديث العرنيين بكلام يجل مثله عن التفوه به حيث قال: «إن التمثيل بالعرنيين وسمل أعينهم نقد موجه للخبر مضعف له، ولو كانت الكتب الستة قد روته، فإن الخبر مع اتفاقنا عليه خبر آحاد، وإذا تعارض خبر الآحاد مع مبادىء الإسلام، فإنه لا يؤخذ به، ولا تقبل روايته، ويكون ذلك طعنًا في نسبته»[٣]، وهذا منهج من يقدسون العقل حتى يردون من أجله النصوص الصحيحة إذا ما توهموا المعارضة، وإلاَّ فأين مبادىء الإسلام التي جزم بأن الحديث يعارضها؟.

ولعل دافعه في ذلك حرصه على إظهار سماحة الإسلام إلى درجة أنه لم يكتف بوصف الإسلام الذي يأمر بالعدل والإحسان إلاَّ بالإحسان، لذلك ظهر له أن ما دونه منافٍ له، والحق أن المعاملات في الإسلام تتردد بين العدل والإحسان، ولا تعدوهما، وحديث العرنيين أقرب إلى العدل منه إلى الإحسان لكنه لا ينافي مبادىء الإسلام بحال.

---

(١) إحكام الأحكام (٤/١٠٨).

(٢) زاد المعاد (٣/٢٨٦).

(٣) أبوحنيفة لأبي زهرة (٢٥٢).

## ٦ ـ الحصار والتخريب والتدمير

لقد شرع المولى عز وجل لنبيه ﷺ في قتاله لأعدائه ما من شأنه إضعاف شوكتهم، للتوصل إلى إزهاق الباطل وإحقاق الحق، ولكن مع المحافظة على القيم الأخلاقية التي يؤدي الإخلال بها إلى الثلب في الإسلام وانتقاصه.

وممَّا شرعه سبحانه حصار العدو، والتضييق عليه ليفقد قوته التي يستعين بها في حربه ضد المسلمين أو بعضها.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

وقد دلت هذه الآية الكريمة أن القتل والإحصار والتضييق على الأعداء إنما يقصد منه توبتهم ورجوعهم لله تعالى وهدايتهم للإسلام.

وقد فعل رسول الله ﷺ ما أمره الله به في قوله: ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ فحاصر طوائف اليهود الثلاثة[٢].

وفي الصحيح أن النبي ﷺ حاصر الطائف[٣]، وفي مسلم أن مدة الحصار بلغت أربعين ليلة[٤].

وأمَّا قطع أشجار العدو، وهدم دورهم، ونحو ذلك، مما يغيظ العدو ويوهن قوته، فقد فعله ﷺ لا للفساد كما يفعل أعداء الله الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[٥]، وإنما فعله ﷺ لتتحقق عمارة الأرض

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) زاد المعاد (٣/ ١٢٦ـ١٢٩).
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الطائف (٤/ ١٥٧٢) رقم (٤٠٧٠).
(٤) أخرجه مسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم... (٢/ ٧٣٧) رقم (١٠٥٩).
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

الواردة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾(١).

ففي قطع الأشجار ورد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ حرّق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾(٢). وفي قوله: ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا ﴾ تحسين جمالي وكأنه يشير إلى أن تركها أولى إذا لم تكن المصلحة في إتلافها أعظم من قطعها.

وقد كان ذلك القطع والتحريق مقصودًا لغيره، وأن الغرض منه هو استنزالهم، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قول الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم(٣)، وقد نصت الآية على مقصد آخر هو خزي الفاسقين، وقال ابن العربي: قطع وحرق ليكون ذلك نكاية لهم ووهنًا فيهم، حتى يخرجوا عنها، فإتلاف بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعًا مقصودة عقلاً»(٤).

وأما هدم الدور، فقد أشار إليه المولى عز وجل في قوله تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾(٥).

قال قتادة: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها وتخربها اليهود من داخلها(٦).

وكل ذلك داخل في إغاظة الكفار الورادة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.
(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿ما قطعتم من لينة﴾ (٤/ ١٨٥٢) رقم (٤٦٠٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: جواز قطع أشجار الكفار (٣/ ١٣٦٥) رقم (١٧٤٦).
(٣) تفسير النسائي (٢/ ٣٩٦).
(٤) أحكام القرآن (٤/ ٢٦٠).
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢.
(٦) جامع البيان (٢٣/ ٢٦٥).

يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾(١).

أما إتلاف الحيوان، فلا يحل إلاَّ لأكله، للنهي الوارد في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «**نهى النبي ﷺ أن يُقتل شيءٌ من الدواب صبرًا**»(٢).

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «وجائز تحريق أشجار المشركين، وأطعمتهم، وزرعهم، ودورهم وهدمها... ولا يحل عقر شيء من حيواناتهم البتة، لا إبل، ولا بقر، ولا غنم، ولا خيل، ولا دجاج، ولا حمام... ولا غير ذلك إلاَّ للأكل فقط، حاشا الخنازير جملة فتعقر وحاشا الخيل في حال المقاتلة فقط»(٣) ثم ساق أدلة كثيرة على ما ذكر.

وهذه الأشياء التي أمر الشارع بإتلافها لمصلحة إظهار الدين وإعزازه لم تكن المفسدة المترتبة على ذلك الإتلاف أعظم من قتل النفوس، فإذا جاز سفك دماء الكفار لمصلحة تبليغ دين الله، فما دونه من تخريب البنيان، وقطع الأشجار من باب أولى.

ولكن يجب أن لا يحصل ذلك الإتلاف إلاَّ ويحقق المصلحة المرجوة، أو يغلب على الظن أنه يحققها، أما الإفساد لذاته بقطع النظر عن المصلحة المترتبة عليه، فليس مما أمر الله تعالى به، بل هو مما ذمّه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾(٤).

وقد راعى الشارع التفريق بين ذوات الأرواح وغيرها من أموال العدو، فعقر ذوات الأرواح تتألم هي به مع المشقة على أصحابها، في

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.
(٢) أخرجه مسلم في الذبائح والصيد، باب: النهي عن صبر البهائم(٣/ ١٥٥٠) رقم(١٩٥٩).
(٣) المحلى (٧/ ٢٩٦).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

حين أن إتلاف غير ذوات الأرواح من الأشجار والدور ونحوها تقع مفسدة إتلافها على أصحابها، فمنع الأذى المتعدي على الدواب، وأقر المقتصر على إغاظة العدو وإضعافه، وهذا من عدله ورحمته في المعاملة.

## ٧ ـ احترام العهود والوفاء بها

الجهاد في سبيل الله شريعة أخلاقية تطالب الأمم والشعوب أن يتأسُّوا بالمسلمين في المحافظة على أصول الأخلاق والمعاملات ـ حتى لو بقوا على دينهم ـ وترتقي بمعاملات النوع البشري إلى الآفاق المناسبة لتكريم الله تعالى لجنس الإنسان الوارد في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

لذلك أرسيت قواعد العلاقات بين البشر على الفضيلة والبعد عن الرذيلة، حتى في أوقات الحروب والأزمات، وأن لا تجعل العداوة الناتجة عن الحروب تطمس معالم العدل بين الأمم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾(١).

ويتضح جانب من عدل المسلمين مع أعدائهم في المعاهدات التي هي أساس العلاقات بين الطرفين، والمسلمون لا يحترمون تلك المعاهدات على أنها من جميل ما تعارف عليه البشر، وتليق بالكرامة الإنسانية فحسب بل وعلى أنها دين يتقربون إلى الله تعالى به، ومن هنا تستمد جديتها في التطبيق العملي.

**أقسام أهل العهد:**

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الكفار إما أهل حرب، وإما أهل عهد، وأهل العهد ثلاثة أصناف:

١ـ أهل ذمة.

٢ـ وأهل هدنة.

٣ـ وأهل أمان.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

فأهل الذمة هم من يؤدي الجزية، وهؤلاء لهم ذمة مؤبدة وقد عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكم الله ورسوله بخلاف أهل الهدنة، فإنهم صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم سواء كان الصلح على مال أو غير مال، لا تجري عليهم أحكام الإسلام كما تجري على أهل الذمة، لكن عليهم الكف عن محاربة المسلمين.

وأما المستأمن فهو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها، وهؤلاء أربعة أقسام: رسل، وتجار، ومستجيرون، وطالبوا حاجة من زيارة أو غيرها، وحكم هؤلاء أن لا يقاتلوا ولا تؤخذ منهم الجزية، وأن يعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك، وإن أحب اللحاق بمأمنه ألحق به، ولم يعرض له قبل وصوله إليه، فإذا وصل مأمنه عاد حربيًّا كما كان»[(١)].

وسنعرض فيما يلي لمعاملة المسلمين لهذه الأقسام الثلاثة:

**أولاً: أهل الذمة:**

شرع المولى عز وجل إبقاءهم بين أظهر المسلمين إذا ما دفعوا الجزية وهي: «الخراج المضروب على رؤوس الكفار إذلالاً وصغارًا»[(٢)]. فإذا ما بذلوها وتم عقد الذمة لهم وجب الكف عن قتالهم، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[(٣)].

وقد اختلف العلماء في تفسير (الصغار) الوارد في الآية، وجعلت له تأويلات لا تناسب تأليف قلوب أهل الذمة على الإسلام، ولا تناسب الحكمة من إبقائهم بين ظهراني المسلمين.

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٧٤) بتصرف يسير.

(٢) المرجع نفسه (١/ ١١٩).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

فعن عكرمة قال: أن يعطيها وهو قائم والآخذ جالس[١].

وقالت طائفة: أن يأتي بها بنفسه ماشيًا لا راكبًا، ويطال وقوفه عند إتيانه بها، ويجر إلى الموضع التي تؤخذ منه بالعنف، ثم تجر يده ويمتهن[٢].

**أقول**: هذا الذي يفعل به هكذا ماذا نتوقع منه تجاه المسلمين ودينهم إلاَّ المزيد من العداوة والبغضاء؟.

لذلك أورد ابن القيم هذه الأقوال ثم تعقبها بقوله: «وهذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك، والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية فإن التزام ذلك هو الصغار»[٣].

وقال ابن حجر: «لأن الحكم على الشخص بما لا يعتقده ويضطر إلى احتماله يستلزم الذل» ثم بين الحكمة من الجزية فقال: «والحكمة في وضع الجزية أن الذل الذي يلحقهم يحملهم على الدخول في الإسلام مع ما في مخالطة المسلمين من الاطلاع على محاسن الإسلام»[٤].

وهذا المقصد يتناسب مع أهداف الإسلام الذي جاء لهداية الناس.

وقد أحسن صحابة رسول الله ﷺ معاملة أهل الذمة عملاً بوصية رسول الله ﷺ بهم حيث قال: «**من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة**»[٥] وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عند موته: «أوصيه

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٢٠٠).
(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ١٢٠).
(٣) المرجع نفسه (١/ ١٢٠، ١٢١).
(٤) فتح الباري (٦/ ٢٩٩)، وقال نحوه ابن القيم في «معاملة أهل الذمة» (١/ ١١٠).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٦)، والنسائي في القسامة، باب: تعظيم قتل المعاهد (٨/ ٢٥) رقم (٤٧٥٠) وهو صحيح. انظر: ملحق (٢) ص(٤٣٠).

ـ أي الخليفة من بعده ـ بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم»(١).

ومن وصايا عمر بهم: «فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم، ولا سبيل. . .، وامنع المسلمين من ظلمهم، والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلاَّ بحلها ووف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم. . .»(٢).

بل قد بلغ من رفق المسلمين بهم أن ينفقوا على فقرائهم، ففي كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: «وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيًا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام»(٣).

فأي سماحة تبلغ ما بلغ الإسلام في معاملته لأهل الذمة؟.

**ثانيًا: أهل الهدنة:**

ورد في القرآن الكريم ما يدل على مشروعية مهادنة العدو وذلك في قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾(٤).

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على إثبات الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان في الموادعة مصلحة للمسلمين»(٥).

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾(٦).

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب: ما جاء في قبر النبي ﷺ. (٤٦٩/١) رقم (١٣٢٨).
(٢) الخراج لأبي يوسف (١٤١).
(٣) المرجع نفسه (١٤٤).
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٩، ٩٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩٩/٥).
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

يقول ابن حجر: «إن هذه الآية دالة على مشروعية المصالحة مع المشركين... إذا كان الأحظُّ للإسلام المصالحة، أما إذا كان الإسلام ظاهرًا على الكفر ولم تظهر المصلحة في المصالحة فلا»[١].

فهذه العهود التي يعقدها المسلمون مع عدوهم يجب الوفاء بها، وينتهي الالتزام بها في الحالات التالية[٢]:

١ـ حين تنتهي مدة المعاهدة مع العدو؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾[٣]، إذ المفهوم من هذا النص أنه بعد انتهاء مدة العهد أو المعاهدة تعود حالة الحرب بين المسلمين وأعدائهم كما كانت قبل عقد تلك المعاهدة.

٢ـ إذا نقض العدو المعاهدة حتى لو أتى النقض على شرط واحد كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾[٤].

٣ـ أن يعين العدو المعاهَد أحدًا على حرب المسلمين؛ بدلالة الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾، سواء كانت تلك المساعدة بالمقاتلين أو بالعتاد العسكري، أو ما أشبه ذلك مما يدخل تحت معنى المظاهرة، ففي هذه الحال تعتبر تلك الدولة المعاهدة قد نقضت العهد من جانبها وأصبح قتالها مشروعًا.

٤ـ أن تظهر على العدو المعاهد أمارات الخيانة، ففي هذه الحال لا يجوز للمسلمين مباغتتهم بالحرب اعتمادًا على تلك المؤشرات دون إنذار سابق لهم بأن المعاهدة أصبحت لاغية، لأن هذه المباغتة بالحرب بلا سبق إنذار تعتبر خيانة، والخيانة لا يحبها الله، ولو في

(١) فتح الباري (٦/٣١٨).
(٢) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (٣/١٤٧٨).
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤.

حق الكفار الذين قام الشك في محافظتهم على العهد على المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ ﴾[(١)]. قال ابن كثير: «أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء أي لتستوي أنت وهم في ذلك...»[(٢)].

وبتأمل موقف الإسلام في معاهداته لأعدائه نجد أنه يعاملهم بمقتضى العدل، فمن وفّى بعهده وُفي له، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ ﴾[(٣)].

ومن نقض عهده صريحًا، فهؤلاء يغار عليهم دون إنذار؛ بدلالة فعله ﷺ حينما حاصر يهود بني قريظة، ولم يعلمهم بحرب، بل قال لأصحابه: «**لا يصلين أحدٌ العصر إلَّا في بني قريظة**»[(٤)].

يقول الماوردي: «ولا يجاهدون فيها ـ أي في المهادنة ـ ما أقاموا على العهد فإن نقضوه صاروا حربًا يجاهدون من غير إنذار، فقد نقضت قريش صلح الحديبية، فسار إليهم الرسول ﷺ عام الفتح محاربًا حتى فتح مكة»[(٥)].

وقد أغلظ المولى ـ عز وجل ـ القول فيمن هذه صفته فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ ﴾[(٦)].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٢١).
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧.
(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب(٤/ ١٥١٠) رقم(٣٨٩٣)
(٥) الأحكام السلطانية للماوردي (١٠٧).
(٦) سورة الأنفال، الآيات: ٥٥ـ٥٧.

وأما من لم يصرحوا بالخيانة بل ظهرت عليهم أماراتها فقد ورد النص فيهم أقل صرامة ممن كان قبلهم، وذلك مناسبًا لحالهم فأمر بإعلامهم بنقض العهد قبل مباغتتهم بالقتال كما سبق الإشارة إليه. «وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إنه لا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخش الخيانة من جانبهم، ولا يبيح الغدر في سبيل الغلب، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة»(١).

**ثالثًا: أهل الأمان:**

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝﴾(٢).

هذا تشريع إلـهي عظيم يناسب أهداف الرسالة التي جاءت رحمة للعالمين، فالحرب بطبيعتها تولد النفرة بين المتحاربين، وهذا من شأنه أن يقطع الصلات بينهم، والإسلام إنما جاء ليخاطب الناس ويعرض عليهم محاسنه، ويبرز تفوقه على سائر المناهج الأرضية.

ومن أجل ذلك أمَّن طلبة الحق الذين يأتون للتعرف على دين الله تعالى، ونهى عن التعرض لهم حتى يعودوا إلى المكان الذين يأمنوا فيه حتى لو لم يقبلوا الحق، كما دلَّت على ذلك الآية السابقة(٣).

وقد أمَّن رسول الله ﷺ الرسل والسفراء فعن نعيم بن مسعود، قال: سمعت رسول الله حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه يقول لهما: **«وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟»** قالا: نعم، فقال: **«أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»**(٤).

---

(١) في ظلال القرآن (١٥٤٢) ملخصًا.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٣) فتح القدير (٢/٣٥٨) بالمعنى.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٤٨٧)، وأبوداود في التجهاد، باب: في الرسل (٢/٩٢) رقم (٢٧٦١) وصححه الألباني. انظر: ملحق (٢) ص (٤٣٠).

قال ابن القيم: إن الرسل لا تقتل ولو كان مرتدًا هذه السنة[١].

قال ابن كثير في تفسير آية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . . .﴾: «كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو في رسالة كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود[٢] ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، ولم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم . . . والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا أُعطي أمان مادام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه»[٣].

لقد اقتضت حكمة الشارع أن يجعل العلاقات مع العدو مستمرة في ظل نظام الأمان وإن ظلت الحرب مستعرة[٤]، لذلك وسع دائرة الأمان حتى شمل أدنى المسلمين منزلة، فقال ﷺ: «**ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل**»[٥].

وفصَّل الحافظ ابن حجر فيمن يقبل أمانه فقال: «ودخل في قوله «أدناهم» أي أقلهم كل وضيع بالنص وكل شريف بالفحوى، فدخل في أدناهم المرأة والعبد والصبي والمجنون، فأماالمرأة فتقدم في الباب

(١) زاد المعاد (٣/٦١٣).
(٢) عروة ثقفي وليس من قريش.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٣٨).
(٤) آثار الحرب في الفقه الإسلامي لوهبة الزحيلي (٢٢٣).
(٥) أخرجه البخاري في الجزية، باب: إثم من عاهد ثم غدر (٣/١١٦٠) رقم (٣٠٠٨).

الذي قبله [يشير إلى قوله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء**»(١)] وأما العبد فأجاز الجمهور أمانه قاتل أو لم يقاتل . . . وأما الصبي فقال ابن المنذر: أجمع أهل العلم أن أمان الصبي غير جائز، قلت: وكلام غيره يشعر بالتفرقة بين المراهق وغيره، وكذلك المميز الذي يعقل . . . وأما المجنون فلا يصح أمانه بلا خلاف كالكافر»(٢).

وكل أقسام العهد السابقة قد جعل لها حرمة كبيرة في التشريع الإسلامي إلى درجة أنه لا يجوز للمسلمين أن يخونوا العهد الذي بينهم وبين الكفار ولو في سبيل نصرة إخوانهم في العقيدة الذين يعيشون في كنف الكفار، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾(٣).

وقد تنوعت النصوص الآمرة بالوفاء بالعهد والمحذورة من نقضه، فتارة يأمر به وينهى عن ضده؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾(٤)، وتارة يجعله من صفات المؤمنين التي استحقوا بها الجنة ـ بعد فضل الله تعالى ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾(٥).

وتارة يجعله من صفات أهل الكفر التي استحقوا بها لعنة الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

(١) أخرجه البخاري في الجزية، باب: أمان النساء وجوارهن (٣/ ١١٥٧) رقم (٣٠٠٠).
(٢) فتح الباري (٣/ ٣١٦).
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٥) سورة الرعد، الآيات: ٢٠ـ٢٣.

وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾[١].

وأخرى يجعله من علامات المنافقين، قال ﷺ: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق حتى يدعها. . .**» وذكر منها: «**وإذا عاهد غدر**»[٢].

ولقد تمسَّك الصحابة رضي الله عنهم بما أمرهم الله به فوفوا بعهودهم واحترزوا من الوقوع في مخالفتها، وبذلك أوصى بعضهم بعضًا فعن سليم بن عامر، قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا هو عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدةً ولا يحلُّها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء**» فرجع معاوية[٣].

قال السرخسي ـ معلقًا عليه ـ: تبين له أن في صنعه معنى الغدر لأنهم لا يعلمون أنه يدنو منهم يريد غارتهم، وإنما يظنون أنه يدنو منهم للأمان، وفي هذا دليل وجوب التحرز عما يشبه الغدر صورة ومعنى[٤].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: علامة المنافق (١/ ٢١) رقم (٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (١/ ٧٨) رقم (٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١١١)، وأبوداود في الجهاد، باب: في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد (٢/ ٢٩) رقم (٢٧٥٩) وغيرهما، وفيه ضعف. انظر: ملحق (٢) ص (٤٣٠).

(٤) شرح السير الكبير (١/ ٢٦٥).

# ٨ ـ معاملة الأسرى والسبي

شرع المولى عز وجل الأسر في الحرب لنصرة دين الله وإقامة دولته في الأرض، ومن جانب آخر لكسر شوكة العدو، وإبطال كيده وعدوانه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[(١)].

ومعنى «وخذوهم» أي: أسروهم، والأخيذ: الأسير[(٢)].

وكذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾[(٣)] فقوله: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ عبارة عن الأسر[(٤)].

وورد في معرض الامتنان على عباده المؤمنين بتمكينه من رقاب أعدائهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾[(٥)].

ومع تشريع الأسر إلاَّ أن الله تعالى أحاطه بسياج من الرحمة والرأفة وحسن المعاملة بحيث لو طبقت على الوجه الأكمل لكانت وسيلة مؤثرة في هداية الناس إلى الإسلام.

ومصداق ذلك ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد اليمامة فربطوه بسارية من سواري

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) الكشاف (٢/ ٢٣٩).
(٣) سورة محمد، الآية: ٤.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٨٤).
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.

المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة**»؟ فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت... الحديث. وفيه قال رسول الله ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ، والله! ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إلي، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي»(١).

هذا الحديث أصلٌ في معاملة الأسرى، فكثير من الكفار قد أعرض عن الإسلام وأبغضه تصديقًا لما يردد عنه من شائعات مضللة، وواجب المسلمين هو إظهار محاسن دينهم بالقول والعمل كما فعل رسول الله ﷺ مع هذا الأسير، ليكون ذلك تفنيدًا لتلك الشائعات التي تمنع الاهتداء بنور الله المنزل.

فهذا الرجل الأسير العاقل عبّر بلسان حال غالب الكفار عن مشاعره قبل إسلامه وليس ذلك البغض والكراهية ناشئة عن التأمل والنظر في هذا الدين ومبلغه ﷺ وإنما هو تأثير مايسمى (بالعقل الجماعي) والحكم على الشيء تبعًا لما يلتقط من أخباره التي يبثها المغرضون وغير الأمناء، وكان ﷺ يدرك هذه الحقيقة فأقر ربطه بسارية من سواري المسجد، ليتمكن من رؤية المسلمين أثناء عبادتهم، واجتماعهم في حلق العلم، ومدى ما بينهم من الألفة والمحبة، وعدم التمايز المفرق بينهم، فالعربي والعجمي، والأبيض والأسود، يقف

---

(١) سبق تخريجه ص(١٢٤).

بعضهم إلى جنب بعض، في نظام ليس غريبًا على سكان الجزيرة فحسب بل لا تعرفه كل المعمورة في غير هذا المكان. يضاف إلى ربطه في هذا المكان بالذات زيارات النبي ﷺ المتكررة له، والتي يكرر فيها سؤاله: «**ما عندك يا ثمامة**» فهي مشعرة بعظيم التواضع، خاصة وهي تصدر من أعظم رجل في الدولة الإسلامية.

ثم إن الحديث طوى ذكر ما أمر به النبي ﷺ من الإحسان إليه في أُساره، وقد أشار إلى طرف منها الحافظ ابن حجر، فيما نقله عن ابن إسحاق: أنه لما كان في الأسر جمعوا ما كان في أهل النبي ﷺ من طعام ولبن، فلم يقع ذلك من ثمامة موقعًا، فلما أسلم جاءوه بالطعام فلم يصب منه إلاَّ قليلاً[١].

فهذا الذي فعله ﷺ من تلطف، وحسن معاملة، حتى تحققت لذلك الأسير الهداية، إنما يمثل الغرض من بعثته ﷺ للناس كافة، ويرسم لأصحابه وأتباعه المثل الأعلى لهداية الناس إلى الدين الحق.

بل لقد كان ﷺ يفتح لأسراه باب الحوار والمناقشة ليقتنعوا بالإسلام، ويقبلوه طائعين، فعن عمران بن حصين قال: كان ثقيفُ حلفاء لبني عُقيل، فأسرت ثقيفُ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عُقيل، وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد، فقال: «**ما شأنك؟**» فقال: بم أخذتني؟ وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال: «**أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف**» ثم انصرف عنه فناداه، فقال: يا محمد، يا محمد ـ وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا ـ فرجع إليه فقال: «**ما شأنك**»؟ قال: إني مسلم، قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**» ثم انصرف فناداه، فقال: يا محمد! يا محمد! فأتاه فقال: «ما

(١) فتح الباري (٧/ ٦٨٩).

شأنك؟» قال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فأسقني، قال: «هذه حاجتك»؟ ففدي بالرجلين[(١)].

وتلمح رحمته وتواضعه ﷺ من إجابته لنداءات أسيره، وإعلامه بالسبب الذي من أجله أُسر لئلا يشعر أنه مظلوم، وهذا الإحسان إلى الأسرى قد أرسى دعائمه القرآن حيث جعله من أسباب دخول الجنة ـ وهذا كاف في حث المؤمنين على التزامه ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾[(٢)] ثم عدد جملة من صفاتهم التي كانت سببًا لذلك النعيم، وذكر منها إطعام الأسرى الطعام مع حاجتهم إليه، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾[(٣)].

وهنا يتجلى مقام العبودية، فهذا الأسير الذي كان بالأمس مأمورًا بقتاله قبل وقوع في الأسر، يُقدَّم إليه الطعام بعد أسره تقربًا وطاعة لله تعالى الذي أمر بقتاله أولاً ثم الإحسان إليه ثانيًا، فالمجاهد إنما هو منفذ لأمر الله في الحالين، وهذا الاختلاف في الحكم مناسب للحال في المقامين، فمقام مناهضة الحق والصد عن سبيل الله يناسبها المقاتلة، ومقام الأسر والذل والحاجة يناسبه العطف والإحسان، ولا داعي للتشفي، بل خيرٌ منه التصرف بما يوافق أهداف الدعوة، بحيث يعامل المعاملة الحسنة التي يرى من خلالها عظمة هذا الدين وأهله، خاصة وهو في وضع يملي عليه أن يستعظم قليل الإحسان، ويقع من نفسه موقعًا لا ينساه، وإلى هذا أرشد المصطفى ﷺ في قوله: «ملكت

(١) أخرجه مسلم في النذور، باب: لا وفاء لنذر في معصية الله (٣/ ١٢٦٢) رقم (١٦٤١).
(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٥، ٦.
(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ٨، ٩.

فاسجح»[١] والمعنى: قدرت فاعف[٢].

وقال ﷺ - يوم بدر -: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**»[٣] فكانت لهذه الوصية الكريمة أثرها في نفوس الصحابة يقول أبوعزيز - وهو أحد الأسرى يومئذ -: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاَّ نفحني بها، فأستحي فأردها فيردها عليَّ ما يمسها[٤].

«وهذا الموقف آية على حسن معاملة الأسير في الإسلام وإيثاره بأفضل ما عند آسريه مما لا نجد له مثيلاً في تواريخ الدنيا»[٥]، ثم هي تطبيق فعل للآية ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

ولقد كان ﷺ ينظر في أسرى الحرب طبقًا لما يراه من الصالح العام، وحسب حال الأسير في مقاومته للدعوة وعداوته لها، وما يرجى من نفعه للإسلام من عدمه، وقد خيره الله تعالى فيهم تخيير مصلحة لا تخيير تشهي من منٍّ أو فداء أو غيره، وقد فهم ذلك التخيير من قوله: «فإمَّا وإمَّا» الواردة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[٦] وقد أجرى عليهم ﷺ الأحكام التالية:

**١ ـ المن على الأسرى:**

وهو إطلاق الأسير بغير فداء، وقد «قدم الله ذكره على الفداء

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع (٤/ ١٥٣٧)، رقم (٣٩٥٨).
(٢) فتح الباري (٧/ ٥٢٨).
(٣) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ٨٩) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح.
(٤) البداية والنهاية (٣/ ٣٠٧).
(٥) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٧١).
(٦) سورة محمد، الآية: ٤.

ترجيحًا له؛ لأنه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه»[١].

وقد منَّ رسول الله ﷺ على كثير من الأسرى منهم أبوالعاص بن الربيع[٢] وثمامة بن أثال[٣] وغيرهم، وصح عنه ﷺ قوله: **«لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلَّمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»**[٤] وهبط عليه في صلح الحديبية سبعون رجلاً متسلحون يريدون غرته فأسرهم ثم منَّ عليهم[٥] ومنَّ أيضًا على سبي هوازن وهم كثير[٦].

**٢ ـ أخذ الفداء من الأسرى:**

سواء كانت المفاداة بالمال أو بأسرى المسلمين، أو تكليفهم بعمل يعود نفعه على المسلمين، فإن النبي ﷺ بعد انقضاء معركة بدر أهمه شأن الأسرى، ولم يكن قد أُنزل فيهم تشريع، فاحتاج أن يستشير أصحابه ـ كما هي عادته ـ قائلاً: **«ما ترون في هؤلاء الأسرى؟»** فقال أبوبكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«ما ترى يا ابن الخطاب؟»** قال: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبوبكر، ولكني أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم... فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

وكان النبي ﷺ مطبوعًا على خلق الرحمة، فهوى ما قال أبوبكر، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (الفتح الرباني) (١٤/ ١٠٠) وقال الساعاتي: «سنده جيد».

(٣) تقدم ذكر قصته وتخريجها ص(١٢٤، ٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاري في الخمس، باب: ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى (١١٤٣) رقم (٢٩٧٠)

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قَرَد (٣/ ١٤٣٥) رقم (١٨٠٧).

(٦) أخرجه البخاري في العتق، باب: من ملك من العرب رقيقًا (٢/ ٨٩٧) رقم (٢٤٠٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾[١].

قال ابن القيم: وقد تكلَّم الناس في أيِّ الرأيين كان أصوب، فرجحت طائفة قول عمر لهذا الحديث، ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب... ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله له آخرًا حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصدِّيق فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخرًا وغلّب جانب الرحمة على جانب العقوبة[٢].

ولكن دلَّت الآية على أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من فدائهم[٣]، سيما وأنها أول وقعة ينتصر فيها أهل الحق على أهل الباطل، ولما اجتمع فيها من صناديد الكفر، والقول بأن رأي أبي بكر هو الراجح يلغي العتاب المستفاد من الآية في تفضيل الفداء على الإثخان، وعليه فالراجح هو الإثخان بدلالة الآية وندم النبي ﷺ في قوله: «**أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**»[٤] فكيف يقال: أن هذا الذي ندم منه النبي ﷺ هو الأولى والأرجح.

ثم إن قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه تعريض بأخذهم الفداء، ومتضمن لملازمة هدف إحقاق الحق، وإزهاق الباطل الذي يحققه الإثخان في مثل هذه الموقعة أكثر من إضعاف العدو بأخذ الفدية

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (٣/ ١٣٨٥) رقم (١٧٦٣)، والآيات من سورة الأنفال: ٦٧-٦٩.
(٢) زاد المعاد (٣/ ١١).
(٣) فتح القدير (٢/ ٣٤٥).
(٤) أخرجه مسلم، وهذا جزء من الحديث السابق رقم (١٧٦٣).

منه، كما أن قوله تعالى ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ يشعر بوقوعهم فيما يستحق العذاب، وأنه بسبب ما أخذوا من عرض الدنيا، ومنع وقوعه عليهم الكتاب الذي سبق أيًّا كان المراد به(١).

كما أن فيها توجيه تربوي يدفع المؤمنين إلى العمل على علو الهمة والنظر لمصالح الدعوة وتقديم ذلك على عرض الدنيا الزائل، وبالجمع بين قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ الوارد في سورة الأنفال، وبين ما نزل فيما بعدُ في سورة آل عمران في قوله تعالى ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾(٢) يلاحظ أن المؤمنين قد استفادوا من العتاب الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ . . .﴾ الآية بحيث أن لفظ «تريدون» الوارد فيها يصدق على الكثير في حين أن لفظ «منكم» الوارد في معرض حديثه عن معركة أحد، إنما يصدق على البعض، وهذا يدل على النمو المطرد في تربية الصف المسلم، فكل موقعة يخوضونها يستفيدون من سلبياتها وإيجابياتها تجارب يقتربون بها من الكمال الإنساني الذي أراد الله عز وجل أن يصلوا إليه.

وعلى ضوء ما سبق يبعد أن يقال: إن أخذ الفدية في مثل هذه الحالة أصوب من الإثخان، ولا ينافي الإثخانُ التخييرَ الوارد في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾(٣) فالإثخان يناسب قلة المسلمين، والتخيير يناسب اشتداد سلطانهم كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ(٤)، وعليه فلو حدث واقع مشابه ليوم بدر، ونصر الله المسلمين وأسروا صناديد الكفر، فإن القول بالإثخان فيهم متوجه إعمالاً لآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾.

(١) أورد الطبري في المراد به عدة أقوال كما في جامع البيان (١٤/ ٦٤).
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ٤.
(٤) جامع البيان (١٤/ ٥٩)، والدر المنثور (٤/١٠٨، ١٠٩).

المقصود أن النبي ﷺ قَبِلَ الفدية من الأسرى بعد أن عاتبه الله تعالى على ترك الأولى ثم أقرّه على ما فعل، فكان كل أولئك الأسرى سواسية في حكم الله ورسوله ﷺ، فعن أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، قال: «والله لا تذرنَّ منه درهمًا»[(١)].

٣ ـ **قتل شرار الأسرى أحيانًا:**

«لقد كان ﷺ متكافىء الأخلاق لا يطغى خلق من أخلاقه العظيمة على خلق آخر، بل كان كل خلق من أخلاقه كاملاً في موضعه، عظيمًا في وصفه، لا يصلح في موضعه غيره، وكان ﷺ يعامل كل أسير بما يستحق من المعاملة اللائقة به.

فالوقوع في الأسر لا يعني صدور عفو عن الجرائم التي اقترفها الأسرى أيام حرياتهم، فكان لابد أن تطبق عليهم العدالة الكاملة في الدنيا قبل الآخرة جزاء لهم على فعلهم، ليكون ذلك الجزاء رادعًا لأمثالهم من ممارسة العداوة للحق وأهله»[(٢)].

ومن ذلك قتله عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث لشدة عداوتهما لله ورسوله[(٣)].

وقد أورد ابن تيمية ـ رحمه الله ـ طرفًا مما يدل على أن شدة عداوتهما لله ورسوله هي سبب قتلهما، ثم قال: «ففي هذا بيان أن السبب الذي أوجب قتل هذين الرجلين من بين سائر الأسرى أذاهم لله ورسوله بالقول والعمل»[(٤)].

وكذا قتله يهود بني قريظة «الذين كانوا أشد اليهود عداوة

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا (٤/ ١٤٧٤) رقم (٣٧٩٣).
(٢) أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة (٣/ ١٩٣٧، ١٣٩٨) بتصرف يسير.
(٣) زاد المعاد (٣/ ١١٢).
(٤) الصارم المسلول (١٧٤).

لرسول الله ﷺ وأغلظهم كفرًا»[١] فقد نقضوا العهود وخانوا المسلمين في أحرج الأوقات.

كما أمر بقتل أبي عزة الجمحي الشاعر الذي منَّ عليه ﷺ في بدر، وعاهده أن لا يظاهر عليه أحدًا، فلما كانت غزوة أحد نكث وظاهر قريشًا، ويقال إن فيه قال رسول الله ﷺ: «**لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين**»[٢] فهذا لم يكتف بمحاربة الدعوة بل جمع إليها الفساد الخُلُقي ممثلاً في نكث العهد، فلم يناسب فساده إلاَّ السيف.

هذا وقد خالف بعض السلف في قتل الأسير وقالوا: «إنما الإمام مخير بين المن على الأسير، أو مفادته ولا يجوز قتله»[٣] ومستندهم أنه لم يذكر إلاَّ المنّ والفداء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وممّن قال به ابن عمر وعطاء والحسن البصري[٤]. وليس هو خلافًا شاذًّا، بل ذكره عامة المفسرين، بل قد نقل ابن رشد عن الحسن بن محمد التيمي إجماع الصحابة على أنه لا يجوز قتل الأسير[٥]، وفي نقل هذا الإجماع نظر بيّن لثبوت خلافه عن النبي ﷺ - كما سبق -.

وخالفهم آخرون، وقالوا: بأن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[٦].

وتعقبهم الطبري بقوله: «والصواب من القول عندنا في ذلك أن

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٢٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١٣) وقوله: «لا يلدغ...» إلخ أخرجه البخاري في الأدب، باب: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٥/ ٢٢٧١) رقم (٥٧٨٢)، وقرن الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٤٧) بين الحديث ونكث أبي عزة.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٧٤).

(٤) جامع البيان (٢٢/ ١٥٥، ١٥٦)، وأحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٣٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٥١).

(٥) بداية المجتهد (١/ ٦٥٤).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٧٤)، والآية من سورة التوبة: ٥.

هذه الآية محكمة غير منسوخة. . . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنِّ والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورًا في هذه الآية فإنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى، وذلك قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ بل ذلك كذلك لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرًا في يده من أهل الحرب فيقتل بعضًا ويفادي بعضًا ويمن على بعض»(١).

**٤ ـ استرقاق السبي:**

كثر القول على ألسنة الفقهاء أن الإمام مخيَّر ـ تخيير مصلحة ـ في الأسرى بين أحد أربعة أشياء «إما القتل أو الاسترقاق وإما الفداء بمال أو بأسرى، وإما المن عليهم بغير فداء»(٢).

فالمن والفداء والقتل قد عرفت أدلتها، يبقى البحث في أدلة استرقاق الأسرى.

وقبل الخوض في ذلك لابد من التفريق بين الأسرى والسبي، يقول الماوردي: «فأما الأسرى فهم الرجال المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بأسرهم أحياء. . .»(٣) «وأما السبي فهم النساء والأطفال»(٤)

ثم إنَّ بينهما فرقًا في الحكم وإليه أشار ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في قوله: «أصل ابتداء الرق إنما يقع من السبي»(٥) وقال: «كل ما أباح قتل المقاتلة أباح سبي الذرية»(٦) ففرق بين المقاتلة والسبي، وهذا متقرر في مجتمع الصحابة كما يفهم من قول سعد بن معاذ في بني قريظة: «فإني

(١) جامع البيان (٢٢/١٥٦)، ولم يشر إلى استرقاق النبي ﷺ للأسرى.
(٢) المغني لابن قدامة (١٠/ ٤٠٠).
(٣) الأحكام السلطانية (٢٣٢).
(٤) المرجع نفسه (٢٣٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٣٢/٨٩).
(٦) المرجع نفسه (١٩/١٩).

أحكم أن تقتل المقاتلة وتسبي الذرية»[١]. ومما يميز السبي عن الأسرى أن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان[٢] وجعلهم يقسمون من الغنائم وإن أراد الإمام المن عليهم لم يجز إلاَّ باستطابة نفوس الغانمين عنهم، ومن امتنع من الغانمين عن ترك حقه لم يستنزل عنه إجبارًا حتى يرضى كما في سبي هوازن، وخالف ذلك حكم الأسرى الذي لا يلزم الإمام استطابة نفوس الغانمين في المن عليهم لأن قتل الرجال مباح وقتل السبي محظور[٣].

أمَّا أدلة استرقاق السبي فكثيرة منها ما في الصحيح أن رسول الله ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارّون وأنعامهم تسقي على الماء فقتل مقاتلتهم وسبىٰ سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية[٤]، وقد ورد أن هذا السبي قد استرق بدلالة ما ورد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن جويرية جاءت رسول الله ﷺ تستعينه على كتابها فقال لها رسول الله ﷺ: «**أقضي كتابك وأتزوجك**» قالت: نعم يارسول الله، قال: قد فعلت، فخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق[٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: مازلت أحب بني تميم منذ ثلاث، سمعت رسول الله ﷺ يقول فيهم... وفيه: وكان سبية منهم عند عائشة فقال: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل[٦] والعتق من لوازم الرق.

وكذلك يقال في سبي هوازن فإن ألفاظ الحديث تدل على أن

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل(٣/ ١١٠٧) رقم (٢٨٧٨)
(٢) سبق تخريجه ص(٢١٠).
(٣) الأحكام السلطانية للماوردي (٢٣٨ـ٢٣٩) ملخصًا.
(٤) أخرجه البخاري في العتق، باب: من ملك من العرب رقيقًا... (٢/ ٨٩٨) رقم (٢٤٠٣).
(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٦)، وأبوداود في العتق، باب: في بيع المكاتب... (٢/ ٤١٥) رقم (٣٩٣١)، وحسنه الألباني. انظر: ملحق (٣) ص (٤٣١).
(٦) أخرجه البخاري في العتق، باب: من ملك من العرب رقيقًا (٢/ ٨٩٨) رقم (٢٤٠٥).

الاسترقاق إنما وقع على النساء والذرية، وذلك من قوله ﷺ: فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبي قالوا: فإنا نختار سبينا[١].

أما استرقاق المقاتلة فقد نفاه ابن القيم ـ رحمه الله ـ في قوله: «ثبت عنه ﷺ في الأسرى أنه قتل بعضهم ومنَّ على بعضهم، وفادى بعضهم بمال، وبعضهم بأسرى من المسلمين، واسترق بعضهم، لكن المعروف أنه لم يسترق رجلاً بالغًا»[٢] ومعنى قوله: «استرق بعضهم» و«لم يسترق رجلاً بالغًا» أن من استرقهم إنما هم الأطفال والنساء من السبي فقط[٣].

وكذا قال أبوعبيد ـ رحمه الله ـ: «أحكام الأسارى المن والفداء والقتل وكانت هذه في العرب خاصة؛ لأنه لا رق على رجالهم، وبذلك مضت سنة رسول الله ﷺ أنه لم يسترق أحدًا من ذكورهم، وكذلك حكم عمر فيهم أيضًا»[٤] ولكن الراجح أنه لا فرق بين العرب وغيرهم على ما ذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في قوله: «فلا يظن أنه خص العرب بحكم من الأحكام أصلاً، بل إنما علَّق الأحكام باسم مسلم وكافر، ومؤمن ومنافق، وبر وفاجر، ومحسن وظالم، وغير ذلك من الأسماء المذكورة في القرآن والحديث، وليس في القرآن ولا الحديث تخصيص العرب بحكم من أحكام الشريعة، ولكن بعض العلماء ظن ذلك في بعض الأحكام وخالفه الجمهور، كما ظن طائفة منهم أبويوسف أنه خص العرب أن لا يسترقوا وجمهور المسلمين على أنهم يسترقون كما صحَّت بذلك الأحاديث الصحيحة... وعامة من استرقه الرسول ﷺ من النساء والصبيان كانوا عربًا، وذكر هذا يطول»[٥]. وكلامه رحمه الله متضمن

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: قول الله تعالى: ﴿ويوم حنين...﴾ (٤/ ١٥٦٩) رقم (٤٠٦٤).
(٢) زاد المعاد (٥/ ٦٥).
(٣) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١٥٤٩).
(٤) الأموال (١٧٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٨، ١٩).

الرد على أبي عبيد في تخصيصه العرب بعدم الرق، فالعرب وغيرهم في هذا سواء، كما يفهم من قوله أيضًا: أن النبي ﷺ لم يسترق إلاَّ النساء والصبيان، فإذا كانت أحكام الأسرى العرب المن والفداء والقتل، واسترقاق الذرية والنساء فإن غيرهم ـ على ما ذكر ابن تيمية ـ لهم نفس الحكم.

أما ما هو مستند من قال بجواز استرقاق الأسير من الرجال البالغين ـ على ما يفهم من إطلاق القول بالتخيير بين أحد أربعة أمور ـ فهو إجماع الصحابة الذي حكاه ابن رشد في قوله: «أجمعت الصحابة على استعباد أهل الكتاب ذكرانهم وإناثهم»[(١)].

وهنا يُقال: إن كان المقصود بقوله: «ذكرانهم وإناثهم» الذرية والنساء فالإجماع على هذا ممكن وأدلته كثيرة حتى لو لم يثبت الإجماع، وقد أوردنا طرفًا منها.

وإن أريد حتى المقاتلة فيقال أين مستند الإجماع على هذه المسألة التي لم يرد لها ذكر في القرآن ولم يفعلها رسول الله ﷺ؟

ولا يستبعد أن يكون حصل توسيع لكلمة ذكرانهم، لتشمل البالغين وتصبح المسألة بهذا الاتساع، «ذكرانهم وإنثاهم وشيوخهم وصبيانهم صغارهم وكبارهم إلاَّ الرهبان»[(٢)].

والحجة عند الاختلاف هو كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله ﷺ، وإن ثبت إجماع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ـ وهم لا يجمعون على باطل ـ أخذ به، ولكن فرق بين دعوى الإجماع وثبوته.

ثم إنه قد مر معنا قريبًا أن بعض السلف ـ ومنهم ابن عمر ـ لا يرون في الأسير إلاَّ المن أو الفداء. وهذا ناقض للإجماع.

والقول بالإجماع لا يكفي فيه حكاية فلان أو فلان، بل لابد أن

---

(١) بداية المجتهد (١/ ٦٥٤).

(٢) المرجع نفسه (١/ ٦٥٣).

يخضع لمقاييس نقد الرواية من تصحيح أوتضعيف إذا أُريد له أن يكون حجة على المخالف، فالحديث وهو المرفوع إلى النبي ﷺ لم يعف من هذه المراقبة، فكيف نعفي منها دعاوى الإجماع بمجرد نقلها في بعض كتب الفقه.

بل إنه من الضروري أن تتبع تلك الإجماعات أيضًا بالنقد والإعلال أسوةً بالحديث المرفوع، وأن تدرس أسانيدها، فما خالف منها ما كان عليه النبي ﷺ ولم يفعله، ولم يشر إليه القرآن، ولم يكن له مستند، فإنه بالإمكان أن يعتبر ذلك علة قادحة تمنع العمل بذلك الإجماع، ويقال فيه حينئذ ما قاله الإمام أحمد: «وما يدريك لعل الناس اختلفوا» ومعلوم أن الإجماع قد يحكى في محل الخلاف حتى اشتهرت هذه الكلمة «حكاية الإجماع في محل النزاع»، ولا يستبعد أن يكون هذا الإجماع من هذا النوع، سيما وكلمة الأسرى تطلق على المقاتلة كما قدتطلق على السبي[١]، فإذا ورد إجماع الصحابة على استعباد الأسرى من أهل الكتاب، كان الأولى أن ينزل ذلك على المعهود من حالهم ويخص ذلك بالذرية والنساء. كما فعل ابن القيم حينما ذكر اتفاق الصحابة على الاسترقاق لكنه أنزله على استرقاق السبي من النساء ونحوهن وذلك في قوله: «فإن قلتم: لا يسترق عين الكتابي ـ كما هو إحدى الروايتين عن أحمد ـ كنتم محجوجين بالسنة واتفاق الصحابة، فإن النبي ﷺ كان يسترق سبايا عبدة الأوثان ويجوز لسادتهن وطأهن بعد انقضاء عدتهن. . . ولم يشترط الإسلام، وأكثر ما كانت سبايا الصحابة في عصر النبي ﷺ من عبدة الأوثان، ورسول الله ﷺ يقرهم على تملك السبي»[٢] فهذا يصلح أن يكون تفسيرًا لاتفاق الصحابة الذي

(١) وهو صنيع النووي في صحيح مسلم (٣/ ١٣٧٥) حيث بوَّب على سبي امرأة فزارية مع ابنتها بقوله: باب التنفيل وفداء المسلمين بالأسرى.

(٢) أحكام أهل الذمة (١٠٦ـ١٠٧).

حكاه ابن رشد.

هذا، وقد ورد في صحيح البخاري ما يمكن أن يفهم منه استرقاق المقاتلة، فعن المغيرة بن شعبة أنه قال لعامل كسرى: «وأخبرنا نبينا عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم»(١).

فقوله: «ملك رقابكم» لا يعني بالضرورة الاسترقاق فقد يحتمل: معنى الأسر بعد الغلب، والمأسور عند من أسره يشبه من ملك رقبته بحيث يستطيع أن يمن عليه أو يطلب منه الفداء أو يقتله، وعلى هذا يكون ملك رقابكم أي: انتصر عليكم ويكون موافقًا لقوله تعالى ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾(٢) وهما النصر والشهادة(٣) ويقويه أن الصحابي جعله قسيمًا لدخول الجنة، فدل على أنه المراد.

ثم إن استرقاق المقاتلة الذي لم يفعله النبي ﷺ ليس عمليًا في ذاته فلا يتصور غالبًا من هذا الذي كان بالأمس مقاتلاً، أن يكون بعد الحكم عليه بالرق سهلاً مطيعًا لسيده، بل سوف يتربص به الدوائر إذا أُطلق من قيده، وإن بقي فيه ضاعت منفعته على سيده.

أما ما استثني من إرقاق النساء والذرية، فإنه يوافق القصد من الرسالة في هداية الناس، لما يحصل لهم بسببهم من قبول الإسلام غالبًا.

وقد أشار الإمام أحمد إلى هذا المعنى، وقد سُئل عن «الصغير يسبى هل يفادى به وهو مع أبويه، وهو على دينهم؟ قال: لا، وإن كان على دينهم، ولا يفادى بهم وهم صغار يطمع أن يموت أبواهم وهم صغار فيكونون مسلمين» قال أبويعلى: «فقد نصَّ على المنع في الصبيان

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية، باب: الجزية والموادعة (٣/ ١١٥٣) رقم (٢٩٨٩).
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٢.
(٣) فتح القدير (٢/ ٣٨٨).

وحكم النساء كذلك لاشتراكهم في المعنى»[١].

وفي المغني: «أن الإمام منع من فداء النساء بالمال؛ لأن في بقائهن تعريضًا لهن للإسلام لبقائهن عند المسلمين، وجوز أن يفادى بهن أسارى المسلمين؛ لأن النبي ﷺ فادى بالمرأة التي أخذها من سلمة بن الأكوع[٢]، ولأن في ذلك استنقاذ مسلم متحقق إسلامه فاحتمل تفويت غرضية الإسلام من أجله. . . »[٣].

وبناء عى ما سبق فإن رسول الله ﷺ تعامل مع الأسرى بحسب المصلحة، فمنَّ على أكثرهم، وفادى بعضهم، وقتل شرارهم، وسبى النساء والذرية، ولم يسترق الأسرى المقاتلة، وما ذكر من أن الصحابة أجمعوا على استرقاق الأسرى فيحمل على ما يمكن أن يحصل عليه الإجماع من استرقاق الذرية والنساء، والظن بهم أنهم لم يطبقوا على استرقاق المقاتلة وهو أمرٌ لم يذكر في القرآن ولم يفعله النبي ﷺ.

ومما له تعلق بالرحمة بالسبي ما ورد أن النبي ﷺ نهى عن التفريق بين الوالدة وولدها، وقال: «من فرَّق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[٤]، وكان يؤتى بالسبي فيعطي أهل البيت جميعًا كراهية أن يفرق بينهم[٥].

لقد شرع المولى ـ عز وجل ـ استرقاق السبي ثم فتح باب العتق على مصراعية وأمر بتحرير الرقاب، وجعل ذلك من أسباب النجاة يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص(١٢٧).
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى (٣/ ١٣٧٥) رقم (١٧٥٥).
(٣) المغني (٨/ ٣٧٦).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٣)، والترمذي في السير، باب: في كراهية التفريق بين السبي (٤/ ١١٤) رقم (١٥٦٦)، وقال: «حديث حسن غريب» انظر: ملحق (٢) ص (٤٣١).
(٥) زاد المعاد (٣/ ١١٤).

رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾[١]، وقال ﷺ: «من كانت له جارية فَعَالَهَا، فأحسن إليها، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران»[٢]، وقال: «من أعتق رقبةً مسلمةً أعتق الله بكل عضوٍ منه عضوًا من النَّار حتى فرجه بفرجه»[٣].

وتتضح إرادة الشارع في قضائه على الرق في جعله كفارةً لعدد من المخالفات الشرعية، أو الأخطاء التي يرتكبها المكلَّف، فجعله جزءًا من كفَّارة قتل المؤمن خطأ، قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾[٤]، وجعله كفارة الحنث في اليمين في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ﴾[٥]، وجعله كفَّارة للظهار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾[٦]، بل قد بلغ به أن جعل كفارةً للطمة، وذلك لقوله ﷺ: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»[٧]، ولعل الحكمة من تشريع الرق ثم الأمر بالعتق هي أن النفوس إذا كسرت بالرق ثم أحسن عليها بالعتق كان أدعى لقبول المنة.

---

(١) سورة البلد، الآيات: ١١ـ١٣.

(٢) أخرجه البخاري في العتق، باب: فضل من أدب جاريته وعلمها (٢/٨٩٩) رقم (٢٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان، باب: قول الله تعالى: ﴿أو تحرير رقبة﴾ (٦/٢٤٦٩) رقم (٦٣٣٧).

(٤) سورة النساء، الآية: ٩٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٦) سورة المجادلة، الآية: ٣.

(٧) أخرجه مسلم في الأيمان، باب: صحبة المماليك (٣/١٢٧٨) رقم (١٦٥٧).

# الفصل الثالث
# نماذج من غزواته ﷺ وما فيها من العدل والرحمة منهجًا وتطبيقًا

وفيه تمهيد وستة مباحث :

المبحث الأول : غزو الأنبياء وقتالهم في سبيل الله.

المبحث الثاني: غزوة بدر في سورة الأنفال.

المبحث الثالث: غزوة أحد في سورة آل عمران.

المبحث الرابع: غزوة بني النضير في سورة الحشر.

المبحث الخامس: غزوة الأحزاب وقريظة في سورة الأحزاب

المبحث السادس: صلح الحديبية في سورة الفتح.

# تمهيد

لقد جسد رسول الله ﷺ نصوص الجهاد في سبيل الله واقعًا ملموسًا حتى كانت غزواته وبعوثه وسراياه ما هي إلاَّ تفسير عملي لما أنزل عليه من ربه.

وتوسيع دائرة النظر لترى النظرية والتطبيق تنتج صورة متكاملة حقيقية لمعنى الجهاد يتمكن الناظر من خلالها من الحكم على الجهاد بمدى موافقته للعدل والرحمة، وقد سبق عند دراسة جذور الجهاد، أن الصراع العقدي في الفكر وما نتج عنه من عداوة هو الأساس وراء الصراع العسكري في الميدان، وهذا الأخير امتداد فعلي لذاك، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

وكل معركة قادمة ـ سنتحدث عنها إن شاء الله ـ إنما هي معركة عقدية، بين طرفين مختلفين في الحق، كلٌّ يحتج على الآخر بأنه أولى بالحق من خصمه.

مؤمنون: جاءهم رسول من ربهم بكتاب يهدي إلى الرشد يأمرهم فيه بإقامة دينه والعمل على نشره والجهاد في سبيل إعلائه بالمال والنفس.

يقابلهم كافرون: أنكرو تلك الرسالة وكذبوا المُرسل وعملوا ما في وسعهم للصد عن سبيل الله وإطفاء نوره بشتى الوسائل الممكنة، والتي منها استخدام القوة المسلحة.

وهذا التقابل والاختلاف بين الفريقين والتركيز على هذه الخصومة هو الذي أبرزه القرآن وعمقه وجعله محور جميع النصوص الواردة في الجهاد.

ولهذا وجب أن لا يغيب هذا الأمر عند دراسة جهاد النبي ﷺ

وغزواته وأن يكون القرآن وما يستتبع لفهمه من الأحاديث الصحيحة، وأقوال المفسرين هو المصدر الذي تستسقي منه هذه الفريضة مادةً ومنهجًا.

ومتى ما عرض جهاد النبي ﷺ بعيدًا عن المنهج القرآني السالف الذكر أوشك أن ينظر إليه على أنه من جنس ما تعارفت عليه العرب في حروبها قبل الإسلام.

صحيح أن الوسائل التي استخدمها رسول الله ﷺ في جهاده ومعاركه مع أعدائه تشبه إلى حدٍّ كبير ما هو متعارف عليه عند العرب قبل البعثة، لكن الذي اختلف اختلافًا جذريًّا هو المقصد والغاية، والمعبر عنها في آيات الجهاد بقوله ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، مع ما صاحب هذه الغاية من آداب وأحكام تناسب كونها من عند الله تعالى بما اشتملت عليه من معاملات وأخلاق جعلت المجاهدين يظهرون في أعين أعدائهم في أرقى درجات الكمال الإنساني، وهذا التفوق في الهدف الذي ركز عليه الوحي هو سر انتصارهم على أعدائهم، ومخالفته سبب الهزيمة والانكسار لهم.

وقد درج غالب من كتب في مغازي رسول الله ﷺ على السرد التأريخي للأحداث وظواهر الأمور، من حيث ذكر مكان الوقعة وتأريخها وعدد المشاركين فيها من الطرفين، وعدد القتلى، وكيف قُسِّمت الغنائم، ونحو ذلك، مما لم يعتن به القرآن إلاَّ لمامًا، حتى كادت تلك التفاصيل أن تخفى تحت كثرتها رؤية المعركة العقدية وكونها بين مؤمنين وكافرين، بين حملة هداية يعملون جاهدين لإنقاذ البشرية من براثن الضلال، وآخرين يعملون أيضًا جاهدين لصدهم عن سواء السبيل.

في حين أن القرآن في عرضه لتلك الغزوات يركز على العبر والدروس والتربية على تحقيق العبودية لله عز وجل وتوعية ضمائر

المؤمنين على مراقبته والحذر من مخالفته، بإشعارهم بأنه يعلم تصرفاتهم وأعمالهم بل وخواطر نفوسهم، وبهذا تكون تلك الغزوات رافدًا من روافد تحقيق التوحيد.

إن جهاد النبي ﷺ جهاد إلـهي صنع على عين الله تعالى، ولا تنبع عظمته وحرمته من مقارنته بالأنظمة الأرضية التي أفرزتها عقول البشر فحسب، وإنما تنبع حرمته من نسبته إلى الله تعالى ومتابعته لأحداثه وتصحيحه لمساره، وتطبيقه على أيدي صفوة البشر الذين بلغوا الغاية في الكمال الإنساني حتى كادت أن تكون أعمالهم ومواقفهم الجهادية تفسيرًا عمليًّا لنصوص الجهاد، بل كانت كذلك بعد إقرار الوحي لهم، وبيان الصواب فيما أخطأوا فيه أو خالفوا فيه الأولى، وبهذا صار جهاد تلك الفترة هو الميزان الذي يقاس عليه غيره، وأيّ فهم للنصوص أو عمل مخالف لعمل أولئك الصفوة في جهادهم فهو ردٌّ لقوله ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»**[١].

وقبل الشروع في عرض غزواته لابد من ربطها بغزو الأنبياء السابقين، ومن تبعهم من المؤمنين تبعًا للمنهج القرآني الذي لم يذكر جهاد أولئك إلاَّ لتؤخذ منه العبرة ويشعر النبي ﷺ وصحابته ومن سار على دربهم، أنهم سائرون في طريقٍ سبقوا إليه فيخف عليهم التكليف، ويشعروا بالاتساء.

(١) أخرجه البخاري في الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور (٢/٩٥٩) رقم (٢٥٥٠)، ومسلم في الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة (٣/١٣٤٣) رقم (١٧١٨).

## المبحث الأول
## غزو الأنبياء وقتالهم في سبيل الله

مسيرة الحق واحدة، وقد ذكر القرآن الأنبياء وأثنى عليهم، وأمر نبيه بالاتساء بهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾(١).

ومما هو مأمورٌ بالاقتداء بهم فيه غزوهم وقتالهم في سبيل الله، فقد عرض القرآن طرفًا منه يكفي للسير على ضوئه ويربط أول القافلة بآخرها. فأورد المرتبة التي يرتقي فيها المجاهدون إلى درجة الإحسان في جهادهم ووصف بها كثيرًا ممن جاهد في سبيل الله من الأمم الماضية مع أنبيائهم في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾(٢).

فخاتمة الآيات تشعر أنه «من الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين»(٣) مع أنبيائهم، وكذا يقال أن هذا هو الميزان الذي يقاس عليه كل قتال. وأن ما سواه يتفاضل بحسب قربه أو بعده من هذه الصورة.

كما ذكر نموذجين للمقاتلين في سبيل الله أحدهما سلبي والآخر إيجابي جريًا على منهج القرآن الذي يعرض الخطأ بجانب الصواب، والسلبيات إلى جانب الإيجابيات ليتربى الصف المسلم من مجموع

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٠.
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦ـ١٤٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٧٨).

الأمرين، فيحصل الاقتداء بالجوانب الإيجابية، ويحذر الوقوع في الجوانب السلبية.

**النموذج الأول: النكوص عن دخول الأرض المقدسة:**

قال موسى ـ عليه السلام ـ فيما ذكره الله عنه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾(١).

وردت هذه القصة قبل خوض الصحابة الكرام لمعركة بدر، ليقف المؤمنون على صورة رديئة من أصناف المقاتلة، وقد استوعب الصحابة هذه القصة وكانت حاضرة في نفوسهم حينما شاورهم رسول الله ﷺ في القتال يومئذ، فقال المقداد ـ رضي الله عنه ـ: «لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك»، قال ابن مسعود ـ راوي الحديث ـ فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره قوله(٢)، وهي وإن وردت قبل فرضية الجهاد إلاَّ أنها موطئة له ومهيئة، كما أنها تعرض نماذج من تأريخ يهود فيما سبق مع أعظم نبي لهم، وكأنها تثقيف للمسلمين على نفسية اليهود الذين سيجاورونهم في دار الهجرة «فجبلة يهود تبدو هنا على حقيقتها مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل، ولا محاولة للتشجع إن الخطر ماثل قريب لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن

(١) سورة المائدة، الآيات: ٢١ـ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ (٤/١٤٥٦) رقم (٣٧٣٦).

الله قد كتبها لهم، فهم يريدونه نصرًا رخيصًا لا ثمن له، ولا جهد، نصرًا مريحًا يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى»(١)، كما أنها أشارت إلى أن الخوف من قوة العدو وعظمته في نفوس المقاتلة من أعظم الأسباب الموجبة للهزيمة، ويتم التغلب عليه بالتوكل على الله والخوف منه وحده، والإيمان بوعده في نصرة أوليائه، ثم مباشرة أسباب النصر التي أمر الله بها، كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهنا تبرز قيمة الإيمان في مواجهة الشدائد واستعلاء أصحابه على الخوف من عدوهم، وهذه الآيات يذكّر بها أولئك الذين يحجمون عن أخذ حقوقهم المشروعة بالوسيلة المشروعة التي تكرر ذكرها في القرآن ألاَ وهي الجهاد في سبيل الله، والإعراض عن غيرها من الوسائل التي زعموها توصلهم إلى استرداد الحقوق، وغالب حجج الناكلين عن القيام بهذه الفريضة هي ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ وهذه الحجج الواهية لا تزيد على أن تكشف أن المتذرع بها فاسق كما أفاده قوله تعالى: ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ويتسحق صاحبه العقوبة كالتيه الذي عاقب الله به أولئك الناكصين.

وهذاا لمثال الوارد ذكره في الآيات وإن كان ورد في بني إسرائيل الذين عرفوا «بالتفلت من الطاعة، والنكوص عن التكليف، وتفرق الكلمة والتولي عن الحق البين... فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلاَّ التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير، وهي ـ من ثم ـ سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر كي لا تفاجأ بها فيتعاظمها الأمر فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب»(٢).

(١) في ظلال القرآن (٨٧٠).
(٢) المرجع نفسه (٢٦٧).

**النموذج الثاني: قصة طالوت وجالوت:**

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1].

هذه القصة مربية للصف المسلم لئلا يقعوا فيما وقعت فيه الغالبية من بني إسرائيل بحيث تولوا بعد إظهار استعدادهم لفرضية القتال، وليتأسوا بتلك الفئة القليلة التي ثبتت حتى نصرها الله.

ولأهمية هذه القصة ـ سنقف قليلاً لتأمل ملامحها وما فيها من معاني لعلنا نستنتج منها ـ كيف تصل الأمة المتخاذلة إلى النصر[2].

فالآيات تعرض قصة قوم من بني إسرائيل أتوا إلى نبي لهم يتزعمهم كبراؤهم وأهل الرأي فيهم يطلبون منه أن يعين لهم ملكًا يقاتلون تحت إمرته في سبيل الله، وذلك بسبب اعتداء بعض الكفرة عليهم وإخراجهم من ديارهم وأبنائهم، فأراد أن يستوثق النبي من صدق عزيمتهم فأظهروا له الاستعداد المصحوب بتذكر ما سلط عليهم من ظلم، ويبدو أن التربية الإيمانية للغالبية منهم لم تكتمل، وأن الشعار الذي نادوا به ـ وهو في سبيل الله ـ ليس نابعًا من إيمانهم بل للحصول على حقوقهم المسلوبة، دل على ذلك اعتراضهم على كون الملك (القائد) لم يكن من الطبقة التي يرشحونها هم للقيادة، ولا يستبعد أن يكون الأشخاص المرشحون لها من أهل الثراء الواسع، بل هذا ما

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٤٦ـ٢٥١.
(٢) في ظلال القرآن (٢٦٨) حيث اقتبست بعض الفقرات المفرقة.

أشاروا إليه في اعتراضهم بقولهم: ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾، وهذا الميزان هو ميزان أهل الجاهلية، أما ميزان الله تعالى فهو ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ولم تكن كثرة المال وقلته يومًا مرجحة لأفضلية إنسان على آخر في الإسلام، ولكن ذلك مما انحرفوا عنه ـ كما حصل هذا للأمة الإسلامية في هذه الأيام وغلب على كثير منهم ـ فصحح النبي لهم ذلك المفهوم الخاطىء، وأخبرهم أن متطلبات القيادة متوفرة فيه ـ مع فضل الله عليه ـ وهي بسطة العلم والجسم، فهوأمهر منكم في التخطيط وإدارة الحرب وكيفية قيادة الجيش إلى النصر كما أنه أكثر تحملاً للمشاق وأعباء الحرب، وذلك لبسطة جسمه ـ وكذلك ينبغي أن يكون القائد ـ أما كونه لم يؤت سعة من المال، فهذا لا معنى له هنا، وليس المجال مجال توزيع أموال وأعطيات وطمع فيها، ثم إنه لو كان كذلك لم يغر اتباعه وطاعته إلاَّ أولئك المرتزقة الذين يستذلون ويطيعون من يرجون فتات موائده، وهؤلاء أقرب إلى الخذلان منهم إلى النصر.

لقد أعد طالوت جيشه ويتجلى في إعداده مصداقُ حكمة الله تعالى في اصطفاء هذا الرجل كما تبين من مواقفه الصلبة التي لم تهزها الأزمات المتكررة فقد قدم على معركةٍ ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تأريخها مرة بعد مرة في مواجهة أمة غالبة، فلابد من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة، وهذه القوة لا تكون إلاَّ في قوة الإرادة المدفوعة بقوة الإيمان، الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء، فاختبر هذه الإرادة بمنعهم من الشرب بعدما عطشوا إلاَّ من اغترف غرفة واحدة بيده، وهي ظاهرة في القلة، فضعفت إرادة الجيش ماعدا القليل منهم في هذا الامتحان كما قال تعالى: ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾. وهذا الامتحان أهون بكثير من ملاقاة

الأعداء في ساعة الوغى، فانفصلت الكثرة بإخفاقها لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم؛ وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة، ولو كثروا، فالجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة على انتزاع النصر والإيمان بالحق الذي يدافع عنه.

وقد دلَّت هذه التجربة على أن إرادة الجهاد في سبيل الله والتشوف له أمل حلو تغذية العاطفة بدنو النصر، ولكن التجربة العملية الجهادية لا يثبت فيها إلاَّ قوي الإيمان، كما دلَّت على صلابة عود القائد الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى، بل مضى في طريقه، وكما في صحيح البخاري[1] فإنه لم يتبعه إلاَّ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، أما عدد الجيش قبل ذلك فكان كثيرًا، ولا أستبيح أن أذكر تلك الأعداد المأخوذة أو بعضها عن الإسرائيليات ـ فهم ليسوا مرجعًا لنا ـ وقول ربنا سبحانه كافيًا في بيان المراد، ولو كان في ذكر العدد المتخاذل مزيد فائدة لذكرت.

إن هذا القائد الذي اختاره الله تعالى على علم، لم يترك تدريب جيشه وامتحان إرادته اعتمادًا على أن الله الذي أمره بهذا القتال سينصره ولا شك، ولم يقع في روعه أن يأتي ببعض الأسباب وهو يملك أن يقدم أفضل منها، بل استنفذ كل طاقته في تحصيل ما تمليه عليه قواعد القيادة الحكيمة الواعية، واستعدَّ أتم الاستعداد للمواجهة ـ بخلاف من يفهم أن الجيش المؤمن مصيره إلى النصر دائمًا ـ فهذا الفهم ليس منتزعًا من كتاب الله بل من فهم المتكاسلين أهل الإرجاء والأهواء.

لقد غربلت هذه التجربة جيش طالوت ولكن التجارب لم تنته بعد، فمواجهة العدو من أناس لا خبرة لهم بالقتال مع قلتهم العددية، ومشاهدة جموع الكفرة بعددهم وعتادهم هذا المشهد كافيًا في زلزلة

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: عدة أصحاب بدر (٤/ ١٤٥٧) رقم (٣٧٤١).

أقوى الإرادات حتى يقول أصحابها ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وقولهم «اليوم» يوحي بالمقارنة بين ما سبق لهم من تدريبات على الشدة، وبين حقيقة المواجهة مع العدو، وإفرادهم «جالوت» بالذكر وعطف «جنوده» عليه يوحي باستحضارهم لشدة مهارته وبأسه بالإضافة إلى ما يتمتع به جنوده من بسالة في المعارك قد بلغت مسامح هؤلاء المؤمنين.

وهنا برزت الركائز الأساسية في الجيش التي قد اكتمل إيمانها وترتبيها واتصلت قلوبها بالله، وأصبح لها موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم، فقامت تذكر الناس وتحثهم على الثبات وتؤملهم في النصر الذي لا يكون إلاَّ من عند الله وتشجعهم على الصبر المقتضي لمعية الله وتأييده، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

ولقد ذكر الله تعالى أبز صفة يتمتع بها هؤلاء الصفوة وهي «ظنهم أنهم ملاقوا الله» والمراد أنهم يتوقعون أن يلقوا الله شهداء[(١)] وأمثال هؤلاء الذين أعدوا أنفسهم للقاء الله تعالى لا يخوّفُون بالموت في سبيله بل هو من المطالب العالية التي يتنافسون على التشرف بها.

وقد شعروا أن الصف المؤمن قد هال غالبه كثرة العدو وهول مواجهته وأنه بحاجة إلى رفع المعنويات وتثبيت الإيمان وتقوية إرادة القتال، فانطلقت أول نصائحهم بالتذكير بتأريخ الحروب الكثيرة التي لابد أنهم قد أخذوا دروسًا عنها أو سمعوا أخبارها وملخصها ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ وهذا يكشف جانبًا من التثقيف العسكري للصف المجاهد للتعرف على خبرات الأمم وتأريخ الحروب خاصة تلك الحروب التي وقعت بين المؤمنين والكافرين، فهي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٦٦).

التي تكون جديرة بالاهتمام، ولم ينص في الآية على أن الفئة القليلة مؤمنة، لكن قد يفهم ذلك من قوله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وإن كان من غير المستبعد أن يفيد طالوت ـ وهو القائد الرباني ـ من غيرها من خبرات الأمم.

وأما قولهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو لربط قولهم بالله تعالى الذي بيده نواصي هؤلاء الأعداء وغيرهم كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ وأنه المتصرف في ملكه لا يكون فيه إلاَّ ما يريد، وهذه الفريضة العظيمة التي يقوم بها المؤمنون إنما هي بأمره سبحانه وهو لا يخذل من نصره إذا قام بما أمره به، ثم أشاروا إلى أهم ما يحتاج إليه المقاتل، ألاَ وهو الصبر المقتضي لمعية الله تعالى، ومن كان الله تعالى معه كيف يخشى غيره؟ وهكذا كانت هذه الكلمة طاردة وهم الخوف من الكثرة، الذي قد يحجب رؤية البصيرة، ويقدم عليه رؤية البصرة.

فلما تقابل الصفان تعلقت قلوب المؤمنين بربها متضرعين ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠﴾ وهم بذلك يعلمون أنهم يسألون من بيده النصر وأسبابه ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ولقد تحققت كل عوامل النصر من تنقية الصف وصدق اعتماده على الله والأخذ بالأسباب والإلحاح في الدعاء، ولم تؤثر كثرة العدو شيئًا.

إن من يقرأ هذه القصة كما يعرضها القرآن يشعر بأن الله تعالى يدل على طريق النصر بدقة متناهية، وليست بطريقة إجمالية للبشر أن يجتهدوا في تفاصيلها، إنه يشرع الجهاد في سبيل الله بوسائل تتناسب مع جهود البشر وطاقاتهم وضعفهم، يحسن الحسن من أفعالهم وينميه ويقبح القبيح، ويحذر منه، لتحصيل الغاية التي يمكن للبشر الوصول إليها.

ونخلص من ذلك بأن القتال في سبيل الله ليس مما اختصت به أمة

محمد ﷺ، بل قد وقع كثيرًا في حياة الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين ضد الكافرين بدلالة قوله «وكأين» والتي هي بمعنى «كم» الدالة على الكثرة(١)، قال الحافظ ابن حجر «أن من مضى كانوا يغزون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل»(٢).

وأبرز صفة لأولئك الذين قاتلهم الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين هي صفة الكفر كما يفهم من تكرر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾(٤) وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةً﴾(٦)، وقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله**»(٧) ومن تأمّل جهاد النبي ﷺ وقارنه بجهاد الأنبياء قبله علم أنه من جنسه، فإذا ما حكم لجهاد الأنبياء السابقين بالعدل والرحمة، وجدت ضرورة تدفع إلى القول بأن جهاد النبي ﷺ كذلك ولا يفرق بين متماثلين إلاّ جاهل أو جاحد.

بل قد ذكر ابن تيمية أن جهاد النبي ﷺ أكمل من جهاد من سبق فقال: «فبين سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحسانًا إليهم؛ لأنهم كملوا أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن

---

(١) مغني اللبيب (١/٢٠٦).
(٢) فتح الباري (٦/٢٥٨).
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٧ـ١٤٨.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٥٠ـ٢٥١.
(٥) سورة التوبة، آية: ١٢.
(٦) سورة التوبة، آية: ٣٦.
(٧) سبق تخريجه ص(٤٦).

المنكر من جهة الصفة والقدر، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كمال النفع للخلق، وسائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف ولا نهوا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك، بل منهم من لم يجاهد والذين جاهدوا كبني إسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم، كما يقاتل الصائل الظالم لا لدعوة المجاهَدين وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، كما قال موسى لقومه ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ الآيات، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ فعللوا القتال بأنهم أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم، ومع هذا فكانوا ناكلين[١] عما أمروا به من ذلك، ولهذا لم تحل لهم الغنائم، ولم يكونوا يطئون بملك اليمين»[٢].

بهذا نعلم أن القرآن عُني بعرض غزو الأنبياء في الأمم السابقة وقتالهم في سبيل الله، وكذا فعل النبي ﷺ في تربيته لأصحابه، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضعَ امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقفها، ولا آخر اشترى غنمًا أو خلفات، وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت ـ يعني النار ـ لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد**

(١) أي غالبهم بدلالة أن قلة منهم ثبتوا مع طالوت، حتى نصرهم الله على عدوهم. والحكم للغالب.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٣ـ١٢٤).

**رجلين أو ثلاثة فقال: فيكم الغلول فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب فوضعوه في المال، فأقبلت النار فأكلته ثم أحل الله لنا الغنائم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا»**(١).

وبعد هذا سننتقل إلى عرض جانب من غزواته ﷺ لنرى أنها امتداد لجهاد من سبقه من الأنبياء، وأنها تهدف إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل والعمل على هداية الناس إلى دين الله المنزل وإعلائه على الدين كله، والأخذ على يد كل من صد عن سبيل الله، فهذا أعظم معلم من معالم العدل والرحمة في الجهاد في سبيل الله وهو المحور الذي كرر ذكره في القرآن والسنة، ودارت في فلكه جميع آيات الجهاد، ولم تكن غزوات النبي ﷺ التي نحن بصدد الحديث عنها إلاَّ تطبيقًا عمليًّا له في أرض الواقع على ما سنبينه إن شاء الله.

(١) أخرجه البخاري في الخمس، باب: قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم» (٣/١١٣٦) رقم (٢٩٥٦)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (٣/١٣٦٦) رقم (١٧٤٧).

## المبحث الثاني

# غزوة بدر في سورة الأنفال

هذه الغزوة نتج عنها معركة من أهم المعارك الحاسمة في التأريخ، وأعظم معلم من معالم العدل والرحمة فيها أن هدفها الأساس هو تقرير عبودية الله في الأرض كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في قوله: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»(١). وهي تعيد إلى الذاكرة تلك التي اشترك فيها نبي الله داود ـ عليه السلام ـ وكانت بين طالوت وجالوت ـ إذ بينهما مشابهة كبيرة:

ـ في الصفة: إذ كل منهما معركة عقائدية دائرة بين مؤمنين وكافرين.

ـ وفي الدوافع والأهداف إذ كل منهما مستهدف فيها رفع الظلم أو دفعه.

ـ وفي العدد إذ أن عدد المؤمنين الذين نصرهم الله في كلا المعركتين بلغ حد التطابق، فعن البراء، قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث: أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز إلاَّ مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة(٢).

ـ وفي النتيجة حيث نصر الله المؤمنين فيهما عندما أخذوا بالأسباب وتوكلوا على الله تعالى مع تفوق عدوهم عليهم في العدد والعدة.

وعلى هذا فهي معركة قد اندثرت مثيلاتها منذ زمن بعيد حتى جددت على يد محمد ﷺ.

وهي أول معركة حاسمة في تأريخ الدعوة الإسلامية بين فريقين، فرّقت بينهم العقيدة، وكل منهما يحتج على الآخر بأنه على الحق

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة (٣/ ١٣٨٤) رقم (١٧٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: عدة أصحاب بدر (٤/ ١٤٥٧) رقم (٣٧٤١).

وخصمه على الباطل، لذلك لم يكن النصر الذي حصل فيها نصر أشخاص على آخرين بقدر ما هو نصر الحق وإعلاؤه على الباطل وأهله.

دخل المؤمنون هذه المعركة ضد أبناء عمومتهم - في الجملة - الذين فرق بينهم الحق متجاوزين رابطة النسب، متمسكين برابطة الدين، يريد المؤمنون إعادة الأمر كله لله تعالى، ويفرد بالطاعة والتشريع والحكم بل وكل أنواع العبادة، فحقَّ لهم أن يكونوا حزب الله وجنده كما سماهم الله بذلك.

ويخالفهم أهل الكفر الذين ينكرون الحق المنزل، ويأبون إلاَّ أن يشركوا مع الله غيره في العبادة، وصدق الله في تسميتهم بحزب الشيطان.

ومن هذا التقابل تتضح صورة الحق الأبلج في مقابل صورة الباطل المظلم وتترتب عليه معرفة مدى موافقة الحكم بينهما للعدل والرحمة.

**تصحيح الهدف ووضوحه:**

إن وضوح الهدف وتحديده وإمكانية الوصول إليه من أسباب تحقيقه، ثم إن كان أخلاقيًّا اندفعت إليه النفس بكل قوتها بخلاف ما إذا تخلف هذا الشرط، فإن منازعة الضمير تضعف الطاقة وتولد الصراع «وذلك أن حالة الشعور بالخطأ وتأنيب الضمير حالة مؤلمة لا يطيقها الإنسان إذ أنها تحدث اضطرابًا في اتزانه، وقلقًا لراحته، فيحاول الخلاص منها ولا يتم الخلاص إلاَّ باقتناع داخلي بأنه ليس مخطئًا»[١] لأجل ذلك يحرص حتى من يخوضون الحروب اللاأخلاقية بإبراز مبررات أدبية مقبولة لدى المقاتلين لتتقوى عزائمهم.

ولما كان المولى - عز وجل - هو الذي هيَّأ هذه المعركة ليقضي

---

(١) المسؤولية، محمد آمين المصري (٥٨).

أمرًا كان مفعولاً، وكان يدبرها بأوامره وتوجيهاته، فقد ركَّز سبحانه على بيان الهدف، وإبرازه، وتكراره، وعدم السماح لمسيرة الحق أن تحيد عنه، سيما وهذه المعركة هي المعركة الأولى من نوعها.

فأنزل سبحانه في سورة الأنفال ـ التي فُصِّلَت فيها هذه الغزوة ـ الهدف من القتال في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[(١)].

وتشير الآيات أن بعض الأفراد لم يكن الهدف في نفسه واضحًا بنفس الوضوح الوارد في الآية السابقة، ومما يدل على ذلك أنهم عندما وُعِدُوا بإحدى الطائفتين العير أو النفير[(٢)] آثروا الأولى في حين أن الثانية أنفع لإقامة دين الله عز وجل، فوجههم المولى ـ عز وجل ـ إلى الأفضل والأنفع في علم الله في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾[(٣)].

ويعتذر عنهم أن رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبًا لعير أبي سفيان، ولما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين، ورغب كثير من المسلمين في العير؛ لأنها كسب بلا قتال، ثم إنهم لم يستعدوا للقاء، فكرهوه أولاً، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء بعد ذلك[(٤)]، وقد أشار المولى عز وجل إلى ما وقع منهم من كراهية للقاء في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٩.
(٢) فتح القدير (٢/ ٣٠٤).
(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ٧ـ٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٨٨) بتصرف.
(٥) سورة الأنفال، الآيتان: ٥ـ٦.

ومن رفق الله تعالى بهم أنه أخرجهم لأمر يحبونه، ثم كلَّفهم بعد أن خرجوا فعلاً بمقاتلة عدوهم، ليكون ذلك أهون على نفوسهم، وكراهيتهم المذكورة في الآية هي كراهية من لم يستعد للقاء لا كراهية الجبناء.

ولعل عدم الجزم في إخبارهم بلقاء النفير ـ في باديء الأمر ـ لئلا يحصل شيء من التوكل على قوتهم التي يمكنهم إعدادها، فيشاهدوا نصر الله تعالى لهم، من وراء تلك الأسباب القليلة الذي آمنوا به نظريًّا، فإذا ما رأوا قلة إمكانياتهم، وعددهم، وعدتهم مقارنة بما عليه عدوهم ـ سيما وإنهم لم يتجهزوا للقاء ـ فهموا حينئذ قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾(١) وحصل لهم فائدة الجمع بين النظرية والتطبيق فأفادهم ذلك توكلاً حقيقيًّا عليه سبحانه فيما يستقبلون من معارك.

يقول صاحب الظلال ـ مقارنًا بين إرادة الله تعالى، وإرادة المؤمنين يوم بدر ـ : «لقد أراد ـ وله الفضل والمنة ـ أن تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل، ليحق الحق ويثبته، ويبطل الباطل ويزهقه، وأراد أن يقطع دابر الكافرين، فيُقتل منهم من يُقتل، ويُؤسر منهم من يُؤسر، وتُذل كبرياؤهم، وتُخضد شوكتهم، وتعلو راية الإسلام، وتعلو معها كلمة الله، ويمكّن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله في الأرض، وتحطيم طاغوت الطواغيت، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق، وبالجهد والجهاد في عالم الواقع وفي ميدان القتال.

وينظر الناظر اليوم، وبعد اليوم ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك، وما أراده الله لها، بين ما حسبته خيرًا، وما قدره الله لها من الخير، ينظر فيرى الآماد المتطاولة، ويعلم كم

(١) سورة الأنفال، آية: ١٧.

يخطىء الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيرًا مما يختاره الله لهم، وحين يتضررون مما يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى، بينما يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال ولا بخيال.

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها؟ لقد كانت تمضي ـ لو كانت لهم غير ذات الشوكة ـ قصة غنيمة... أما بدر فقد مضت في التأريخ كله قصة عقيدة، قصة نصر حاسم، وفرقان بين الحق والباطل، قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد، والحق في قلة من العدد، وضعف في الزاد والراحلة، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله وحين تتخلص من ضعفها الذاتي، ألا إن غزوة بدر بملابساتها هذه لتمضي مثلاً في التأريخ البشري، تقرر دستور النصر والهزيمة، وتكشف عن أسباب النصر والهزيمة، الأسباب الحقيقية لا الأسباب المادية، ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان ومكان، لا تتبدل دلالاتها، ولا تتغير طبيعتها، فهي آية من آيات الله، وسنة من سننه الجارية في خلقه، مادامت السموات والأرض»[1].

**التعبئة واللقاء:**

إن هذه المعركة الفاصلة سبقتها إرهاصات توحي بوقوعها، فالسرايا المستمرة الممكن اعتبارهاتدريبات حربية، ووقوع القتال الفعلي بين الطرفين في سرية نخلة، وما سبق ذلك من الإذن في القتال ثم كثرة النصوص الواردة في فضل القتال في سبيل الله والحث عليه في سورتي البقرة والنساء ـ المتقدم نزولهما ـ مع ما هو معلوم من إعلان الحرب بين الفريقين ـ كما سبق ـ، إضافة إلى ما يتمتع به الصحابة من لياقة

(١) في ظلال القرآن (١٤٨١ـ١٤٨٢) بتصرف يسير.

جسمية أملتها عليهم طبيعة معيشتهم البعيدة عن الترهل والترف وما صاحبها من تكليف بإعداد العدة والقيام بنشاطات ذات صلة وثيقة بالجهاد، مثل ركوب الخيل، والسبق، والرماية، وصناعة العتاد الحربي، كالرماح والسهام، والدروع، وغيرها، كل ذلك يمكن اعتباره تعبئة حسية ومعنوية للقاء الحاسم الذي وقع في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة في مكان يسمى بدر الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾(١) وليس ذلك تعظيمًا لتلك البقعة فهي كغيرها من أراضي الله، وقع فيها هذا الحدث اتفاقًا، وخصت بالذكر؛ لأن ذلك الحدث العظيم لا يعرف إلاَّ بنسبته إليها.

ويقال ذلك في اليوم الذي وقعت فيه المعركة، فقد عظم الله تعالى الحدث الذي وقع فيه إذ هو يوم فرق الله به بين الحق والباطل بعدما التقى فيه الفريقان لقاء خصومة(٢).

فاستفتح الفريقان وطلب كل منهما ربه أن يقضي بينه وبين خصمه، وكان من استفتاح أبي جهل ـ زعيم المشركين ـ قوله: «اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحِنْه(٣) الغداة»(٤).

واستغاث رسول الله ﷺ بعدما استقبل القبلة، ومد يديه، وجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»(٥).

فهذه حجج الخصمين تقدم بين يدي الله تعالى الحكم العدل

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

(٢) كما قال علي ـ رضي الله عنه ـ في تأويل قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩]. أخرجه البخاري في صحيحه (٤/١٤٥٩) رقم (٣٧٤٩).

(٣) أحِنة: الإحنة: الحقد. كما في النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٧). وكأن معناها في السياق: أَقْتُلْهُ. ولم أقف على من قال بهذا.

(٤) أخرجه أحمد (٢/٥٣١) وغيره، وإسناده صحيح. انظر: ملحق (٢) ص (٤٣١).

(٥) سبق تخريجه ص(٢٦٤).

ليقضي فيها بحكمه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو سبحانه منزه عن الظلم كما قال تعالى عن نفسه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾[(١)]، وجاء في الحديث القدسي: « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»[(٢)].

**القضاء بالحق:**

لقد ذكر المولى عز وجل ذلك الاستفتاح في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[(٣)] قال ابن كثير: «يقول تعالى للكفار إن تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم»[(٤)].

كما ذكر استغاثة النبي ﷺ والمؤمنين ربهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[(٥)]

فتمثل قضاؤه سبحانه بين الفريقين بنصر المؤمنين، وهزيمة المشركين هزيمة منكرة «قتل فيها سبعون منهم وأسر سبعون»[(٦)] وعامة من قتل من الزعماء والقادة، وهذا هو التفسير العملي لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝﴾[(٧)].

ويلاحظ بتأمل حكم الله تعالى هذا أنه لم يكتف ببيان المحق من المبطل فيكون حكمًا نظريًا، وإنما مع بيان ذلك، فإنه أحاله إلى حكم

---

(١) سورة يونس، آية: ٤٤.
(٢) سبق تخريجه ص(٢٢).
(٣) سورة الأنفال، آية: ١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٢٩٧).
(٥) سورة الأنفال، آية: ٢٩.
(٦) جامع البيان (٧/ ٣٧١).
(٧) سورة الأنفال، الآيتان: ٧-٨.

عملي اقتصَّ فيه من المشركين، وبين بما لا يدع مجالاً للشك ضلالهم من خلال هزيمتهم الناتجة عن إرادته سبحانه حيث هيأ لها الأسباب الكثيرة بدءًا من اللقاء على غير ميعاد.

وختامًا بالنتيجة التي لا تتناسب مع المقدمات في حساب البشر ولكنها متكررة معهودة عند من اتصل قلبه بالله كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١).

فإذا كان بعض الكفار لم يظهر له الحق بوضوح قبل يوم الفرقان هذا وكان يظن أنه على طريقة مرضية لرب العالمين كما قد يفهم من استفتاح بعضهم فإن هذا اليوم قد تجلَّت فيه الحقيقة، وحكم على المشركين في أرض الميدان، ـ وكان قبل ذلك في نصوص القرآن ـ بأنهم أعداء الله الذين ليس لهم إلاَّ القتل بل والإثخان فيه حتى تتطهر الأرض من رجسهم، وأما المؤمنون وعلى رأسهم محمد ﷺ فهم المستحقون للنصر والعلو ليظهر ما معهم من حق وتهتدي به البشرية.

لقد دلَّ هذا النصر على أن الله تعالى راضٍ عن المؤمنين وساخط على الكافرين وبهذاتقوم الحجة على الناس بتميز الحق من الباطل، ويكون الناس على بينه من ذلك كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(٢).

قال ابن كثير: «قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد»(٣).

فالناس إذا رأوا رجلاً يدعو إلى الله ويأمر بإفراده سبحانه بالعبادة ويحذر من خالف ذلك العذاب في الدنيا والآخرة، ثم يلتقي مع أعداء

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/٣١٦).

دعوته بقوة غير مكافئة لقوتهم، ويستنصر مولاة ـ عز وجل ـ فيحصل على النصر مع الفوارق الكبيرة بين الفريقين، فإن هذا من أعظم ما يدل على معية الله تعالى له، ورضاه عنه.

وهذا النصر آية عظيمة أجراها الله تعالى من خلال الأسباب المادية التي عادة ما تكون المعبر الطبيعي لتحقيق إرادة الله وإظهار قدرته ليهتدي برؤيتها من كتب له الهداية، ويضل من ضل عن بينة.

**تعليل الحكم:**

**( أ ) هزيمة الكافرين:**

لقد نصَّ الله تعالى في سياق ذكره لاستفتاح الكفار أنه مع المؤمنين بالنصر والتأييد، وأن ذلك ليس في هذه الموقعة فحسب، بل وفيما مضى، وفيما يستقبل، كما حذَّر الكافرين بأن الذي حصل من هزيمة هي مصيرهم الذي ينتظرهم ولو جمعوا من جمعوا، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾[1]، ومن كان الله معه فلا غالب له، كما قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[2].

وتعليق معيته على وصف الإيمان تدل على أنها معية تزداد بزيادة هذا الوصف وتقل بنقصانه.

وقد علَّل سبحانه الحكم على الكافرين بالهزيمة بأمور منها:

١ـ الكفر والمشاقة: وهي المخالفة: أي صاروا في شق غير شق أوليائه[3]، قال تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ

(١) سورة الأنفال، آية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (٤٥٩).

وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾[1]، فالوصف بالكفر في قوله ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مشعر بعليته للحكم، ولكن أصرح منه التعليل بالمشاقة بدلالة قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟﴾ «أي بسبب مشاقتهم»[2].

٢ـ أنهم على الباطل كما في قوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾[3]، ولا يمكن تفسير كلمة الباطل الواردة في الآية وانطباقها على معناها انطباقًا كليًّا إلاَّ على أهل الكفر الذين خرجوا في ذلك اليوم، ويندرج غيرهم معهم تبعًا لتحقق تلك الصفات فيه، ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ يوحي بأنه قد تشخص فيهم حتى كادت أن تختفي أشخاصهم، ويتكون من مجموعهم الباطل، فكان قتل تلك الذوات والرموز التي تحمي الباطل وتفرضه على الآخرين هو إبطال لذلك الباطل.

وقد أعلمنا سبحانه أن عدله يقتضي إزالة الباطل وإحقاق الحق، وهذا من كمال صفاته سبحانه، والمخالفون لا يعارضون في أن القضاء على الباطل من العدل ولكن لا يوافقون على أن هذا الأمر بعينه من الباطل، وبالتالي يبحثون له عن علائق تجعله يتشبه بالحق، وعليه فمن هذا التلبيس قولهم: «أقطعنا للرحم» و«آتانا بما لا نعرف». إذ أن صلة الرحم مستقر حسنها في العقول، والتفريق بين المؤمنين والكافرين مع قرابة بعضهم في النسب يشبه ظاهريًّا أن يكون من قطيعة الرحم المنهي عنها، ولكن في حقيقة أمرها هي قربة وطاعة، وهي مما أمر الله به وأثنى على من فعله، إذ بها يتميز الحق عن الباطل وتتضح الرؤية للآخرين.

٣ـ مكرهم بالنبي ﷺ ومحاولة قتله كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ١٢ـ١٣.

(٢) فتح القدير (٢/ ٣٠٩).

(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٠.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ . . .﴾(١).

٤ـ وصفهم القرآن بأنه أساطير الأولين وزعموا معارضته لو أرادوا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾(٢)

٥ـ صدهم عن المسجد الحرام، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾(٣).

٦ـ بذلهم الأموال للحيلولة دون انتشار دين الله وهداه، وصد الناس عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾(٤).

٧ـ عدم تعظيمهم شعائر الله كما أمر الله، «فكانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة. . . قاصدين أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ﴾(٥)»(٦).

٨ـ عدم تعظيمهم لله تعالى واستبعادهم نزول العذاب، فطلبوه بدل طلب الهداية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾(٧).

٩ـ اتصافهم بالبطر: ـ وهو الطغيان عند النعمة(٨) ـ، والرياء، وذلك

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٠.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٣١.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٤.
(٤) سورة الأنفال، آية: ٣٦.
(٥) سورة الأنفال، آية: ٣٥.
(٦) فتح القدير (٢/ ٣٢٥).
(٧) سورة الأنفال، آية: ٣٢.
(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٣٥).

أثناء خروجهم لقتال الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾(١).

١٠ـ وبين أنهم بفعلهم هذا إنما يتبعون الشيطان الذي زين لهم ذلك ثم خذلهم عند شدة الحاجة إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ﴾ يفيد أن نزول الملائكة كان قبل التقاء الصفين، ولا يبعد أن يكون في الوقت الذي اشتدت مناشدة النبي ﷺ ربه كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾(٣) «فقد أغفى بعدها رسول الله ﷺ إغفاءة»(٤) ثم قال بعدها: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»(٥).

هذا جانب من صفات الكفار التي ذكرت في سورة الأنفال، وهي أفراد يتكون الباطل من مجموعها، ولأجلها أصابهم ما أصابهم، فمن تأملها ـ وكان منصفًا ـ جزم بقبحها وضلال أصحابها، والعدل في القضاء عليهم ما لم يتوبوا منها.

وقد فتح المولى ـ عز وجل ـ باب التوبة والأمل في مراجعة الحق، ووعدهم على ذلك المغفرة فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٧.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٨.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٩.
(٤) زاد المعاد (٣/ ١٨٠).
(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب: «شهود الملائكة بدرًا» (٤/ ١٤٦٨) رقم (٣٧٧٣).

إن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[١]
ثم أدار الخطاب إلى الأسرى، وحثهم على قبول الحق، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[٢].

وهذه الدلالة على الحق والحث على الاهتداء به هي مقصود الإسلام من تشريعه للجهاد في سبيل الله، ولو كان الجهاد شرع لإكراه الناس على الدخول في الإسلام لأكره هؤلاء الأسرى على قبوله بالقوة، ولكن هذا لا يليق بسمو الإسلام، إنما الذي يليق به هو التخيير الذي دلَّت عليه الآية السابقة بوضوح، في الوقت الذي رأوا الآيات البينات على صحة ما جاء به ﷺ عن ربه سبحانه.

(ب) سبب نصر المؤمنين:

أما نصره سبحانه للمؤمنين فلأنهم على الحق، وقد علمنا أنهم كذلك من قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ وقوله: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ فتَفَسر ذلك في الواقع المشاهد بنصر المؤمنين على أعداءهم، فدل هذا على أن هؤلاء المنصورين على الحق.

والوصف الآخر المناسب لنصرهم أنهم مؤمنون كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[٣].

وحتى لا يكون هذا الوصف فضفاضًا يدعيه من ليس من أهله، ومن ثمَّ يطالب بالنصر المرتب عليه، فقد أبان سبحانه حقيقة الإيمان التي يتحقق بها من وجوده وصدرها بقوله: «إنما» الدالة على الحصر والقصر. كما أشار إلى أن هذه الحقيقة متكونة من مجموع عمل القلب

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٨.
(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٧٠-٧١.
(٣) سورة الأنفال، آية: ١٩.

وعمل الجوارح، فخرج بذلك أصحاب الدعاوى الذي يزعمون أن الإيمان يملأ جوانحهم، وإن لم ير له أثر على جوارحهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾(١).

فهذه الآيات لم تنزل لتبين حقيقة الإيمان وصفات المؤمنين فحسب، بل جاءت مربية للصف المسلم على التمسك بتلك الحقيقة وتلك الصفات.

ومن لم ينظر إلى جانبها التربوي، واكتفىٰ بما تضمنته من حكم بحقيقة الإيمان ربما قاده ذلك إلى تفريغها من مقصودها الذي سيقت من أجله.

لقد تضمنت شهادة الله تعالى لمن اتصف بهذه الصفات أنه من المؤمنين حقًّا، ويفهم من السياق بدلالة الحصر المستفاد من قوله «إنما» أن من سواهم ليسوا من المؤمنين حقًّا، ثم سكت عنهم، ولم يفصل حالهم هل هم من ناقصي الإيمان أو من معدومي الإيمان بالكلية.

فيتولد لدى من فرط ببعض الصفات المذكورة الشعور بأنه ليس من المؤمنين حقًّا الموعودين بالدرجات العلى والمغفرة والرزق الكريم، ويشعر بأنه على خطر من فقدان إيمانه، وبهذا يكون متقلبًا بين الخوف والرجاء، وفي الوقت نفسه ساعيًا إلى حقيقة الإيمان المشار إليها بقدر استطاعته.

وهذا هو الجانب التربوي المستفاد من مفهوم السياق، الذي تربى عليه صحابة رسول الله ﷺ فما أن سمعوا هذه الآيات حتى هرعوا إلى

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢ـ٤.

امتثالها واشتدَّ حذرهم من مخالفة ما جاء فيها، فتكون منهم الجيل الإيمان الذي لا نظير له.

وحبذا لو أن من فسر هذه الآيات لم يورد في هذا الموضع بالذات إلاَّ ما يناسب سياقه، ومفهومه ليكون التفسير حينئذ موافقًا لدلالة الآيات فيؤدي الغرض الذي سيق من أجله بحيث يشعر من لم تنطبق عليه تلك الصفات بالخوف على إيمانه.

وذلك على النحو الذي ذكره ابن جرير حينما قال: «ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله ويترك اتباع ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ وجلَ قلبُه، وانقادَ لأمره، وخضع لذكره، خوفًا منه، وفرقًا من عقابه. . .»(١).

ثم ساق بسنده إلى ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: «المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذاغابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله سبحانه أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدُّوا فرائضه، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقول: تصديقًا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ يقول: لا يرجون غيره»(٢).

فعبارة شيخ المفسرين توحي بانتفاء الإيمان عمَّن لم يتصف بتلك الصفات في قوله: «ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله» وإيراده لتفسير ابن عباس بأن من لم يتصف بما ذكر من المنافقين، موافقه لمفهوم الحصر الوارد في السياق.

أما من قال: هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، وغيرهم ممَّن لم تنطبق

(١) جامع البيان (١٣/ ٣٨٥).
(٢) جامع البيان (١٣/ ٣٨٦).

عليه كل هذه الصفات مؤمنون كذلك، لكنهم ناقصوا إيمان، ونحو

هذا الكلام[(١)]، فتقريره هنا فيه ما يشبه الاستدارك على اللفظ القرآني الدقيق المصدّر بقوله: «إنما» والمختوم بقوله: «حقًّا» فكان الواجب أن يبقى هذا النص مقدسًا ومعظمًا في النفوس كما أراده الله تعالى، يحمل الناسَ على امتثال ما ورد فيه، ولا يُحمل إليهم ليتسع لواقعهم المخالف.

فإذا قيل: «الإيمان قسمان إيمانٌ كامل يترتب عليه المدح والثناء والفوز التام، وإيمان دون ذلك»[(٢)] في ظل آية لم تذكر هذا التقسيم ولم تشر إليه فهم من هذا الكلام أن حقيقة الإيمان موجودة ـ على عكس ما فهم من الآية ـ حتى مع تخلف بعض تلك الصفات المشار إليها في الآية فهذا أولاً لا يتناسب مع التأكيدات الواردة في الآية، ثم إنه يجعل متسعًا للمفرطين في تحقيق الإيمان ليقنعوا بما عليهم، لشعورهم بأنهم على درجة من الإيمان تكفي لانخراطهم في صف المؤمنين، وإن لم يكونوا أولئك المثنىٰ عليهم، ثم لا ينتفع بعد ذلك بالآية لارتباطها بمعنى آخر لم تشر إليه، بل تدل على خلافه، فتتفوت المنفعة التربوية المشتملة عليها في الحث على تحقيق الإيمان.

إن الدلالات التي يوحي بها السياق، ومنهج التلقي لدى الصحابة رضي الله عنهم، والظرف الذي أحاط بالنص عند نزوله لابد من مراعاتها لنستطيع فهمه على الوجه الأتم.

---

(١) ينظر بنحوه في: الكشاف (٢/ ١٨٩)، والتسهيل (٢/ ١١٠)، وفتح القدير (٢/ ٣٠٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٨٨).

فهذه الآيات لما كانت نازلة في سورة معنية بالجهاد، بل وتنزلت نصوصها في خضم المعركة، لزم أن ينظر إلى هذه الآيات المتحدثة عن حقيقة الإيمان من خلال علاقتها بالجهاد، وما فيها من جوانب تربوية يسعى إلى تحقيقها.

فهي تخاطب قومًا مؤمنين ولا شك، بل إنهم أفضل المؤمنين كما ثبت في الصحيح عن رفاعة بن رافع، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها» قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة(١).

فلما وقع منهم بعض الاختلاف في قسمة النفل الأمر الذي لا يتناسب مع مكانتهم الإيمانية وجههم الله تعالى إلى ما يجب أن يكونوا عليه بعد أن نزع الأنفال المختلف عليها من أيديهم، وجعل أمرها إلى الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ فجعل من لوازم الإيمان ـ كما هو ظاهر الآية ـ إصلاح ذات البين، وهذا مناسب لحالهم ولما وقعوا فيه من اختلاف، ثم شرع بعد ذلك يعدد الصفات التي بها تكون حقيقة الإيمان، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ـ إلى قوله: ـ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾(٢).

وبهذا نعلم أن كونها تربوية هو أظهر ما فيها، فإذا كانوا على تلك المنزلة الإيمانية ثم طالبهم المولى ـ عز وجل ـ بالتمسك بحقيقة الإيمان فإنه من خلاف المنهج أن لا يحث من دونهم على ما حث الله تعالى أولئك الصفوة عليه، كما يتبين مخالفة من هوّن من أمر الإيمان وتحقيقه على الوجه الذي ذكره الله تعالى.

ومن علاقتها بالجهاد أنها تبين الصفات التي يجب أن يكون عليها

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا (٤/ ١٤٦٧) رقم (٣٧٧١).
(٢) سورة الأنفال، الآيات: ٢ـ٤.

المؤمنون ـ في كل زمان ومكان ـ في مواجهتهم للكافرين، وأن نصر الله تعالى مرتبط بتحقيق الإيمان في الأنفس على النحو المذكور قبل أن يتحقق النصر على الأعداء في الميدان، وذكرها في معرض نصر المؤمنين على المشركين مشعر بكونها السبب في حصول النصر.

ولما كان حصول الإيمان متقدم على الهجرة والجهاد، فقد أفردت حقيقته بالذكر في صدر السورة وعطف عليه في آخرها الهجرة والجهاد والإيواء والنصرة وشهد لأهلها بالإيمان حقًّا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾(١) وقد توفرت هذه الصفات في الصحابة الكرام، وكأنه قال في أول السورة: هذه الصفات هي المطلوب تحقيقها لحصول الإيمان، وفي آخرها قال: هاهي قد تحققت في صحابة رسول الله ﷺ على أكمل الوجوه؛ لأجل ذلك نصرهم الله تعالى.

وبين أول السورة وآخرها حثَّ على التمسك بمقتضيات الإيمان فقد تكرَّر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ست مرَّات وفي كل مرة منها يرشد إلى خير أو يحذر من شر، وبهذا نعلم أن المولى عز وجل قد جعل هذه المعركة محطة تربوية لتوجيه المؤمنين إلى الأكمل من خلال:

١ـ تذكيرهم بنعمة الله عليهم التي حصلت لهم في هذا اليوم.

٢ـ وإعدادهم بالتوجيهات اللازمة ليكون الحق الذي معهم منصورًا فيما يستقبلون من وقائع.

**أما تذكيرهم بنعمة الله عليهم:**

فالصحابة الذين خاضوا هذه المعركة وجرت تفاصيل أحداثها بين أيديهم على مرأى ومسمع منهم، إذا ذكرهم الوحي بما يعلمونه فإن وقعه عليهم وتأثرهم به لا يقارن بوقعه على من كان نصيبه من ذلك السماع.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٧٤.

فقد علموا ما صدر منهم من المجادلة في لقاء العدو، ويتذكرون موعود الله لهم بإحدى الطائفتين، واستغاثة النبي ﷺ بربه أن ينجز له ما وعده.

كما علموا رضي الله عنهم أنهم جند الله وأنهم إنما يقاتلون لإعلاء دين الله، وأن الله ناصرهم على عدوهم، تحقيقًا لوعده الذي لا يتخلف وأن أعداءهم مهما بلغوا من القوة فإنهم تحت إرادة الله وقهره.

فجاءت نصوص الوحي موافقة تمامًا لما علموا ولم تكتف بتحديد الموقع للمعركة كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[1] بل جاءت بخطرات الأنفس ودقائق المشاعر كبيان كراهية بعضهم للقاء كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾[2] والتي تدل على المراقبة التامة منه سبحانه لسير المعركة وتدبيرها.

فلما ختمت بتلك الخاتمة السعيدة والنصر المبين كانت منة الله تعالى عليهم عظيمة إذ حقق لهم موعوده ونصر جنده، على ما كان منهم من ضعف الحال كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٢.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٥.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٦.

وكان تذكيرهم بما يعلمون من حالهم وسيلة يحقق بها مزيد من الطاعة لله ولرسوله ﷺ ويتمموا بها خصال الإيمان، ويتقبلوا الأوامر الربانية التي رأوا مغبة طاعتها بصدر رحب.

أما تلك التوجيهات التي كلفوا بها لبقائهم منصورين فيما يستقبلون من وقائع فهي:

١ـ التركيز على حقيقة الإيمان، وأنه قول وعمل، وأن جميع الأعمال التي تصدر من المكلف سلبًا أو إيجابًا مرتبطة به، وقد تكرر ذكر الإيمان ومشتقاته (٢٤) مرة في هذه السورة، وقد سبق الحديث عنه.

٢ـ الالتزام بطاعة الله ورسوله فقد تكرر الأمر بها في ثلاثة مواضع:

( أ ) في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾[1].

(ب) وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[2].

(جـ) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3].

وبمعنى الطاعة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4].

وسنرى فيما بعد أن هذه الطاعة التي ركَّز الوحي عليها واهتمَّ بها هي التي وقعت بسبب التفريط فيها الهزيمة في معركة أحد، ولو ناسبت استجابة المؤمنين كثافة النصوص الآمرة بها لما حصل ما حصل يوم أحد، ولكن وقوع الأمر المحذور والإفادة منه بعد ذلك

(١) سورة الأنفال، آية: ١.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٦.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٢٠.
(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

أوقع في النفس من مجرد الحديث عنه، وبالتالي فالتجارب العملية أنفع من التجارب النظرية، والجمع بينهما هو الأكمل في التربية، وقد جمعه الله للصحابة.

٣ـ النهي عن التولي عند لقاء العدو وترتيب أقصى العقوبات على ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[1].

فالنص لم يستثن إلاَّ المتحرف والمتحيز، وقد عرفهما ابن كثير في قوله: «المتحرف: الذي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، والمتحيز: الذي يفر إلى فئة أخرى من المؤمنين يعاونهم ويعاونونه...»[2].

فهذا في لقاء الجيش ذي العدد الكثير[3]، وكذلك أمر بالثبات في لقاء الجماعة من أهل الكفر[4]، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[5]

وعلى هذا يكون الثبات عند اللقاء ديانة وقربة، يتعبد المؤمن بها ربه، وليس ذلك إلاَّ للمؤمن الذي يحذر من الوقوع فيما توعد الله عليه من عظيم العذاب، وفيما عدَّه رسوله ﷺ من أكبر الكبائر في قوله: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» وذكر منها: «**التولي يوم الزحف**»[6].

والعقل يوافق الشرع في تقبيح هذا الفعل، إذ كيف يليق بمن

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٩٤) بتصرف يسير.
(٣) الكشاف (٢/ ١٩٩) بمعناه.
(٤) جامع البيان (١٣/ ٥٧٤).
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.
(٦) أخرجه البخاري في الوصايا، باب: قول الله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى...﴾ (٣/ ١٠١٧) رقم (٢٦١٥).

هو على الحق ووعده الله إحدى الحسنيين أن يفر من اللقاء الذي هو فيه على الحق وخصمه على الباطل.

٤ـ الإرشاد إلى القوة الكامنة داخل الإنسان التي تفجرها العقيدة بحيث تتضاعف بها قوة المقاتل إلى عشرة أضعاف قوة خصمه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[١].

وقد شرط لهذه المضاعفة أن يكون المقاتل مؤمنًا وأن يذكّر بما أعده الله تعالى للمجاهدين والشهداء في سبيله، وأن يتحلّى بالصبر، وأقرب ما يمثل به عمير بن الحمام ـ رضي الله عنه ـ ففي صحيح مسلم أنه عندما دنا المشركون قال النبي ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**» قال عمير بن الحمام الأنصاري: يارسول الله! جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟**» قال: لا والله يارسول الله إلاَّ رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه[٢] فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل»[٣].

وهنا نشير إلى أهمية غرس الإيمان في قلوب المقاتلين، وأن لا يجعل جزاؤهم على قتالهم من هذه الدنيا الفانية، فإن ذلك مدعاة لنكوصهم، وأن يركز باستمرار على أن مقاتلة الكفار سببها الصراع بين الحق والباطل، وحينئذ يحصل على مزيد من الطاقات الكامنة،

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٥.
(٢) أي جعبته. النهاية في غريب الحديث (٤/٥٥).
(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد (٣/ ١٥١٠) رقم (١٩٠١).

وهذا ما يسمى بالتفوق النوعي للأفراد.

٥ـ أهمية وحدة الصف وتآلف القلوب، وقد كرر ذكرها في عدة مواضع:

ـ في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾(١).

ـ وقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢).

ـ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾(٣).

فأي جماعة تسعى لهدف واحد لابد من قيام علاقات بين أفرادها بحيث يؤازر بعضهم بعضًا، لذلك جاءت أهمية رابطة التآخي في الله لتكون أساس قوة الجماعة، ومن المهم أن يبتعد الأفراد عن كل ما يضعف هذه الرابطة أو يوهنها، لئلا يقع بهم ما حذرهم الله منه من الفشل وذهاب الريح.

لقد حث الله المؤمنين على موالاة بعضهم بعضًا، في أسلوب الخبر حتى إن السياق ليشعر أن ولاية المؤمن لأخيه المؤمن صفة ثابتة، كما أن ولاية الكافر لغيره من الكفار صفة ثابتة كذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(٤)، وفي الآية التي تليها قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾(٥)، فالموالاة بين المؤمنين التي بلغت هذه الأهمية لم يزل الوحي يغذيها ويعمقها، وجعلت هذه الرابطة

---

(١) سورة الأنفال، آية: ١.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٦.
(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٢ـ٦٣.
(٤) سورة الأنفال، آية: ٧٢.
(٥) سورة الأنفال، آية: ٧٣.

على أساس الوحدة في العقيدة والغاية، وكانت قوة جديدة أنشئت لإنقاذ العالم المنهار، وتخليص الإنسانية من بؤسها وشقوتها[١].

ويرفع الله من مكانة الموالاة بين المؤمنين حتى أنزلها المنزلة اللائقة بها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ فجعل الفتنة في الأرض والفساد الكبير ناتجان عن عدم تحقق هذه الموالاة[٢]، لذلك لا يمكن لمن رزق الفهم عن الله ورسوله أن يقدم على هذه الوحدة التي هي قوة حقيقة للمسلمين في الوقوف ضد عدوهم- ما هو أقل منها من القضايا التي أحيانًا يسوغ فيها الاجتهاد.

هذه بعض ما تضمنته السورة من توجيهات للصف المسلم ليكون صالحًا لحمل الرسالة التي كلفه الله بها، ومستعينًا بهذه الإرشادات في مواصلة مسيرته التي تهدف إلى إنقاذ البشرية، ثم هي صالحة لكل زمان ومكان، غير مختصة بأولئك الصفوة، لدوام حاجة دين الله تعالى إلى من يقوم عليه ويجاهد في سبيله، وجاءت هذه المعركة تجربة عملية رائدة، قوت معنويات المؤمنين، وأعلمتهم علم اليقين أن النصر من عند الله وحده، وأن قدرته تجري من خلال الأسباب، ولا تتوقف عليها، فأصبح لمعنى التوكل لديهم معنى مخالف لتوكل كثير من المتوكلين بعدهم، كما أوقفتهم على عوامل النصر بدقة، إذ أحرزوه عمليًا مع استبعادهم له في أول الأمر.

وأشارت إلى عوامل الهزيمة التي لم يجربوها بعد، والتي قد قدرها الله عليهم في غزوة أحد، فحصل لهم من مجموع الغزوتين الوقوف على عوامل النصر والهزيمة نظريًا وعمليًا، والآن سننتقل إلى غزوة أحد لنرى كيف كانت لبنة أخرى في نصرة الحق وأهله، وإن كانت مخالفة لغزوة بدر في أحداثها ونتيجتها.

---

(١) الطريق إلى السعادة والقيادة، للندوى (٤٢) بتصرف يسير.

(٢) جامع البيان (١٤/٨٦) بنحوه.

## المبحث الثالث
## غزوة أحد في سورة آل عمران

هذه الغزوة امتداد طبيعي لغزوة بدر، فالفريقان هما الفريقان، والهدف هو الهدف، والدافع على القتال هو الاختلاف العقدي، مع ما أُضيف إليه في جانب المشركين من أخذ الثأر فيما حصل يوم بدر.

إنها محطة من محطات الإسلام التي سار من خلالها لإنقاذ البشرية وكانت شاقة على النفوس، بتلك الهزيمة التي حصلت فيها بقدر ما كانت مفيدة لها، ويظهر جليًّا لمن يتأمل أحداثها وما فيها من قتل وجراح وأحزان وأيتام وأرامل، حتى نال لهيبها رسول الله ﷺ. إن الإسلام لا ينغرس في الواقع، ولا يصبح مؤثرًا في مجريات الأمور إلاَّ بعد تلك الشدة والألم في نفوس حملته، فيكون بعد ذلك جزءًا من تلك النفوس تحافظ عليه بقدر ما تحافظ على أرواحها بل تقدم الأرواح رخيصة في سبيله.

فإذا ما حصلت مثل هذه التضحيات الضخمة، وظل أتباعه متمسكين به صابرين على ما نالهم في سبيله، فإن ذلك يدل على عظيم صدق إيمانهم به، وستكون هذه التضحيات المقدمة دافعًا للمحافظة عليه بقدرها، لذلك لما كان أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ من أكثر الصحابة تضحية في سبيل إقامة هذا الدين ـ إن لم نقل أكثرهم ـ كان حرصه عليه متمثلاً في قوله ـ رضي الله عنه ـ: «والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها» وفي لفظ: «عقالاً»[1] فدل على أن الحرص يتناسب مع حجم التضحيات.

إن الأحداث التي دارت في غزوة أحد لهي أحداث عظيمة اقتطعت

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: وجوب الزكاة (٢/ ٥٠٧) رقم (١٣٣٥).

من صدر تأريخ المسلمين، ومن سيرة رسول الله ﷺ حيزًا لتسطر على صفحاته أحداثها المؤلمة في ظاهرها، المباركة في حقيقتها ونتيجتها.

إن ما حصل فيها من فشل وهزيمة كان أنفع للمؤمنين من الاستمرار في النصر الذي قد يجعل الصف المسلم يأخذه الزهو المنافي للعبودية، ويظن أن النصر حليفه ولو قصَّر في اتخاذ الأسباب، ويدخل فيه من ليس منهم.

ثم إن الصف المسلم آنذاك ليس لديه من التجارب في ميدان القتال إلاَّ تجربة النصر يوم بدر، وكان بحاجة ماسة إلى مزيد من الوقوف على عوامل النصر والهزيمة في مسيرته الطويلة التي يُراد لها إنقاذ كل البشرية، فاختار المولى ـ عز وجل ـ وهو لا يختار لجنده إلاَّ الأصلح ـ أن يخوضوا تجربة الهزيمة عمليًا في أحد وجعلها مباشرة بعد بدر التي جربوا النصر فيها عمليًا أيضًا، ليتقرر الميزان من أول الطريق، ويسيرون فيه ولديهم خبرتان متقابلتان، مكونة من مجموعهما عوامل النصر والهزيمة كاملة، تلك العوامل التي يترتب على العلم بها الكيفية التي يظهر بها الحق وأتباعه كما يعلم بها موارد الفشل التي تمنع الحق من الظهور، فتجتنب.

إن العدل والرحمة في المسيرة الجهادية المباركة لتتمثل هنا في الوقوف على عوامل الهزيمة عمليًا، بعد أن أشير إليها نظريًا يوم بدر، ويشاهد من خلال أحداث يومي بدر وأحد صدق قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(٢).

فعلمنا أن إظهاره لا يتم إلاَّ ببيان الأحوال المختلفة التي تناسب اختلاف أحوال المكلفين قوةً وضعفًا، فالقوي ينتصر، ومن اعتراه الضعف يحجب عنه النصر حتى يراجع نفسه، ويعلم من أين أُتي، ثم

(١) سورة الأنفال، آية: ٧.
(٢) سورة الصف، آية: ٩.

يعالج نفسه، حتى إذا استعاد عافيته حصل على ما يستحق.

فهي دقة متناهية ـ وليست مجرد خطوط عريضة ـ في العمل على إظهار الحق ونشره بإعلام عباده أولاً بالسنة الاجتماعية التي بها ينتصرون وبها يخذلون، ثم خلدها في كتابه لتبقى مشعلاً مضيئًا للأمة المسلمة، ثم لم يكتف بذلك، بل جعلها واقعًا مطبقًا في أفضل نموذج بشري، ودلل على صرامتها وثباتها وأنها لا تحابي أحدًا، فإذا ما حصل تفريط فيها حصلت الهزيمة، ولو كان على قيادة الجيش رسول الله ﷺ وعن يمينه وشماله المهاجرون والأنصار.

إن الهزيمة وسيلة من وسائل إحقاق الحق، ودرس مفيد لطائفة المؤمنين، قد يكون أنفع لهم من النصر في بعض أحيانه.

فالنصر الذي يجعل المنتصر يخلد إلى الراحة اتكالاً على إنجازاته السابقة، وذكرياته المعسولة، لهو في الحقيقة هزيمة في المستقبل.

والهزيمة التي يخلص منها إلى مراجعة الحق، ويتفقد بها الصف، ويعرف مواطن الخلل فيه بحيث تحصن، ويُعمل على أن لا تتكرر إنما هي في حقيقتها علاج للصف يسترد بها عافيته، ويتهيأ للنزال فهذه هي التي اختارها الله تعالى لنبيه ﷺ وصحابته الكرام مع ما صاحبها من الأجور العظيمة والشهادة في سبيل الله التي يتمناها كثير منهم.

وقد تأخذ بعض الناس العواطف ويتمنون ظهور المؤمنين ولو كانوا مقصرين وحقيقة ظهورهم حينئذ إنما هو ظهور للتقصير، ولحق مختلط بباطل، ولا يخفى أن المنفعة به أقل، لذلك كانت سنة الله تعالى بالمرصاد، لكل من خالف وأراد النصر، فإنه يحرم منه إلى أن يجرد الحق غير مشوب، فإذا ظهر من هذه صفته كان ظهوره ظهورًا للحق ذاته، وكانت المنفعة به أعظم.

أما الهزيمة الحقيقية هي تلك الهزيمة الروحية الفكرية، والتي من آثارها أن يشعر المنهزمون بالتبعية لغيرهم، ويرمقون عدوهم ـ لقوته

المادية ـ بعين الإكبار والإجلال والاحترام، وقدتبلغ بهم هذه الهزيمة إلى الاستخفاف بمادئهم والزهد فيها، وقد تتجاوز ذلك إلى تمجيد مبادىء العدو.

فهذه قد أعاذ الله منها عباده الصالحين، ووقع فيها كثير ممن يعبد الله على حَرْف.

وشتان بين الهزيمتين في الحقيقة والعاقبة في الدنيا والآخرة.

لقد خَلَّدت أحداثَ يوم أحد سورةُ آل عمران(١) لتكون نبراسًا مضيئًا للأجيال، وسنعرض ما يتعلق بالعدل والرحمة في هذه الغزوة، وكيف كانت تلك الهزيمة نصرًا من الله تعالى لأوليائه على أنفسهم، فلما تحقق لهم ذلك نصرهم الله تعالى بعد ذلك، على أهل الضلال فتمكنوا من نشر ما معهم من هدى ونور.

**سبب الغزوة:**

لقد عزمت قريش على الثأر لقتلاها، وعملت على استرداد مكانتها بين العرب التي زعزعتها هزيمة يوم بدر، وربما أرادت فك الحصار عن تجارتها إلى الشام المهددة بغارات المسلمين.

فما كادت ترجع القافلة التي نجا بها أبوسفيان حتى تنازلوا عن ما جاءت به من أموال لإعداد جيش قوي لغزو المدينة، يدفعهم إلى سعة البذل نارالثأر المتقدة في الصدور، ثم إنها أخذت تعد أحابيشها، وتتصل بحلفائها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة، لطلب النصرة منهم(٢)

والفرق بيِّنٌ بين موقف المشركين في بدر، وموقفهم في أحد، ففي بدر لم يكونوا جميعًا يؤمنون بسلامة موقفهم، ولم تكن روحهم

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فكان مما نزل من القرآن في يوم أحد، ستون آية من آل عمران، أولها ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى آخر القصة». زاد المعاد (٣/ ٢١١).

(٢) جامع البيان (١٣/ ٥٣٢ـ٥٣٣).

المعنوية متحمسة للقاء. لأجل ذلك رجع بعض بطونهم[١]، وظهر عدم إرادة اللقاء في أقوال بعض كبرائهم، ومنهم عتبة بن ربيعة الذي قال: «يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمّدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموهم لايزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته فارجعوا...»[٢] أما في أُحد فالروح المعنوية العالية المؤملة في الانتقام وأخذ الثأر هي الصفة الغالبة على الجيش. ويذكر بعضهم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٣] أنها نزلت في إعداد المشركين لجيش أحد[٤]، فهذا القول ـ وإن كان غير مستبعد ـ إلاَّ أن نزوله في سورة الأنفال التي تحدثت عن تفاصيل غزوة بدر يرجح أن يكون هذا الإنفاق وقع يوم بدر، سيما والآية قد أشارت إلى وقوع هزيمة للمشركين، وحسرة على ذلك الإنفاق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ ومعلوم أن «ثم» تفيد الترتيب، أما أُحد فظاهر الحال أنهم لم يتحسروا على ما أنفقوا فيها من أموال لأجل النصر الذي حققوه.

**وضع المسلمين بعد معركة بدر:**

أما جانب المؤمنين فقد أثَّر انتصارهم ببدر آثارًا إيجابية متمثلة في توطيد دعائم الدولة الإسلامية الناشئة، وإظهار مهابتهاومكانتها في الجزيرة العربية بحيث أصبحت في نظر الكثير قوةً مرهوبة الجانب، تنفع الصديق وتخيف العدو.

وقد شعر سكان المدينة من غير المسلمين بتنامي القوة الإسلامية،

(١) جوامع السير، لابن حزم (١١١).
(٢) السيرة النبوية (٢/ ٢٦٦).
(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٦.
(٤) جامع البيان (١٣/ ٥٢٩ـ٥٣٤). وقد ذكر القولين، وجعل هذه الآية محتملة لإنفاق المشركين في الموقعتين.

ومدى ما حققه ذلك الانتصار من مكاسب، وظّفتها القيادة الإسلامية في توسيع نفوذها بإرسال السرايا والبعوث إلى القبائل المجاورة، وخاصة تلك التي تمر بها قوافل قريش التجارية(١).

فأما اليهود فقد أثار هذا النصر حفيظتهم، ولم تستطع عهودهم أن تمنعهم من المجاهرة بالخيانة كما هي عادتهم فهم لا يحترمون العهود إلاَّ إذا ظهرت لهم المصلحة جلية من وراء ذلك، أما المحافظة عليها أخلاقيًا ولئلا يتهموا بالخيانة فهذا أمرٌ هم بريئون منه، إذ هو قليل الغنى عندهم، والمصالح التي يحافظون عليها غالبها مادية ـ إن لم تكن كلها ـ وليس فهيا من رائحة الأخلاق شيء.

«فبدأ يهود بنو قينقاع بنقض العهد بعد بدر فحاصرهم ﷺ خمسة عشر ليلة حتى نزلوا على حكمه فشفع فيهم عبدالله بن أُبي على أن يخرجوا من المدينة»(٢).

وأما المشركون فقد أزالت معركة بدر الغشاوة عن قلوب بعضهم فدخلوا في الإسلام، ولكن الأمر الذي ليس في صالح المسلمين أن بعض المشركين دخل في الإسلام ظاهرًا، وبقي على كفره في الباطن، موافقة للتوجه العام الذي أصبحت كفة المسلمين فيه راجحة، ففي الصحيح عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش قال: ابن أبي ابنُ سلول ومن معه من المشركين، وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجّه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا»(٣).

فمن هؤلاء تكونت جبهة المنافقين لأول مرة في تأريخ الدعوة،

(١) تنظر مفصلة في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، لمهدي رزق الله (٣٦٧ـ٢٣٧٧).
(٢) زاد المعاد (٣/ ١٩٠، ٢٤٩).
(٣) أي في الظاهر. أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب...﴾ (٤/ ١٦٦٤) رقم (٤٢٩٠).

متزامنة مع ظهور قوة المسلمين، ونتيجة لها، فكان الصف المسلم بحاجة إلى أخذ الحذر منهم إذ هم العدو المتربص الذي يتمكن من التعرف على العورات والثغرات ومواطن الضعف، ما لا يتمكن منه العدون الظاهر.

**الخلاف العقدي بين المسلمين وخصومهم في ضوء السورة:**

ورد في سورة آل عمران ذكر الثلاثة الأعداء: أهل الكتاب، والمنافقين، والمشركين.

وكان محور الخلاف بين المسلمين وبين هؤلاء الأعداء هو الاختلاف في العقيدة. ونظرًا لعمقه في النزاع ـ كما سبق بيانه ـ فقد استأثر بصدر السورة، فقد بيَّن المولى ـ عز وجل ـ الاعتقاد الحق ورد على المخالفين فيه، وفنَّد شبهاتهم، بدءًا بالثناء على الرسل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، ثم أشار إلى الاختلاف الذي وقع في عيسى ـ عليه السلام ـ وبيَّن بالدليل العقلي الحق في ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[2] بعد ذلك بيَّن دعاوى أهل الكتاب والمشركين في كونهم على ما كان عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكذبهم في ذلك وأكَّد أن محمدًا ﷺ وأتباعه هم أولى الناس بإبراهيم، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[3].

ثم جاء الكشف عن النوايا التي يضمرها هؤلاء الأعداء الضُلَّال، فقال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٣٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٥٩.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٧ـ٦٨.

﴿يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾[(١)]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ۝١٠٠﴾[(٢)].

ولما كان غالب المقصودين بقوله: «أهل الكتاب» من اليهود لمجاورتهم للنبي ﷺ آنذاك، فقد اختصهم بذكر طرف من مخازيهم، وجرَّدهم من الهالة التي يصطنعونها حول أنفسهم منٌ أنهم أهل العلم والإيمان.

فبيَّن كذبهم على الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾[(٣)] فما أعظم فضيحتهم بهذه الآية.

وأشار إلى هوانهم على الله تعالى بسبب ما اقترفوه من الطَّوامّ، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝١١٢ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١١٤﴾[(٤)] فهذا من عدله سبحانه عندما ذكر ما عليهم ذكر ما لبعضهم.

كما بيَّن عظيم كفرهم، وعدم إجلالهم للمولى ـ عز وجل ـ بوصفه بصفات النقص التي ينزهون أنفسهم عنها في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٠.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٨.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١١٢ـ١١٤.

ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾(١).

فبعد هذا البيان لا يمكن أن يقبل المؤمن بكون اليهودي أكثر من شخصية حقيرة على الله، ضالة، قد اجتمعت مساوىء الخلق وغضب الرب عليها، وهذه هي شهادة الوحي عليها، ولا عبرة بما خالفها.

وقد ناسب الإسهاب في ذكر أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ أنهم يعرضون منهجًا عقديًا يعارضون به ما جاء به النبي ﷺ، ويدعون الانتساب للأنبياء الكرام، وأن كتابهم منزلٌ عليهم من ربهم، مع ما لهم من مكانة في نفوس العرب الذين ينظرون إليهم على أنهم أعلم بالله وبما أنزل، من غيرهم، وكان بقاؤهم على دينهم المحرف عقبة في نفوس كثير من المشركين الذين ينتظرون بإسلامهم أهل الكتاب.

ثم إن هذا التفصيل في أهل الكتاب يناسب تلبيس اليهود على جيرانهم أهل الأوثان، وهم لا شك لديهم بعض الحق الذي يخلطونه بالباطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾(٢)، وكتابهم أصله منزل، وجاء القرآن مصدقًا لأصله، ولهذا مسَّت الحاجة إلى إبراز الفروق الدقيقة التي من شأنها أن تثبت أن النبي ﷺ جاء برسالة مخالفة لما عليه أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب وإن كان لديهم بعض الحق إلاَّ أنهم حرفوا وبدلوا وكفروا بالله رب العالمين، ولم يطل الوحي الحديث عنهم ويوسعه إلاَّ من أجل خطورتهم على من يتعامل معهم بمعزل عن إرشادات الوحي وهدايته.

أما المنافقون فليس لديهم منهج عقدي واضح يدافعون عنه، وإنما لديهم العداوة التي تملأ قلوبهم على الحق وأهله. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨١ـ١٨٢.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٧١.

ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).

فالآيات تشير إلى أن عداوة المنافقين ستحال إلى كيد للمؤمنين، ولكن ذلك لن يضر إذا ما عُوملوا بالصبر والتقوى، وهذا يخالف الموقف من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾(٢).

فالمنافقون أمر بالصبر عليهم، ولم يذكر إمكانية قتالهم، بخلاف أهل الكتاب الذي يُتوقع منهم الأذى، ووعد بالنصر عليهم عند المقاتلة، فكان الحال فيما بعد على ما ذكر هنا، ولعل في ذكر قتال أهل الكتاب الإشارة إلى دنوه وقربه.

وكان المهم في شأن المنافقين أن ينكشفوا على حقيقتهم، فإذا ما حصل ذلك ضَعُف خطرُهم على الصف المسلم، بحيث يجعلون في المؤخرة، ولا يؤتمنون على الأسرار، ولا تكشف لهم، ولا يسمع إلى ما يثيرونه من إرجاف.

ولهذا كانت فريضة الجهاد في سبيل الله بما فيها من مصاعب ومشاق لا يتحملها إلاَّ المؤمنون أما المنافقون فهي اختبار لهم تعزلهم عن الصف المسلم، وإلى ذلك أشار المولى بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾(٣).

إن هذا العلم الموحى به من الله ـ عز وجل ـ هو زادُ المؤمن في

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٨ـ١٢٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١١١.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٦ـ١٦٧.

ميدان المعركة العقائدية والعسكرية بحيث يقف المؤمن من خصمه على نور من ربه، أما إذا لم يتزود بهذه المعرفة المبذولة مع وضوحها، وأهميتها، وما فيها من المصلحة فليس بحقيق أن يكون من جند الله المنصورين.

فالعلم بها يجعل المؤمن يشعر بأنه على الحق وخصمه على الباطل فيتولد لديه الاستعلاء بدينه وهذا الشعور من أفضل العدة للمقاتل.

أما المشركون فقد سبق الحديث في مناقشة عقائدهم البالية، وانحرافاتهم الباطلة طيلة ثلاث عشرة سنة، وفي ذلك كفاية، فلما لم يقنعهم ذلك فليس أنجع لهم من السيف، وصدق من قال:

فما هو إلاَّ الوحي أو حُد مرهف يقيم ضباهُ أخدعي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل[1]

**اللقاء:**

ويبدأ ذكر اللقاء بين المؤمنين والمشركين بأحدٍ بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾[2].

لم يذكر المولى ـ عز وجل ـ ما حصل من اختلاف الرأي حول تحديد موقع لقاء العدو، فدلَّ إقرارهم على ما اتفقوا عليه أنه هو الصواب، وملخصه فيما ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره وبعض مقاطعه في الصحيحين أو أحدهما، وذكره يفسر بعض أحداث الموقعة، حيث قال: «**وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته بدر وحضوره: يارسول الله: اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنًا عنهم، وضعفنا، فقال عبدالله بن أبي: يارسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم..**

(١) الضوء المنير على التفسير (٦١٩).
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢١.

**فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لامته»**(١).

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ عوّد أصحابه على أخذ آرائهم ومشاورتهم فيما لا نصَّ فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة، ومعالجة مشاكل الأمة، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يُوفَّق في رأيه(٢).

فلما أخذ برأيهم في الخروج، ودخل ليلبس لامة الحرب، رأوا أنهم ألحوا عليه، وتلاوموا على ذلك، وأظهروا له الموافقة على رأيه في عدم الخروج، فقال لهم: **«إنه ليس لنبي إذا لبس لامة الحرب أن يضعها حتى يناجز»**(٣).

فهذا الموقف القيادي الناجح ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾(٤)، وفيه: أن من صفات القائد أن لا يتردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ لئلا يزعزع الثقة في قيادته.

ولقد عزم ﷺ أمره في لقاء العدو خارج المدينة نزولاً عند رغبة الغالبية الذين لم يحضر بعضهم بدرًا، وعلموا عظيم الأجر الذي ناله أولئك البدريون من النصر أو الشهادة، وكان انتصار يوم بدر حاضرًا في الأذهان، مع أنهم لم يتجهزوا يومذاك للقاء العدو، وليس مع أحدهم إلاّ سلاح الراكب، فكيف بهم اليوم وقد أعدوا العدة واستعدوا للقاء؟.

---

(١) جامع البيان (٧/١٦٣-١٦٤)، ومفرقًا في صحيح البخاري (٣/١٣٢٦) رقم (٤٣٢٥) وقد أشار إلى أطرافه، وصحيح مسلم (٤/١٧٧٩) رقم (٢٢٧٢).

(٢) المجتمع المدني (٦٨) بتصرف يسير.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠)، وصححه الألباني. انظر: ملحق (٢) ص (٤٣١).

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

وكانت كراهية النبي ﷺ للخروج من المدينة مبنية على رؤيا رآها ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ تدل على أن المدينة حصن له من عدوه، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: تنفل رسول الله سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد، فقال: «**رأيت في سيفي ذي الفقار فلاً فأولته يكون فيكم، ورأيت أني مردف كبشًا فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة، ورأيت بقرًا تذبح، فبقر والله خير فبقر والله خير**»(١).

ومع ذلك لم يشأ أن يجعل مشاورته لأصحابه صورية، بل نزل على رأيهم مع ما رأى فيه لأنه يرسم لأمته المنهج الدائم الذي يجب أن تسير عليه الأمة في المستقبل، وأحد دعائمه الشورى، وأن لا يجعل الرؤىٰ تحول دون تطبيقه ـ مع الفارق الجوهري بين رؤياه ﷺ ورؤيا غيره ـ.

لقد تضمن قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ معانٍ جليلة، فالغدو الباكر يدل على النشاط والهمة، والعزيمة الصادقة، والإرادة النافذة، وترك المنزل والأهل يعني مفارقة السكون والطمأنينة اللذين يجدهما المرء في منزله، وفراق ما ألف من مطعم ومشرب وراحة ونوم إلى المشقة والعناء، لقد ترك خلفه أمرًا رخيصًا ليغدو إلى الأمر الجليل، المتمثل في تعبئه جيش المسلمين، وإعداده، وتنظيمه، واختيار المكان المناسب له، وتفقد أفراده، وتسليم الرايات لأصحابها، ووضع كل فرقة في مكانها، واستقبال المقاتلين بوجه يلقى في قلوبهم الطمأنينة ويبعث معاني القوة والشجاعة، ويحفز على

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: من قتل من المسلمين يوم أحد (٤/١٤٩٨) رقم (٣٨٥٣)، ومسلم في الرؤيا (٤/١٧٧٩) رقم (٢٢٧٢) بنحوه فيهما، وأحمد (١/٢٧١) واللفظ له.

الإقدام[١].

لقد ظهرت آثار التربية الجهادية على النشء والأحداث - فضلاً عن الكبار - عندما استعرض ﷺ الجيش كله، ورد الأحداث الذين لا يطيقون القتال، وقد تقدموا لميدان صناعة الرجال لينالوا شرف الانتساب إلى هذه الموقعة التي يعلمون أنها إحدى مراحل صناعة التأريخ، وإحدى محطات غرس الإسلام في حياة البشرية، ولكن المصلحة تقتضي بأن لا يتقدم غير القادرين، أما غيرهم من الصغار فالدور عليهم فيما بعد.

فرد رسول الله ﷺ عبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبوسعيد الخدري، وسمرة بن جندب، ورافع ابن خديج، وعمرو بن حزم[٢].

فقيل له: يارسول الله: إن رافعًا رام فأجازه، فلما أجاز رافعًا، قيل له: يارسول الله إن سمرة يصرع رافعًا فأجازه[٣]، وهذا يدل على نوعية التربية التي ينشأ عليها أبناء الصحابة، من الرماية والمصارعة وغيرها من لوازم الإعداد للجهاد في سبيل الله حتى إذا حصل اللقاء تنافس أولئك الأبطال إلى خوض غمار الموت، طيبة بذلك نفوسهم، فُوهبت لهم الحياة العزيزة الكريمة، ومن لقي الله شهيدًا فحياته أكمل بشهادة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[٤].

---

(١) سبيل الدعوة الإسلامية، محمد أمين المصري، (٨٨) بتصرف.
(٢) السيرة النبوية (٣/ ٢٩)، وعيون الأثر (٢/ ١٢)، وزاد المعاد (٣/ ١٩٥).
(٣) السيرة النبوية (٣/ ٢٩).
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٦٩-١٧٠.

إن تعلم هؤلاء الفتيان الرماية وضروب القتال ليست لسفك الدماء ولا للعلو في الأرض بغير حق وإنما لأن هذه الوسيلة ضرورية لإقامة دين الله المنزل الذي لا نجاة للبشرة بغيره. وأيضا لمنع أهل الباطل من التحكم في رقاب الناس وصدهم عن سبيل الله.

وهي لا تنافي العدل والرحمة كما أشاعه المستشرقون ومن سار في ركابهم، بل هي مقصودة أساسًا لنشر الرحمة المنزلة من عند الله وإقامة العدل بين الناس مسلمهم وكافرهم. إذ أن المسلمين إذا ظهروا على غيرهم وتمكنوا في الأرض، استتبع ذلك ظهور ما معهم من حق وهدى ونشروا الفضائل وحاربوا الرذائل على ما ذكر الله في وصفهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[(١)].

كما بين المولى عز وجل أن الكتاب المنزل للحكم بين الناس بالحق لابد له من قوة تحميه وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[(٢)].

بل قد عاب المولى عز وجل على أولئك الذين أمروا بالجهاد في سبيل الله فعدلوا عنه محافظة على حياتهم فعاقبهم الله بنقيض قصدهم، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ﴾[(٣)].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «عدد كثير خرجوا فرارًا من الجهاد في سبيل الله فأماتهم الله ثم أحياهم، وأمرهم أن يجاهدوا عدوهم فذلك قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾[1] »[2].

وقد ورد في كتاب الله ما يدل على أن المقاتلة بنية إعلاء دين الله ونصرته هي مما يحبه الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[3].

وهي من أخص صفات من يحبهم الله ويحبونه، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[4].

وهذا خلاف لما يتربى عليه كثير من أبناء المسلمين في الوقت الحاضر. ففي الوقت الذي تحيط المخاطر بالأمة الإسلامية من كل الجهات نجد أن الطاقات تبدد فيما لا طائل للإسلام وعزته من ورائها. وكتاب الله شاهدٌ على أن أعداء المسلمين لا يتركونهم، ولو تركوا الجهاد بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾[6].

يقول الشوكاني: «يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلبًا لمرضاتكم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك، وتخالفه وتود ما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٤.
(٢) جامع البيان (٥/٢٦٨).
(٣) سورة الصف، الآية: ٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٨.

فيه مساءتكم ومضرتكم»[١].

وهذا في غاية البيان في كشف حقيقة ما يضمرون، لمن كانت نظرته لعدوه مستوحاة من القرآن.

وفي آية أخرى أصرح - مما سبق - يبين المولى عز وجل استمرار الكفار في مقاتلة المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[٢].

يقول الزمخشري: «﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى معناها: التعليل، كقولك: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة. أي: يقاتلونكم كي يردوكم»[٣].

وعلى هذا فإن ترك مقاتلة من هذه حاله - أو على الأقل الإعداد لذلك - كما وجه إليه المولى عز وجل بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[٤] إنما هو من نقص العقل على ما يدل عليه مفهوم المخالفة في هذه الآية ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾[٥].

ولهذا لم يفعل رسول الله ﷺ كما نفعل اليوم بل أعد العدة للقاء العدو، فنظم جيشه تنظيمًا أشار إليه المولى - عز وجل - في قوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وتخصيص هذه المقاعد بالذكر يدل على أهميتها في المعركة، فقد جعل رسول الله ﷺ ظهور المسلمين إلى الجبل، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبدالله بن جبير رضي الله

(١) فتح القدير (٢/ ٣٦٠).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٣) الكشاف (١/ ٢٥٦).
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

عنه، ووضعهم خلف الجيش خشية التفاف المشركين[١]، وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»[٢]. فهذا أمرٌ منه ﷺ في غاية الوضوح والصرامة، ولا يحتمل أي تأويل، وأي مخالفة له تعد معصية، ومعصيته ﷺ إنما هي معصية لله تعالى الذي ختم آية ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ بقوله ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ الذي يفيد أن كل ما يدور من أحداث ظاهرة أو خفية إنما هي واقعة في سمع الله وعلمه، وهذا يكسب المؤمن خشية الله جل شأنه، ومراقبته، فيحذر أن يقع منه ما لايرضى عنه سبحانه، أشد من حذره من عدوه الذي لا يتسلط عليه إلاَّ بتسليط الله تعالى له.

فالتقى الجمعان، وكانت الدولة في أول النهار للمسلمين على الكفار، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: «فلما لقينا المشركين هربوا حتى رأيت النساء ـ النساء المشركات ـ يشتدون في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخيلهن»[٣].

وهنا وقعت معصية رسول الله ﷺ، حيث قال أصحاب عبدالله بن جبير رضي الله عنهم: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فماذا تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»[٤] فترك غالبهم مواقعهم

فالتف العدو حول المسلمين ـ بقدر الله ـ وأخذوا يقاتلونهم من جهتين فوقعت الفوضى والاضطراب في الصف المسلم، وألقوا ما في أيديهم من الغنيمة، وفقدوا الاتصال برسول الله ﷺ، وصاروا طوائف:

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ٢٩)، وجوامع السير (١٥٨)، وزاد المعاد (٣/ ١٩٤).
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: ما يكره في التنازع (٣/ ١١٠٥) رقم (٢٨٧٤).
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة أحد (٤/ ١٤٨٦) رقم (٣٨١٧).
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: ما يكره في التنازع (٣/ ١١٠٥) رقم (٢٨٧٣).

طائفة فرت من المعركة وتوجهت إلى المدينة، وطائفة صعدت الجبل، وطائفة وقعت شهداء في أرض المعركة، ولم يبق مع الرسول ﷺ غير اثني عشر رجلاً «فجرح وجهه الكريم، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه»(١).

وقد قاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ، فعن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت رسول الله يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال، مارأيتهما قبلُ ولا بعدُ(٢).

فكانت هزيمة سببتها المعصية، آلمت المسلمين، وأفرحت المشركين ولكن عواقبها الحميدة لا تقل عن عواقب معركة بدر كما سنرى ـ إن شاء الله ـ.

**تعقيب القرآن على المعركة:**

لقد أنزل المولى ـ عز وجل ـ المطلع على الظواهر والسرائر ـ قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة مخلدًا ذكر هذا الحدث لما فيه من منفعة للمسلمين على تعاقب العصور والأزمان، ومربيًّا للمسلمين الذين جرت هذه الأحداث على أيديهم ومن جاء بعدهم ممن يريد يسلك مسلكهم ويقوم بما قاموا به.

لقد حدد الأمر الذي وقع بسببه الفشل، وكشف بعض ما انطوت عليه الصدور، والظاهر السلامة منه، وطهر الصف المسلم من المندسين فيه بذكر أوصافهم، وجازى من أجرى عليه تلك المحن والقتل بأفضل ما جازى به عباده الصالحين، ومن وراء ذلك قوّم المسيرة وأعادها إلى مسارها الصحيح الذي يجب أن تكون عليه، وحذّر القائمين عليها عمليًّا بخطورة الانحراف عن الهدف وعن المسار الذي خطّه الله تعالى لهذه الأمة لتقوم بمهمتها التي من أجلها أخرجت للناس.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: لبس البيضة (٣/١٠٦٦) رقم (٢٧٥٤).
(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: ﴿إذا همت طائفتان﴾ (٤/١٤٨٩).

وسنعرض تعقيب القرآن على أحداث المعركة من خلال ما يأتي:

**١ ـ الهم بالفشل:**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[١].

فهاتان الطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة، والفشل الذي هموا به هو الانصراف عن رسول الله ﷺ بسبب الأثر الذي خلَّفه رجوع المنافق عبدالله بن أُبي بثلث الجيش[٢]، وقوله ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهم[٣] وذكره مع أنه لم يَعْدُ كونه همًّا مشعر بتمام المراقبة التي تبلغ داخل النفس، ليزدادوا ثباتًا وبصيرة في دينهم إذ أنهم يعلمون من أنفسهم ذلك، فإذا جاء الوحي ذاكرًا ما همُّوا به كبرت في أعينهم نعمة الله عليهم حينما عصمهم مما وقع فيه طائفة المنافقين، لذلك قال جابر بن عبدالله: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[٤].

والصلة وثيقة بين همّ الطائفتين وانسحاب رأس المنافقين عبدالله بن أُبي بعد أن سار مع رسول الله ﷺ حتى بلغ الشوط قريبًا من أحد[٥] وكانت مكيدة لئيمة وقى الله المسلمين شرَّها، ومثالاً حيًّا لكيد المنافقين الذين سبق ذكر نواياهم في إفساد الصف المسلم في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، وكادت هذه المكيدة أن تؤثر في الصف إلى درجة أن

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٢١ـ١٢٢.

(٢) جامع البيان (٧/ ١٦٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٢٠) وقال صاحب الكشاف: «والله ناصرهما ومتولي أمرهما، فمالهما تفشلان ولاتتوكلان على الله» (١/ ٤٠٢) وهو مناسب لختم الآية.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ (٤/ ١٦٦٠) رقم (٤٢٨٢).

(٥) السيرة النبوية (٣/ ٢٧).

تهمّ طائفتان من المؤمنين بالرجوع.

**٢ـ التذكير بيوم بدر:**

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾(١).

والتذكير بمعركة قد انتهت بالنصر في معرض الحديث عن غزوة حصل فيها الفشل والهزيمة، يعطي مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج، ومعرفة مواطن الضعف، ومواطن القوة، وأسباب النصر وأسباب الهزيمة.

وهذه مقارنة بين حال المسلمين ببدر وحالهم بأحد تبعًا لمنهج القرآن.

| يوم بدر | يوم أحد |
|---|---|
| ١ـ عدد المسلمين ببدر ٣١٤(٢) مقابل ١٠٠٠(٣) مقاتل تقريبًا | ١ـ وعددهم بأحد حوالي ٧٠٠(٤) مقابل ٣٠٠٠(٥) مقاتل تقريبًا |
| ٢ـ خرج المسلمون لاعتراض القافلة ولم يكونوا مزودين بالعدد والعدة، ولقوا عدوهم على غير ميعاد | ٢ـ تجهز المسلمون للقاء عدوهم |
| ٣ـ ترددوا في قبول منازلة عدوهم ثم عزموا على اللقاء | ٣ـ كانوا متحمسين لمنازلة عدوهم ومؤملين في النصر عليه |
| ٤ـ لم يكن لهم تجربة فيما مضى في مقاتلة أعدائهم | ٤ـ كانت لهم تجربة نصر في بدر |
| ٥ـ أمدهم الله بالملائكة في هذه الموقعة | ٥ـ لم يمدهم بالملائكة فيها، على خلاف في هذا |
| ٦ـ لم يكن بينهم منافقون بل كلهم من المؤمنين الخلص | ٦ـ تشير دلالات القرآن أن في الصف منافقين، وأرجف به المنافقون من قبل |

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣ـ١٢٥.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: عدة أصحاب بدر (٤/١٤٥٧) رقم (٣٧٤٢).
(٣) السيرة النبوية الصحيحة (٢/٣٥٧).
(٤) السيرة النبوية (٣/٢٩).
(٥) المصدر نفسه (٣/٢٩).

| يوم بدر | يوم أحد |
|---|---|
| ٧ـ قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين[1] | ٧ـ قتل منهم سبعون ولم يؤسر منهم أحد |
| ٨ـ عوتبوا في الغنيمة وتنافسهم عليها | ٨ـ ترك بعضهم المواقع لأجل الغنيمة وكان ذلك سببًا رئيسًا في الهزيمة |
| ٩ـ كأن النصر يوم بدر قد تم بغير الأدوات المادية المألوفة وهو مناسب لتوكلهم على الله وأخذهم بالأسباب المستطاعة | ٩ـ كانت الهزيمة مناسبة للتنازع والفشل والمعصية |
| ١٠ـ استفاد المسلمون رفع المعنويات وفرحوا بالنصر الكبير | ١٠ـ انكسر المسلمون وحزنوا لما أصابهم وشرعوا يقولون أنىٰ هذا؟ |
| ١١ـ أفادتهم تجربة عملية في لقاء العدو ولو كثروا إذا قاموا بما أمروا به من الأسباب | ١١ـ أفادتهم تجربة عملية في الاحتراص من الذنوب وأعلمتهم أن الانتصار على النفس يسبق الانتصار على العدو |

وقد اقترن التذكير ببدر بذكر الإمداد بالملائكة، فاختلف فيه المفسرون على قولين منهم من مال إلى أن الإمداد المذكور كان يوم بدر، ويكون قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ واختاره ابن جرير[2] وغيره، ويجمع بين هذا وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[3] أن التنصيص على الألف لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. والقول الثاني: أن الإمداد الموعود به في سورة آل عمران مقصود به يوم أحد، ويكون قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ولا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ فلم يصبروا على ملاقاة

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: فضل من شهد بدرًا (٤/ ١٤٦٤ رقم ٣٧٦٤).
(٢) جامع البيان (٧/ ١٨١).
(٣) سورة الأنفال، آية: ٩.

عدوهم، وحصلت المعصية والتنازع وهي مخالفة للطاعة والتقوى فلهذا لم يمدوا[١]، وعلى كل حال فالقولان يتفقان على أن المدد لم يحصل يوم أحد، وهذا هو الموافق للحال. وقد ختم ذكر الملائكة بتقرير التوحيد الذي هو قاعدة الأمر كله، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ لئلا يلتفت القلب إلى نصرة الملائكة من دون الله ـ عز وجل ـ. فالغزوة في مجموعها ما هي إلاَّ لبنة من لبنات إقامة التوحيد في الأرض وإفراد المولى ـ عز وجل ـ بالتعلق. فلئلا يفهم من نصوص الوحي ما يشوب قاعدة التوحيد، جاء هذا الاحتراز التربوي الذي يجعل النصر الذي تتشوفه النفوس لا يكون إلاَّ من عند الله سبحانه.

**٣ـ التربية الشاملة:**

لقد أثبتت نتيجة هذه الغزوة أهمية طاعة الله ورسوله فكان الإصلاح للصف المسلم غير قاصر على معالجة الأخطاء التي حصلت أثناء المعركة بل تعدَّاها إلى التربية الشاملة للنفس في ميادين عدة، فهو وقت مناسب للاستجابة للتوجيهات التي علموا مغبة مخالفتها، وكانت هذه التجربة قد هيأت النفوس للاستعداد للترقي في سلم الكمال الذي سيقت هذه التجربة من أجله، وجعلت على تلك الكيفية بالذات.

فالإسلام لم يأت ليربي الصف المسلم على التفوق في الميدان العسكري فحسب بل جاء ليجعل الصف المسلم متفوقًا في جميع الميادين الأخلاقية والسلوكية والاجتماعية، والمالية وغيرها، وأن تجعل كلها مرتبطة بتوجيهات المولى عز وجل مباشرة، إذ له في كل مجال وميدان من ميادين الحياة المختلفة عبودية تناسب ذلك الميدان، ثم إن هذه الميادين التي أراد الله أن يعمها الإصلاح الشامل مرتبطة ببعضها في ظل منهج واحد.

فالتوجيهات الشاملة ليست بمعزل عن المعركة فالنفس لاتنتصر

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٠٢) بتصرف.

على العدو إلاَّ بعد أن تنتصر على ذاتها، وتتخلص من مطامعها وشهواتها، وتتبرأ من حولها وقوتها ـ بعد أخذ الأسباب ـ وتلجأ إلى حول الله وقوته التي لا تغلب، وتتنصل من جميع ما يخالف طاعته ويستجلب غضبه، وإلاَّ فلا نصر «فالذين تولوا يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب، والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم هم الذين بدأوا المعركة بالاستغفار من الذنوب»[1] لأجل ذلك تنوعت التوجيهات في ميادين الإصلاح المختلفة متخللة تعقيب القرآن على هذه المعركة. ومن ذلك:

١ـ النهي عن الربا والتحذير من أكله في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[2]

٢ـ الحث على تطهير النفس من الشح، وأن تتحلى بكظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم، كما تتطهر من الخطايا والذنوب، قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[3].

٣ـ الحذر من طاعة الكافرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ

(١) في ظلال القرآن (٤٥٩).
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٠ـ١٣٢.
(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣ـ١٣٦.

خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾[١] وهذه هي عقيدة الولاء والبراء، التي قد اعتنى بها القرآن كثيرًا.

٤ـ تجنب مشابهة الكافرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾[٢].

٥ـ النهي عن الغلول، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾[٣]. وبتأملها، نجد أنها تدور حول تربية النفس بحثها على المحاسن وتطهيرها من المساوىء، وغالبها متعلقة بالمال، وعلاقته بالغنيمة التي هي سبب الهزيمة لا تخفى، لذلك ناسب أن تتطهر النفس من تقديم محبوباتها وشهواتها على محبوبات الله تعالى، فهذه هو حقيقة العبودية التي جاء القرآن بتقريرها.

**٤ـ حصول الهزيمة وسببها:**

إذا كنا نقرأ عن هذه الغزوة، ونشعر بالإفادة من تجربتها وما جرى فيها من أحداث مع ما بيننا وبينها من أزمان متطاولة وقصور في تصورها، فكيف بمن صنعت على يديه؟ وشاهد أحداثها بنفسه؟ وأصبح بما له وما عليه جزءًا منها؟

لقد تحدَّث القرآن عن المعركة حديث من رأى ومن سمع، وذكَّر المؤمنين بأمر يعرفونه من أنفسهم وبأمور حصلت من بعضهم وخفيت على عامتهم، لا فضحًا لهم وتشنيعًا عليهم، وإنما لمعالجة تلك الأخطاء، وبيان بعدها عن الصواب، ليحصل الاستدراك وتتصحح المسيرة، وتصبح أخطاء بعضهم تجربة مفيدة للجميع.

لقد كانت تلك النصوص التي عالجت أخطاء الأشخاص في ميدان

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٩ـ١٥٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٦.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦١.

المعركة إنما هي في حقيقتها تعالج الوسائل التي ستحمل الإسلام وتنشره في ربوع الأرض، حتى كأن تصرفات تلك الأشخاص هي الإسلام ذاته.

لقد تحدث عن بدء اللقاء، وأنهم ساروا سيرًا حسنًا في اتخاذ الأسباب، فنصرهم الله على عدوهم، كما وعد حتى طرأت عليهم الأسباب الموجبة للفشل، وكان ذلك الأمر الذي وقعوا فيه جوهريًّا يستحق الحرمان من النصر والغنيمة، إذ هو في حقيقته انحراف عن الهدف الأساسي من الجهاد لإعلاء كلمة الله إلى الميل لمتاع الدنيا الزائل الذي لم يخرجوا أصلاً له، ولا كانوا خير أمة أخرجت للناس بسبب كسبه.

فقد رأوا ما يحبون من الغنيمة، فتنازعوا، وعصوا الأوامر الصريحة من رسول الله ﷺ، ومن قائدهم عبدالله بن جبير، ووقع الفشل، فكان عقوبة ذلك تلك الهزيمة التي لولا عفو الله عنهم لاستأصلت جمعهم[(١)]، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ - أي تقتلونهم -[(٢)] حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[(٣)].

لقد حذروا يوم بدر من الوقوع في أسباب الفشل، إذ عوتبوا في تنافسهم على الغنائم آنذاك، وذكر لهم صريحًا أن التنازع وترك الطاعة وعدم لزوم الصبر هي سبب الفشل في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

(١) جامع البيان (٧/ ٢٩٨)، فتح القدير (١/ ٤٧٢).
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٢٣٢).
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٢.

وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾(١) ولكن أبى الله إلاَّ أن تكتمل تربيتهم بتعليمهم ذلك نظريًا وعمليًا ـ كما سبق ذكره ـ.

وبعد وقوع الهزيمة، وتفرُّق الجمع، وصف حالهم وما حصل لهم من حزن قد شاهدوه وعلموه من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾(٢).

يقول الطبري: «لما شد المشركون على المسلمين بأُحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: «**إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله**» فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء نبي الله ﷺ إيَّاهم فقال: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾»(٣).

ثم أعقب هذا الوصف الظاهر ـ في أغلبه ـ بذكر المشاعر وخلجات الصدور، والأثر الذي أعقبه ذلك الابتلاء في نفوسهم من مواقف تتناسب مع إيمانهم، وانقسامهم إلى طائفتين: طائفة أمنت بعد الغم حتى تغشاها النعاس، وأخرى أهمتها أنفسها حتى ظنت بالله غير الحق ظن الجاهلية(٤)، ثم فصَّل في ذكر هذه الأخيرة ـ التي يراها ابن جرير من أهل النفاق والشك(٥) ـ، وما يكتمونه داخل صدورهم من ظنون سيئة تستحق أن توصف بأنها من أمر الجاهلية، واعتراضات لم

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٦.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٣.
(٣) جامع البيان (٧/ ٣٠١).
(٤) المرجع نفسه (٧/ ٣١٦) بمعناه.
(٥) المرجع نفسه (٧/ ٣١٥).

لم يظهروها، ولا يريدون أن يعلم رسول الله ﷺ أنها تتردد داخل صدورهم على أثر ذلك الابتلاء، فإن العليم بذات الصدور أبىٰ إلاَّ أن يبرزها ويكشف حقيقتها، فالسر والعلن عنده سواء، والتربية يجب أن لا تقتصر على الظواهر بل وتستأصل حتى الشوائب الغائرة في مسارب النفس الخفية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾[(١)].

لقد تحدث بعض الصحابة عن النعاس الذي تغاشهم حينئذ منهم أبوطلحة ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا[(٢)]، وكان ممن دافع عن رسول الله ﷺ يومئذ وأبلىٰ بلاءً حسنًا، فعن أنس قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبوطلحة بين يدي رسول الله ﷺ مجوِّب[(٣)] به عليه بجحفة له»، وفيه: «فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبوطلحة: يانبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك»[(٤)] وقد ذكر النعاس غيره من الصحابة[(٥)].

وكان من رحمة الله بهم أن خفَّف عنهم ذلك الغم، وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمنًا منه ورحمة، وهو علامة النصر والأمن

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٤.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا...﴾ الآية (٤/١٤٩٣) رقم (٣٨٤١).
(٣) مجوِّب: مترس عليه يقيه بها. النهاية (١/٣١١).
(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب: مناقب أبي طلحة (٣/١٣٨٦) رقم (٣٦٠٠).
(٥) جامع البيان (٧/٣٨١ـ٣٩١). وقد ذكر ما ورد عن بعضهم في ذلك.

كما أنزله عليهم يوم بدر(١)، وقد ذكر في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾(٢) فهؤلاء هم الطائفة الأولى.

أمَّا الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم فالقرآن لم يحكم عليهم بنفاق ولا إيمان، فإن كانوا منافقين كما يقوله عامة المسفرين(٣)، فالحكمة جلية في إرادة كشفهم للمؤمنين، ولكي يعلموا أن الله قد اطَّلع على ما انطوت عليه صدورهم، وذلك أيضًا وسيلة لهدايتهم، إذ بها يتعرفون على صدق كون القرآن من عند الله، فيدخل الإيمان حينئذ قلوبهم، وإن كانوا ضعاف إيمان كما أشار بعضهم(٤)، فذلك محتمل، وفي ذلك فائدة لا تقل عن اختيار كونهم منافقين، فالمؤمنون ليسوا على درجة واحدة من الإيمان، فمنهم حديث الإيمان، ومنهم الذين لازالوا يتدرجون في سلم التربية والإيمان، ولم يبلغ المنتهى، ولا يؤمن أن تضعف نفوسهم وقت الشدة، فيقول مثل هذا القول، فيستحق أن يخلد ذكره ليتنبه من صدر منه ذلك إلى شناعته حيث أن القرآن سجله عليه، وجعله مقروءًا للناس بعد أن كان مخبوءًا في نفسه، فتحصل لذلك القائل ومن على شاكلته تربية عميقة تمنع من الوقوع في مثل هذا الأمر.

ويحصل للصف المسلم على مر الأزمان الحذر من ذلك الظن السيء الذي عولج منه بعض أفراد سلف الأمة، فلا ينقطع الطمع بعد ذلك في تأسي المقصرين بأولئك الأفذاذ الذين نقلهم الوحي من واقعهم البشري بما فيه من ضعف وجهل حتى بلغوا ما بلغوا من كمال يعز

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٨) بتصرف.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١١.

(٣) جامع البيان (٧/ ٣١٥)، والكشاف (١/ ٤١٩)، وجامع الأحكام (٤/ ١٥٦)، وفتح القدير (١/ ٤٧٤).

(٤) أشار إلى ذلك ابن سعدي في تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٨٢) وقال: «وأما الطائفة الأخرى الذين قد أهمتهم أنفسهم فليس لهم همٌّ في غيرها؛ لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم النعاس» وهو الذي اختاره صاحب الظلال (ص٤٩٥).

نظيره.

وهنا نقول: ما ذاك الظن الذي سماه الله ظن الجاهلية وحذر من الوقوع فيه حتى نجتنبه؟

والجواب هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله في قوله: «وقد فُسِّر الظن الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل، وقد فُسِّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه... وإنكار أن يتمَّ أمر رسوله، ويظهره على الدين كله، وهذا هو سوء الظن الذي ظنَّه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في (سورة الفتح) حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾[1].

وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل وظن غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء... فمن ظن أنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظنَّ السَّوْءِ... وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته.. وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظنَّ السوء، فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلاَّ من عرف الله وعرف أسماءه، وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته... فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى ويستغفره كل

---

(١) سورة الفتح، آية: ٦.

وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين وأرحم الراحمين. . .»[١] وهذا الذي ذكره رحمه الله من وقوع كثير من الناس فيه يزداد وقوعه كلما ضعف الإيمان أو انعدم ونحن اليوم نسمع من يبالغ في وصف الواقع حتى يفهم من كلامه أن الله لا ينصر الإسلام والمسلمين وسيستمر هذا الضعف والانحطاط بسبب قوة عدوهم وشراسة هجمته عليهم، وإذا اعترض عليه بأن الله وعد بنصر دينه وإظهاره على الدين كله، وأنه سينصر عباده المؤمنين. زعم أن ذلك النصر سيكون عند نزول عيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان.

فلهؤلاء ـ سواء كانوا منافقين أو ضعاف إيمان ـ يقال: هذا ظن الجاهلية وظن السوء وظن غير الحق، فإن الباطل مهما تعاظم وانتفخ في غياب قيام أهل الحق بواجبهم وبما أمروا به فإن الله وعد ـ ووعده لا يخلف ـ بالقضاء عليه، وبإدالة الحق عليه، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[٢]، وأنه متى قام المسلمون بما يجب عليهم فإن الله سينصرهم لا محالة، ليقيم حجته على خلقه حتى لا يعتذروا يوم القيامة بعدم بلوغ الرسالة وحتى لا يكون للناس على الله حجة. وعلى كل من أراد إقامة دين الله على المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ أن يعلم أن رسول الله ﷺ باشر واقعًا سيئًا لا نظير له، ولو كان الواقع إذا تعاظم يمنع حملة الإسلام من إزالته لامتنع رسول الله ﷺ عن إقامة دين الله لعظيم ما واجه، إذ كانت البشرية مطبقة على الشرك، وفي الوقت نفسه مجمعة على إنكار دعوته. فباشر الأسباب المتاحة وصبر حتى ظفر. وما يقع فيه بعض الناس من التهويل من الواقع

---

(١) زاد المعاد (٢٢٨ـ٢٣٥).

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

السيء الذي يُصيب المسلمين في فترات ضعفهم حتى يترك بعضهم العمل لإقامة دين الله بحجة أن الوضع القائم لا يناسب، فهذا من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ وعلاج ذلك بنزع هذا الخوف من النفس وطرده بتذكر قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1] وبالعلم بأن مقاليد الأمور جميعها بيد الله تعالى وحده، وأنه لا يكون في ملكه إلاَّ ما يريد كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[2]، وليتذكر أن الله تعالى أنكر على من ظنوا أن الله لا ينصر جنده وحزبه ويعلي دينه ويظهره، وسمَّاه ظن الجاهلية، إذ أن ذلك مخالف لمشيئته وقدره، ورحمته بخلقه وعدله، ومن حمل دين الإسلام لإقامته فإن الله لا يخذله، لكن سيختبره ويبلو صدقه في دعواه، فإن ثبت أعانه وأثابه، وإن نكص على عقبيه استبدله بغيره كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[3]. نسأل الله الثبات على الحق حتى الممات!.

وفي قوله تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[4] ذكر للطائفة التي صعدت الجبل وأما تلك التي فرت إلى المدينة[5] فقد ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾[6].

ولم يفصل الوحي في أعيان تلك الذنوب المكتسبة التي أوجبت لهم الفرار فلعل إبهامها أوقع في النفس، ليتذكر الفارون كل ذنب عصوا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.
(٣) سورة محمد، الآية: ٣٨.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٥٣.
(٥) جامع البيان (٧/ ٣٢٩).
(٦) سورة آل عمران، آية: ١٥٥.

به الله تعالى فيقلعوا عنه، ولربما كانت ذنوب مختلفة باختلاف أصحابها فأراد أن يطهر الصف المسلم بالتوبة منها جميعًا، ولا يخفى الجانب التربوي الذي يربط بين الفرار وكسب الذنوب، فمن رام الثبات فليحرص على التطهر من الذنوب، وليلازم ذكر الله تعالى والاستغفار والتوبة كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ ﴾(١)، وقوله تعالى ـ عن أتباع الأنبياء السابقين ـ: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤٧ ﴾(٢).

**٥ ـ العزاء ورفع المعنويات:**

لا شك أن نتيجة معركة أحد كانت ثقيلة على نفوس الصحابة الكرام، فقد حزنوا على ما فاتهم من النصر والغنيمة، وما أوقعه بهم عدوهم من الهزيمة والقتل.

فكانت تلك مصيبة ـ كما سماها القرآن ـ تستحق العزاء من الله تعالى، فهؤلاء المؤمنون ـ بما لهم وما عليهم ـ هم جند الله وأولياؤه، وما حصل لهم لم يكن إلاَّ تصحيحًا لمسيرتهم المباركة التي تتوقف هداية الناس عليها، وإن اقتضى ذلك حصول الأذى، والألم، والقتل، فما نالوه من تربية أعظم بكثير مما نالهم.

وقد وردت ألفاظ في ثنايا التعقيبات القرآنية تدل على شعور الصحابة بالمصاب أمثال: القرح، الغم، المصيبة، الهم، القتل، الحسرة، الضعف، الوهن، الاستكانة، الابتلاء.

فجاء القرآن يضمد الجراح، ويعزي في المصاب، ويرفع روحهم المعنوية، ويشجعهم على استعادة الثقة بالنفس، ويعلمهم بعفو الله عمَّا حصل منهم من تقصير ويبين لهم الفوائد والحكم من وراء هذه

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٥.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤٧.

المصيبة[١].

فقال تعالى مؤاسيًا ومثبتًا: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[٢]، والوهن: هو الضعف[٣]. قال الزهري: «كثر في أصحاب محمد ﷺ القتل والجراح حتى خلص إلى كل امرىء منهم البأس فأنزل الله عز وجل القرآن فآسى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قومًا من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾»[٤].

ثم قارن بين ما حصل لهم، وما حصل لعدوهم، فقال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم أردف ذلك بذكر الحكمة من وراء ما حدث فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ كما أعلمهم بأن دخول الجنة التي هي محط آمالهم بعد رضى الله تعالى لا يحصل إلاَّ بالجهاد والصبر. وهذا حقيقة ما قاموا به، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[٥].

وبتأمل هذه الآيات نجد أن فيها من العزاء الشيء الكثير، فقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يشعر بالمساواة في حصول الألم من الجانبين لكن شتان بين عقباهما عند الله، فالمؤمن يصبر على ألم إقامة الحق، والكافر يكابد نفس الألم في سبيل الدفاع عن الباطل، والمؤمن يرجو ما عند الله تعالى بخلاف الكافر الذي يتألم بهذه

---

(١) سبيل الدعوة الإسلامية (٩٦).
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٩.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (٨٨٧).
(٤) جامع البيان (٧/ ٢٢٤).
(٥) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٠-١٤٢.

المصائب وعاقبته إلى النار، وذلك كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾(١) ومما يرجوه المؤمن من وراء تلك الآلام والجراح المثوبة والنصر والتأييد، في الدنيا، والحصول على مقام الشهداء في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ فيها معنى الاصطفاء، فبدل الحزن على أولئك القتلى الذي عظم المصاب بهم فرح أقرباؤهم بهذه البشارة، التي لم تكتف بكونهم شهداء فحسب، بل بيَّنت منزلتهم عند الله، وكيفية الحال التي انتقلوا إليها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾(٢).

ولما كان المجاهد لاشتغالة بأمور الجهاد قد يفوته جمع المال الذي جبلت على محبته النفوس، وهو معرض أيضًا للقتل، وهذان الأمران هما من أعظم المثبطات عن الجهاد أو الاستمرار فيه، لذلك جمعهما المولى ـ عز وجل ـ في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(٣) فبشر من قتل في سبيل الله أو مات فيه بحصوله على المغفرة والرحمة التي لا يقارن بها حطام الدنيا، وقوله «خير مما يجمعون» يشمل كل ما يمكن جمعه من أمور الدنيا مما يخطر على البال، وقد ذكر الرسول ﷺ المغفرة المشار إليها في الآية وزاد عليها فقال: «للشهيد عند الله عز وجل ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار

(١) سورة النساء، آية: ١٠٤.
(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ـ١٧١.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٥٧ـ١٥٨.

الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه»[١].

كما ربط ما أصابهم يوم أحد بما أصيب به المؤمنون مع أنبيائهم ليشعروا أن هذا المصاب قد حصل مثله لاتباع الأنبياء حتى لا يفقدوا الثقة في أنفسهم، وليدفعوا عنها الوهن والاستكانة كما دفعها أولئك، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[٢].

وأوجه الشبه بين أصحاب محمد ﷺ يوم أحد، وبين أتباع الأنبياء المذكورين في الآية كثيرة، فأولئك يقاتلون مع أنبياء وهؤلاء يقاتلون مع محمد ﷺ خاتمهم. وقد وصف أولئك بأنهم ربيُّون: أي علماء[٣]، وصحابة رسول الله ﷺ أعلم هذه الأمة بربها.

ويدل ظاهر السياق أن أولئك الأتباع وقع فيهم قتلٌ بدلالة القراءة الأخرى للآية (قُتل معه ربيُّون) والتي قال عنها ابن جرير: بأنها قراءة مشهورة[٤]، وعلى قراءة (قاتل) حصل منهم مقاتلة لأعدائهم، وقد حصل من صحابة رسول الله ﷺ قتال ووقع فيهم قتل.

ـ أن أولئك الأتباع شهد لهم بقوله ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ فنفى عنهم الوهن والضعف والاستكانة وختم الآية بما يدل على تمام صبرهم. وصحابة رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣١)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب: في ثواب الشهيد (٤/ ١٦١ رقم ٦٦٣) وقال: حديث حسن صحيح غريب. انظر: ملحق (٢) ص (٤٣٢).

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦ـ١٤٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤١١).

(٤) جامع البيان (٧/ ٢٦٢).

ﷺ سلك بهم سبيلهم فنهاهم بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[1]. وقد كانوا كذلك بدلالة ملاحقتهم لعدوهم في غزوة حمراء الأسد، حتى أثنى الله عيهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾[2].

ـ أن أولئك الأتباع استغفروا من ذنوبهم لتمام علمهم بأهمية ذلك في تحصيل النصر، وسبب هزيمة أصحاب رسول الله ﷺ هي وقوع بعض الذنوب التي استغفر من مثلها أولئك وفيه حث على ملازمة طاعة الله تعالى والتوبة والاستغفار من جميع الذنوب.

ـ أن أولئك الأتباع يسعون في النصر على الكافرين بدلالة قوله: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ وكذلك صحابة رسول الله ﷺ.

ـ أن أولئك حصل لهم النصر والظفر والعاقبة مع ما أعدَّه الله لهم في الآخرة، وكذلك صحابة رسول الله ﷺ الذين ـ وإن حصل منهم في هذه الموقعة ما حصل لكنهم ـ أصبحوا على أحسن حال فيما بعد.

فهي دعوة صريحة لصحابة رسول الله ﷺ أن يفيدوا من تجربة أولئك ويحسنوا كما أحسنوا.

إن معنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: كم من نبي قُتِلَ، وقُتِلَ معه من أصحابه كثير[3]، ومناسبة ذكر قتل أولئك الأنبياء مع كثير من أصحابهم لأحداث أحد أن رسول الله ﷺ أُشيع عنه حينذاك أنه قُتل، فانصرف بعض الصحابة لأجل هذه الشائعة وألقوا سلاحهم[4]، فعاتبهم الله ـ عز وجل ـ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٧٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤١١).
(٤) جامع البيان (٧/ ٢٥٥)، وزاد المعاد (٣/ ٢٠٩).

﴿مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾(١) .

وزاد تأكيد هذا المعنى بأن من بقي من الربيين ممَّن لم يُقتل لم يلحقهم الوهن والضعف، الذي يقعدهم عن السير لمواصلة طريق نبيهم الذي خطَّه لهم، بل صبروا وجاهدوا حتى كتب لهم النصر المشار إليه بقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، وذاك هو الفتح والتمكين الذي حققوه باقتفاء منهج نبيهم الذي سبقهم إلى ربه مجاهدًا.

وهذا يشبه ما فعله أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ حيث انتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل رسول الله فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتلَ(٢) .

قال ابن القيم: «إن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ، فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم أن مات رسول الله ﷺ أو قُتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده، ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد فهو حيٌّ لا يموت، فلو مات محمدٌ أو قُتل لا ينبغي(٣) لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بُعث محمد ﷺ ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لابد منه سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا وبَّخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرح الشيطان: إن محمدًا قد قُتلَ، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٤.
(٢) أخرجه البخاري بمعناه في المغازي، باب: غزوة أحد (٤/١٤٨٧) رقم (٣٨٢٢).
(٣) تعني الامتناع كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [سورة يس: ٦٩] أفاده شيخنا محمد الصالح العثيمين في قراءة لي عليه.

يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[(١)]، والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكمُ هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم»[(٢)].

إن أتباع الرسل علموا أنهم مطالبون بإقامة دين الله التي لا تكون بغير الجهاد في سبيل الله فساروا على خطى أنبيائهم حتى نصرهم الله تعالى، وهو ما فعله صحابة رسول الله ﷺ فإنهم لم يقتصروا على الصلاة والزكاة والصيام بعد رسول الله ﷺ ويتركوا أمر الناس، بل عَلمُوا أن نشر دين الله وإقامته أمرٌ متعيَّنٌ عليهم، ولا يتم ذلك إلاَّ بالجهاد فيَ سبيل الله، وأن ترك هذه الفريضة، والانكفاء على النفس من شأنه أن يوقعهم في الوهن والضعف الذي حذَّرهم الله منه، لذا جعلوا الجهاد والإعداد والرباط، وملازمة الثغور شغلهم الشاغل، وهذا أمرٌ يستغني عن الأدلة لاستفاضتها، ونقلوا هذا الفهم القرآني إلى من جاء بعدهم فحملوا الراية وأكملوا المسيرة، ثم مازال الأمر يضعف والأجيال المتأخرة يقل استيعابها لهذا الدرس من الأجيال المتقدمة حتى بلغ الحال أن ترك الجهاد ـ الذي لا يعتز دين الله إلاَّ به بشهادة القرآن وبواقع حياة رسول الله ﷺ وصحابته ـ إلاَّ عند القليل من الناس، وخرج في الأعم الغالب من روح الأمة وشعورها بعد أن كان هو الركزية الأساسية التي تعتمد عليها الأمة في حصولها على القوة التي تدفع بها عن نفسها الاستكانة والضعف والوهن.

والواجب ـ اليوم ـ على القادرين من أمة الإسلام أن يعيدوا الأمة إلى سابق عهدها وينفخوا فيها روح الجهاد الذي اختاره الله تعالى لها،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢٤ـ٢٢٥).

وجعله الوسيلة الوحيدة لإقامة الدين والنصر على الأعداء، وأن يغرسوا محبته في نفوس الناس ليقوموا بالواجب الذي أوكل الله إليهم حمله كما قام به صحابة رسول الله ﷺ، وينقذوا أنفسهم من الوهن والضعف والاستكانة للعدو والملازمة لترك الجهاد، كما دلَّت على ذلك آية ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ الآنفة الذكر، وينقذوا غيرهم من ضلال البشر الذين يتخبطون في دياجير الظُلْم والظُلَم ولا يهتدون إلى الخروج منها سبيلاً، وحاجتهم إلى هدى الله المنزل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس.

**٦ ـ الخير العظيم والحكم البالغة من هذا الابتلاء:**

دلَّت نتائج هذه الغزوة أن الله يفرق في النصرة بين الحق المنزل المعصوم وبين حملته المعرضين للخطأ والتقصير، فينصر الحق لذاته، وينصر حملته بقدر قيامهم بالحق، فإن تخاذلوا أو قصَّروا فقدوا من النصرة بقدر ذلك، ولهذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ ﴾[1] أي: «إن تنصروا دين الله ينصركم الله»[2] ومفهوم المخالفة يدل على أنهم إذا لم ينصروا دين الله لا ينصرهم الله، وهذا من عدله ورحمته. من عدله في كون العقوبة لا تقتصر على الكفار، بل تنال حتى المؤمنين بقدر ذنوبهم ومخالفتهم ـ ولكن شتان بين العقوبتين كما سلف ـ ومن رحمته ليراجع الناس الحق، ويتداركوا ما بدر منهم، وتكون العقوبة حينئذ هي المنبهة لهم على تفريطهم.

فالصحابة رضي الله عنهم عندما تخلَّف عنهم النَّصر الذي يظهر أنهم كانوا يترقبونه قالوا: أنى هذا؟ «أي من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل، ونحن نقاتل في سبيل الله وفينا النبي والوحي ونحن مسلمون

---

(١) سورة محمد، آية: ٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٥٤).

وهم مشركون»[١] فأجابهم الله بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦٥﴾[٢] فدفعهم ذلك إلى المراجعة والتصحيح، فكانت تلك المصيبة في حقيقة أمرها نصرًا لدين الله لما استتبعت من انعطاف إليه، وأكسبت مزيدًا من التمسك به والحذر من مخالفته.

«وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦٥﴾.. ففي ذكر قدرته هٰهُنانكتة لطيفةوهي أن هذاالأمربيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلوا على سواه وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الإذن الكوني القدري لا الشرعي الديني كقوله في السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٣]»[٤].

ولقد كشف الله تعالى عن جانب من الحكم التي تضمنها هذا التقدير، ليعلم المؤمنون أن الله ـ وإن منعهم من النصر فقد ـ اختار لهم ما هو أنفع لهم منه في العاجل والآجل. وقد أطال ابن القيم رحمه الله في ذكرها، وهذا ملخص ما ذكر[٥]:

١ـ منها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل والتنازع وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك فكانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظة وتحرزًا من أسباب الخذلان.

٢ـ أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولم يحصل

(١) المرجع نفسه (٤/ ١٧٠).
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٥.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٠٢.
(٤) زاد المعاد (٣/ ٢٣٩).
(٥) المرجع نفسه (٢١٨ـ٢٤١) بتصرف يسير.

المقصود من البعثة والرسالة فجمع الله لهم بين الأمرين ليتبين من يتبعهم للحق ممن يتبعهم على الظهور والغلبة.

٣ـ أن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبَّبَ لعباده محنةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتمونه، وعاد تلويحهم تصريحًا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوًّا في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم وتحرَّزوا منهم.

٤ـ استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم، وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية في الحالين فهم عبيده حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السرَّاء والنعمة والعافية.

٥ـ أنه سبحانه لو بسط لهم النصر والظفر، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدًا لطغت نفوسهم وشمخت، ولكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق[1]، فلا يصلح عباده إلاَّ السَّرَّاء والضَّرَّاء، والشدَّة والرَّخاء، والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته.

٦ـ أنه إذ امتحنهم بالغلبة، والكسرة، والهزيمة، ذلُّوا، وانكسروا، وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧].

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾(١) . وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾(٢) فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عباده ويجبرهم وينصرهم، كسرهم أولاً، ويكون جبرُه لهم ونصره على مقدار ذلهم وانكسارهم، فإذا ما حصلوا على النصر بعد تلك الحال علموا فضل الله عليهم، فازدادوا شكرًا له وعبودية، وشاهدوا منته عليهم، وقد نصَّ على هذه الحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾(٣) .

٧ـ أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله، والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربُّها ومالكها وراحمُهَا كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض، ويكون بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

٨ـ أن الشهادة عند الله من أعلى مراتب أوليائه، وليس بعد درجة الصديقية إلاَّ الشهادة، وأولئك الشهداء هم الذين آثروا أن تُراق دماؤهم في سبيل إقامة دينه والحصول على محبته ورضوانه، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة الرفيعة إلاَّ بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو كما قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ

(١) سورة التوبة، آية: ٢٥.
(٢) سورة القصص، آية: ٥ـ٦.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٣.

﴿مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾(١).

٩ـ أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيَّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم، والتسلُّط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾(٢).

١٠ـ إعلامهم بأهمية الأعمال في النصر فإنها جندٌ للعبد، وجندٌ عليه، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسرًا إلى مقتضاها من الخير والشر، فمن تولَّىٰ من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم فإنما ذلك بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزلهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوا فكانت أعمالهم جندًا عليهم ازداد بها عدوهم قوة.

١١ـ لقد ذكرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كل محنة تنالهم تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهي منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وينقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله، إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم(٣)، فكل بلية تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم لهو أمرٌ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٤١.
(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

يسيرٌ جدًّا، في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير. فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليوحدوا ويتّكلوا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لئلا يتهموه في قضائه وقدره، وليتعرَّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدرًا، وأعظمُ خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة وعزاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته لينافسوهم فيه، ولا يحزنوا عليهم.

لقد استفاد الصحابة الكرام من معرفة سبب الهزيمة وأن مخالفة الطاعة عنصر أساسي فيها، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى ملاحقة جيش العدو استجابوا أحسن ما تكون الاستجابة، وجروحهم لم تندمل بعد، وهي صورة نادرة للطاعة عمقها في نفوسهم الدرس العملي الأخير حيث ذاقوا مرارة العصيان الذي حصل من بعضهم. فكان جزاؤهم على استيعاب هذا الدرس أن أثنى عليهم المولى - عز وجل - في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾(١).

وهذا فارق جوهري بين المؤمن وغيره يتمثل في أن المؤمن يخوّف بما دون الله، فيزداد توكله على الله تعالى، وهذا التوكل عبادة يتحقق بممارستهازيادة الإيمان، فكان التخويف الذي أريد به شل عزائم المؤمنين الخلص سببًا في زيادة إيمانهم.

والتوكل على الله لا ينافي وجود مشاعر الخوف التي هي من طباع

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٢-١٧٤.

البشر، فلعل الصحابة الكرام مع ثباتهم مع الرسول ﷺ لاتزال تراود مشاعرهم، ترآئي جموع الناس الذين خوفوا بهم، فأراد الله ـ عز وجل ـ إتمام تربيتهم بمعالجة حتى تلك الهواجس فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1] والمعنى: يوهم المؤمنين بأن أولياءه ذوو بأس ليخوفهم بذلك[2] فأمر المؤمنين أن يطردوا ذلك الوهم الذي يلقيه الشيطان في النفوس بصدق التوكل على الله وتقديم مخافته على مخافة غيره، إذ هو كما قال عن نفسه ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٣٢) والمعنى الآخر: يخوف القاعدين من المنافقين ذكره الشوكاني في فتح القدير (١١/ ٤٨٣)، ويشمل أهل الذنوب بدلالة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥].

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.

# المبحث الرابع
# غزوة بني النضير في سورة الحشر

ما إن انتهت معركة أحد بتلك النتائج السالفة الذكر حتى شرع اليهود والمنافقون في النيل من المسلمين، وأطمعتهم تلك الهزيمة في منازلتهم وما علموا أن هذا الطمع الذي ظنوا عاقبته لهم كان في صالح المسلمين الذين يرعاهم الله بعنايته، ويخلق لهم من الأسباب الظاهرة والخفية ما يحقق لهم إظهار دينهم وإعزازه.

وعلى هذا تظهر رحمة المولى ـ عز وجل ـ بجماعة المسلمين الناشئة في المدينة حيث قدَّر في بدايات العهد المدني تنظيف قاعدة المسلمين التي منها سينطلقون لنشر دين الله من جرثومة الفساد ـ أعني يهود ـ الذين يتحرقون على الإسلام والمسلمين إلاَّ أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ـ كحالهم اليوم سواء ـ وكان جوارهم للمسلمين في المدينة يتيح لهم القيام بدورهم في الإفساد في داخل الصف المسلم[١] إلى جانب كشف العورات والعمل على التآمر مع المشركين في القضاء على المسلمين كما قال موسى بن عقبة: «كانت يهود بني النضير قد دسوا إلى قريش، وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلوهم على العورة»[٢].

وكانوا عيبة نصح لهم فلقد لجأ إليهم أبوسفيان بعد هزيمة بدر في مائتي فارس فاستأذن على سلاَّم بن مشكم النضري ـ وكان من سادتهم ـ فقراه وسقاه، وأعْلَمه ببواطن أخبار الناس، ودلَّه على عوراتهم، فهاجم ناحية من نواحي المدينة فقتل وأحرق[٣].

(١) وهذا هو مايقومون به اليوم في الوقيعة بين المسلمين الذين تحت أيديهم.
(٢) فتح الباري (٧/ ٣٣٢).
(٣) البداية والنهاية (٣/ ٣٤٦) بتصرف.

**سبب إخراج بني النضير :**

لقد أظهر يهود بني النضير الحقد والعداوة بعد معركة أحد وازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة فصبر عليهم رسول الله ﷺ حتى قاموا بمحاولة قتله عندما خرج إليهم ليعينوه لما بينه وبينهم من الحلف في دية رجلين قد قتلا خطئًا[١]، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، فاجتمعوا يتشاورون فسولت لهم نفوسهم المجبولة على الغدر والخيانة التآمر على قتله، ومن لديه نظرة قرآنية على شخصية اليهود لا يمكنه أن يتوقع إلاَّ ذلك، فانبعث أشقاها عمرو ابن جحاش، ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به فنهض رسول الله ﷺ من وقته راجعًا إلى المدينة[٢] فأرسل إليهم ﷺ محمد بن مسلمة وقال له: اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن أخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرًا فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه[٣].

فمكثوا على ذلك أيامًا يتجهزون وأرسلوا إلى ظهر لهم بذي الجدر[٤]، وتكاروا من ناس من أشجع إبلاً فأرسل إليهم ابن أبي: لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان[٥]، فعادت إليهم بعض ثقتهم في

---

(١) هما رجلان من كلاب قتلهما عمرو بن أمية الضمري، ولم يشعر بما معهما من العهد، فوادهما رسول الله ﷺ. (زاد المعاد ٣/ ٢٤٨).

(٢) السيرة النبوية (٣/ ١٤٣)، وجوامع السير (١٨١).

(٣) وهذاتفسير فعلي لقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾[الأنفال: ٥٨]

(٤) بفتح أوله وإسكان ثانيه والراء مهملة: موضع بالمدينة. معجم ماستعجم، للبكري ١/ ٣٧١).

(٥) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢/ ٥٧).

أنفسهم التي كتب الله عليها الذل كما في قوله تعالى ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾(١) وأمّلوا في تلك المواعيد، فبعثوا إلى النبي ﷺ يقولون: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك»(٢).

**موقف الرسول ﷺ الحازم:**

وكان رسول الله ﷺ عندما حدد تلك المدة يعني ما يقول تمامًا ويلتزم به بدقة ويعوّد عليه أصحابه فما إن انقضت حتى خرج إليهم بنفسه وحاصرهم، ولم يكن ﷺ ممن يعنون بالمهاترات الكلامية واللقاءات التفاوضية التي هي مستنقع آسن لليهود وهم أبناء بجدتها، لما تعتمد عليه من الخداع والكيد والمكر، بل كان ﷺ واضحًا في موقفه إذ أخبرهم بما هموا به من قتل وعدّ ذلك خيانة لما سبق من عهود مبرمة، وأعلمهم أنهم هم الذين بدأوا بذلك، وأظهر التفوق الأخلافي عليهم إذ حدد لهم مدة تكفي لخروجهم ومن بقي بعدها أعلمه بمصيره.

لقد شرع ﷺ في العمل على إخراجهم فور انقضاء المدة، فلم تكن لديهم الشجاعة الكافية على المنازلة في الميادين المكشوفة فأغلقوا عليهم حصونهم وما علموا أن الرعب جند من جنود الله لا تمنعه الحصون، وعمد ﷺ إلى خطة بارعة تعد بمثابة قتل اليهود في شدة تأثيرها على نفوسهم ألا وهي إحراق نخيلهم، فالمال عند اليهود له مكانة تختلف كثيرًا عن مكانته عند غيرهم من الناس، لذلك اقتضت حكمة المولى عز وجل أن يغيظهم بما يؤلمهم.

فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾(٣). وفيها قال حسّان رضي الله عنه:

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٢.
(٢) زاد المعاد (٣/١٢٨).
(٣) سورة الحشر، آية: ٥.

وهـان علـى سـراة بنـي لـؤيٍّ حـريـق بـالبـويـرة مستطيـر[١]

لقد رأوا بيوتهم تخرب بأيدي المؤمنين من ظاهرها، ونخيلهم تحرق وتقطع وهم مختبئون مع نسائهم وأبنائهم لا يستطيعون أن يمنعوا شيئًا، والمنافقون الذين أوقعوهم في هذه الأزمة تخلوا عنهم فلم يقدموا لهم خيرًا، ولم يدفعوا عنهم شرًّا، فوقع الرعب في قلوبهم، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يلتمسون أن يؤمنهم على دمائهم ولهم ما حملت إبلهم غير السلاح، فقسم رسول الله أموالهم بين المهاجرين خاصة إلاَّ أنه أعطى منها أبادجانة، وسهل بن حنيف لفقرهما[٢].

**الموالاة بين اليهود والمنافقين:**

وقد نزلت في بني النضير سورة الحشر[٣] التي فصَّلت الحديث عن مَعْلَم من معالم نصرة الحق وأهله، ومحطة من المحطات التي سار من خلالها الإسلام ليظهر على الدين كله، وقد كانت الجولة هذه المرة مع الجبهة المتحدة لمحاربة الإسلام المتكونة من اليهود والمنافقين، والتي هي بداخل المدينة، أولئك الذين لم يغفل ذكرهم القرآن فيما سبق من حوادث بل مهَّد لها من قبل، ففي غزوة بدر الوارد ذكرها في سورة الأنفال، ذكر اليهود بأبرز وصف لهم وهو نقض العهد والخيانة علمًا بأنهم لم يحصل منهم شيء بعد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[٤]

قال الطبري: «الذين عاهدت منهم» يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك ولا يظاهروا عليك محاربًا لك كقريظة

(١) سبق تخريجه ص(٢١٨).
(٢) جوامع السير (١٨٢)، والطبقات الكبرى (٢/ ٥٨)، وجامع البيان (٢٣/ ٢٧٤).
(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب: تفسير سورة الحشر (٤/ ١٨٥٢) رقم (٤٦٠١).
(٤) سوة الأنفال، الآيات: ٥٥_٥٧.

ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد»[١].

وكذا ذكر المنافقين بسمتهم البارزة وهي الازدراء بالمؤمنين، والظن بأن الله لا ينصرهم وأن عدوهم سيتخطفهم، وذلك لأنهم لا يؤمنون بقوة الله تعالى التي لا يعجزها شيء، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[٢]، وقد ذكر حال المنافقين ولما يفش النفاق بعد أيضًا، إذ لم يكثر إلاَّ بعد موقعة بدر لظهور عزة المسلمين وقوتهم.

وهذا تثقيف مبكر للمسلمين على عدو يتنامى عدده وغيظه، وكانت كثرة الآيات الواردة في ذلك تتناسب ودرجة تصاعد العداء، فذكر هذا العدو في سورة الأنفال أقل من ذكره في سورة آل عمران، التي ذكرت فيها غزوة أحد والتي ذكرت كيد المنافقين وفصَّلت الحديث عن اليهود بشكل مكثف، فذكرت صفاتهم وأحوالهم وصدهم عن سبيل الله - كماسبق - وماسيكون منهم من مقاتلة لأولياء الله، وأشارت إلى موقفهم الانهزامي أثناء مقابلتهم للمؤمنين الصادقين، وكشفت السبب الذي من أجله لازمتهم الذلة والمسكنة وهو الكفر وتعاطي كبائر المعاصي والذنوب غير المعهودة في تأريخ البشر والتي منها جريمة قتل الأنبياء.

وصدق الله فكان حالهم كماوصف، إذا شرعوا يمارسون الشقاء الذي كتب عليهم، والذي يدفعهم إليه حقدهم، فتتالت خياناتهم ونقضهم العهود، وأبوا إلاَّ أن يفعلوا ما فعل أسلافهم مما شهد الله به عليهم من قتل الأنبياء، فتآمروا على قتل النبي ﷺ مرة تلك التي كانت سبب إخراج بني النضير[٣]، ومرة في خيبر عندما أهدوا له شاة مسمومة[٤]، ويقطع

(١) جامع البيان (١٤، ٢٢).

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٩.

(٣) كما سبقت الإشارة إليه قريبًا.

(٤) أخرجه البخاري في الهبة، باب: الهدية من المشركين (٢/ ٩٢٣) رقم (٢٤٧٤).

كل عاقل أنه لو وجد نبي في وقتنا هذا الذي نعيشه فإن دولة يهود ستجعل قتله على رأس أولوياتها، بدلالة الفعل المضارع المفيد للاستمرار والتجدد في قوله: ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾فلما لم يوجد الآن ووجد أتباعه الصادقين، فإنهم البديل الذي سيمارس عليه يهود ما ذكره الله عنهم من القتل أو محاولة القتل، ويغرو الناس بقتله، وذلك لأمر يسهل إدراكه وهو أن اليهود قوم جبلوا على الإفساد إذ لا يحسنون غيره، كما قال تعالى: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٢].

وأتباع الأنبياء مصلحون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، فتعارضت مقاصد الفريقين، فوقع النزاع والصراع، ولما كان المؤمنون يسعون إلى إقامة الحق، ويعملون على إصلاح ما يفسده يهود، ومن معهم، اقتضى عدل الله تعالى نصرة المؤمنين وعونهم، إذا ما أخذوا بالأسباب التي وجههم الله تعالى إليها، وكتب الذلة والمسكنة والهزيمة على اليهود رحمة منه بعباده، حتى إذا قام بأمر الله من يريد مقارعتهم أمكنه النصر عليهم بإذن الله، وهذا ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾[٣] فهذا يفيد أن سنة الله تعالى عليهم ستكون كالمطارق التي تعيدهم إلى حجمهم الحقيقي، كلما عتوا، وإنه ليقرأ في ثنايا (لسريع العقاب) آمالٌ كثيرة، مشعرة بإرادة المولى ـ عز وجل ـ التي لا رادَّ لها، في التعجيل بالقضاء على أولئك المفسدين كلما ظهر فسادهم وعم، وهذا الذي تأذَّن الله به كائن لا محالة، ولا يتوقف تنفيذه بالضرورة

(١) سورة الإسراء، آية: ٤.
(٢) سورة المائدة، آية: ٦٤.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦٦ـ١٦٧.

على الأسباب التي يظنها البشر، بل قد تخلق له أسباب أخرى يتحقق من خلالها كما قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا من تدبير الله لخلقه، ولكن أكثر الناس لايعلمون، فقدعلم فساد اليهود أهل الأرض قاطبة حتى أصبح في ذلك مضرب المثل، وأنشأوا دولتهم في قلب العالم الإسلامي ظلمًا وعدوانًا، متغافلين دموع الأرامل والأيتام والعجزةالذين يخرجونهم من بيوتهم اعتمادًا على قوتهم، ويطبقون نقض العهود والمواثيق في كل مرة، كما وصفهم القرآن بذلك، غير آبهين باحترام الأديان والأعراف، بل وحتى الذوق، وهذه درجة موغلة من العتو الذي نصت عليه الآية.

وقد أعلمنا الله في كتابه بما ينالهم من السنن التي يسلطها عليهم كلما عتوا وبغوا في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾[1]

هذا مما أخبرهم الله به في كتابهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علوًّا كبيرًا، وذلك بأن يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس[2] وقد وقعت الأولى، فسلَّط الله عليهم قومًا وصفوا بأنهم ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي ذوي بطش في الحروب شديد[3]، فقتلوهم شر قتلة، كما يدل عليه قوله: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ إذ أن معنى جاسوا: أي: طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه؟[4]. أما عتوهم الثاني فقد ذكر

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤ـ٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٦).

(٣) جامع البيان (١٧/ ٣٦٥).

(٤) فتح القدير (٣/ ٢١٤).

الله أنه سيسلط عليهم بسببه قومًا:

١- يفعلون بهم من السبي والقتل ما يظهر على وجوه من بقي منهم الكآبة[١].

٢- يدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة والمراد بالمسجد هو بيت المقدس[٢].

٣- يدمرون ويهلكون ما ظهروا عليه كما هو معنى ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾[٣] ثم جعل الله عقابهم على عتوهم وعلوهم في الأرض سنة مطردة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمد ﷺ فهم يعطون الجزية بالصغار[٤] أما اليوم فقد أظهروا من العتو والفساد ما يستوجب تسليط العذاب الذي وعد الله به، وهم أقرب إلى عقوبة الله لهم من أي وقت مضى بعد بعثة النبي ﷺ، ولن تكون تلك العقوبة إلاَّ على أيدي عباد الله المؤمنين الصادقين، بحيث يفعلون بهم من القتل والسبي - بعد دخول بيت المقدس فاتحين - ما يليق بجرائمهم وفسادهم وعلوهم بغير حق، وهذا هو قدر الله الذي لا رادَّ له.

**محافظة اليهود على صفاتهم الذميمة:**

إن صفات اليهود قديمًاوحديثاً واحدة، فالقرآن يصف القدماء منهم بالكفر والخيانة، ونقض العهد، فيقع فيها الذين عاصروا رسول الله ﷺ جريًا على خطى من سبق بما يفيد استقرارها عند المخاطبين وعند من سيأتي من أصلابهم، فنرى نحن الآن تفسير تلك الآيات في الواقع المشاهد والحياة اليومية، ثم تأتي آية الأعراف: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ لتفيد ملازمة أجيالهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٤٦) بنحوه.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٤٦).
(٤) المرجع نفسه (١٠/١٤٧).

المتابعة لأخلاقهم الرديئة إلى يوم القيامة بدلالة ملازمة العذاب لهم إلى يوم القيامة كما أشارت الآية، ومعلوم أن المولى ـ عز وجل ـ تنزه عن الظلم فلا يعاقب الذرية لمعصية آبائهم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١]، ولكنها العدوى التي ينقلها المتقدم للمتأخر، فناسب استمرار العقاب.

وقد ألقت سورة الحشر الضوء على الموقف الصحيح من اليهود وكشفت جانبًا من شخصيتهم، وكيف حالهم عند ملاقاة المؤمنين حتى كأنها أرادت أن يقف النبي ﷺ وصحابته على تفسير ما سبق نزوله من ذلهم وهوانهم في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا﴾، ويروا ذلك واقعًا عمليًا تطبقه يهود بني النضير، ويكون تعامل الرسول ﷺ هو الدواء لكل من سار على منهج بني النضير.

«لقد كان لهذه الغزوة صدأ طيب في نفوس المسلمين فهي أول نصر تحقق بعد المحن المتتابعة في أحد والرجيع وبئر معونة»[٢] وفي نفس الوقت ضربة قاصمة لأعداء الإسلام نتج عنها خروج الجناح الثاني الذي يعد من أقوى أجنحة اليهود بالمدينة ـ أعني بني النضير ـ وإضعاف صوت حلفائهم المنافقين الذين تخاذلوا عن نصرتهم في محنتهم، فانكشف شأن المنافقين ـ الذين ذكرنا أن أهم أسباب القضاء عليهم هو ظهور نفاقهم ليحذر كيدهم ـ وازداد المسلمون بصيرة في دينهم حينما شاهدوا ما أخبرهم الوحي به من قبل مما انطوت عليه صدور اليهود والمنافقين، فكان ذلك دافعًا لهم في اتخاذ مزيد من الحذر والعمل على إعداد العدة، مع التوكل على الله تعالى.

**سورة الحشر وما فيها من دروس وعبر:**

وأهم ما تناولته هذه السورة مما له علاقة بموضوعنا:

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٥.
(٢) حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ، آل عابد (١/ ٣٠٤).

١ ـ ربط هذه الغزوة بالتوحيد، الذي هو رأس الأمر، ولم يطرقها طرقًا مباشرًا كحدث يذكر فحسب بل عرضها عرضًا يتحقق منه التربية الإيمانية التي قاعدتها التعرف على المولى ـ عز وجل ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله، فاستفتح السورة بالإشارة إلى عظمته التي أوجبت على جميع المخلوقات تقديسه وتمجيده. فقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ وختم الآية باتصافه بوصفين مناسبين لما تضمنته السورة، فالعزيز هو الذي قد قهر كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يستعطي عليه عسير، والحكيم في خلقه وأمره فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلاَّ ما هو مقتضى حكمته[(١)]، وبموجب عزته وحكمته نصر رسوله ﷺ على اليهود الذين لم يظنوا بل ولم يظن المؤمنين أنهم سيخرجون لقوة حصونهم، وامتناعهم بها.

وذكر عظمته تجعل القلوب تتعلق به وتتوكل عليه، وتزهد فيما سواه، بحيث لا يتعاظمها قوة، مهما بلغت، إذا قورنت بقوته سبحانه إذ هو القادر على كل شيء، فجعلت وقائع هذه الغزوة معمقة لهذا الجانب الإيماني، بحيث عرَّف المولى عز وجل خلقه على كثير من صفاته التي تخللت التعقيب على أحداث الغزوة وفي ثناياها، وفي افتتاحها وخاتمتها، حتى ليخيل لمن يتأمل التركيز على هذا الجانب أن السورة لم تذكر هذه الغزوة إلاَّ كوسيلة لتعميق الإيمان في النفوس، وأن ما سوى ذلك تبع لذلك.

فبدأ ذكر الغزوة بأنه سبحانه هو الذي أخرج أولئك اليهود؛ لأنه هو الآمر به حقيقة، وهو الذي ألقى في قلوبهم الرعب حتى فتحوا حصونهم الحصينة بأيديهم، وخرجوا منها كارهين، ثم أكثرت

(١) تفسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٢).

مقاطع الآيات من نسبة ما حصل من نصر إلى الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾، ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

وبهذا يكون هذا النصر الذي تحقق للمؤمنين، والهزيمة التي مُنيَ بها يهود ناتج عن صفة من صفات الله تعالى، ألا وهي محبته للمؤمنين والعمل على نصرتهم وكراهيته للكافرين والعمل على هزيمتهم.

٢ـ أن الأمور مهما بلغت من العظمة في حساب البشر فإنها لا تقف أمام قدرة الله التي لا يعجزها شيء، وأن إرادة الله تعالى سيخلق لها من الأسباب ما يحققها لتكون مشاهدة في الواقع، فالنصُّ القرآني يشير إلى استبعاد بعض الصحابة خروج أولئك اليهود، من حصونهم لقوتها، وهذا الاستبعاد ناشيء عن تأثير القوة المادية في النفوس إذا ما نظر إليها من خلال المقاييس البشرية المعهودة، فالقوة الكبيرة تقول العقول أنها لا تهزمها إلاَّ قوة مثلها، أو أقوى منها، لذلك نجد المنافقين ليس لديهم إلاَّ المقاييس المادية والنظر إلى مدى تكافئها في حين أن المؤمنين آمنوا بقوة أخرى شاهدوها ببصائرهم وجربوها في غير ما موقعة فعلموا كيف تتفوق القوة القليلة في أعين الناس إذا اعتمدت على الله على قوة أكبر منها عددًا وعدة منخلعة الجذور عن الله.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى

ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾(١).

وقد يفهم من قوله: ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ علمهم بأن هذا الرجل هو رسول الله حقًا، وأن الذي يأمر به هو الحق، وأنهم بتحصنهم عنه إنما يتحصنون من الله الذي لا يعجزه شيء وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾(٢)، وقد ورد في كتب السير أن حيي بن أخطب سيد بني النضير عرف رسول الله ﷺ بنعته وصفته، فقال له أخوه أبوياسر: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت(٣). وهذا الجحود والتمادي فيه ليس غريبًا على صفات اليهود.

وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾. وهذا أمر لا يمكن التحصن منه. قال ﷺ: «**ونصرت بالرعب**»(٤) يقول صاحب الظلال: «أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم.. وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلاَّ أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم فهم لم يتحسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها، وهكذا حين يشأ الله أمرًا يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر، وهو يعلم كل شيء وهو على كل شيء قدير.. لقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلَّطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم ويمكنون المؤمنين من إخرابها»(٥).

ونحن اليوم منا من يظن أنهم مانعتهم حصونهم، فنستبعد

---

(١) سورة الحشر، آية: ٢.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٦.
(٣) مغازي موسى بن عقبة بواسطة هداية الحيارى، لابن القيم (٨٦)، والسيرة النبوية (٢/١٦٠).
(٤) أخرجه البخاري في التيمم، باب: ﴿فلم تجدوا ماء...﴾ (١/١٢٨) رقم (٣٢٨).
(٥) في ظلال القرآن (٣٥٢١).

خروجهم منها وكذلك هم يظنون أيضًا، وننسى أن هذ الحادثة بعينها قد وقعت فيما سبق فأخرجهم الله تعالى بعد أن هزمهم من داخلهم بالرعب الذي لم يستطيعوا مقاومته، لكن ذلك الرعب لم يقع حتى باشر المؤمنون الحصار ونبشوا بيوتهم من خارجها وحرقوا نخيلهم فحينئذ وقعوا في الرعب الذي كان سبب خروجهم. وهذه التجربة المبذولة في القرآن تنتظر عباد الرحمن الذين يستلهمون تعاليمهم من الله وحده، وحينئذ لا مكان لليهود الجبناء في الأراضي المقدسة.

٣- أن ما حصل لهم من جلاء وإخراج من الديار لهي عقوبة مناسبة لحالهم ولما صدر عنهم من غدر ولو لم تكتب عليهم تلك العقوبة لكتب عليهم القتل والسبي(١)، الذي أصاب بني قريظة فيما بعد، وتتفاوت العقوبتان لاختلاف الحال بينهما فما وقع من قريظة أشنع مما وقع من بني النضير كما سيأتي، وقد بيَّن حكمته فيما أوقعه بهم لئلا يتهم في عدله سبحانه، فنص على أن ذلك بسبب مشاقتهم لله ولرسوله. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾(٢).

وهذه المشاقة هي عينهاالتي تسببت في هزيمة المشركين ببدر، وقد وردت في سورة الأنفال بألفاظها، وأن الرعب الذي سلَّطه على بني النضير قد سلَّطه من قبل على مشركي مكة، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٣٣) بمعناه.
(٢) سورة الحشر، آية: ٣، ٤.
(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ١٢-١٣.

وبهذا نعلم عدل الله تعالى في عباده، وأنهم عنده سواسية، وأعمالهم هي التي تحدد ثوابهم وعقابهم، لا فرق بين يهودي ولا غيره، وإن زادت عقوبة اليهود، وكثر الحديث عنهم، فلزيادة الشر لديهم التي تفوقوا بها على البشر.

٤ـ لقد علم اليهود أن القاعدة التي بنى عليها الجهاد في سبيل الله قاعدة أخلاقية تتنافى مع الإفساد، فلما شرع رسول الله ﷺ في تقطيع نخيل بني النضير وحرقه قالوا له: «إنك كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه فما بالك تقطع نخلنا وتحرقها؟»(١) ولعل هذا الكلام أثّر في نفوس بعض الصحابة الذين قد اطّرد المنهج لديهم بأن الله لا يحب الفساد، ويذكرون ذم الله للمفسدين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾(٢) سيما والرسول ﷺ لم يقطع ويحرق كل النخل بل قطع بعضًا، وترك بعضًا، فاحتاجت هذه الشبهة إلى إجابة الوحي عليها، لكي تطمئن نفوسهم إلى صواب ما يفعلون وليكون جوابًا يواجهون به يهود الذين يتهمونهم بالإفساد.

فعن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم فقال المسلمون: قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا، فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾(٣).

«فأخبرهم أن ما قطع رسول الله ﷺ أو ترك فعن أمر الله

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٧١).
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٠٥.
(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القران، باب: من سورة الحشر (٥/ ٣٨٠). رقم (٣٣٠٣) وقال: «حسن غريب». انظر: ملحق (٢) ص (٤٣٢).

فعل»[١]. وهذا جواب يكفي المؤمن إذا ما علم أن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ بذلك، ولو لم يعلم الحكمة من ذلك، ومع ذلك نص عليها في قوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾ ولقد كان هذا العمل الحازم يرمي من ورائه إلى مصلحة كبيرة، وهي إلقاء الرعب في قلوبهم وإيلامهم بذلك، فغيظ أهل الكفر مقصد من مقاصد الشارع الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾[٢].

أما الفساد الذي لا يترتب عليه مصلحة أكبر منه فهو الذي نهى الله تعالى عنه.

وهذا الذي أشاعه يهود هو من جنس ما يشنع به على الإسلام من أنه شرع القتال، وحث عليه، وأمر بأسر الكفار في الحرب، وسبي ذراريهم ونسائهم ونحو ذلك، فيبرز ظاهر العمل وتغفل الحكمة التي من أجلها شرع، والتي ما أن تقرن بذلك الفعل حتى يتبين عدل الله ورحمته في ذلك التشريع.

٥ـ لقد كان للغنائم أثرها البارز في معركتي بدر وأحد. ففي معركة بدر عاتبهم على تنافسهم عليها، وأخذها من أيديهم وجعلها لله ورسوله، وفي أحد كانت من أسباب الهزيمة، وقد وردت آيات كثيرة تربي المؤمنين على الإنفاق والبذل وتحذرهم من البخل والشح، فاستفاد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من تلك التوجيهات الكريمة التي سبق بيانها، فما إن حصلت تلك الغنائم الكبيرة التي خلفها خروج بني النضير حتى استثمت تربية الصحابة في هذا الجانب وتطهروا من شح أنفسهم، فأظهر الأنصار الإيثار لإخوانهم المهاجرين مع ما بهم من حاجة نتيجة للتربية الإيمانية المتدرجة التي استحقوا أن يثني الله

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٧١).
(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٠.

تعالى بها عليهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

٦ـ لقد كشفت هذه السورة عن وعد المنافقين لليهود الذين لم يفوا به في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[2].

وقد تضمن قولهم جملة تأكيدات هي: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾: واللام هي الموطئة للقسم أي والله لئن أخرجتم[3]، ﴿أَبَدًا﴾ الدالة على الزمن الذي لا انقضاء لآخره[4] ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ ومؤكدة بما أكدت به، والمعنى: ووالله لئن قوتلتم لننصرنكم.

وبعد أن ذكر قولهم أعقبة بتكذيبهم ونقضهُ جملة جملة. وأورده مؤكدًا مثلما أوردوا وعدهم مؤكدًا ولكن شتان بين ما يؤكده المنافقون وبين ما يؤكده رب العالمين، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾. فنفى ما ذكروا وزاد عليه هزيمتهم لو حاولوا نصرهم.

وكان المؤمنون يقرأون هذا الوعد المؤكد من المنافقين الذي

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.
(٢) سورة الحشر، الآيتان: ١١ـ١٢.
(٣) فتح القدير (٥/ ٢٠١).
(٤) عمدة الحفاظ (١/ ٤٦).

ختم بتكذيبهم، ويرونه في واقع الأمر على ما ذكر تمامًا فيزدادون تعلقًا بالوحي وإيمانًا به، ويؤملون في نصر الله لهم عند اللقاء.

٧ـ ثم ينتقل السياق ليعرض معسكر الكفر على حقيقته، وبيان نفسيته المنهزمة الملازمة للرعب بقدر ملازمتها للكفر كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[1]. وهذا من أمر القلوب الذي لا يطلع عليها إلاَّ علاَّم الغيوب، إذ وصف رهبتهم من المؤمنين بأنها أشد من رهبتهم من الله، كما في قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[2] والرهبة: مخافة مع تحرز واضطراب[3].

ومن مجموع الآيتين يتبين أن أهل الإيمان هم الوسيلة التي بها يُلقي الله الرهبة والرعب في قلوب أهل الكفر، وأن ذلك لا يتم إلاَّ بالجهاد والإعداد لذلك ربط الله بينهما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[4] فدل على أن رهبة الكافرين يتسبب فيها المجاهدون في سبيل الله، ولعلَّ غيرهم من العُبَّاد والنُّسَّاك لا يشاركونهم هذه المنقبة، إذ الآيات تخاطب الصحابة بقوله ﴿لَأَنتُمْ﴾ وكانوا حينئذ في حالة الجهاد والإعداد، فعلى هذا تقصر رهبة الكفار من المؤمنين في حالة الجهاد، ويدل على ذلك مع ما ذكر واقع الحال. وختم الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ بيان للأمر الذي من أجله كانت رهبة المؤمنين في صدورهم أشد من رهبة الله، «إذ لو كان لهم فقه لعلموا أن الله هو الذي

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥١.

(٢) سورة الحشر، آية: ١٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (٣٦٦).

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

سلَّط المؤمنين عليهم فهو أحق بالرهبة»(١).

لقد ركَّز المولى ـ عز وجل ـ على التعريف بقلوبهم ؛ لأن الإنسان إنما يقاتل بقوة قلبه، فبيَّن فيها أمورًا تجلب لها الوهن والذل، فمع الرعب والرهبة فإنهم يشتد حذرهم من الموت، وقد دلَّ على ذلك عدم قتالهم في الميادين المكشوفة وشدة تحصنهم منه، إضافة إلى ما بينهم من التنافر الذي فرَّق قلوبهم، وهذا يؤدي إلى عدم ثقة بعضهم ببعض، وعدم وجود النصرة الحقيقية بينهم، مما يجعل الفرد منهم يعمل على نجاة نفسه فقط، غير متأسف على قتل صاحبه الذي لا يجد له في قلبه إلاَّ النفرة، وإلى هذه الحقائق النفيسة في كشف نفسية العدو أشار المولى ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾(٢).

فمن كانت هذه حاله كيف يلاقي المؤمنين الذين هم على قلب رجلٍ واحدٍ ويحب بعضهم بعضًا، إلى درجة الإيثار، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٣) والذين يتسابقون لنيل الشهادة في سبيل الله ويرونها من أفضل القربات عند الله؟

إن يهود بني النضير الذين نحن بصدد الحديث عنهم هزموا عن طريق إلقاء الرعب في قلوبهم، وليس ذلك خاصًّا بهم، بل يشترك معهم في ذلك غيرهم من الكفار، ممن كانوا على شاكلتهم، من أجل ذلك تكرر ذكر القلوب ومتعلقاتها في هذه السورة في مقاطع كثيرة لبيان أهميتها في حصول النصر، أو الوقوع في الهزيمة، ويتلخص ما ورد في

---

(١) فتح القدير (٥/٢٠١).
(٢) سورة الحشر، آية: ١٤.
(٣) سورة الحشر، آية: ٩.

ذكر القلوب فيما يلي:
١ـ أن هزيمة هذه الطائفة ابتدأت حينما وقع الرعب في قلوبهم.
٢ـ وأن سبب ذلك الرعب هو الكفر ومشاقة الله ورسوله وهذه من أعمال القلوب.
٣ـ أن الذين نصرهم الله ممَّن سلمت صدورهم وليس فيها إلاَّ المحبة والإيثار مع الإيمان.
٤ـ أن من جاء بعدهم ممن يسير على منهجهم يدعو الله قائلاً: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[١].
٥ـ أن المنافقين واليهود الذين هزمهم الله قد امتلأت صدورهم بالرهبة والخوف من المؤمنين والحذر من الموت، مع ما بينهم من البغضاء والتنافر، مما جعل قلوبهم شتَّىٰ.

ولا يخفى ما في هذا من حثِّ المؤمنين على سلامة الصدر فيما بينهم حيث جعله سببًا من أسباب النصر، وفقدانه عاملاً من عوامل الهزيمة.

ولقد أفادت هذه السورة في الوقوف على الحالة النفسية لمعسكر الكفر فإنهم مهما تظاهروا بوحدة الكلمة وارتفاع الروح المعنوية لديهم، فإن هذا أمرٌ لا يصدقه المؤمن الذي آمن بالوحي المعصوم، «فالمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض. . . ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم إنما هو مظهر خارجي خادع وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع، فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور، وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء وتصادم الاتجاهات»[٢].

(١) سورة الحشر، آية: ١٠.
(٢) في ظلال القرآن (٣٥٢٩).

وقد أعلم الله المؤمنين بهذه الحقائق لترتفع لديهم الروح المعنوية ولا يهمهم شأن الكفار مهما كثروا، إذا ما علموا تفرقهم وما انطوت عليه قلوبهم من الرعب والوهن، إذ هذه في حقيقتها هي الهزيمة الحقيقة.

وتزويد المؤمنين بهذه الحقائق هي جانب من نصرة الله تعالى للحق وأهله وإزهاق الباطل وأهله، وهو من عدل الله تعالى ورحمته.

## المبحث الخامس
# غزوة الأحزاب وبني قريظة في سورة الأحزاب

هذه الغزوة حلقة أيضًا من سلسلة الصراع المستمر بين أهل الحق وأهل الباطل، ولا تختلف في الدوافع والأهداف عما ذكرنا في المعارك السابقة، إلاَّ أن أهل الكفر قد ناصر بعضهم بعضًا بشكل أوضح مما سبق تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(١).

ومعرفة تأريخ الغزوات خاصة التي تناولها القرآن بالتفصيل على درجة من الأهمية، إذ أن السورة التي تذكر فيها الغزوة لا تسرد تلك الغزوة سردًا قصصيًّا بحيث تكون مقطوعة الصلة بواقعها، وإنما تذكر الغزوة من خلال ملابساتها، وظروفها، وواقعها، وأحوال المؤمنين، وأحوال عدوهم. لأن تلك الغزوة ما هي إلاَّ محطة من محطات مسيرة الإسلام، بحيث تنتقل بالمسلمين مما هم عليه إلى حال أفضل مما كانوا عليه. وطبيعي أن تتناول وضعهم في هذه المرحلة الزمنية، وتهيء لهم القدوم على المرحلة القادمة، ضمن منهج قرآني مطرد يشتمل على جانبين:

**الأول**: تربية المؤمنين علميًا وعمليًا، وبناء الإسلام وتعميقه في نفوسهم، وفي الوقت نفسه تمحيصهم من الذنوب والعيوب التي تشوه نظارة الأسلام، وتمنع الآخرين من الاهتداء به.

**الثاني**: إبراز العقبات التي تواجه مسيرة الحق، وكشف رموزها، وبيان كيفية التعامل معها بما يناسب الحال.

فإذا ما عرف تأريخ الغزوة، أمكن الوقوف على ملامح تلك المرحلة الزمنية، من خلال السورة التي تضمنت تلك الأحداث،

(١) سورة الأنفال، آية: ٧٣.

فالمرحلة الزمنية التي نزلت فيها سورة الأنفال، تختلف عن تلك التي نزلت فيها سورة الأحزاب، وتلك التي نزلت فيها سورة التوبة، والتي هي من آخر ما نزل تختلف عن تلك السور التي زامن نزولها بداية نشأة الدولة في أول العهد المدني. وغزوة الأحزاب وقعت في منتصف العهد المدني في السنة الخامسة للهجرة على القول الراجح(١) وقد أنزل الله تعالى فيها صدر سورة الأحزاب(٢)، وبالتالي فهذه السورة تمثل تلك الفترة الزمنية، وتشتمل على أهم سماتها.

لقد تحدثت سورة آل عمران كما سبق عن اليهود بشكل مفصل لما لهم في تلك المرحلة والتي تليها من خطورة على الدولة الإسلامية الناشئة، في الوقت الذي لم تفصل هذه السورة الحديث عن المنافقين علمًا بأنهم لا يقلون خطورة عن إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب في بعض الجوانب. فجاءت سورة الأحزاب مفصلة الحديث عن المنافقين تفصيلاً غير معهود فيما سبق. ثم نزلت سورة المنافقون والتي سميت باسمهم، ثم بلغ الحديث عنهم أَوْجَهُ في سورة براءة في آخر العهد المدني؛ للدلالة على أن خطورتهم ستستمر مصاحبة لمسيرة الإسلام، وأن الحاجة إلى كشف صفاتهم على درجة كبيرة من الأهمية.

أما يهود فكان ذكرهم في سورة الأحزاب، يتناسب وحجم قوتهم التي قد ضعفت بعد خروج طائفتين منهم، ولم يبق إلاَّ بنو قريظة الذين علَّم الله أن نهايتهم في أعقاب هذه الغزوة مباشرة.

وعلى ضوء التوجيهات الواردة في السورة فإن الدولة الإسلامية الناشئة في هذه المرحلة الزمنية قد قطعت شوطًا من البناء الإيماني، وأصبحت محتاجة إلى تنظيم الأوضاع الاجتماعية وخاصة ما يتعلق بالأسرة، فأنزل الله في هذه السورة حكم الظهار وبعض أحكام الزواج

(١) وهذا هو قول الجمهور على ماحكاه ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٩٥).
(٢) فتح الباري (٧/ ٤٥٤).

والطلاق، وأبطل التبني، وأبطل ما ترتب على المؤاخاة بين المؤمنين من التوارث، وقصره على أولي الأرحام، واهتم بالمرأة فبدأ بنساء النبي ﷺ وذكر مايليق بهن من الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، وخصهن بجملة من الآيات التي تجعل منهم القدوة لغيرهن من المؤمنات. ثم وجه المؤمنين إلى الطريقة المثلى في التعامل مع بيوت النبي ﷺ، وزوجاته في حياته وبعد مماته، ثم شرع الحجاب لجميع المؤمنات وفي مقدمتهن نساء النبي ﷺ وبناته(١).

أما فيما يتعلق بأعداء الدولة فإن أشدهم كيدًا هم اليهود، إذ هم أبصر خصوم النبي ﷺ بتعاليمه، وبتقدير مصير دعوته، وأعلم بما سيصيبهم إذا ظهر إذ سيفطمهم عن الفساد، وهم غير قادرين على ذلك لما جبلوا عليه.

وإذا كان المنافقون يخذلون الدولة في المواقف الحرجة ويكشفون العورات ويرجفون بالصف المسلم ويضعفون العزائم، فإن اليهود يتصلون بالعدو ويمهدون له الطريق في الدخول إلى المدينة، الأمر الذي قد لا ينحط إليه المنافقون الذين يعدون أنفسهم من أهل البلد، فإن لم يدافعوا عنه ديانة، دافعوا عنه حمية، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ لأجل ذلك استشار رسول الله ﷺ عبدالله بن أُبي يوم أُحد، فأشار عليه برأي صحيح، إذ أن الموقف كان يمس وطنه، بل قد قاتل بعض المنافقين، منهم قزمان الذي أبلى بلاءً شديدًا، إذ قتل وحده سبعة أو ثمانية، فلما أثبتته الجراح، وأشرف على الموت جعل بعض المسلمين يبشره بالجنة، فقال: بماذا أُبشر فوالله ما قاتلت إلاَّ عن أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٩٦٦، ٩١٥) مفرقًا بتصرف.
(٢) السيرة النبوية (٣/ ٥١)، وأصله في صحيح البخاري في المغازي، باب: غزوة خيبر (٤/ ١٥٣٩) رقم (٣٩٦٦).

وقد ظلَّ خطر المنافقين على الدولة كبيرًا، ما ظل اليهود في المدينة، إذ أنهم كانوا على صلة دائمة بهم، بل إن اليهود هم الذين أذكوا النفاق في المدينة، فلما تطهَّرت من يهود ضَعُفَ أمر النفاق(١).

**تأليب بني النضير للأحزاب:**

لقد هدأت الأوضاع بعد خروج بني النضير، لكنهم هم لم يهدأوا إذ عزَّ عليهم أن يروا من أخرجهم تزداد قوته وتتربى جماعته، فعملوا على النيل منه لكنهم علموا أنه أقوى من أن يواجهه خصومه فرادى، فقاموا بتوحيد صفوف أعدائه عليه، وتنظيم جهودهم، وتشكيلهم في جبهة واحدة بحيث تكون معركة حاسمة وجولة نهائية.

وتنفيذًا لهذه الخطة فقد اتصلوا بقبائل العرب «من قريش وبني أسد، وفَزَارة، وأشجع، وبني مرة، وسليم وغطفان»(٢) وفي سبيل إقناع بعض هؤلاء فضلوا وثنيتهم على ما جاء به محمد ﷺ من التوحيد، يقول الطبري: «كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبوعمَّار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذي حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قَدِمُوا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله(٣)، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود: إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول (٤٤٠) بتصرف.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٧١).

(٣) يذكر هذا باتفاق اليهود اليوم مع ضُلَّال البشر على حرب الدعوة الإسلامية والقائمين عليها، وتشويهها بالتهم التي هم أمهر الناس بها على ما يقول المثل «رمتني بدائها وانسلت» ويزداد كيدهم لكل عمل جهادي يقوم به المسلمون لأنهم يعلمون أن ذلك هو طريق عز المسلمين وفي الوقت نفسه طريق إذلال اليهود وإعادتهم إلى وضعهم الذليل الذي كتبه الله عليهم.

أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه»[(١)].

ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[(٢)].

وهذا يدل على خلوهم من مخافة الله تعالى، وإلاَّ لما فضلوا الوثنية على التوحيد فإن كانت عداوتهم للمسلمين تُمْلِي عليهم استنهاض العزائم، فليستنهضوها بتذكيرهم بقتلاهم يوم بدر مثلاً، أما أن يبلغ بهم الحال أن يزينوا لهم ما هم عليه من شركٍ ويكتموا ما يعلمون أنه الحق فهذا ظلمٌ لأولئك الجهلاء العرب الذين ينظرون إلى اليهود على أن شهادتهم مقبولة في هذا الأمر، فهذا الكفر والصد عن سبيل الله أعظم من كفر وصد من لم يستبن له الحق، كما هو الحال في كفر مشركي العرب، لذلك كان من عدل الله تعالى التفريق بين هؤلاء وأولئك في التعامل وفي العقوبة.

ومع تأليبهم لتلك القبائل، فإنهم يعولون على نصرة المنافقين لهم المندسين داخل الصف المسلم، ويؤملون أن تنقض قريظة العهد مع رسول الله ﷺ، إذ هم يعلمون أن تمسك هذه الطائفة من اليهود بالعهد إنما هو ناتج عن الخوف من عاقبة النقض الذي حلَّ بإخوانهم، وإلاَّ فهم يخفون البغض والكراهية لهذا الدين وأهله، بل إن بني قريظة قد نقضوا العهد من قبل فعفى عنهم رسول الله ﷺ[(٣)]، وتكراره مرة أخرى بعد تجديد العهد خطورة كبرى عليهم، لا يدفعهم إليها إلاَّ قدر كبير من إذكاء روح العدواة، مع إزالة الخوف الذي جُبِلُوا عليه.

---

(١) جامع البيان (٢٠/٢١٨)، والبداية والنهاية (٤/٩٦)، وزاد المعاد (٣/٢٧٠)، وفتح الباري (٧/ ٤٥٤) عن مغازي موسى بن عقبة.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٥١ـ٥٢.

(٣) اخرجه البخاري في المغازي، باب: حديث بني النضير (٤/١٤٧٨) رقم (٣٨٠٤).

وهذا ما حقَّقه لهم ذلك التجمع الكبير الذي لم يعهد مثله في الجزيرة بحيث يتناصر أهل الكفر على اختلاف أهوائهم على هدف واحد، وهو القضاء على الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة، والتي لم يكتمل بعدُ نموها وإعدادها، ليجعل من لم يستحضر تدبير الله لخلقه يجزم بأن هذه الجموع ستصل إلى هدفها.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾(١).

والسياق يدل على أن هذه الحادثة قد مضت وانقضت، وبقيت ذكرياتها حاضرة في النفوس.

وما أمر الله بتذكره هو كل الغزوة من بدايتها حينما جاءت جنود العدو، حتى نهايتها حينما هزمتهم جنود الله المرئية وغير المرئية، وهذا هو ملخص الغزوة على منهج القرآن الذي يوجز ثم يعقب ذلك بالتفصيل. وفي هذا الموجز الذي اختصرت فيه كل أحداث الغزوة أبرز أهم النتائج التي تمخضت عنها ألا وهو وصفها بأنها نعمة من الله تعالى على المؤمنين.

إن استقبال هذه الغزوة بالنظر يختلف عن استدبارها، فمن تأمَّل جموع الأحزاب وكثرتهاواتفاقها على هدفها، ورأى في المقابل قلة المسلمين وعوزهم ثم شاهد أقدار الله تعالى تدفع شرور تلك الجموع الكافرة، وتهيء الأسباب لهزيمتهم ورد كيدهم في نحورهم علم أنها نعمة عظيمة، متمثلة في نصرة الله تعالى لمن نصر دينه، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢).

ولكن ذلك بعد أن يخوض أنواعًا من الابتلاءات يثبت بها أنه أهل لهذا النصر ولولاية الله له.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٩.
(٢) سورة الحج، آية: ٤٠.

**نصرة الله للمؤمنين بغير الأسباب المألوفة :**

لقد كانت نصرة الله للمؤمنين فى هذا الموقف العصيب أنه قابل أهل الباطل بجنود من عنده، جاعلاً نفسه مع المؤمنين بحيث أن من اعتدى عليهم فقد اعتدى على الحق الذي أنزله الله، وأمر هؤلاء المؤمنين بامتثاله ونشره، ودعوة الناس إليه، ومن رام قتالهم كان لهم على الله حق النصرة، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ جنوده الذين نصر بهم المؤمنين، فقال : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ والعطف بين الريح(٢) وغيرها يقتضي المغايرة، فالريح لا ترى في الحقيقة وإنما يستدل عليها بآثارها التي قد شاهدها الصحابة وغيرهم. ولهذا لو قال: (ريحًا لم تروها) لأشكل على من لا يعرف حقيقة الريح واعترض بقوله: قد رأيناها، لكنه جعل هذا الوصف عقيب لفظ الجنود الذين من شأنهم أن يروا ليكون الوصف بعدم الرؤية محتملاً عوده على الجنود وعلى الريح، وهذا من إعجاز اللفظ القرآني ودقته.

وقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هكذا منكرة. قال جمعٌ من

---

(١) سورة الروم، آية: ٤٧.

(٢) أورد ابن جرير في تفسيره (٢١/ ١٢٧)، ونقله عنه ابن كثير (٣/ ٤٧١) وغيره قول عكرمة: «قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقي ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسري بالليل...» هذا الأثر في تحدث نوعين من الريح مع بعضها، مما لا يستغنى فيه عن التدليل عليه بنصوص الوحي، فإنه لا يعهد عن الريح الكلام، والآية التي ذكر هذا الأثر تفسيرًا لها، لاتوحي بأي شيء من ذلك. وتفسير القرآن الكريم لا يتوقف في إظهار محاسنه على إيراد أمثال هذه الغرائب، فالعبرة تكمن في كون تلك الريح من جنود الله التي ينصر بها عباده المؤمنين، لا في كلامها. ثم ماالفائدة المترتبة على حديث الريح مع بعضها تلك الليلة، والذي لو حصل فعلاً وكان فيه فائدة لذكره الله لنا. فالواجب التمشي مع النص وإيحاءآته ودلالاته، والبعد عن كل غريب عنه؛ حتى لا تختلط نصوص الوحي المعصومة بأقاويل لاتدل عليها، وليس كثير الكلام دائمًا يكسب مزيدًا من الايضاح، فالأفضل انتقاء ماهو أقرب إلي سياق النص وسباقه ولحاقه، وأن يجعل ذلك منهجًا يسار عليه في كل ماشابه هذا الموضع من كتب التفسير.

المفسرين[١]: هم الملائكة، وهذا محتمل ولكن اللفظ القرآني أوقع في النفس حينما أبهم من حصر المفسرين لتلك الجنود في جنس الملائكة، ولو شاء سبحانه أن يقول الملائكة لقالها، فقد صرَّح بذكرهم ببدر وأحد في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[٣].

ولكنه أطلق هنا فقال: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ والواجب إطلاق ما أطلقه الله وعدم الجزم بتحديد المراد إذا احتمل النص غيره، فإذا قلنا بهذا أخذت الكلمة مداها واتسعت بقدر اتساع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[٤] فيدخل في مدلول اللفظ الملائكة وغيرهم.

بعد هذا الإجمال شرع في التفصيل، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[٥] إنها حقًّا مرحلة عصيبة، وفترة قاسية، ربَّى الله المؤمنين من خلالها، إذ هذا جزءٌ من إعداد الصفوة المباركة التي يُراد لها إنقاذ البشرية على تحمل المصاعب، والابتلاءات والشدائد وسائر المخاوف التي تعترض سبيلهم ليصبحوا مؤهلين في مواجهة مثيلاتها «فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية، لا تصاغ صياغة سليمة، ولا تنضج نضجًا صحيحًا، ولا تصح وتستقيم على منهج إلاَّ بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية التي تحفر في القلوب، وتنقش في الأعصاب، وتأخذ من النفوس وتعطي في

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢١٧)، والكشاف (٣/ ٥١٠)، والجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٩٥)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧١).
(٢) سورة الأنفال، آية: ١٢.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٢٤.
(٤) سورة المدثر، آية: ٣١.
(٥) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠-١١.

معترك الحياة ومصطرع الأحداث»(١).

ومهما قلنا أنها فترة عصيبة وحاولنا الاقتراب من حقيقة ما حصل فإنا نبقى ولا شك بعيدًا عنها، ولا نستطيع أن نتصورها تصورًا حقيقيًا؛ لأننا لم نعايشها ولم يلفحنا لهيبها، كما حصل للصحابة ـ رضي اللهعنهم ـ الذين عايشوا أحداثها، وكانت ذواتهم معبرًا لتلك الحوادث الجسام حتى أصبح من الصعوبة الفصل بينهم وبينها، وبهذا فهم أكثر الناس إفادة منها، وأعظمهم شعورًا بعظيم نعمة الله عليهم، ولقوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ وقع في نفوسهم يختلف عن وقعه في نفوس غيرهم ممن لم يجرب مثل تجربتهم.

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ هذه جهات معينة يعلمها المخاطبون بها آنذاك؛ لأنهم قد شاهدوا العدو عندما جاء منها فعلاً، وقد حدَّد القرطبي تلك الجهات فقال: (من فوقكم) من أعلى الوادي من جهة المشرق، وذكر من جاءمن هذه الجهة من الأعداء (ومن أسفل منكم) أي من أسفل الوادي من قبل المغرب، وذكر من جاء منها أيضًا(٢)، وهاتان الجهتان التي جاء منها العدو متقابلتان بحيث أصبح المسلمون بينهم «بين فكي كماشة» كما يقال، وخطورتها لا تخفى فإذا ما قام المسلمون بحشد طاقاتهم لمواجهة إحداهما هاجمت الثانية من الجهة الأخرى.

**زلزلة المؤمنين والغرض منها:**

فذكر أثر هذا التطويق على نفوس المؤمنين مع ما هم عليه من تربية وصحبة لرسول ﷺ، ومقدار ما بلغ بهم من الخوف، ووصف آثاره في الظاهر والباطن وصفًا دقيقًا يكاد الموصوف من خلاله يظهر للعيان، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ(٣) وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ

---

(١) في ظلال القرآن (٢٨٣٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٩٥).

(٣) هذا فيه سؤال للمختصين: هل يرتفع القلب عند الفزع والخوف الشديد أم أن هذا =

ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ وهذه حالة الخائف الفزع الذي يتوقع أن يؤخذ في أي لحظة، ولكن لا يدري متى وكيف.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ تلك الزلزلة يشعر السياق بأنها مقدرة من المولى ـ عز وجل ـ لأمر عظيم تكرر ذكره في مواقف كثيرة تشعر كثرتها بملازمته للمؤمنين ألا وهو الابتلاء الذي يُراد منه أن تتكشف الحقائق التي انطوت عليها القلوب، والتي يعلم الله تعالى أنها منطوية عليها قبل الابتلاء فيأتي الابتلاء فيجعل ذلك المعلوم مشاهدًا يراه الناس «فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه»(١).

إن لفظ (الزلزلة) ليدل على المقصود منها بمقدار ما يدل على شدتها على المؤمنين حتى لكأن المؤمنين قد اختلط بهم من مرضى القلوب، وأهل النفاق ما يحتاجونه معه إلى تلك الزلزلة التي تميز الخبيث من الطيب، كما يفعل بالحب حينما يوضع في المنخل، فيهز هزًّا شديدًا ليبقى الحب، وتتطاير القشور التي لا فائدة منها، ويشعر الإظهار فيما حقه الإضمار في قوله: ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أن المقصود هو تحقق صفة الإيمان المقابلة لصفة النفاق.

لقد عصرتهم الأحداث وآلمتهم لا للانتقام منهم بل ليكونوا على حال أكمل مما هم عليه كما يفعل بالمريض عندما يعالج بالدواء الكرية، وفيّ بعض الأحيان يستأصل منه المرض بعملية جراحية مؤلمة يتعافى الجسم على أثرها ولو لم يفعل به ذلك لقضى عليه المرض(٢).

لكن الأمر الذي يوقع الرهبة في القلوب أن حصيلة هذا الابتلاء من أقوال وأعمال وحركات وسكنات حتى الظنون والخواطر تقع في علم الله

---

= الأسلوب جاء على معهود كلام العرب؟

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٤).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢١) المعنى.

وسمعه وبصره، وهي التي يقيّم على ضوئها الأفراد وتعتبر انعكاسًا صادقًا لما انطوت عليه الصدور من خيرٍ أو شرٍّ.

إن الصدور لا تخفي عنه سبحانه ما يتجلجل فيها، ولا يخفى عليه من أمر عباده شيءٌ.

ولما كشف تلك النتيجة التي أفرزها ذلك الابتلاء وتلك الزلزلة إنما فعل ذلك لأمر عظيم وغاية من أجلها بعثت الرسل ألا وهي تحقيق عبوديته بعد العلم بكمال ربوبيته على خلقه، ولينقل عباده من تلك الحال التي لم يكتمل فيها إيمان بعضهم إلى حال أكمل يستشعر فيها العبد مراقبة الله له حتى كأنه يراه ألا وهي درجة الإحسان التي قال فيها ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك**»(١).

لقد أفرز ذلك الابتلاء ظنونًا مختلفة، ورد ذكرها في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ والظنون جمع ظن، وهي منسوبة للمؤمنين.

ولقد أبهمت ولم تذكر، إذ يحتمل أنها لتنوعها لا يحسن التنصيص على كل واحد منها، ويحتمل أن تكون هي التي فسرت فيما بعد في قول المنافقين ومرضى القلوب، وقول المؤمنين، على ما ذكره الحسن: قال: «ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمدًا ﷺ وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهر على الدين كله ولو كره المشركون»(٢).

وتلك الظنون قد ذكرت في سياق شدة الخوف والكرب وفي معرض الامتنان عليهم، وذلك يشعر بأن بعضها مما تقتضيه الطبيعة البشرية إذا ما استولى عليها الفزع، وهذا هو الأقرب للسياق، فإنه يعظم الامتنان بالنعمة إذا كان المنعَم عليه قد قابلها بشيء من التقصير، وهذا موافق لما ذكره ابن إسحاق في قوله: «ظن المؤمنون كل

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ (١/ ٢٧) رقم (٥٠).
(٢) جامع البيان (٢١/ ٢٢١)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٣).

ظن»[١]، ولا يخفى أن صحابة رسول الله ﷺ كغيرهم من البشر، ويقع من أفرادهم ما يقع عادة من البشر، لذلك لا يستبعد بموجب تلك الزلزلة التي وصفها الله بالشدة أن يقع في خلد بعضهم احتمال استئصال الكفار لهم، أو أن يحصل لهم كالذي حصل يوم أحد، وهم يعلمون أن نصر الله لهم مرتب على أعمالهم، وهم لا يزعمون أن أعمالهم موافقة تمامًا لما يريد الله فينتج عن ذلك تقلبهم بين الخوف والرجاء المستتبع لاختلاف ظنونهم «وكثرة الهواجس والظنون عند المؤمنين لا يتعارض مع ماوصفهم الله به من الإيمان والتصديق بالله ورسوله؛ لأن هذه الظنون من قبيل وسوسة النفس وهواجس القلب التي تنشأ من الخوف الطبيعي ولا يمكن للبشر دفعها، وهذه وأمثالها معفو عنها»[٢].

إن تلك الزلزلة التي شملت الجميع هي من معهود ما ابتلى الله به الأنبياء وأتباعهم من قبل، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ[٣] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[٤] وهي آية نزلت في سورة البقرة المتقدم نزولها على سورة الأحزاب،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٣).

(٢) روح المعاني، للألوسي (٢١/ ٥٧).

(٣) ولا داعي إلى التكلف وتأويل النص، بالقول بأن الرسول لم يقع منه استبطاء النصر، فهذا معارض لظاهر القرآن، وبالتالي لا نحتاج إلى ماذكر من قول بعضهم في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: «حتى يقول الذي آمنوا متى نصر الله فيقول الرسول ألاَ أن نصر الله قريب» على ماذكره القرطبي ـ عن بعضهم ـ في تفسيره (٣/ ٢٥). فهذا كلام مخالف تمامًا لما دلت عليه الآية، ولو جاءنا عن رسول الله ﷺ لقلنا سمعنا وأطعنا، لكنه جاء عن طريق قوم اعتقدوا أن مثل هذا الكلام لايمكن صدوره من الرسول، فجعلوا يقدمون ويؤخرون في الألفاظ لتوافق مرادهم، وماعلموا أن وقوع هذا القول من الرسول أدل على شدة الزلزلة التي هي مقصودة من السياق. وأفضل من كتب في هذا الموضوع شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠]. في مجموع الفتاوى (١٥ـ١٧٥ـ١٩٥)، ودقائق التفسير (٣/ ١٠٣ـ٣١١).

(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٤.

فجاءت هذه الأحداث وإذا بالمسلمين تنزل بهم تلك الزلزلة التي كانوا يقرأونها فيما سبق عن الأنبياء وأتباعهم، ويشاهدونها أمام أعينهم، وفي أنفسهم، وهذا جمع بين النظرية والتطبيق في التربية الإلـٰهية ـ وقد مر معنا أمثلة له كثيرة ـ وكأن من قال من المؤمنين «هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله» قالها حينما استحضر آية البقرة المتقدم ذكرها والتي يربِّيهم النبي ﷺ من قبل على توطين النفس على مدلولها.

وقد صوَّر حذيفة ـ رضي الله عنه ـ جانبًا من الشدة التي بلغتهم في قوله: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل ثم التفت فقال: «**من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ ـ يشترط له النبي ﷺ أن يرجع ـ أدخله الله الجنة**» قال: فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويًّا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «**من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة**» فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دعاني»[١].

هذه الأحداث التي زلزلت الصحابة إلى درجة أن النبي ﷺ يشترط لأحدهم الرجعة ويسأل الله أن يرافقه في الجنة، ثم لا يقوم منهم أحد، لهي أحداث عظام لا يقدرها قدرها إلاَّ من عايشها.

لقد سبق أن مر على الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ تجربة مشابهة حين خوفوا باجتماع الناس على حربهم بعد يوم أحد، فثبتوا مستعينين بالله فأثنى الله على موقفهم ثناءً متضمنًا ملازمته فيما يستقبلون من أحداث فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب (٣/ ١٤١٤) رقم (١٧٨٨) بنحوه.

﴿يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾(١).

لقد تهيئوا لملاقاة أعدائهم فكان ذلك درسًا نظريًا، وأما يوم الخندق فهو درسٌ عمليٌّ، فالناس قد جمعوا لهم فعلاً، وأحاطوا بهم يرونهم رأي العين وليس مجرد قول، فكانت الأولى تقدمه للثانية، فشابه قولهم في الثانية قولهم في الأولى، فأثنى الله عليهم في هذه كما أثنى عليهم من قبل فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾(٢).

وفي كلا الحالين ذكر الله زيادة إيمانهم إذ هو أهم ما يتحصل عليه المجاهدون من تلك الشدائد التي يصدق فيها تعلقهم بالله ويعظم توكلهم عليه.

**صفات المنافقين ومرضى القلوب:**

لقد كشفت تلك الزلزلة والابتلاء النفاق وأبرزت صفات المنافقين، ولم تذكر أسماءهم لتكون تلك الصفات علامةً بارزة يهتدي بها المؤمنون لكشف ذلك العدو المتربص داخل الصف المسلم. فشرع في تفصيل أحوالهم وصفاتهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾(٣) ويظهر من كلام بعض المفسرين أن المنافقين غير الذين في قلوبهم مرض، بدلالة العطف المقتضي للمغايرة. قال ابن جرير في قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك في الإيمان، وضعف في اعتقادهم(٤) وكأن الأولى للمنافقين، والثانية لضعاف الإيمان. وقال ابن كثير: «أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضَعُفَ حالُه، فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ماهو فيه من ضيق الحال»(٥).

---

(١) سوة آل عمران، الآيتان: ١٧٣-١٧٤.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢٢.
(٣) سورة الأحزاب، آية: ١٢.
(٤) جامع البيان (٢١/٢٢٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٧٤).

وهذا القول وإن كان أقرب إلى حال المنافقين ويكون «العطف للتغاير في الصفة لا في الموصوف، ويفيد أنهم جمعوا بين النفاق في العقيدة، وبين مرض القلب الذي هو الغل والحقد، والجبن، وحب الدنيا»[١] فإنه لا يبعد أن يصدر مثله من صاحب الإيمان الضعيف الذي لم يستقر الإيمان في قلبه إذا ماعركته الفتنة والابتلاء. والجزم بأن القول الفلاني لا يصدر إلاَّ من منافق يحتاج إلى دليل، فالملابسات التي تحيط بقول أو فعل معين معتبرة في الحكم، ولهذا أمثلة منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[٢]، ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[٣] وغيرها. وقد تلازم الوصف بالنفاق ومرض القلب في آيات عدة منها هذه. وقوله في آخر السورة (﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ وهم هنا: الزناة كما قال عكرمة وغيره[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[٥] ومرضى القلوب هنا: «قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة، ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأو المسلمين قالوا ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[٦]».

وعلى هذا يمكن أن يقال: أن المنافقين هم الخلص الذين يقابلون المؤمنين الخلص، ومرضى القلوب هم الذين في طور التبين، ولديهم اضطراب وضعف في إيمانهم يفوح عند تأثير الفتن.

ثم اختص قولاً من أقوالهم الأخرى بالذكر ونسبه عدلاً منه سبحانه إلى طائفة منهم وليس كلهم. فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ

(١) غزوة الأحزاب، الفنيسان (١٦٩).
(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٤.
(٣) سورة النساء، آية: ٧٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٠).
(٥) سورة الأنفال، آية: ٤٩.
(٦) الدر المنثور (٤/ ٧٩).

يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[١] والضمير «منهم» يعود على المنافقين ومرضى القلوب، ويظهر أنه يعاملهم على أنهم جهة واحدة، إما لأنهم وقت الشدائد يشبه حالهم حال المنافقين، أو أن تلك المقولة التي صدرت منهم ألحقتهم بهم.

وقولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يفيد تنصلهم من تسميتها بالمدينة الواردة في أربع مواضع من كتاب الله تعالى[٢]، وكأنهم يشيرون إلى تنصلهم من استخدام الألفاظ الشرعية التي لا يستبعد أنه يرددونها في الرخاء أمام المؤمنين، لتصح نسبتهم إلى الصف المسلم، إذ ذلك من أمور الظاهر التي يتعاطونها فلما جد الجدُّ ظهروا على حقيقتهم.

كما أن تخصيص أهل يثرب بالنداء يقصد من ورائه عزل الأنصار عن المهاجرين الذي ليسوا من أهل يثرب، فأبرزوا رابطة الأرض بدل رابطة الإيمان التي ألفت بين المؤمنين وأيضًا فهي دعوة إلى نبذ ما بين الفريقين من مواثيق النصرة والتآخي التي ربطهم بها الإسلام[٣]. وهي من جنس الدعوة إلى القومية في وقتنا الحاضر، التي أصبحت مزاحمة لرابطة الإيمان والإسلام، فيقال: العرب والمسلمون، والله يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾[٥]، ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾[٦]، وليس العرب قبل مجيء الإسلام بشيء، أيضًا وليس كل العرب مسلمين، فهذا الاسم إذا تجمع الناس حوله دخل معهم النصراني العربي واليهودي العربي والمشرك العربي. أما إذا قيل المسلم اتسعت الدائرة لكنها لا تشمل إلاَّ المسلمين على اختلاف

(١) سورة الأحزاب، آية: ١٣.
(٢) سورة التوبة: ١٠١، ١٢٠. الأحزاب: ٦٠. المنافقون: ٨.
(٣) غزوة الأحزاب (١٧٠) بتصرف.
(٤) سورة الحجرات، آية: ١٠.
(٥) سورة المؤمنون، آية: ١.
(٦) سورة الحج، آية: ٧٨.

ألسنتهم وألوانهم وأوطانهم[١].

يقول الشيخ ابن باز: «لا ريب أن الدعوة إلى أن تكون القومية العربية هي الرابطة الأولى بين العرب، دعوة باطلة لا أساس لها يؤيدها لا من العقل ولا من النقل، بل هي دعوة جاهلية إلحادية يهدف دعاتها إلى محاربة الإسلام، والتملص من أحكامه وتعاليمه، وقد يدعو إليها من لا يقصد هذا المعنى، وإنما دعا إليها تقليدًا لغيره وإحسانًا للظن به، ولو عرف حقيقة المقصود منها لحاربها وابتعد عنها، وكل من له أدنى معرفة بتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده يعلم أنه لم يكن للعرب كبير قيمة تذكر، ولا راية ترهب إلاَّ بالإسلام وبه فتحوا البلاد وسادوا العباد، وبه كانوا أمة عظيمة مرهوبة الجانب، محترمة الحقوق، مرفوعة الرأس، حتى غيَّرو فغُيِّر عليهم، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢][٣].

إن قولهم: «ياأهل يثرب» قول مدخول قد لا يظهر دلالته على النفاق لأول وهلة، فالنفاق أمر خفي، وأصحابه يجتهدون في إخفائه عن المؤمنين، حتى لا يتهمون به، إلى درجة أنه قد لا يعرف إلاَّ في لحن القول، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾[٤]. ولهذا جاء القرآن بأقوالهم المتضمنة الدلالة على النفاق مخفيًا في بعض المواضع محل الشاهد بحيث أنه قد لايفهم إلاَّ استنباطًا موافقة لحالهم. ومن ذلك قولهم: «ياأهل يثرب» فعلى ما سبق أن ذكرنا فيه، فإنهم قد يعتذرون عن إطلاقها ـ مخفين نية السوء ـ

(١) وقد بين خطورة هذه الدعوة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في كتابه نقد القومية العربية.

(٢) سورة الرعد، آية: ١١.

(٣) فتاوى ورسائل ابن باز ٢٤٥.

(٤) سورة محمد، الآيتان: ٢٩ـ٣٠.

بأنها التسمية القديمة التي عرفت بها زمنًا طويلاً.

«فارجعوا» لم يقولوا عن رسول الله ﷺ علمًا بأن ذلك هو المقصود. وعلى ضوء هذا يظهر أنهم يتكاتمون قولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ إذ لو أظهروه للمؤمنين لانفضحوا وهم يتجنبون ذلك، ويتعاهدون الاهتمام بظواهرهم بحيث لايُرى أو يُسمع منهم إلاَّ ما يليق بالمسلم، مع أنه قد يغلبهم مافي أنفسهم فيخرج عند الشدة بعض مايدل عليه.

وكذلك جعلت لهم علامة أخرى في أعمالهم وهي تملصهم من الصف المسلم ولئلا يتهموا بذلك، ويتظاهرون بكونهم جنودًا أوفياء، فإنهم يستأذنون الرسول الله ﷺ ولا ينسون أن يهيئوا بعض الأعذار التي ماهي إلاَّ وسيلة للفرار، وإلاَّ فهم قد قرروا الرجوع قبل الاستئذان. كما ذكر الله تعالى عنهم في قوله﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤﴾(١).

كما بيّن سبحانه أنهم على أهبة الاستعداد لقبول الكفر والردة ممن سألهم إياها، حتى لو كان السائل قد استباح ديارهم وهتك حرماتهم(٢)، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤﴾ وهذا في غاية الذم، إذ أن من استبيحت دياره تأخذه الحمية ـ ولو لم تكن بدافع الدين ـ فيغضب على من استباحها ويقف منه موقف المبغض المخالف، أما هؤلاء المنافقون فقد بلغ بهم الذل والخضوع إلى طاعة من غلبهم أيًّا كان حتى قبلوا التنازل عن دينهم ومبادئهم لكل من سألهم ذلك. أما اليسير المشار إليه في قوله ﴿إِلَّا

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٣ـ١٤.

(٢) فتح القدير (٤/٢٥٩) بتصرف.

﴿يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ فلعله الوقت اليسير الذي يبحثون فيه عن الأعذار التي تجنبهم مرارة النقد على ترك عهودهم، وما أظهروه من موافقة للمسلمين على دينهم من قبل.

ثم وصفهم بأقبح صورة مركبة من الجبن المفرط في ساعة الشدة، والاضطراب عند توهم الخطر ولو من بعيد، وفي حال الرخاء أصحاب لسن وكلام وغالبه غيبة ونميمة في أعراض المؤمنين. قال تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١)، هذه الصورة التي تكاد تكون شاخصة للعيان موجودة داخل الصف المسلم بدلالة «منكم» وعرضها بهذه الدقة وهذا التفصيل أوقع في النفس، وأدعى لتجنبها، وأبرز ما فيها اجتماع صفتي الشح والجبن الذميمتين اللتين قد حذر منهما رسول الله ﷺ وربى صحابته على تجنبهما في قوله: «**شر مافي رجل شح هالع وجبن خالع**»(٢)

**الأسوة الحسنة:**

وعلى منهج القرآن الذي يعرض الحق مقابل الباطل، وأهل الإيمان مقابل أهل الكفر والنفاق. فقد أتبع صفات المنافقين التي أسهب في تفصيلها مقرونة بالاحتقار بموقف أهل الإيمان الذين وإن زلزلوا وخوفوا إلاَّ أن ذلك لم يفقدهم ثقتهم في الله، والأمل بنصره، فبدأ برسول الله ﷺ فأثنى عليه ضمنيًا، حيث أحال على ماصدر عنه ﷺ من

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ١٨-٢٠.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٠٢)، وأبوداود في الجهاد، باب: في الجرأة والجبن (٢/٤٧٧) رقم (٢١٩٣). انظر: ملحق (٢) ص (٤٣٢).

أقوال وأعمال وتصرفات، وجعله أسوة حسنة للمؤمنين فدلّ على كمالها وموافقتها لمراد الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[(١)].

ومن هنا فلابد من ذكر طرف منها لنتخطى بتلك الأسوة عصر الصحابة إلى كل من أراد الاهتداء بهديه وقت الشدائد، ولنتبين الكيفية التي يجب أن يكون عليها القائد المسلم إذا ماتعرض لأمثال تلك الأزمات. لقد قام ﷺ بما أملته عليه قيادته الحكيمة، فما أن سمع بتجمع الأحزاب للقضاء عليه حتى جمع أصحابه ليستشيرهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الموقف «فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدو بين المدينة، فأمر به وعمل فيه بنفسه»[(٢)]، ولقد شارك صحابته فيما يترفع عنه عادة الرؤساء والقادة، فكان يضرب بالفأس ويجرف بالمسحاة، ويحمل التراب في المكتل ترغيبًا للمسلمين، ومشاركة في الأجر، فعن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل معنا التراب، ولقد وارى التراب بياض بطنه[(٣)]. بل إنهم يستعينونه فيما عجزوا عنه من العمل، فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْيَة شديدة فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ـ ثلاثة أيام لانذوق ذواقًا ـ فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكُدية فعاد كثيبًا أهيل. . . »[(٤)]، ويشير الحديث إلى مشاركته لهم، ليس في التعب والخوف فقط، بل والجوع بدلالة ربطه الحجر على بطنه الشريف، وكان يعمل معهم بروح الفريق الواحد، فيرفع معنوياتهم

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٧١)، وفتح الباري (٧/ ٤٥٣).
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الخندق (٤/ ١٥٠٧) رقم (٣٨٨٠).
(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الخندق (٤/ ١٥٠٥) رقم (٣٨٧٦).

ويبشرهم بالنصر في أحلك الظروف. ففي حديث الصخرة المتقدم زيادة، قال الحافظ عن إسنادها بأنه حسن «**فأخذ المعول فقال: بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**»(١).

وربما رفع صوته بما يرددونه من رجز هادف، فعن البراء، قال: سمعته ﷺ يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمد صوته بأخرها(٢)، وكانت مشاركته لأصحابه تفجر طاقاتهم وتزيد من نشاطهم، ويعاملونه كما لو كان والدهم جميعًا، فيبذل لهم الشكر والدعاء، ويقابلونه بالرضا بما هم فيه ويعاهدونه على الاستمرار في الجهاد. فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**»، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد مابقينا أبدًا(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٠٣) وغيره، وقال الألباني: إسناده حسن. انظر: ملحق (٢) ص (٤٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الخندق (٤/١٥٠٧) رقم (٣٨٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الخندق (٤/١٥٠٤) رقم (٣٨٧٤).

وكان ﷺ يكافيء من أحسن على صنيعه ليبث روح التنافس بينهم، ومن ذلك قوله: «**من يأتينا بخبر القوم؟ أعادها ثلاثًا، وفي كل مرة يقول الزبير: أنا فقال ﷺ: إن لكل نبي حواريًا، وإن حواري الزبير**»(١). وكان ﷺ يستغرق في العمل الدؤوب حتى إنه ربما فاتته الصلاة لكثرة مشاغله، فعن جابر بن عبدالله: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، وقال: يارسول الله ماكدت أن أصلي، حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبي ﷺ: «**والله ماصليتها**» فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ماغربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب(٢). لقد فاوض ﷺ بعض القبائل على أن تفض التحالف وتنصرف من ميدان المعركة، ولم يكن الأمر الذي فاوض عليه ﷺ جوهريًا، كأن يقرهم على شركهم، أو يترك عدواتهم، أو يتنازل عن بعض ما أنزل الله إليه، ليظهر إمكانية معايشتهم، فهذا ترك للحق وركون للباطل، وهو معصوم منه، وإنما أراد المفاوضة على أمر دنيوي زائل، وهو إعطاؤهم ثلث ثمار المدينة(٣)، وهذا يدل على تقديمه أمر الدين على الدنيا، كما يدل على معرفة دوافع ونفسيات الأعداء ومعاملتهم بحسب ذلك خلافًا لمن يزهد في معرفة مخططات العدو، ويرى أن الحاجة إليها غير قائمة، وأن توعية الأمة لتأخذ حذرها منها من فضول العلم.

إن من أعظم صفاته التي تحلى بها في مواجهة شدائد غزوة الأحزاب، هي ثباته ورباطة جأشه، وتعلقه بالله تعالى، وثقته بالنصر، ودنو الفرج، وهذا من عظيم إيمانه بوعد الله تعالى، ولتمام معرفته بالله تعالى وبأسمائه وصفاته «التي تأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الخندق (٤/ ١٥٠٩) رقم (٣٨٨٧).
(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الخندق (٤/ ١٥٠٩) رقم (٣٨٨٦).
(٣) زاد المعاد (٢٧٣).

النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به»(١).

ولقد اكتسب الصحابة هذه المعاني الكريمة منه ﷺ، فهم وإن زلزلوا وخوفوا، إلاَّ إنهم ثبتوا وصبروا، فعلموا أن صبرهم وتقواهم لله تعالى كفيلة بتجاوز جميع العقبات، وإن ظهرت في عيون أصحاب المقاييس المادية غير قابلة للتجاوز، لقد ازدادو يقينًا بعد ذلك في غزواتهم بأنهم على موعد من الله في فتح البلدان التي بشرهم النبي ﷺ بها في الحديث السابق، ولا يهمهم كثرة جموع أهلها، إنما المهم لديهم الاحتراس من أن يؤتوا من قبل أنفسهم. ويدل على قوة يقينهم قول المغيرة ـ رضي الله عنه ـ «فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا: أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلهاقط، ومن بقي منا ملك رقابكم»(٢).

كما أكدت هذه الغزوة أن أهل الكفر يدٌ واحدة على اختلاف أهوائهم في القضاء على الإسلام، لعلمهم أنه لا يقر التعايش معهم إلاَّ أن ينحرف به عن مساره الذي أراده الله، فالجموع التي حاصرت المسلمين بالمدينة يومذاك بعضها لم يحصل بينهم وبين المسلمين قتال فيما سبق، ومع ذلك فظاهر قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾(٣) يدل على وجود الغيظ في قلوب الجميع، وهذه هي العداوة التي يسببها الاختلاف في المعتقد، كما سبق بيانه في الفصل الأول. فرسول الله ﷺ وصحابته يعلمون عداوة أهل الباطل لهم حتى لو تظاهروا بكف الأذى وإخفاء العداوة، فالإيمان بنصوص الوحي تمنع تصديقهم، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ

(١) المرجع نفسه (٢٢٩).
(٢) سبق تخريجه ص(٢٤٦).
(٣) سورة الأحزاب، آية: ٢٥.

إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾(١)، ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾(٢)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾(٣)، ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾(٤)، ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(٥). لأجل هذه المعرفة القرآنية التي تكشف بواطن الكفار كما تكشف ظواهرهم وتبديهم على حقيقتهم، لم يستدر رسول الله ﷺ عطف تلك الجموع، بل شرع في حفر الخندق على مافيه من جهد لعلمه أن الكفار لايمنعهم من القضاء على المسلمين إلاَّ قدرتهم على ذلك. وهذا الفهم مخالف لحال كثير من المسلمين اليوم الذين يعتدي عليهم لأجل دينهم، كما يؤكده القرآن ثم تغيب عنم الأسوة الحسنة المتمثلة في الرسول ﷺ فيلجأون إلى المظاهرات السلمية، ورفع لافتات تندد بالقتل، والاغتصاب، والمقابر الجماعية، وقتل النساء والشيوخ والأطفال التي أشفى الكفار غيظهم بها. ولعل الكفار لا يفرحون بشيء فرحهم بأن المسلمين قد استعاضوا عن حمل السلاح بحمل تلك اللافتات، والذي لم يدل عليها كتاب ولا سنة، بل ولم يوجد لها في تأريخ المسلمين الطويل من أصل تستند عليه، وإنما هي مصنوعة ومستوردة من ديار الكفر، وكأنها مصنوعة خصيصًا للمسلمين أثناء الاعتداء عليهم. أما أهل الكفر فلم يثقوا في حمايتها لهم بل علموا أن الحماية لاتكون إلاَّ في استخدام القوة التي أشار إليها رسول الله ﷺ

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٩.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٠.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٨.
(٤) سورة التوبة، آية: ٨.
(٥) سورة التوبة، آية: ١٠.

بقوله: «ألا إن القوة الرمي»(١).

ومن كيدهم بالمسلمين أنهم روجوا لأهمية تلك اللافتات بين جهلة المسلمين إذا تظاهروا بأن تلك المسيرات السلمية التي يختلط فيها النساء مع الرجال تدمر سمعة المعتدي الأدبية، وهذه الأخيرة في حقيقة أمرها لايعبأ بها ـ في عالم لا يحترم إلاَّ منطق القوة ـ إلاَّ بالقدر الذي يجعل المسلمين يتمسكون بها. إن أمثال هؤلاء الأغرار الذين لم يتربوا على مائدة القرآن ليوضع لهم الفخ المناسب فيقعوا فيه لا شعوريًا كما أُريد لهم، وتسفك دماؤهم رخيصة في كل مكان، ولا يشفع لهم كونهم عزلاً من السلاح، بل ذلك يشجع عليهم الجبناء، ويشترك في قتلهم حتى الصبيان والنساء. ثم يَسألون: أنى هذا، فيقال: هو من ترك توجيهات القرآن القائلة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(٢) فاستبدلتم تلك الوصايا القرآنية باللافتات البيض التي يواجه بها العدو المدجج بالسلاح، فخالفتم أمر ربكم، وخالفتم السنن الاجتماعية في الصراع بين الأمم، وظننتم أن تلك المسكنة ستنزع إرادة القتال من نفوس عدوكم الذي لا يرى ذلك إلاَّ أن مهمته في القضاء على عدوه قد تيسرت وهانت.

ولو كان في تلك المظاهرات السلمية في مواجهة العدو خير لشرعه المولى عزَّ وجلَّ، ولفعله المصطفى ﷺ الذي ما خُيِّر بين أمرين إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، ولكن الله تعالى عصم نبيه ﷺ من مواقف الجبناء، فأعد مااستطاع من عده ووقف موقف الأبطال، ووصل قلبه بالله تعالى، فلما انقضت تلك الشدة، وإذا هو قدوة حسنة ـ كما كان من قبل ـ لكل المؤمنين في كل زمان ومكان.

**عاقبة الغزوة وأثرها:**

ولقد عمّ الخير على أثر هذه الغزوة، ولم يقتصر على المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: فضل الرمي (٣/ ١٥٢٢ رقم ١٩١٧).
(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

بفضل الله تعالى، ثم بثبات رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فقد تكشفت تلك الأحداث وانقضت أيام الحصار، مؤكدة صدق ما أخبر الله به على لسان رسول الله ﷺ، من نصرته للحق وأهله، وخذلانه للباطل وأهله، وإن بدأ في عين الرائي ضخمًا مخيفًا. فالأمر الذي خاف منه المؤمنون ومن معهم لم يقع، وإنما الذي وقع هو الامتحان الذي قسَّم الناس إلى مؤمنين ومنافقين ومرضى قلوب. فالمؤمنون ازدادوا بهذه الأحداث إيمانًا ويقينًا وتوكلاً على الله، وتجارب جديدة تؤهلهم لمواصلة إقامة الحق ونصرته.

والمنافقون ومرضى القلوب تكشف لهم سوء تقديرهم ـ إذ قدموا دلالات ظواهر الأحداث على الخبر المعصوم ـ بقدر ماظهر لهم من دلائل صدق النبي ﷺ ونصر الله له، وكان موقفهم ذلك يوجب لهم الخزي والعار ويستحق الاعتذار، وكان هذا الشعور يدفعهم ـ أو بعضهم ـ إلى مراجعة موقفهم وأن يعتقدوا باطنًا بما تمسكوا به ظاهرًا، أن يتوبوا مما أحدثوه وكشفه الله تعالى، فكان الخبرُ موافقًا للخبر. لهذا أثنى المولى عزَّ وجلَّ في آخر ذكره للغزوة على المؤمنين، وخوّف المنافقين من عذاب الله، وفتح لهم باب التوبة والمغفرة، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾(١)، وهذا هوالمناسب لرحمته بعباده، وأن تلك الأحداث التي قدَّرها وسارت على وفق إرادته وحكمته، لايريد من ورائها إلاَّ الخير لعموم الناس، أما الكفار من المشركين فقد شاهدوا علو الحق وأهله ونصرة الله لأوليائه، فكانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٣ـ٢٤.

ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[١].

وقوله: وردَّ الله»، «وكفى الله المؤمنين»، و«كان الله قويًا عزيزًا» مشعرة بأن هزيمة الكفار، قد تولاها الله تعالىٰ بنفسه، وأن المؤمنين ليس لهم كبير دور في ذلك، وهذا ماأكده رسول الله ﷺ في قوله: «**وهزم الأحزاب وحده**»[٢]، وهذا يناسب الامتنان المذكور في أول الآيات في تذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم.

وقد وصف جموع الأحزاب بصفة الكفر التي هي أظهر أوصافهم، وهي التي جمعتهم على هدف القضاء على أهل الإيمان، والتعبير بهذه الصفة أوقع في نفوس المخاطبين لمَّا استقر لديهم من قبحها، وأدل على المنة التي ذكرَّهم الله بها، وفي الوقت نفسه مبينة راية المعركة، وأنها عقدية في دوافعها وأهدافها، ووصفهم بالكفر مع تلبسهم بالغيظ الذي هو أشد الغضب[٣]، أدل على إرادة الانتقام من المؤمنين، فالكافر المغتاظ يوقع بخصمه مالا يوقعه غيره، وكأن تلك الجموع قد أعجبتهم كثرتهم، واعتزوا بقوتهم، وفاتهم أن القوي العزيز قوة وعزة غير مقارنة بقوة وعزة من سواه مع المؤمنين، فهزمهم بطريقة غير متوقعة، إذ سلط عليهم أنواعًا من جنوده لم يكن في حسبان الكفار مشاركتها.

**بنو قريظة وعدالة الحكم:**

وقد ختم الغزوة بذكر بني قريظة وما حاق بهم، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[٤]. فهؤلاء هم الطائفة الثالثة من

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢٥.
(٢) أخرجه البخاري في العمرة، باب: ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو (٢/ ٦٣٧) رقم (١٧٠٣).
(٣) عمدة الحفاظ (٣/ ١٨٩).
(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٦-٢٧.

طوائف اليهود الكبيرة بالمدينة، الذين عاهدهم رسول الله ﷺ ثم نقضوا العهد، عندما نقضت بنو النضير فمنَّ رسول الله ﷺ على قريظة وأجلى النضير. ثم لم يلبثوا أن نقضوا العهد مرة ثانية، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقرَّ قريظة، ومنَّ عليهم، حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسَّم نسائهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين»(١).

وقد كان نقضهم الثاني في وقت اشتداد الخطوب على المسلمين حينما أحاطت بهم جموع الأحزاب «وكان ذلك على أثر سفارة حيي بن أخطب النضري، الذي أقنع كعب بن أسد القرظي بنقض العهد مع المسلمين، مبينًا له قوة الأحزاب، وأنهم قادرون على القضاء على المسلمين، مواعدًا له إن رجع الأحزاب عن المدينة أن يدخل معه حصنه، فأعلنت قريظة نقض العهد، وشاع الخبر بين المسلمين فخافوا على نسائهم وأطفالهم من بين قريظة(٢). فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل - عليه السلام - فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ماوضعناه، فاخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال: هٰهنا وأشار إلى قريظة(٣).

فقال النبي ﷺ يؤمئذ لأصحابه: «**لا يصلي أحدٌ العصر إلَّا في بني قريظة**» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لانصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك النبي ﷺ فلم يُعنف واحدًا منهم(٤)، ولم يوقعهم هذا الخلاف في التنافر الذي وقع فيه كثير من المسلمين اليوم، لعلمهم أن وحدة الصف واجتماع كلمتهم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: حديث بني النضير (١٤٧٨/٤) رقم (٣٨٠٤).

(٢) البداية والنهاية (١٠٣/٤)، والسيرة النبوية الصحيحة (٤٢٨/٢).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب.. (١٥١٠/٤) رقم (٣٨٩١).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب... (١٥١٠/٤) رقم (٣٨٩٣).

مقصد عظيم، لايُقدم عليه مادونه من المسائل القابلة للاجتهاد. فحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، فقامت إليه الأوس فقالوا يارسول الله: قد فعلت في بني قينقاع ماقد علمت وهم حلفاء إخواننا الخزرج وهؤلاء موالينا فأحسن فيهم. فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ»[١]، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فأتاه على حمار، فلما دنا قريبًا من المسجد، قال رسول الله ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم. ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك. قال: تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم. فقال النبي ﷺ: «**قضيت بحكم الله**»[٢].

فنفذ رسول الله ﷺ حكم الله فيهم المناسب لجرمهم، فقد كاد غدرهم في ذلك الوقت العصيب يقضي على الدولة الإسلامية الناشئة. لقد زلزلوا الصف المسلم وأضعفوا المعنويات، وخيف منهم على الذرية والنساء، واحتاج المسلمون إلى توزيع قوتهم القليلة ـ مقارنة بالعدو ـ بينهم وبين بقية الأحزاب. ولهذا لم يكن التعامل معهم كالتعامل مع غيرهم من اليهود، لأن حجم خيانتهم كان أعظم. ومن العدل فيهم أنه لم يقتل إلاَّ البالغين من المقاتلة ممن نقضوا العهد، ولم يقتل من النساء إلاَّ امرأة لحدث أحدثته[٣].

وكان الحكم الذي صدر فيهم هو حكم الله تعالى الذي مكَّن المؤمنين منهم وامتن به عليهم، وكانت وسيلة إخراجهم من حصونهم هي إلقاء الرعب في قلوبهم، كما حصل لإخوانهم من بني النضير من قبل، ولم تمنعهم حصونهم من الله تعالى حيث سلط عليهم أولياءه وحزبه.

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٨٩)، وزاد المعاد (٣/ ١٣٣)، وفتح الباري (٧/ ).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٤/ ١٥١١) رقم (٣٨٩٥).

(٣) سبق تخريجه ص(٢١٢).

## المبحث السادس
# صلح الحديبية في سورة الفتح

**خروج المسلمين معتمرين :**

سبق أن ذكرنا أن العقبة الكئود في طريق الدعوة في عهدها المكي، ثم في عهدها المدني؛ هم مشركوا قريش. وكانت تستأثر بكثير من اهتمامات النبي ﷺ، مما جعل انطلاق الدعوة إلى آفاقها العالمية رهينًا بإزالتها. وكان من رحمة الله أن هيأ الظروف المناسبة، ليتحقق موعوده في إقامة دينه وإظهاره على الدين كله. ففي سنة ست في ذي القعدة[١] بشَّر رسول الله ﷺ صحابته بدخول مكة معتمرين، على أثر رؤيا رآها في المنام: «**أنه دخل مكة، وطاف بالبيت**»[٢] وقد أشار القرآن إلى هذه الرؤيا ـ كما سيأتي ـ.

ففرح المسلمون جميعًا الأنصار بزيارتهم للبيت الذي حُرِمُوا منه، والمهاجرون لهذا، ولعودتهم إلى بلدهم الذي أُخرِجوا منه. فأمرهم بالتجهز كما استنفر الأعراب من حول المدينة، فأبطأوا عليه، فخرج معه من أصحابه ألف وأربعمائة[٣]، وعلى قول: ألف وخمسمائة[٤] معتمرين، قد أحرموا وساقوا معهم الهدي، لا يرون إلاَّ دخول مكة.

ولمَّا بلغ ﷺ غدير الأشطاط[٥]، جاءه عين له من خزاعة يقول: إن قريشًا جمعوا لك جموعًا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٨٦).
(٢) جامع البيان (٢٢/ ٢٥٧)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٠٢).
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤/ ٥١٢٦) رقم (٣٩٢٣).
(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤/ ١٥٢٦) رقم (٣٩٢٢).
(٥) غدير الأشطاط: على وزن أفعال، تلقاء الحديبية. معجم ماستعجم (١/ ١٥٣). وقال الحافظ ابن حجر: «ذكر الواقدي أنه وراء عسفان»، الفتح (٧/ ٥١٩)، وهذا بدلالة ما ورد في مسند أحمد (٤/ ٣٢٣) وفيه: خرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي. . .» وقد أورد اسم العين المبهم.

وصادوك عن البيت، ومانعوك. فقال: «**أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيال وذراري هؤلاء، الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله - عزَّ وجلَّ - قد قطع عيناً من المشركين، وإلَّا تركناهم محروبين**». قال أبوبكر: يارسول الله خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: «**امضوا على اسم الله**»[(١)].

فمضوا حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم**[(٢)] **في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين**» - وقد سلك طريقًا وعرة عبر ثنية المرار[(٣)] تفاديًا للاشتباك معهم[(٤)] - فما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش[(٥)]. فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**» ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يسألونني خطةً يعظمون فيها حرمات الله إلَّا أعطيتهم إياها**» ثم زجرها فوثبت. فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية[(٦)].

**المفاوضات بين الطرفين:**

ولقد بدأت المفاوضات بين الطرفين، وتردد الرسل بينهما، فاستعانت قريش ببعض الزعماء الذين قابلهم النبي ﷺ مؤكدًا لهم إنه إنما جاء معتمرًا، وأن المسلمين يعظمون البيت أشد من تعظيم غيرهم من الناس.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤/ ١٥٣٢) رقم (٣٩٤٤).

(٢) يظهرأن المراد كراع الغميم وهو موضع على بعد (٦٤) ميلاً من مكة، على طريق المدينة، يعرف اليوم ببرقاء الغميم، (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص٢٦٣-٢٤).

(٣) ثنية المُرار: بضم الميم، مهبط الحديبية من أسفل مكة. معجم مااستعجم (٤/ ١٢٠٦).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٨).

(٥) القترة: الغبرة. القاموس المحيط (٥٩٠).

(٦) أخرجه البخاري في الشروط، باب: الشروط في الجهاد (٢/ ٩٧٤) رقم (٢٥٨٢).

مما جعلهم يقتنعون بسلامة موقف رسول الله ﷺ وصحابته، وأن مثلهم لايرد، وقد جاء معظمًا للبيت. فقد جاء رجل من كنانة فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «**هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدن، فابعثوها له**» فبعثت له، واستقبله الناس يلبون فلمَّا رأي ذلك، قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: قد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يُصدوا عن البيت[١]. فهذا من جهة بيان المقصد، وأما من جهة بيان القوة التي يستطيعون بها دفع من صدهم عن البيت، فقد أظهر الصحابة الكرام من شدة الاحتفاء بالرسول ﷺ، والنصرة، ما لم يعهد منهم في مثل غير هذا الموقف، ليوقعوا المهابة في قلوب الرسل، ليخبروا به من وراءهم. ومن ذلك ماذكره عروة بن مسعود أحد الرسل في قوله لقريش: «والله لقد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحابُ محمدٍ ﷺ محمدًا. والله إن تنخم نخامة إلاَّ وقعت في كف رجل منهم فدلَّك به وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها»[١].

**صبر الرسول ﷺ على تحمل شروط المشركين:**

فهذا صلح تدعُمه قوة تستطيع انتزاع أفضل الشروط وأعزها من العدو. وكان آخر الرسل هو سهيل بن عمرو الذي أجرى شروط الصلح مع النبي ﷺ، حيث قال: «هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ماهو، ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلاَّ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. فقال النبي ﷺ: «**اكتب باسمك**

---

(١) جزء من الحديث الوارد في صحيح البخاري. رقم (٢٥٨٢).

**اللهم**»، ثم قال: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبدالله**»، فقال له النبي ﷺ: «**على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به**». فقال سهيل: والله لاتتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب. فقال سهيل: وعلى أنه لايأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلاّ رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبوجندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده. وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهرالمسلمين، فقال سهيل: هذا يامحمد أول ما أقاضيك عليه، على أن ترده إليّ. فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**» قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا. قال النبي ﷺ: «**فاجزه لي**». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «**بلى فافعل**». قال: ما أنا بفاعل[(١)]

**مشقة شروط الصلح على المسلمين:**

وقد شعر المسلمون بأنها شروط شاقة عليهم، ولا تناسب تفوقهم الإيماني والعسكري «فكرهوها وتكلموا فيها»[(٢)] ولقد عبَّر عن موقفهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: «أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فَلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا. قال: «**إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى. فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» **قال: قلت: لا. قال**: «**فإنك آتيه ومطوِّف به**»[(٣)].

(١) جزء من الحديث الوارد في صحيح البخاري. رقم (٢٥٨٢).
(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤/ ١٥٣٢) رقم (٣٩٤٥).
(٣) جزء من الحديث الوارد في صحيح البخاري. رقم (٢٥٨٢).

بل بلغ بهم الحال أن النبي ﷺ قال لهم بعدما فرغ من الكتاب: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**» قال الراوي: «فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخلَ على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت أم سلمة: يانبي الله، أتحب ذلك، أخرج لاتكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأو ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا»(١).

**نزول سورة الفتح بالفرج:**

ففي هذا الجو المليء بالحزن والكآبة جاء فرج الله للرسول الله وصحابته أحوج ماكانوا إليه. فقد سارت الأمور بتقدير الله وجهة لم تكن في حسبانهم. فأسفوا على مافاتهم مع ما نالهم من الضيم الذي لا يتناسب مع عزتهم وقوتهم، وهم أولياء الله وجنده.

وتمثل هذا الفرج في نزول سورة الفتح، التي فرح بها رسول الله ﷺ لأنها أقرته، وبينت أن ماجرى إنما هو بأمر الله. وفرح بها الصحابة - رضي الله عنهم - لمَّا علموا أنه فتح عظيم، وأن الله باركه ورضيه، فطابت نفوسهم، وفرحوا بما نالوا.

فعن أنس بن مالك قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية. فقال ﷺ: «**لقد أنزلت عليّ آية، هي أحب إلي من الدنيا جميعًا**»(٢). وفي حديث آخر قال: «**لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**» ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾(٣)، وظاهر الحديث يدل على

(١) جزء من الحديث السابق.
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب: صلح الحديبية (٣/ ١٤١٣) رقم (١٧٨٦).
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤/ ١٥٣١) رقم (٣٩٤٣).

ما ذكره ابن القيم في قوله: «وفي قصة الحديبية أنزلت سورة الفتح»[١]. ويُشعر كلامه أن السورة أنزلت كاملة.

أما فرح الصحابة فيتمثل في قول البراء ـ رضي الله عنه ـ: «تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[٢]، ولمّا كان عمر ـ رضي الله عنه ـ من أشد الصحابة معارضة لما حصل من صلح فقد خصّه رسول الله ﷺ بقراءة هذه السورة عليه. فقال ـ رضي الله عنه ـ: يارسول الله: أو فتح هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه»[٣].

ولا يملك متأمل نزول هذه السورة في هذا الظرف بالذات؛ إلاَّ أن يلمس رحمة المولى عزَّ وجلَّ في تطييب نفوس الصحابة، متمثلة في كشف جوانب من الحكمة الإلهية التي غابت عنهم، وعلمها علاَّم الغيوب، وذلك لتطمئن نفوسهم إلى أن هذا الأمر الذي قدروا أنه ليس في صالحهم، بخلاف ذلك تمامًا. وهم في حقيقة أمرهم لم تحصل لهم الكآبة والحزن إلاَّ أنهم شعروا بفوات الفتح المرتقب الذي هيأوا أنفسهم له، وبايعوا رسول الله ﷺ على تحصيله. فها هو الوحي يبشرهم بأن الذي حصل فتح، بل فتح مبين. وقد تم حصوله بلا قتل ولا قتال.

لقد أوردت السورة الكريمة مجمل الأحداث التي حصلت في صلح الحديبية، بل تعدت ذلك حتى صورت الحال والفترة الزمنية التي تمر بها الدعوة الإسلامية، وكشفت عن الخصوم، وأشارت إلى الترتيبات الحالية والمستقبلية اللازمة لدفع دين الله إلى الأمام، وإظهاره على الدين كله.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٠٠).

(٢) سبق تخريجه ص(١٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في الجزية، باب: من عاهد ثم غدر (٣/ ١١٦٢) رقم (٣١١).

أهم ما تضمنته السورة:

١ـ توجيه الخطاب للنبي ﷺ وبشارته بالفتح المبين، والمغفرة الشاملة، والنعمة التامة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾[١].

وهذا الجزاء يناسب ماتحمله ﷺ في ذات الله تعالى. فهو ﷺ لديه الرغبة ـ كصحابته ـ في دخول مكة، ويسؤوه أن يصد عن البيت. ولكن علم أن الله عزَّ وجلَّ لم يشأ دخوله في هذا الوقت، بدلالة بروك الناقة، وقوله: «**حبسها حابس الفيل**»[٢]. فتلقى ذلك بالرضى والتسليم، وقال: «**لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلَّا أعطيتهم إياها**»[٣]. فلاَن مع قريش في الشروط، وهو يعلم أن ذلك يثير حفيظة أصحابه، الذين خالف مااشتهته أنفسهم. فأظهر عبوديته لربه واتباعه لأوامره حينما سأله عمر قائلاً: «فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً»، قال ﷺ: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**»[٤]. وجانب آخر من عبوديته لربه أنه أعان المشركين على تعظيمهم لحرمات الله «فكل من التمس المعاونة على محبوب الله تعالى مُرضٍ له، أجيب إلى ذلك كائنًا من كان، مالم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق. وقال عمر ماقال حتى عمل له أعمالاً بعده، والصدِّيق تلقاه بالرضى والتسليم، حتى كان قلبه فيه على قلب رسول الله ﷺ، وأجاب عمر عما سأله عنه من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ»[٥]،

---

(١) سورة الفتح، الآيات: ١ـ٣.
(٢) سبق تخريجه (ص ٣٨٤).
(٣) سبق تخريجه (ص٣٨٤).
(٤) سبق تخريجه (ص٣٨٦).
(٥) زاد المعاد (٣/٣٠٣).

فكان جزاؤه العظيم الذي فرح به ووصفه بأنه أحب إليه من الدنيا جميعًا من جنس فعله.

يقول ابن القيم: «وكان ـ أي هذا الصلح ـ في الصورة الظاهرة ضيمًا وهضمًا للمسلمين، وفي الباطن عزًّا وفتحًا ونصرًا، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ماوراءه من الفتح العظيم، والعز والنصر من وراء ستر رقيق. وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يتحملها أكثر أصحابه ورؤوسهم. وهو ﷺ يعلم مافي ضمن هذا المكروه من محبوب: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[1] فكان يدخل على تلك الشروط، دخول واثق بنصر الله له، وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون، ونصبوه لحربهم وهم لايشعرون، فذُلوا من حيث طلبوا العز، وقُهِروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة. وعزَّ رسول الله ﷺ وعساكر الإسلام، من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضيم له وفيه، فدارالدور، وانعكس الأمر، وانقلب العزَّ بالباطل ذُلاً بحق، وانقلبت الكِسرة لله عزًّا بالله، وظهرت حكمة الله وآياته، وتصديق وعده، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها»[2].

لقد أظهر ﷺ اللين مع قريش، وأرضى غرورهم بقبوله لشروطٍ شكلية غير مؤثرة في حقيقة الأمر ـ وإن ظهرت أنها مجحفة في حق المسلمين ـ وركز نظره على عواقب الأمور، ومردود هذا الصلح على إقامة الدولة الإسلامية، والدعوة إلى الإسلام ونشره. ثم إنه ﷺ لم يتنازل عن حق، ولم يرض بباطل، إلاَّ إنه لم يشتد في رد شروطهم التي أرادوا من خلالها إظهار مكانتهم، إثبات سيادتهم على مكة. فقولهم: باسمك اللهم لا تنافي بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وإن كانت الثانية أكمل،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣١٠).

ومحمد بن عبدالله هو اسمه واسم أبيه، وإن كانت نسبته إلى الرسالة أشرف، وهم لم يمنعوا المسلمين من الطواف البتة، بل أجلوه إلى العام المقبل، أما أشد تلك الشروط التي أثارت حفيظة المسلمين، وهي: «أن من جاء منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا»[١]، فقد كان قبول الرسول ﷺ له من صائب نظره، ودقة فهمه لمضمونه، فقد فسره لأصحابه بقوله: «**إنه من ذهب منّا إليهم، فأبعده الله، ومن جاءنا منهم، سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا**»[١].

فقد علم ﷺ أن المسلمين لا يرتدون، وإن حصل بعض الحالات النادرة فخروجهم من الصف أفضل من بقائهم فيه، بل هو تطهير للصف، فهذا الجزء من الشرط في صالح المسلمين، أو على الأقل ليس ضدهم.

أما المسلم الذي يريد اللحاق بالمسلمين، فإنه ممنوع من ذلك قبل هذا الشرط، لذلك لم يكن هذا الشرط إلاَّ تأكيدًا لواقع أملته تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

ثم إن هذا الشرط الذي ظهر ـ بادي الرأي ـ لصالح قريش بالكلية، هو الشرط الوحيد الذي ما لبثت قريش أن طالبت بإلغائه لانعكاس نتائجه عليهم. وذلك أن النبي ﷺ التزم برد من جاءه مسلمًا، ومنهم أبوبصير ـ رضي الله عنه ـ الذي أتى سيف البحر، ولحق به من أسلم من قريش حتى اجتمعت منهم عصابة، فما يسمعون بعير لقريش إلى الشام إلاَّ اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم: لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم[٢]. وهذا هو الفرج والمخرج الذي أشار إليه النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية (٣/ ١٤١١) رقم (١٧٨٤).
(٢) جزء من الحديث الوارد في صحيح البخاري. رقم (٢٥٨٢).

٢ـ ذكر تثبيت الله تعالى للمؤمنين، إذا أنزل السكينة في قلوبهم في ذلك الموطن في تزل في مثله القلوب. وهذا من العناية بهم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ ﴾(١). ثم بشرهم بدخول الجنة في قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ ﴾(٢). كما بشّرهم برضوانه عنهم في حالة مبايعتهم للنبي ﷺ وفي مكان معين «تحت الشجرة»، وقد أُخبروا بذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ ﴾(٣). فما أعظم هذه البشارة لهم، وهم يعلمون أن هذه الآية تخص كل واحدٍ منهم بذواتهم، فكلهم بايعوا تحت الشجرة. فالمكان معلوم والحال معلوم، ولا يمكن لهذه الآية أن تنطبق إلاَّ عليهم من سائر الأمة.

وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ لم يبين معلومه، ولكنه ممكن أن يستدل على معرفته بأنه مما يحتاج إلى نزول السكينة لتهديته. لقد أثرّ الصلح الذي لم يتبينوا الحكمة من وراءه على نفوسهم، فأصابهم الغم والكآبة، فراجع بعضهم رسول الله ﷺ في ذلك، واكتفى بعضهم الآخر بإظهار الكراهة لهذا الصلح(٤). فلما أمرهم أن ينحروا ويحلقوا لم يمتثلوا أمره ـ كما سبق ـ. فقد تهيأوا لدخول مكة، وقد بُشِّرُوا بذلك، ولا يرون ذلك كائنًا إلاَّ هذا العام للقرائن المصاحبة للخبر «مع اقتدارهم

(١) سورة الفتح، آية: ٤.
(٢) سورة الفتح، آية: ٥.
(٣) سورة الفتح، الآيتان: ١٨ـ١٩.
(٤) كفعل علي ـ رضي الله عنه حينما كتب «محمد رسول الله» فقال سهيل: لا تكتب رسول الله، فقال النبي ﷺ لعلي: «امحه»، فقال: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه النبي ﷺ بيده. أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية (٣/١٤٠٩) رقم (١٧٨٣).

في اعتقادهم على بلوغ غرضهم، وقضاء نسكهم بالقهر والغلبة»[١].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ وقد اعتُذِرَ عن تأخيرهم الامتثال بأنهم كانوا يرجون النسخ، فأخروا متأولين لذلك، وهذا الاعتذار أولى أن يُعتذرَ عنه وهو باطل، فإنه ﷺ لو فهم منهم ذلك لم يشتد غضبه لتأخير أمره، ويقول: «**مالي لا أغضب، وأنا آمر بالأمر فلا أتبع**»[٢]، وإنما كان تأخيرهم من السعي المغفور لا المشكور، وقد رضي الله عنهم وغفر لهم، وأجب لهم الجنة[٣].

ومن حِلْم الله تعالى أنه لم يؤنبهم على ماصدر منهم، بل عبَّر عنه بقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾. ثم إن غضبهم كان قبل أن يعلموا أن هذا الذي يحصل هو مراد الله تعالى، وإنما كرهوه لأنهم رأوه يتنافي ـ بظاهره ـ مع إعلاء دين الله، ونصرته، وإذلال الباطل وأهله، فنظرهم محمود بموجب ماظهر لهم. ولكن ماخفي عنهم، وعلمه الله ورسوله كان أعظم وأفضل لدين الله ولهم. فكان التسليم الذي تحلى به أبوبكر الصديق متابعًا للرسول ﷺ في ذلك هو فرض هذا الأمر. لذلك كرر التذكير بالطاعة في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾[٥]، وإن كان الخطاب فيها ليس للمؤمنين مباشرة، لكنهم يستفيدون منه إذا ماقارنوا ما أرادوا بما أراد الله لهم. وقد أدرك الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قصورهم عن إدراك كل الأسباب والنتائج والحكم. وأن الخير كل الخير في التسليم لأمر الله تعالى.

---

(١) فتح الباري (٥/٤٠٩).
(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٨٦) وغيره، انظر: ملحق (٢) ص(٤٣٣).
(٣) زاد المعاد (٣/٣٠٧).
(٤) سورة الفتح، آية: ١٦.
(٥) سورة الفتح، آية: ١٧.

يقول سهل بن حنيف ـ وهو أحد الذين استفادوا من صلح الحديبية مزيدًا من الطاعة والتسليم ـ: «اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت. . .»(١). ومع ما امْتنَّ الله به عليهم من المغفرة ودخول الجنة، وحصول الرضوان، فقد بشَّرهم بفتح خيبر وغنائمها، إلى جانب الفتح المبين يوم الحديبية. وكأن تلك الغنائم عوضًا عما فقدوه من غنائم فتح مكة التي كانوا يؤملون، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾(٢). يقول الطبري: «وعوضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة، بقتالهم أهلها فتحًا قريبًا، وذلك فيما قيل: فتح خيبر»(٣). ثم إن مكة التي استعصي فتحها عليهم، ووقع ذلك من أنفسهم موقعًا، قد بشَّرهم الله بفتحها أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾(٤). وقداستدل ابن جرير على أنها مكة بقوله تعالى: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فنفى كونها خيبر، أو أرض فارس والروم، أو غيرها. وقال: «وكان معلومًا أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خيبر لحرب، ولا وجّه إليها لقتال أهلها جيشًا ولا سرَّ به. فإذا كان كذلك عُلم أن المعنِي بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ غيرها، وأنها هي التي قد عالجها ورامها، فتعذرت فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر الله تعالى ذكره نبيه ﷺ والمؤمنين وأنه أحاط بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم»(٥).

وهذه الفضائل الكثيرة مناسبة لنصرتهم للرسول ﷺ ومبايعتهم له على الفتح، وصبرهم على ماكرهوه من الصلح.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤/ ١٥٣٤) رقم (٣٩٥٣).
(٢) سورة الفتح، الآيتان: ١٨ـ١٩.
(٣) جامع البيان (٢٢/ ٢٢٨).
(٤) سورة الفتح، آية: ٢١.
(٥) جامع البيان (٢٢/ ٢٣٤) بتصرف يسير.

لقد فهموا - رضي الله عنهم - أن دخولهم سيكون في هذا العام على أثر الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ، فتهيأت نفوسهم لذلك وأحبته، ولم يخبرهم المولى - عز وجل - بما قدره من تأجيل ذلك، ولعلَّ الحكمة في ذلك هي تعويدهم على العبودية المطلقة فيما كرهوا وأحبوا، وتربيتهم على الطاعة، وإن خالفت ما اشتهته نفوسهم، وممارستهم التسليم لله ورسوله عمليًا، وليعلموا أن دورهم هو الامتثال والطاعة علمت الحكمة من ذلك الأمر أم خفيت.

وهذه الأمور التي رُبي عليها الصحابة عمليًا هي التي جعلتهم في الصدارة، فالغاية القصوىٰ من التربية هي تحقق عبودية الله التامة في كل الأحوال، وهذا ما تحقق فعلاً في حياتهم. والفضل في ذلك لله تعالى الذي صنعهم على عينه وجعل نصوص الوحي تتعامل معهم وتنقلهم من ما هم عليه إلى الوضع الذي آلوا إليه، ليكوّن من مواقفهم القدوة التي تستنير بها الأجيال على مر العصور.

لقد امتثلوا أمر الرسول ﷺ مع عدم إدراكهم للحكمة من هذا الصلح الذي ظهر أنه ليس في صالحهم، فلما تكشفت لهم عواقب الأمور فيما بعد اتهموا أنفسهم، وعلموا أن الخير فيما اختار الله ورسوله.

وهذا الدرس العظيم يغفل عنه بعض من يخطط لمسيرة الدعوة الإسلامية، فيقرر أمورًا مخالفة لأمر الله ورسوله بدعوى مراعاة المصالح والمفاسد، والحقيقة أن كل مخالفة لله ورسوله مفسدة في ذاتها، ولن تجلب مصلحة أكبر منها، وأن متابعة نصوص الوحي عصمة من الخطأ، وتقدير المصالح والمفاسد إنما يكون في الأمور الاجتهادية التي سكت الله عنها.

٣- ذكر طوائف الأعراب المحيطين بالمدينة الذين استنفرهم النبي ﷺ فتباطئوا عليه، وذكر ما اعتذروا به، وكذَّبهم في قولهم، وأخبر بالسبب

الحقيقي لتخلفهم، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا[(١)] يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[(٢)] فالرسول ﷺ قد هاجمته قريش ومن معها في عقر داره مرتين. فغرس ذلك مهابتهم في قلوبهم، واستبعدوا أن ينتصر عليهم الرسول ﷺ إذا ماغزاهم في عقر دارهم. فلما طلب الرسول ﷺ من هؤلاء الأعراب النفير معه التمسوا أعذارًا غالبًا ما يعتذر بها من يريد التخلف عن الأمر الذي لايهمه، إذ هي من الأمور العادية التي لو عذر من تخلف لأجلها لعذر سائرالناس. إذ لا يخلو أحد من مال يروم جمعه، أو أهل يعولهم، ولكن فضحهم الوحي، وبيّن أن سبب تخلفهم هو ظنهم السيء في أن الله لاينصر رسوله وجنده، ولا يظهرهم على من ناوأهم. وقد وافقوا في هذا صنيع المنافقين والمشركين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾[(٣)]. فإن كانوا منافقين فذاك، وإن لم يكونوا كذلك فقد وردت هذه السورة بتحذيرهم من مشابهتهم، وكانت في نفس الأمر تربية لهم. ومن تمام ذلك أن يُحرموا من اللحاق بالرسول ﷺ في غزوته إلى خيبر وهذا من عدل الله تعالى فيهم، فلمّا لم

(١) وهذا يرد على ماذكره أحمد الشريف في كتابه «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول» من قوله: «وكانت حكمة النبي ﷺ في دعوة الأعراب ممن ليسوا على الإسلام، لمشاركة المسلمين في هذه الزيارة أن يؤكد لقريش أنه جاء معتمرًا، ولم يجيء غازيًا، بدليل أنه يوجد في صفوفه من العرب من ليس على دينه» (ص٤٨٣)، والأعراب المشركون لا يطلبون الاستغفار من الرسول ﷺ على تخلفهم.

(٢) سورة الفتح، الآيتان: ١١-١٢.

(٣) سورة الفتح، آية: ٦.

يشاركوا في نصرة رسول الله ﷺ في غزوه، وكانت قلوبهم ليس فيها إلاَّ الطمع، وإرادة المغانم عاقبهم الله بحرمانهم منها في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[1]. ثم دعاهم إلى القتال في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾[2]. ولم يعفُ من هذا التكليف إلاَّ أولي الأعذار، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾[3]، فهذا ترغيب وترهيب، وتشعر هذه النصوص المتعلقة بالأعراب أن نفوذ رسول الله ﷺ السياسي قد امتدت إلى ماحول المدينة. وأن سكان هذه المناطق ممن أظهروا الإسلام والطاعة مطالبون بنصرة دين الإسلام؛ فالأعراب لم يكن لهم في الأحداث السابقة شأن يُذكر بخلاف اليهود والمنافقين والمشركين. أما في هذه الغزوة فلم يكن لأهل الكتاب ذكر، لزوال خطرهم عن المسلمين، وركز على الأعراب، وخصَّوا ببعض التوجهات، وذكرت مواقفهم المتخاذلة، مع استمرار ذكر المشركين والمنافقين. وهذا يؤكد ماذكرناه من قبل من أن السورة من القرآن تتضمن ملامح الظرف التي نزلت فيه. وحال الدعوة ومعوقاتها في تلك المرحلة بالذات.

٤ ـ ذكر موقف المشركين بأسلوب يغري المؤمنين بعداوتهم ومناوئتهم

(١) سورة الفتح، آية: ١٥.
(٢) سورة الفتح، آية: ١٦.
(٣) سورة الفتح، آية: ١٧.

إذ وصفهم بأخص خصائصهم التي تستدعي مقاتلتهم، فقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾(١)، فكونهم على الكفر جريمة تستحق التنديد، ثم صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام الذين هم أولى به من دون الناس جريمة أخرى، إذ المؤمنون عمّاره ومعظموه على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾(٢). قال ابن عباس: «وكل عسى في القرآن فهي واجبة»(٣).

فإذا أضيف إلى ذلك صدهم الهدي عن بلوغ محله، فقد أتوا بأمر قد استقرت شناعته في عرف المشركين والمؤمنين على حد سواء. وهذا الذي جعل سيد الأحابيش حينما رأى البدن مقلدًا يقول ـ وهو لايزال على شركه ـ: «قد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يُصدوا عن البيت»(٤).

ثم بيّن أن الدافع لهم على تجاوز الأعراف ـ التي يؤمنون بها ويعظمونها، وتعظمهم العرب لأجلها، وصدِّهم العمَّار عن أداء مناسكهم خلافًا لما عُرف عنهم ـ، إنما هي الحمية، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾(٥) وتقييدها بهذا

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٥.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٧ـ١٨.

(٣) جامع البيان (١٤، ١٦٨). ومراده ـ رضي الله عنه ـ إذا كانت من الله كما قيدها بذلك ابن إسحاق في قوله: «وعسى من الله حق»، ولعله قال ذلك لأنها وردت في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وليست واجبة هنا كما هو ظاهر.

(٤) سبق تخريجه (ص٣٨٥).

(٥) سورة الفتح، آية: ٢٦.

الوصف للتفريق بينها وبين حمية الإسلام، فليس كل حمية مذمومة، إنما المذموم منها هي الحمية التي لغير الله تعالى. وهذا من دقة القرآن في انتقاء الألفاظ، والإتيان بالقيود المبينة للمقصود. «وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت»(١)، ومن حميتهم أيضًا أنهم شعروا بأن دخول المسلمين بالقوة يتنافى مع سيادتهم على مكة، ويخافون على سمعتهم بين القبائل المعظمة لهم، ويخشون أن يصبح ولاء تلك القبائل لرسول الله وصحابته بعدما تفقد قريش مهابتها، لذلك قالوا: «**لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة**»(٢).

وهنا ينقدح السؤال الثاني: لماذا وجرمهم بهذا القدر، لم يأذن الله تعالى في مقاتلتهم؟

وهذا مما أجاب عليه الوحي، وبيَّن أن لو حصل قتال بين الفريقين لأعلى الله جنده وأدالهم على أعدائهم، وأن هذه سنة مطردة ينصر الله فيها ـ دومًا ـ المؤمنين على الكافرين، لاتتغير ولا تتبدل، ولكن قد تتأخر لاستكمال أسباب النصر، وحتى يكون لحصوله الأثر في إقامة دين الله ونشره، إذ هو مقصود لذلك، قال تعالى ـ مبيناً ذلك ـ: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾(٣). وقد استكمل المؤمنون يوم الحديبية أسبابه، وبلغوا المنزلة التي استحقوا بها نصر الله لهم، فقد مدحهم الله في هذه السورة، وأثنى عليهم بصفات لم يوصفوا بها من قبل، وهي قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

---

(١) جزء من الحديث الوارد في صحيح البخاري. رقم (٢٥٨٢).
(٢) الحديث نفسه.
(٣) سورة الفتح، الآيتان: ٢٢ـ٢٣.

ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[١].

**ومن تلك الصفات:**

١- تحقيقهم لعقيدة الولاء والبراء، كما في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾. بعد أن كانت مطلبًا يراد منهم تحقيقه. فقد حثهم الله تعالى على التحلي بهذه الصفة في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢]، ويدلُ على قوتها في نفوسهم أن الكفار الذين هم أشداء عليهم منهم آباؤهم وإخوانهم، وذويهم وذوو قرابتهم، فإذا قطعت هذه الوشائج مع قوة سلطانها على النفس، وجعل بدلها رابطة الدين، يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون على إخوتهم فيها دلَّ على تجردهم من حظوظ النفس، وتقديم محبوبات الله على محبوباتها، وهي درجة رفيعة من العبودية لله.

٢- كثرة عبادتهم لله، وبخاصة الصلاة، ووصفهم بالإخلاص فيها، وإليها أشار بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ «والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم، فعبَّر عنها تعبيرًا يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله رُكعًا سُجدًا»[٣].

٣- شبه وصولهم إلى تلك الغاية وتدرجهم في التربية بالزرع الذي يكون في الابتداء ضعيفًا ثم يقوي حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه[٤]، كما في

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.
(٢) سورة المائدة، آية: ٥٤.
(٣) في ظلال القرآن (٣٣٣٢).
(٤) فتح القدير (٥/٥٧).

قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾. وهذا النمو حتى بلوغ الغاية التي تعجب الزارع وتغيظ الكافر، ينطبق تمامًا على حال الصحابة، وهذا يدلُ على اكتمال تربيتهم التي أرادها الله تعالى في هذا الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية، وتأهلوا لملاقاة الكفَّار. لكن حال دون الإذن في مقاتلتهم حكمة عظيمة تدلُ على رحمة الله تعالى وعدله في تشريعه للقتال، وقد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾[1].

لقد نصَّت هذه الآية على الحكمة التي بسببها لم يأذن الله بدخول مكة حينئذ وهي: وجود بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا. قال الطبري: «كان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، فكره الله أن يؤذوا أو يوطوا بغير علم»[2]. ولم يجعل الله المانع إلاَّ ذلك بدلالة قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ وتزيلوا: تفرقوا[3]، والمعنى: «لو تميز الكفَّار من المؤمنين الذين بين أظهرهم؛ لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعًا»[4].

وفي هذه دلالة على أن تشريع القتال منظور فيه إلى تكثير المصالح وتقليل المفاسد. فالمؤمنون الذين يخفون إسلامهم بمكة دماؤهم مصونة، وقتلهم يكلف المؤمنون كفارة قتل الخطأ[5]، مع ما يقع بهم من الشدة والغم من قتل إخوانهم[6]، فلئلا يقع القتل الذي يتأذى به

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٥.
(٢) جامع البيان (٢٢/٢٤٩).
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ص٣٨٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٩٤).
(٥) جامع البيان (٢٢/ ٢٥٠).
(٦) فتح القدير (٥/ ٥٥) بمعناه.

المؤمنون في الطرفين لم يأذن الله في مقاتلتهم مع مافيه من المصلحة. وقوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه تفضيل للصحابة، وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدًا لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان ـ عليه السلام ـ في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾[1][2].

**نتائج صلح الحديبية:**

لقد تمخض هذا الصلح الذي سمَّاه الله فتحًا مبينًا عن **نتائج مهمة منها:**

١ـ انفساح الطريق أمام الدعوة، وإزالة تلك العقبة التي كان العرب ينتظرون مآلها، وهو فتح باعتبار تحقيقه للهدف من الرسالة في هداية الناس، فإذا ما حصل انفراج للدعوة، وتمكين لدين الله بغير قتال فذلك هو الأكمل، لأن القتال ماهو إلاَّ وسيلة لذلك. والفتوحات تتفاضل بقدر مردودها وأثرها على إقامة دين الله ونشره. وعلى هذا فالانتصار الحربي على العدو الذي لا يستتبع انتصار الدين وعلوه لا قيمة له، ولا يعد فتحًا من هذا المنظور.

٢ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بقوة المسلمين ودولتهم. فالمعاهدة لاتكون إلاَّ بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرونها الإمام والقدوة[3].

٣ـ أمنَ المسلمون جانب قريش، فحولوا ثقلهم على اليهود، ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت خيبر بعد صلح الحديبية[4].

٤ـ تعريف الزعماء والرؤساء داخل الجزيرة العربية وخارجها بالإسلام،

---

(١) سورة النمل، آية: ١٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٨٨).
(٣) مرويات غزوة الحديبية، لحافظ محمد الحكمي (ص٢٦٩).
(٤) حديث القرآن عن غزوات الرسول، آل عابد (ص٥٠٦).

ودعوتهم إليه. وذلك عن طريق المكاتبات والوفود، وتكوين صدأ إعلامي يسبق توسيع النفوذ السياسي، ويعرف الناس بالدين الجديد وأهدافه السامية، مؤملاً قبولهم له بغير قتال. ولقد كانت تلك المكاتبات والوفود وخاصة ماكان منها لغير العرب تعبير عملي عن عالمية الرسالة الإسلامية.

٥ - التمهيد لمنازلة الروم، حيث وقعت غزوة مؤتة بعد صلح الحديبية، وقبل فتح مكة، فقد لفت نظر أصحابه إلى ميدان المعركة الجديد، وكانت بداية نقل الدعوة عسكريًا إلى خارج الجزيرة العربية(١).

٦ - كان صلح الحديبية توطئة لفتح مكة الذي دخل الناس على أثره في دين الله أفواجًا، فرؤية المشركين للمسلمين في صلح الحديبية وفي عمرة القضاء، وماهم عليه من تفوق إيماني وأخلاقي وثقافي بسبب دينهم الجديد. جعل نفوس المشركين تهفوا إلى هذا الدين، وإلى تدارك مافاتهم من الخير الذي اتضحت معالمه وقامت دلائله. وأعان على ذلك ظهور من كان متخفيًا بالإسلام، وإسماع المسلمين الكفَّار القرآن، بعد أن أمنَ الناس بعضهم بعضًا.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «إنها - أي هذه الهدنة - كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا. أن يوطيء لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها، وتدلُّ عليها»(٢).

٧ - كثرة من دخل بعد هذه الهدنة في الإسلام، يقول الزهري - رحمه الله -: «فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمنَ الناس

(١) حديث القرآن عن غزوات الرسول (٥٠٦) بتصرف يسير.
(٢) زاد المعاد (٣/٣٠٩).

بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل إلاّ دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين، مثل ماكان في الإسلام قبل ذلك». وعقَّب عليه ابن هشام بقوله: والدليل على قول الزهري أن الرسول ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[1].

وبهذا يتضح أن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ حينما يشرع القتال في سبيل الله، أو الهدنة مع العدو إنما يراعي في ذلك إقامة دين الله، ونشره، وهداية الناس إليه.

لقد ازداد الإسلام قوة ونفوذًا بعد صلح الحديبية، وتتابع الناس على الدخول فيه ففتحت مكة ثم دخلت بقية قبائل العرب في الإسلام حتى لم يتوف رسول الله ﷺ إلاّ والجزيرة العربية، قد أبدلت جاهليتها بالإسلام وظلماتها بنور الوحي، وتنازع قبائلها على السفاسف إلى وحدة على العظائم، وتخلفهم عن الشعوب إلى صعود إلى الصدارة والقيادة. وازدراء الناس لهم وهوانهم عليهم إلى إعجاب بهم وإكبار.

لقد توحدوا في الهدف والمعتقد والعبادات والأخلاق والمعاملات ـ وإن تفاوتوا في الالتزام بذلك ـ. ثم ساروا إلى شعوب الأرض بقصد هدايتهم تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾[2] يتقدمهم أكفؤهم، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ الذين هم أعلم الناس بدين الله وما يجب من إقامته ونشره والجهاد في سبيله، فجيشوا الجيوش وساروا على نهج رسول الله ﷺ في جعل جميع موارد الدولة وإمكاناتها تصب في هدف واحد لا منافس له ألا وهو إقامة دين الله والجهاد في سبيل نشره، ثم استمر ذلك الخير يتدفق على الناس حتى غلبت الدنيا على الناس،

(١) السيرة النبوية (٣/ ٢٦٨ـ٢٦٩).
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

وركنوا إليها، وضعف شعورهم بأنهم مكلفون بإنقاذ بقية الأمم من الضلال، فضعف تبعًا لذلك شأن الجهاد في سبيل الله، وجرت سنن الله التي لا تحابي أحدًا على المسلمين فأديل عدوهم عليهم، واستحوذ على ما في أيديهم، وأعظم من ذلك أنه شكك بعضهم في دينهم وسلَّط عليهم الشبه والشهوات، وأبعدهم عن كتاب ربهم، وعزله عن التأثير في حياة كثير من المسلمين، فذهب كثير من التفوق الذي يؤهل الأمة المسلمة لقيادة البشرية.

## الخاتمة

بعد مطالعة العدل والرحمة في جهاد النبي ﷺ نظريًا وعمليًا، ورأينا كيف بدأ في إيجاد الأمة المسلمة وحيدًا من خلال منهج تربوي شامل أوحاه الله تعالى إليه، وكانت الانحرافات في جميع نواحي الحياة، فلم يتوف إلاَّ وأمَّته التي أخرجها الله به من الظلمات إلى النور خير أمة أُخرجت للناس، ورائدة الإصلاح في جميع شؤون الحياة.

وما بين البداية والنهاية تجربة عظيمة حرفت مجرى التأريخ، ونتج عنها أعظم حضارة عرفتها البشرية مبناها على التوحيد، وإقامة العدل بين الناس.

إن تلك التجربة الرائدة لتهفو إليها النفوس أكثر، كلما قاست مزيدًا من آلام الانحراف عن الحق المنزل.

ومن أهم الأغراض التي دفعت للحديث عن تلك التجربة هو الأمل في أن تنقل إلى مجتمعاتنا وأن نصحح بها أوضاعنا كما صحح بها رسول الله ﷺ الوضع الذي عايشه، وليس ذلك متعسرًا علينا ـ ولله الحمد ـ بل عوامل قبول تلك التجربة الإفادة منها متوفرة ومتيسرة، ومنها:

١ـ محبة المسلمين ـ حاكمين ومحكومين ـ لدينهم وتمني نصرته وعلوه على الدين كله.

٢ـ أن العمل على إقامته على الوجه الذي أقامه به رسول الله ﷺ وصحابته الكرام في غاية الوضوح إذ هو مدون في القرآن وصحيح السنة بدقة متناهية.

٣ـ إن الواقع المتردي لا يخيف إلاَّ ضعاف النفوس، وأصحاب الهمم الصغيرة، والعزائم الفاترة، وإلاَّ فالواقع تبع للإرادة، فالأمة إذا

أرادت الرقي إلى أهدافها وأصرَّت على ذلك وصلت، فالتحولات الحضارية، إنما تنشأ من الإيمان بالمبدأ وهذا ينشيء تحولاً في نفوس البشر يؤدي إلى سلوك جماعي نحو تحقيق الهدف إذ أن البناء الفكري هو مرتكز التحولات الاجتماعية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

وجميع القيم والمبادىء الإسلامية محفوظة في كتاب الله تعالى، وليس دور المسلمين هو إيجاد تلك المبادىء، بل دورهم هو العمل على تحقيقها إذ هي موجودة بين أيديهم ومبرهن على صحتها.

٤ـ إن الواقع المعاصر الذي جرب فيه الناس كثيرًا من الحلول البعيدة عن الإسلام ولدت القناعة لديهم أن الحل الأوحد في العودة إلى الدين الحق المنزل، وإن تفاوتت درجات الوعي عند الناس.

٥ـ إن العودة إلى الإسلام، عقيدة وشريعة، ومنهجًا وسلوكًا لتعني العودة إلى الأصول والجذور، التي لا يَنْبَتّ منها أحدٌ إلاَّ ويبقى مقطوع الصلة بماضيه، ومن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل. فشعوب الأرض على اختلافها تفتخر بعودتها إلى أصولها، فاليهود يقاتلون في فلسطين المباركة باسم التوراة، وعلى أنها أرض الميعاد، والنصارى يزعمون أن تفوقهم المادي مرده إلى جذورهم الأغريقية والرومانية، وكذلك غيرهم.

فالواجب على المسلمين أن لا يكونوا أقل من غيرهم في تناديهم إلى الرجوع إلى سبب عزهم ونصرتهم وإقامة دينهم، وأن يشعروا بالفخر وهم ينتسبون إلى منهج الله المنزل إذا انتسب غيرهم إلى منهج من المناهج الأرضية الباطلة أو المحرفة.

---

(١) سورة الرعد الآية: ١١.

٦ـ إن المسلمين ـ على كثرة تعدادهم ـ يملكون من عوامل الوحدة ـ غير المستثمرة ـ ما لا يملكه غيرهم من الأمم، فربهم واحد، ورسولهم واحد، ودينهم واحد، وقبلتهم واحدة، وعدوهم مشترك يحاربهم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم على أنهم مسلمون، وبهذا كوّن منهم جبهة واحدة ـ وإن لم تكن متحدة ـ ولهم شعائر دينية تعمق شعورهم بالوحدة ـ وإن فرّقت بينهم الحدود ـ كالحج إلى مكان واحد، في زمن واحد، والصوم في زمن واحد، ووجوب الجهاد في إنقاذ المستضعفين منهم في سائر أنحاء الأرض، إضافة إلى حث القرآن لهم على الوحدة ونبذ التفرق، وعلى هذا فالدعوة إلى الاعتصام بدين الله واجتماع الكلمة عليه ليس مصلحة تمليها الظروف فحسب بل هي عبادة وديانة أمر الله بها وحثّ عليها.

٧ـ إن الكفّار يدركون أن عزّ المسلمين ونصرهم يكمن في عودتهم إلى دينهم واجتماع كلمتهم عليه، ويعلمون أن ذلك لو تحقّق سيحرمهم من كثير من الخيرات والمصالح التي لا تتحقق إلاّ في ظل بقاء المسلمين متفرقين ضعفاء، يقضىٰ على الواحد تلو الآخر، ولا يجدمن ينصره، فعمقوا الهوة بين المسلمين والإسلام، وشوّهوا لهم صورته، ليضمنوا بقاءهم تحت سيطرتهم، يرغبونهم في أفكارهم الباطلة، ويرهبونهم من دين الله والعودة إليه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[2]، ومحاربتهم للإسلام وأهله من أعظم ما يدل العقلاء من المسلمين على أهمية العودة إلى الإسلام ولو كره الكافرون،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

فذلك هو أمر الله تعالى، وهو السبيل الذي سلكه رسول الله ﷺ لإقامة دينه. وإذا كان هو مراد الله تعالى فإن الله سييسر ويبارك في تلك الجهود المبذولة وسيحمي أولياءه ويدافع عنهم، وسيجري قدره الذي وعد به في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(١) على أيدي عباده الصالحين كما أجراه على أيدي رسول الله ﷺ وصحابته ومن سار على دربهم في تأريخ المسلمين المليء بالانتصارات كلما صدق المسلمون ربهم وراجعوا دينهم، وإن ساءت الظروف وادلهمَّت الخطوب.

وبهذا أصل إلى نهاية هذا البحث الذي أمضيت في صحبته ثلاث سنين، شعرت خلالها بفضل الله تعالى، إذ قدَّر لي مصاحبة أفضل بشر خلقه الله تعالى، وأعظم رسول عرفته البشرية. أتأمل جهاده ﷺ وأتلمس مواطن العدل والرحمة فيه، فأفدت في نفسي فوائد ـ لم أسجل في البحث منها إلاَّ الخلاصة ـ، ووقفتُ فيه على نتائج توصلتُ إليها. أدوِّن أهمها:

١ ـ إن فهم جهاد النبي ﷺ مرتبط بفهم الإسلام، وطبيعته، ومسيره؛ لإنقاذ البشرية من الظلمات إلى النور، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية شرع له الوسائل المناسبة، التي تكفل وصوله إلى غايته، وتحميه من الاعتداء.

٢ ـ إن نصوص الوحي المنزلة رحمة للعالمين هي الجانب النظري من الإسلام، في حين أن امتثالها، والدعوة إليها، وإزالة العقبات من طريقها، وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلائها ـ الذي هو حقيقته الجهاد ـ هو الجانب العملي، وعلى هذا

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

فلولا الجهاد في سبيل الله بمعناه العام لما قامت للإسلام قائمة.

٣ ـ إن رحمة الله تعالى المتمثلة في بعثة محمد ﷺ، وإنزال آخر الكتب عليه؛ متوقفة على إبلاغها للناس، وإقامة الحجة عليهم، ولايتم ذلك إلاَّ بالجهاد، إذ هو الوسيلة التي اختارها الله لنبيه ﷺ، ورفع مكانتها، ونصب للقائمين عليها الأجور العظيمة. فدين الإسلام ليس للعرب فحسب، بل هو للناس كافَّة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾(١)، والتقصير في مجاهدة الناس على ذلك حرمان لهم من أعظم نعمة أنزلها الله لعباده، واللوم فيها ليس على من لم تبلغه الرسالة، ولكن على من شرَّفه الله بحمل هذا الخير ثم يتقاعس في قيامه بالواجب.

٤ ـ نظرًا لتطابق الهدف من بعثة النبي ﷺ المتمثل في إقامة دين الله ونشره، مع الهدف من الجهاد في سبيل الله المتمثل في إحقاق الحق وإزهاق الباطل. فإنه لم يعط أحد هذه الفريضة حقها من الاهتمام مثلما أُعطيت في عهد رسول الله ﷺ وصحابته. وهذا ناتج عن فهم مكانتها في الإسلام، وأن لاقيام للإسلام بدونها.

ثم تناقص فهم الناس للإسلام، وفهمهم للجهاد، حتى آل الأمر بالإسلام أن عُزل عن الحكم بين الناس ـ في حين أنه لم ينزل إلاَّ لهذا ـ، وقصر على إقامة بعض الشعائر التعبدية، وأنكر عليه أهم خصائصه: وهي المسير والتقدم، والتوسع لأجل إنقاذ الناس وهدايتهم. وعُومل على أنه ديانة قومية أو إقليمية، وليست ديانة عامة يجب على الجميع الدخول فيها، أو مسالمتها، وإفساح الطريق لها لتعلو على الدين كله، كما كانت

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

على عهد رسول الله ﷺ وصحابته.

ولمَّا كان الجهاد هو وسيلة الإسلام في التقدم والتوسع والانتشار، فقد تضررت هذه الفريضة قبل غيرها من الفرائض من هذا الفهم، إذ نظر إليها - في غياب الفهم الصحيح للإسلام - على أنها لا حاجة إليها، إذا كان الإسلام - الذي هو إقامة الشعائر - قائمًا بدونها. وتشوهت عند من لم يستحضر الهدف الذي من أجله شرعت، ولم يشاهد منها إلاَّ القتال الذي هو مكروه بطبيعته للنفوس.

٥ - إن المنهج الجهادي الذي سار عليه النبي ﷺ؛ لإنقاذ الناس هو منهج متكامل له هدف محدد، ووسائل معينة، تسير بالناس في خطوات متدرجة معتمدة على جهود وطاقات البشر الذين تحركهم نصوص الوحي المعصومة.

بدأت هذه المسيرة من الدعوة إلى التوحيد، وماصاحبها من عقيدة الولاء والبراء التي هي المحرك الأساسي للجهاد في سبيله، ثم نازلت أهل الكفر في هدم رموزه وطقوسه في نفوسهم، فكانت هذه الحرب العقدية لا تقل ضراوة عن الحرب العسكرية، بل إن الحرب العقدية هي الدافع الحقيقي وراء جميع المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وصحابته. ثم انتهت بإخراج خير أمة أخرجت للناس، قد عالج الوحي نواحي حياتها، وكلفها بنشر الخير الذي أنزله الله عليها إلى جميع الناس، فكان محور نشاطات هذه الأمة المسلمة هو إقامة دين الله في حياتها، والعمل على نشره في غيرها.

٦ - لقد وقفتُ على علاقة القرآن بهذه المسيرة الجهادية، فوجدته يتابع مراحلها خطوة خطوة، وينقلها من مرحلة إلى أخرى في

أرض الواقع. يتنزل منه مايناسب الحال والظروف المحيطة، يُصحح، ويُوجه، ويُرغب، ويُرهب. يذكر خطرات النفوس، ومواقف الأفراد. يُعقب على الحدث والغزوة، ويذكر ما فيها من إيجابيات وسلبيات، يعرض القصة المناسبة للواقع ويستخرج ما فيها من عبر، يُمهد للمرحلة القادمة، ويذكر أهم العقبات والعوائق التي تؤثر في المسيرة؛ ليحتاط لها. وكل ذلك يوظف في تربية المؤمنين وإعدادهم لإقامة الحق وإزهاق الباطل.

٧ ـ إن العدل والرحمة يتحقق بإحقاق الحق كله، وإزهاق الباطل كله. كما قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[1]. فجهاد النبي ﷺ إنما صنع على عيّن الله في جميع تفاصيله، لذلك هو المقياس الوحيد الذي يقاس عليه غيره من جهاد المسلمين، وقد اعتنى الوحي بجهاده ﷺ، حتى استقلت بعض السور بتفاصيل بعض غزواته؛ لتصبح نبراسًا يضيء الطريق للسالكين.

ولقد تعامل الوحي مع جميع المواقف ـ سواء مواقف المؤمنين أو مواقف الكافرين ـ بحسب تأثيرها على ظهور الحق أو صده. فالمؤمنون ـ وهم حملة الحق ـ لهم من النصرة والتأييد بقدر مايقومون به من التمسك به، فإذا ما فرطوا فيه وخالفوا ما أُمروا به، نالهم من المصائب بحسب ذلك. ليراجعوا مواقفهم ويتبينوا خطأهم فيعملوا على تصحيحه، فيكون النفع حينئذ للحق، وأهلُه تبعٌ له، وفي الوقت نفسه هو نفعٌ لغيرهم من الناس؛ لئلا تعزب الهداية عنهم؛ فيضلوا أو

(١) سورة الأنفال، آية: ٨.

يبقوا في ضلالهم. لذلك كانت المصائب والهزائم ملازمة لاقتراف الذنوب والمعاصي، حتى لايخرج حملة الحق وقد شوهوا نضارته بذنوبهم، فالناس ـ في الغالب ـ لا يقبلون الحق إلاَّ من حامليه، وهذا الذي بسببه اعتنى بتربية الجيل الأول حتى أصبح كل منهم يهدي الناس بأفعاله قبل أقواله. وهو نفسه الذي جعل الكفَّار في عصرنا هذا ـ وعصور تقدمت ـ يقل دخولهم في الإسلام مع أن أصله محفوظ كما أنزل

أما الكفَّار فلهم مواقف مختلفة فصاحب الموقف السلبي الذي لايؤثر على ظهور الحق، ويقصر كفره عليه لا يقاتل، بل يعامل بما يحببه في الإسلام ويزهده في الكفر، ومن اعترض مسيرة الحق وإقامة دين الله فإنه يقاتل لاعتدائه وظلمه، بل من تمام العدل أن يفرق بين من يقاتلون، وهم لا يعلمون أن هذا هو الحق، وبين من يعلمون أنه الحق فيعترضون سبيله حسدًا وبغيًا، فإن جمعوا إليه نقضهم العهد، وتكرر الغدر كانت معاملتهم أشد.

٨ ـ إن الجهاد في سبيل الله بدءًا من هدفه، والوسائل المشروعة لتحقيقه وأحكامه الكثيرة: كالأمان، والمهادنة، والجزية، والأسر، والسبيّ، والغنائم وغيرها. كلها مندرجة تحت الأصل العظيم. الذي هو إحقاق الحق ،وتقوية أهله، ونصرتهم، وإزهاق الباطل، وتقليل أهله، وإضعافهم؛ ليعم الاهتداء بهذا الدين. ومايلاحظ في معاملات وأحكام الجهاد من شدة وقسوة، فتلك فرع عن الشدة والقسوة الملازمة لحكم الحق عزَّ وجلَّ على الباطل وفلوله. إذ ليس له سبيل إلاَّ أن يضرب بقوة، ويُبطل بلا هوادة. وأما ما فيها من رفق وسهولة فذلك ناتج عن قلة خطرها على الحق وأهله.

٩ ـ إن الناس يقصِّرون في إدراك حقيقة العدل والرحمة، وينظرون إليهما أحيانًا بمعزل عن الحكمة، فيشفقون على القاتل، وينسون حق المقتول. ويشفقون على الزاني، وينسون شناعة جريمته وتأثيرها على سمعة وعرض المزني بها وأقربائها. وينكرون قتال الكافر، وينسون عظيم جرمه في صدِّه عن دين الله تعالى. ولكن المولى عزَّ وجلَّ يراعي مصلحة الفرد والمجتمع، فإن تعارضت قُدم العامة على الخاصة.

١٠ ـ يخطر على بال كثير من الناس أن عدل الجهاد ورحمته تتمثل في العناية بالأسير، وعدم قتل النساء والصبيان، والدعوة قبل القتال، وأمان الكافر حتى يسمع كلام الله ونحوها فحسب. في حين أن إقامة دين الله، وإعلاؤه على الدين كله، وإزالة الظلم بجميع صوره وأشكاله، الذي كرر القرآن ذكره أهم من ذلك كله. بل هو المرتكز الحقيقي لعدل الجهاد ورحمته، وماسواه من التفاصيل والتفريعات لاتعدو أن تكون مظاهر لذلك، ومكملات.

١١ ـ إن القول بأن الإسلام انتشر بإكراه الناس على الدخول فيه بحد السيف. ونقيضه القائل: إن الإسلام إنما انتشر بالدعوة السلمية. كلاهما قول مدخول، وفي كل منهما حق وباطل، فالإسلام انتشر بالسيف من حيث إزالته للقوى والتكتلات التي تمنع الناس عن الخير، وتصدَّهم عن سبيل الله. وفي الوقت نفسه لم يكره أحدًا من الأفراد على الدخول فيه إذا أدى الجزية، وخضع لأحكام الدين التي تلزمه، بل دعاهم بالتي هي أحسن مع إقرارهم على دينهم.

كما أن عدم فهم حقيقة الجهاد، وعلاقته بإقامة الإسلام

ونشره، أوقعت في القول بأن الجهاد إنما شُرع للدفع فقط. وهو قول مخالف للكتا ب والسنة، والحق أنه مشروع للطلب، وللدفع من باب أولى.

١٢ ـ إن تطبيق الجهاد على وجهه الصحيح، والتزام ما أمر الله به من آدابه ومعاملاته، وأحكامه لهو من أهم وسائل الدعوة إلى الله.

١٣ ـ إن التربية الإيمانية العميقة المرتكزة على عقيدة الولاء والبراء، والشعور بالانتماء إلى الحق، والتخلص من الذنوب والمعاصي، وإرادة إعلاء دين الله ونصرته، والأخذ بالأسباب المادية حسب القدرة مع الاهتمام بوحدة الصف والكلمة، ثم الصبر والثبات لهي الركائز الأساسية في حصول النصر والتمكين في الأرض.

١٤ ـ إن منهج النبي ﷺ يرد على من يواجه أهل الكفر، وهو ليس مطبقًا لدين الله في نفسه، ولا يريد بهذه المواجهة إعلاء دين الله ونصرته. وكذا يرد على من يعمل على إقامة الإسلام بخروج الأفراد العُزل بلا قوة تحميهم، فإذا منعوا من إقامة دين الله اكتفوا بممارسة بعض الشعائر التي لا يؤدي تطبيقها إلى ماأراده الله من إزلة الباطل.

**فالأول**: لم يحمل دين الله تعالى، وقلَّد النبي ﷺ في المواجهة مع انحرافه عن أهم أمر شرع الجهاد من أجله، فقتاله ليس في سبيل الله، وليس جهادًا بالمعنى الشرعي.

**الثاني**: حمل بعض دين الله، وسلك غير منهج النبي ﷺ في إقامته لدين الله.

والحق الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة وواقع سيرة النبي ﷺ الجهادية؛ أن يغرس دين الله بعمق في الأنفس، وتبنى له

القاعدة المتينة في أرض لا سلطان فيها إلاَّ للمسلمين. ثم يسار به إلى الناس، مستظلاً بالقوة التي تحميه، وتزيل العقبات من طريقه، بحيث يُرجى من هذا التوسع والانتشار هداية الناس وإرادة الخير بهم قبل كل شيء، ومن اعترض تحقيق ذلك قوتل، وصدق على هذا القتال وحده بأنه في سبيل الله.

١٥ـ إن وقوع القتال بين المؤمنين والكافرين ليس شرًّا ـ كما قد يظن ـ بل هو خير، ونتائجه في صالح المسلمين ـ حتى وإن لم يحصلوا على النصر ـ كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾[1] فبه تزول هيبة عدوهم من صدورهم، ويقوى عودهم ويتعودون على الشدائد وتحمل المصاعب، وتسمو الأمة عن الترهل والتميع والركون إلى الدنيا المكتسب أيام السلم، وتتفجر به الطاقات، وتكتشف المواهب، ويرتقي من يختارهم الله إلى مرتبة الشهادة.

١٦ـ إن العقبات التي واجهت رسول الله ﷺ في سبيل إقامة دين الله هي: المشركون، وأهل الكتاب، والمنافقون، والأعراب. فالمشركون وأهل الكتاب في المواجهة العلنية، والمنافقون في خلخلة الصف من الداخل وكشف العورات، والأعراب في تخاذلهم وتباطئهم عن نصرة الحق وأهله، ومراعاة مصالحهم أكثر من مراعاة مصلحة الدين وإقامته. وكان ظهور هذه العقبات متدرجًا مع ظهور الإسلام وانتشاره، وكل سورة من السور المعنية بالجهاد تعرضت لهذه الطوائف أو بعضها، بحسب ما

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

تشكله هذه الطائفة أو تلك من خطر على مسيرة الحق ونشره في تلك المرحلة التي نزلت فيها السورة. ويدل تكرارها ومقارعة القرآن لها على أنها عقبات ثابتة يحسب حسابها كل من أراد إقامة دين الله على المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ وصحبه.

١٧- إن أبرز معلم اتضح من خلاله العدل والرحمة في جهاده ﷺ ليتمثل في مجاهدته لإقامة الحق ونشر العدل الإلهي المنزل ومقاتلة الظلمة الذين يصدون الناس عن الاهتداء بنور الله تعالى ويبغون نشر الفساد في الأرض.

هذا - والله أعلم - وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

# ملحق (١)
# تراجم الأعلام[1]

| ترجمة العلم | رقم الصفحة |
|---|---|
| ـ إبراهيم بن أدهم بن منصور: التيمي، أبوإسحاق، زاهد، مشهور، تفقه ورحل وجال في العراق والشام والحجاز، توفى سنة (١٦١هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٨٧). | ٣٨ |
| ـ ابن الأثير: هو المبارك بن محمد بن محمد الجزري، أبوالسعادات مجد الدين، المحدث، اللّغوي، له كتاب «جامع الأصول» و«النهاية في غريب الحديث والأثر» وغيرهما، توفى عام (٦٠٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٨٩)، والأعلام (٥/ ٢٧٢). | ٣٦ |
| ـ أحمد بن محمد بن حنبل: الشيباني، أبوعبدالله، ولد سنة (١٦٤هـ)، كان من أئمة أهل السنة والجماعة، وقد نصرَ اللهُ به الحق يوم فتنة خلق القرآن. له تآليف من أشهرها «المسند»، وهو من الحفّاظُ المتقنين، والزُّهادُ المعدودين، توفى سنة (٢٤١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٧)، وتهذيب التهذيب (١/ ٧٢)، والأعلام (١/ ٢٠٣). | ١٨٥، ٢٤٦ |
| ـ البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر، البغدادي، الكاتب، صاحب «التأريخ الكبير»، توفى بعد السبعين ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٦٢). | ٢٠٧ |
| ـ ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني، أبوالعبّاس، تقي الدين، الإمامُ، المشهودُ له برسوخِ القدم في علوم النقل والعقل، ولد بحران عام (٦٦١هـ)، وتحول إلى دمشق، ونبغ واشتهر، وأصبح مرجعًا في الفتوى، أفتى بمسائل أُوذِي من أجلها، وسجنَ أكثرَ من مرة، ومات في السجن، من مؤلفاته: «درء تعارض العقل والنقل»، توفى عام (٧٢٨هـ). انظر: الأعلام (١/ ١٤٤). | ٢٦، ٣٧، ٦١، ٦٦، ١٠٧، ١١٢، ١٤٤، ١٥٨، ١٦٨، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٦١ |

(١) الترتيب على حروف المعجم مع مراعاة الشهرة، من دون النظر إلى «ابن» أو «أبو» وكذا الألف واللام.

ـ توماس آرنولد: مستشرق انجليزي، من أهل لندن، ولد سنة (١٢٨٠هـ)، شغل مراكز عدة آخرها: مدير معهد الدراسات الاستشراقية بلندن، ترجمت بعض كتبه إلى العربية، توفى سنة (١٣٤٩هـ). — ١٦١

انظر: الأعلام (٢/ ٩٤).

ـ ابن الجوزي: هو عبدالرحمن بن علي بن محمد بن عبيد الله، أبوالفرج، كان علاَّمةُ وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنَّفَ في فنون عديدة، ومن مصنفاته: «زاد المسير في علم التفسير»، توفى عام (٥٩٧هـ). — ٢١، ٢٨

انظر: طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٧٥)، والأعيان (٣/ ١٤٠)

ـ الحازمي: هو محمد بن موسى بن عثمان، أبوبكر الهمذاني، ولد عام (٥٤٨هـ)، له تآليف منها: «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ»، توفى عام (٥٨٤هـ)، وله ست وثلاثون سنة. — ٢٢١

انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٦٧).

ـ ابن حجر: هو الحافظُ أحمد بن علي محمد الكناني، العسقلاني، أبوالفضل، شهاب الدين، من أئمة العلم والتأريخ، أصله من عسقلان بفلسطين، من الحفَّاظ المشهورين، وعلماء الحديث البارعين، من أشهر مؤلفاته: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» و«تهذيب التهذيب»و«التقريب»، توفى سنة(٨٥٢هـ). — ٣٣، ٣٦، ٥٠، ١٣٧، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٦١

انظر: الأعلام (١/ ١٧٨).

ـ الحسن بن يسار البصري: أبوسعيد، تابعي، أحد العلماء والفقهاء الفصحاء النساك، ولد بالمدينة عام (٢١هـ)، وتوفى عام (١١٠هـ). — ٢٤٠

انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣).

ـ حمد بن علي بن محمد بن عتيق: قاضي من علماء نجد، ولد في الزلفي سنة (٢٢٧هـ)، وتفقه في الرياض، وولي قضاء الحلوة ثم الأفلاج، إلى أن توفى سنة (١٣٠١هـ)، وله مؤلفات عدة منها: إبطال التنديد». — ١١٢

انظر: روضة الناظر عن مآثر علماء نجد (١/ ٩٤).

ـ ابن دقيق: هو محمد بن علي بن وهب، أبوالفتح، تقي الدين القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، من أكابر العلما، من كتبه: «أحكام الأحكام»، توفى سنة (٧٠٢هـ). انظر: الدرر الكامنة — ٢١١، ٢١٥

(٥/ ٣٤٨)، والأعلام (٦/ ٢٨٣).

- **ذو الرمَّة**: هو غيلان بن عقبة بن نهيس، شاعر أموي، عدَّه ابن سلاَّم في الطبقة الثانية من فحول شعراء الإسلام، توفى في خلافة هشام بن عبدالملك. ٢٠

انظر: الشعر والشعراء (١/ ٥٢٤)، وفيات الأعيان (٤/ ١١).

- **الراغب**: هو الحسين بن محمد بن المفضل، الأصبهاني، الملقب بالراغب، وقد غلب عليه لقبه، وكثُرَ الاختلاف في اسمه، وتأريخ وفاته، من أشهر مؤلفاته: «مفردات القرآن». ٢١، ٣٦

انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٢٠)، وطبقات المفسرين للدوادي (٢/ ٣٢٩).

- **ابن رشد الحفيد**: هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد، أبوالوليد، القرطبي، ولد سنة(٥٢٠هـ)،قال الذهبي: «أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يضرب به المثل في ذلك»، من مصنفاته: «بداية المجتهد»، توفى سنة (٥٩٥هـ). ٢٠٣، ٢١٢، ٢٤٤

انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٠٧).

- **الزهري**: هو محمد بن مسلم بن بن شهاب الزهري، أبوبكر، أول من دوَّن الحديث، وأحدُ أكابر الحفاظ والفقهاء،تابعي،من أهل المدينة، مات سنة(١٢٤هـ) ٤٠٣، ٤٢١

انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٦)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٤٤٥).

- **زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني**: من الشعراء الجاهليين، وهو أحد الشعراء الثلاثةُ الفحول المتقدمين على سائر الشعراء بالاتفاق، توفي قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، له ديوان مطبوع. ٢٠

انظر: الشعر والشعراء (١/ ٣٧)، والأعلام (٣/ ٥٢)

- **الزيلعي**: هو عبدالله بن يوسف بن محمد بن أيوب، الحنفي،الفقيه، الحافظ، جمال الدين، له المؤلفات الحسنة منها: «نصب الراية»، توفي سنة (٧٦٢هـ). ٢١٢

انظر: ذيل تذكرة الحفاظ (ص١٢٨).

- **السدي**: هو إسماعيلُ بن عبدالرحمٰن بن أبي كريمة، أبومحمد السدي، القرشي، روى عن أنس وجماعة، وروى عنه الثوري وغيره، قال الذهبي: «وهو السدي الكبير، فأما السدي الصغير فهو محمد بن مروان. . . واهٍ». ٢٤

انظر: ميزان الاعتدال (١/ ٢٣٦)، تهذيب التهذيب (١/ ٣١٣).

- **السرخسي**: هو محمد بن أحمد بن سهل، أبوبكر، قاض، من كبار الأحناف ومجتهديهم، أشهر كتبه «المبسوط»، أملاه وهو مسجون في جب؛ بسبب كلمة نصح بها بعض الولاة، توفي سنة (٤٨٣هـ). ٢٣٠
انظر: الأعلام (٥/ ٣١٥).

- **سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون**: أبومحمد، الهلالي، الكوفي، ثم المكي، ولد سنة (١٠٧هـ)، قال علي بن المديني: «مافي أصحاب الزهري أحد أتقن من سفيان بن عيينة»، توفي سنة (١٩٨هـ). ٢١٢
انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٤).

- **سيد بن قطب بن إبراهيم**: من مواليد أسيوط، تخرج بكلية دار العلوم، ثم أرسل إلى أمريكا للدارسة، وعاد منتقدًا لما يخالف الإسلام، أوذي وسجن، من مؤلفاته: «في ظلال القرآن»، قتل عام (١٣٨٧هـ). ٨٣، ٥٦٧، ٣٤٥
انظر: الأعلام (٣/ ١٤٨).

- **ابن سيرين**: محمد بن سيرين البصري، أبوبكر، تابعي، ولد بالبصرة لسنتين بقيتا من خلافة عمر - رضي الله عنه -، تفقه وروى الحديث، واشتهر بتعبير الرؤى، توفى سنة (١١٠هـ). ٢١٥
انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠٦).

- **السيوطي**: هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، جلال الدين، إمام، حافظ، مكثر من التآليف ومنها: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، توفى سنة (٩١١هـ). انظر: الأعلام (٣/ ٣٠١). ١٧٩

- **الشافعي**: محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي، القرشي، أبوعبدالله، ولد بغزة سنة (١٥٠هـ)، أفتى وهو ابن عشرين سنة، له «الأم» و«الرسالة» وغيرهما، من أصحاب المذاهب المتبوعة، توفى سنة (٢٠٤هـ). ٢١٣
انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥).

- **الشوكاني**: هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه، مجتهد، من كبار علماء اليمن، ولد سنة (١١٧٣هـ)، ومن مؤلفاته: «فتح القدير» و«نيل الأوطار»، وتوفي سنة (١٢٥٠هـ). ١٥٦، ١٦٣
انظر: الأعلام (٦/ ٢٩٨).

ـ الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبوجعفر، مفسر، مؤرخ، له «جامع البيان في تفسير القرآن» وغيره، توفي سنة (٣١٠هـ) انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧)، والأعلام (٦/ ٦٩).

٣٢، ٦٧، ١١١، ١١٢، ١١٩، ١٥٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٤٠، ٢٧٨، ٢٩٨، ٣١٤، ٣٣٧، ٣٦٧، ٣٩٤، ٤١٠

ـ أبوعبيد: هو أبوعبيد القاسم بن سلاَّم الهروي، الأزدي، من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، ولد سنة (١٥٧هـ)، ومن مؤلفاته: «الأموال» و«فضائل القرآن» و«الطهور» وغيرها، توفي سنة (٢٢٤هـ) بمكة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٩٠).

٢٤٣

ـ ابن العربي: هو محمد بن عبدالله بن محمد المعافري، الإشبيلي، أبوبكر، قاض، ولد بأشبيلية عام (٤٦٨هـ)، ورحلَ إلى المشرق، وبلغ رتبة الاجتهاد، من كتبه: «أحكام القرآن» و«عارضة الأحوذي»، مات سنة (٥٤٣هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٦٧)، والأعلام (٦/ ٢٣٠).

٢١٨

ـ عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان: تابعي من أجلاء الفقهاء، كان عبدًا أسود، ولد باليمن، ونشأ بمكة، وتعلم بها، حتى أصبح مفتي أهلها ومحدثهم، وبها توفي سنة (١١٤هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٨).

٢٤٠

ـ ابن عطية: هو عبدالحق بن غالب بن عبدالملك، أبومحمد، الغرناطي القاضي، كان فقيهًا، عالمًا بالتفسير والحديث والفقه واللغة، من تصانيفه: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، توفي سنة (٥٤١هـ).

انظر: طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٦٥).

٣٨

ـ عكرمة بن عبدالله: الحبر، العالم، أبوعبدالله، البربري، مولى ابن عبَّاس، وعنه أخذ التفسير، توفي سنة (١٠٧هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٩٥).

٢٢٣، ٣٦٠، ٣٦٨

ـ عمر بن عبدالعزيز بن مروان: الأموي، القرشي، الخليفة الصالح، ولد ونشأ بالمدينة، ووليها للوليد، ثم استوزره سليمان بالشام، وولي الخلافة بعده، توفي عام (١٠١هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤)، والأعلام (٥/ ٥٠).

١٦٣

و«إعراب القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» وغيرها، توفي سنة (٣٣٧هـ).
انظر: طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٦٨).

- ابن هشام: هو عبدالملك بن هشام بن أيوب، العلاَّمةُ النحوي الأخباري، أبومحمد، الذهلي، السدوسي، هذَّب السيرة النبوية، وسمعها من زيادالبكائي صاحب ابن إسحاق، توفي سنة (٢١٣هـ). ٤٠٤
انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٨).

- أبويعلى: هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف، أبويعلى، عالم عصره في الأصول والفروع، قال الذهبي: «انتهت إليه الإمامةُ في الفقه»، من أشهر كتبه: «الأحكام السلطانية»، توفي سنة (٤٥٨هـ). ٢٤٦
انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٨٩)، والأعلام (٦/ ١٠٠).

# ملحـــق (٢)
# تتميم التخريج للأحاديث

### ص(٤٦) حاشية (٦) حديث: «جاهدوا المشركين بأموالكم...»

أخرجه أحمد (٣/ ١٢٤، ١٥٣)، وأبوداود (٢/ ١٣) رقم (٢٥٠٤)، والنسائي (٦/ ٧)، رقم (٣٠٩٦) من طريق حماد بن سلمة عن حميد عن أنس به. وحميد هو الطويل كثير التدليس عن أنس وقد عدَّه الحافظ في «تعريف أهل التقديس» ص(٦٣) من الطبقة الثالثة من طبقات المدلسين الذين اختلف الأئمة في قبول أحاديثهم التي لم يصرحوا فيها بالسماع، وقد نقل العلائي في «جامع التحصيل» ص(١٦٨) عن أبي عبيدة الحداد عن شعبة قال: «لم يسمع حميد من أنس إلاَّ أربعة وعشرين حديثاً والباقي سمعها من ثابت أو ثبته فيها ثابت» فقال العلائي: «فعلى تقدير أن يكون مراسيل قد تبين الواسطة فيها وهو ثقة محتجٌ به» وبقية رجاله ثقات وسنده متصل فالحديث كما قال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٧٥) رقم (٢١٨٦): «صحيح».

### ص(٤٧) حاشية (١) حديث: «الجهاد باقٍ إلى يوم القيامة»

لم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد في سنن أبي داود منفردًا به (٢/ ٢٢) رقم (٢٥٣٢) بلفظ: «الجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال» وفيه: يزيد بن أبي نشبة وهو مجهول كما قال الذهبي في الكاشف (٢/ ٣٩٠)، وكذا الحافظ في التقريب.

### ص(٦٩) حاشية (٢) حديث: «خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده...».

أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، والنسائي في التفسير (١/٤٨٧) رقم (١٩٥)، من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبدالله به، وعاصم: صدوق له أوهام كما في التقريب. وللحديث شاهد أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧)، وابن ماجه (١/ ٦) رقم (١١) كلاهما من حديث أبي خالد الأحمر عن مجالد عن الشعبي عن جابر نحوه.

وفي سنده أبوخالد الأحمر: صدق يخطيء. ومجالد بن سعيد: ليس بالقوي وحديثهما يشهد لحديث عاصم ويقويه ولعله يرتقي به إلى الصحة.

### ص(٨٤) حاشية (١) حديث: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا».

أخرجه أحمد (١/ ٥٣)، وأبوداود (٢/ ٣٤٩) رقم (٣٦٧٠)، والترمذي (٥/ ٢٣٦٦) رقم (٣٠٤٩)، والنسائي (٨/ ٢٨٦) رقم (٥٥٤٠)، كلهم من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق السبيعي عن عمرو بن شراحيل عن عمر ـ رضي الله عنه ـ به.

وفيه: أبوإسحاق السبيعي مدلس ذكره الحافظ في المرتبة الثالثة من مراتب المدلسين في «تعريف أهل التقديس» (١٤٦)، وقد عنعن هنا فلا يقبل منه إلاَّ ما صرح فيه بالسماع، عند

بعضهم.

وأيضًا فيه انقطاع فقد قال ابن أبي حاتم في «المراسيل» (١٢٠): «عمرو بن شراحيل عن عمر مرسل» وهذا يوافق ما عقب به الترمذي في تعليقه على الحديث بقوله: «قد رُوي عن إسرائيل هذا الحديث مرسل».

**ص(١٢٢) حاشية (٤) حديث: «وتعاهدوا على قتله».**

هذا معنى حديث أخرجه أحمد ي موضعين (١/ ٣٠٣، ٣٦٨) ولفظه: «إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى... لو قد رأينا محمدًا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله...» في حديث طويل من طريق عبدالله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. والحديث رجاله ثقات وإسناده متصل إلاَّ أن فيه عثمان قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق. علمًا بأنه وثَّقه ابن معين والنسائي ـ مع تشددهما في الرجال ـ وكذا ابن حبان والعجلي كما في «تهذيب الكمال» (١٥/ ٢٨١) وقال المزي: «استشهد به البخاري في الصحيح وروى له في «القراءة خلف الإمام» وغيره وروى له الباقون» وعلى هذا يتوجه تصحيح أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ للحديث كما في حاشية المسند (٤/ ٢٦٩، ٥/ ١٦٣).

**ص(١٣٦) حاشية (٥) حديث: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو».**

الحديث أخرجه أحمد (١/ ١٩٢، ٥/ ٢٧٠، ٣٦٣)، والنسائي (٧/ ١٤٦) رقم (٤١٧٢، ٤١٧٣) عن عبدالله بن السعدي، وأسانيد النسائي متصلة برجال ثقات، وإن كان في أحدها الوليد بن مسلم وهو مدلس من المرتبة الرابعة (كما في تعريف أهل التقديس: ١٧٠) فقد تابعه مروان بن محمد ـ وهو ثقة ـ في الأخذ عن عبدالله بن العلاء فأمن تدليسه. وأما أسانيد أحمد ففيها من ينزل إلى مرتبة صدوق كابن عياش وعطاء الخراساني وهي صالحة لمتابعة غيرها. والحديث كما قال الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٣/ ٨٧٤) رقم (٣٨٨٩): «صحيح».

**ص(١٣٩) حاشية (١) حديث: وعلى أن تنصروني فتمنعوني...»**

الحديث أخرجه أحمد من طريقين (٣/ ٣٢٢، ٣٣٩)، من حديث طويل من طريق عبدالله بن عثمان خثيم عن أبي الزبير أن جابر حدثه وذكره.

وفيه: ابن خثيم وهو صدوق وكذا فيه أبوالزبير وهو صدوق مدلس عده الحافظ من المرتبة الثالثة من مراتب الموصفين بالتدليس كما في «تعريف أهل التقديس» (١٥١) وقد صرَّح أبوالزبير هنا بالتحديث عن جابر.

وعليه فالحديث كما قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٦١): «إسناده جيد قوي» وقد ذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٦٣) وقال: «ورواه أحمد بإسناد حسن».

**ص(١٤٦) حاشية (١) حديث: «إنكم آويتم صاحبنا...»**

أخرجه أبوداود (٢/ ١٧١) رقم (٣٠٠٤) وفيه: محمد بن داود بن سفيان قال الحافظ عنه: مقبول. والمقبول عند الحافظ لين الحديث، إلاَّ أن يتابع، ولا متابع هنا. ثم إن محمد بن داود هذا لم يرو عنه إلاَّ أبوداود وبالتالي فهو مجهول العين. ولم أقف على الوجه الذي صحح به العلامة الألباني هذا الحديث في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٨٢) رقم (٢٥٩٥).

**ص(١٥٨) حاشية (٣) حديث: «ما كانت هذه لتقاتل».**

أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٨)، وأبوداود (٢/ ٦٠)، رقم (٢٦٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٨) رقم (٢٨٤٢) من طريق المرقع بن صيفي عن جده رباح بن الربيع أنه خرج مع النبي ﷺ في غزوة غزاها وذكره.

وفيه المرقع: صدوق. وللحديث شاهد أخرجه أحمد (٢/ ١١٥) من طريق شريك بن عبدالله عن محمد بن زيد عن نافع عن ابن عمر بلفظه وشريك: صدوق يخطىء كثيرًا ولكن الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى الصحة إن شاء الله وقد صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٠٧) رقم (٢٣٢٤).

**ص(١٧٥) حاشية (٣) حديث: «لئن تركتم الجهاد...»**

أخرجه أحمد (٢/ ٨٤) واللفظ له من طريق أبي جناب يحيى بن أبي حية عن شهر بن حوشب عن ابن عمر به، وأبوجناب وشهر فيهما ضعف. كما أخرجه أيضًا في مسنده (٢/ ٢٨) من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر بمعناه.

ورجال هذا الإسناد ثقات إلاَّ أن فيه انقطاع. فقد قال الإمام أحمد: «لم يسمع عطاء من ابن عمر» كما في «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٠٣).

وقد ذكر أبوداود الواسطة بين عطاء وابن عمر فيما أخرجه في سننه (٢/ ٢٩٦) رقم (٣٤٦٢) من طريق إسحاق بن أسيد عن عطاء عن نافع عن ابن عمر بنحوه. إلاَّ أن إسحاق فيه ضعف، وبمجموع طرقه يرتفع الحديث عن الضعف. قال البنا في «الفتح الرباني» (١٤/ ٢٦): «وصححه ابن القطان».

**ص(١٧٧) حاشية (١) حديث: «آذوا نبيهم حتى خرج...»**

أخرجه أحمد (١/ ٢١٦)، والترمذي (٥/ ٣٠٤) رقم (٣١٧١)، وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٦/ ٢) رقم (٣٠٨٥) كلهم من طريق سفيان الثوري عن الأعمش عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

كما أخرج الترمذي هذا الحديث مرسلاً (٥/ ٣٠٥) رقم (٣١٧٢) من حديث أبي أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، قال: لما أخرج النبي ﷺ وذكره. ولم يذكر ابن عباس.

وكأنه يشير إلى علة انقطاع في الحديث، وأنه مختلف فيه على سفيان. لكن سفيان

الثوري قد تابعه شعبة عن الأعمش عند الحاكم (٣/ ٧)، عن ابن عباس، وقد زاد السيوطي نسبته في الدر (٦/ ٧٥) لعبدالرزاق وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، وغيرهم عن ابن عباس به.

وعليه فالحديث إسناده متصل، ورجاله ثقات، وهو كما قال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٧٩١٣) رقم (٢٥٣٥): «إسناده صحيح».

**ص(١٨٨) حاشية (٣) حديث: «ما كنت أرى أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا...»**

أخرجه أحمد (١/ ٤٦٢) من طريق عطاء بن السائب الشعبي عن ابن مسعود، به، وإسناده منقطع فقد نقل ابن أبي حاتم في «المراسيل» ص(١٣٢) عن أبيه قوله: «لم يسمع الشعبي من عبدالله بن مسعود».

وقد ذكره ابن جرير في في تفسيره (٧/ ٢٩٤، ٢٩٦) في ستة مواضع بأسانيد مختلفة لا تسلم كلها من ضعف. ولعل كثرتها مع اختلاف مخارجها يدل أن للحديث أصل.

**ص(٢١١) حاشية (١) حديث: «انطلقوا باسم، وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا...».**

أخرجه أبوداود (٢/ ٤٤) رقم (٢٦١٤) بإسناد متصل فيه خالد بن الفرز. قال عنه الحافظ التقريب: مقبول. والمقبول عنده لين الحديث ما لم يتابع. ولا متابع له هنا. فالحديث فيه ضعف بهذا الإسناد.

**ص(٢١١) حاشية (٢) حديث: «لا تقتلوا أصحاب الصوامع»**

أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥) من طريق ابن أبي حبيبة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس به. وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة قال عنه الحافظ في التقريب: «ضعيف».

**ص(٢١٢) حاشية (٧) حديث: «اقتلوا شيوخ المشركين»**

أخرجه أحمد (٥/ ١٢)، وأبوداود (٢/ ٦٠) رقم (٢٦٧٠)، والترمذي (٤/ ١٢٣) رقم (١٥٨٣)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». كلهم من طريق الحجاج بن أرطأة عن قتادة عن الحسن عن سمرة به.

والحجاج: صدوق مدلس من الرابعة على ما ذكره الحافظ في «تعريف أهل التقديس» (١٦٤)، وقد صرح بالتحديث عن قتادة عند أبي داود.

أما رواية الحسن عن سمرة فالخلاف فيها مشهور وخلاصته ما قاله الحافظ العلائي في «جامع التحصيل» (١٦٥): «وقد روى عنه ـ أي عن سمرة ـ نسخة كبيرة غالبها في السنن الأربعة. وعند علي بن المديني أنها كلها سماع، وكذلك حكى الترمذي عن البخاري نحو هذا، وقال يحيى القطان وجماعة كثيرون: هي كتاب وذلك لا يقتضي الانقطاع».

وعلى هذا فإسناده حسن. وإذا اعتبرت متابعة سعيد بن بشير عند الترمذي ـ مع ضعفه ـ

للحجاج بن أرطأة عند أحمد وأبي داود في رواية كل منهما عن قتادة ربما ارتفع إسناده عن درجة الحسن.

**ص(٢٢٣) حاشية (٥) حديث: «من قتل قتيلاً من أهل الذمة...»**

أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢/ ١٨٦)، والنسائي (٨/ ٢٥) رقم (٢٧٥٠) كلاهما من طريق مروان بن معاوية قال: حدَّثنا الحسن بن عمرو عن مجاهد عن جنادة بن أبي أُمية عن عبدالله بن عمرو به.

وقد أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١١٥٥) رقم (٢٩٩٥) من طريق عبدالواحد عن الحسن عن مجاهد به ولم يذكر جنادة بلفظ: «من قتل معاهدًا...» وقد تابع عبدالواحد في عدم ذكر جنادة أبومعاوية عن الحسن عند ابن ماجه (٢/ ٨٩٦) رقم (٢٦٨٦) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣١١ـ٣١٢): «ورجح الدارقطني رواية مروان لأجل هذه الزيادة لكن سماع مجاهد من عبدالله ثابت وليس بمدلس فيحتمل أن يكون مجاهد سمعه أولاً من جنادة ثم لقي عبدالله بن عمرو أو سمعاه معًا وثبته فيه جنادة...» وذكر أن لفظة «من أهل الذمة» هي بمعنى «معاهدًا».

**ص(٢٢٧) حاشية (٤) حديث: «لولا أن الرسل لا تقتل...»**

الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٧)، وأبوداود (٣/ ٩٢) رقم (٢٧٦١) كلاهما من طريق سلمة بن الفضل قال: حدثنا محمد بن إسحاق قال: حدَّثني سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم عن أبيه نعيم بن مسعود به.

وفيه: سلمة بن الفضل: صدوق كثير الخطأ. ومحمد بن إسحاق مدلس من الرابعة لكنه صرح هنا بالتحديث عند أحمد.

وللحديث شاهد أخرجه أحمد (١/ ٢٩١) من طريق المسعودي قال: حدَّثني عاصم بن بهدلة عن أبي وائل قال: قال عبدالله بن مسعود وذكره بمعناه.

والمسعودي وعاصم موصوفان بالصدق وحديثهما يصلح شاهدًا يتقوى به ما قبله. وقد صحح الألباني حديث نعيم في «صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٢٨) رقم (٢٣٩٩).

**ص(٢٣٠) حاشية (٣) حديث: «من كان بينه وبين قوم عهد...»**

أخرجه أحمد (٤/ ١١١، ١١٣، ٣٨٦٦)، والترمذي (٤/ ١٢١) رقم (١٥٨٠) وقال: «حديث حسن صحيح» من طريق شعبة عن أبي الفيض عن سليم بن عامر وذكره.

وعند أبي داود (٢/ ٩٢) رقم (٢٧٥٩) من الطريق ذاته إلاَّ أنه فيه «عن سليم بن عامر عن رجل من حمير».

وفي «المراسيل» لابن أبي حاتم ص(٧٣): «سليم بن عامر لم يدرك عمرو بن عبسة».

وعلى هذا فالحديث عند أحمد والترمذي لم يتصل إسناده، وعند أبي داود فيه راوٍ مجهول، فإن لم يكن هذا المجهول من الصحابة فالحديث ضعيف.

**ص(٢٤٢) حاشية (٥) حديث: «اقضي كتابك وأتزوجك...»**

أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٦)، وأبوداود (٢/ ٤١٥) رقم (٣٩٣١) كلاهما من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر عن عروة عن عائشة به، فإسناده متصل ورجاله ثقات عدا ابن إسحاق فإنه صدوق مدلس من الرابعة كما في «تعريف أهل التقديس» ص(١٦٨) وهي المرتبة التي اتفق الأئمة أن لا يحتجوا بشيء من حديث أصحابها إلاَّ بما صرحوا فيه بالسماع، وقد أمن تدليس ابن إسحاق هنا بتصريحه بالتحديث عن أحمد. والحديث حسن كما قال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٧٤٥) رقم (٣٣٢٧).

**ص(٢٤٧) حاشية (٤) حديث: «من فرَّق بين والدة وولدها...»**

الحديث أخرجه أحمد (٥/ ٤١٣، ٤١٤)، والترمذي (٤/ ١١٤)ت رقم (١٥٦٦)، (٥/ ٥٨٠) رقم (١٢٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم».

أخرجاه من طريق حيي بن عبدالله بن شريح عن عبدالله بن يزيد ـ وهو أبوعبدالرحمن الحبلي ـ عن أبي أيوب به.

وحيي: صدوق يهم كما قال الحافظ في التقريب. وقد تابعه عبدالله بن جنادة المعافري عند الدارمي (٢/ ٦٧٦) رقم (٢٣٨٥) تحقيق: البغا. في الأخذ عن الحبلي. ولم أقف على قول من بين حال ابن جنادة إلاَّ ابن حبان ذكره في الثقات (٧/ ٢٣) وقال ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٥/ ٢٥): «أخذ عن الحبلي» وللحديث شاهد عند ابن ماجه (٢/ ٣٥٦) رقم (٢٢٥٠) من حديث أبي موسى الأشعري وفيه: إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف. ولكن قال الذهبي في الميزان (١/ ١٩): «استشهد به البخاري في صحيحه». وقال ابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٣٢): «ومع ضعفه يكتب حديثه» فإذا اعتبر توثيق ابن حبان لابن جنادة مع الشاهد الذي أخرجه ابن ماجه أمكن تصحيح الحديث بطرقه.

**ص(٢٦٩) حاشية (٤) حديث: «اللهم أينا كان أقطع للرحم...»**

أخرجه أحمد (٢/ ٥٣١) من طريق محمد بن إسحاق قال: حدَّثني الزهري عن عبدالله بن ثعلبة بن صعير وذكره. وفيه محمد بن إسحاق صدوق مدلس قد صرَّح بالسماع فأمن تدليسه. كما أخرجه النسائي في تفسيره (٢/ ٥١٨) رقم (٢٢١) من طريق صالح بن كيسان عن الزهري. وعلى هذا يكون صالح بن كيسان قد تابع ابن إسحاق عن الزهري، وعلى هذا فالحديث إسناده صحيح.

**ص(٢٩٩) حاشية (٣) حديث: «إنه ليس لنبي إذا لبس لامته...»**

أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠) في حديثٍ طويل من حديث حماد بن سلمة عن أبي الزبير هو المكي: صدوق مدلس من لاثالثة كما في «تعريف أهل التقديس» (١٥١) وقد عنعنة. وقد أورده البخاري في صحيحه معلقًا مجزومًا به (٦/ ٢٦٨٢) وله شاهد إسناده صحيح من حديث

ابن عباس عند الحاكم (٢/ ١٢٩) صححه ووافقه الذهبي.

فالحديث كما قال الألباني في تعليقه على «فقه السيرة» للغزالي (٢٥٠): «صحيح».

**ص(٣٢٣) حاشية (١) حديث: «للشهيد عند الله ست خصال...»**

الحديث أخرجه جماعة من طريق بحير بن سعيد ـ ويقال ابن سعد ـ عن خالد بن معدان عن المقدام بن معدي كرب به.

ومن هذا الطريق أخرجه أحمد (٤/ ١٣١) في روايته عن إسحاق بن عيسى والحكم بن نافع.

وابن ماجه (٢/ ٩٣٥) رقم (٢٧٩٩) في رواية عن هشام بن عمار ثلاثتهم عن إسماعيل بن عياش عن بحير به.

كما أخرجه أيضًا الترمذي (٤/ ١٦١) رقم (٦٦٣) وقال: «حديث حسن صحيح غريب» في روايته عن الدارمي عن نعيم بن حماد عن بقية بن الوليد عن بحير به.

وبقية: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، عدَّه الحافظ من المرتبة الرابعة من طبقات المدلسين كما في «تعريف أهل التقديس» ص(١٦٣) وعلى هذا يكون بقية بن الوليد قد تابع إسماعيل بن عياش وجبر أحدهما ضعف الآخر، وخالد بن معدان ـ وإن كان ثقة يرسل كثيرًا ـ إلاَّ أن الحافظ أثبت سماعه فقال في تهذيب التهذيب (٣/ ١٢٠): «وحديثه عن المقدام في صحيح البخاري» وعلى هذا يتوجه تصحيح إسناده.

**ص(٣٤٧) حاشية (٣) «عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ...﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم»**

أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٠) رقم (٣٣٠٣) وقال: «حديث حسن غريب» والنسائي في تفسيره (٢/ ٣٩٦) رقم (٥٩٤) من طريق الحسن بن محمد الزعفراني عن عفان بن مسلم عن حفص بن غياث عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير به.

وأشار الترمذي إلى أنه «روى عن سعيد مرسلاً» والحديث رجاله ثقات وإسناده متصل. والزيادة من سعيد، زيادة ثقة مقبولة، فيحمل ما لم يسنده إلى ابن عباس على ما أسنده إليه، في حالتي الوصل والإرسال إذ أن سماعه ثابت منه وهو غير مدلس. وقد قال الألباني في «صحيح سنن الترمتذي» (٣/ ١١٥) رقم (٢٦٣١): «إسناده صحيح».

**ص(٣٧٢) حاشية (٢) حديث: «شر ما في رجل شح هالع...»**

الحديث خرجه أحمد (٢/ ٣٠٢، ٣٢٠)، وأبوداود (٢/ ١٥) رقم (٢٥١١) من طريق موسى بن عُلي عن أبيه عن عبدالعزيز بن مروان عن أبي هريرة به.

وفيه: موسى بن عُلي: قال عنه الحافظ في التقريب: «صدوق ربما أخطأ» علمًا بأنه وثقه أحمد وابن معين والنسائي والعجلي وابن حبان كما في تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٦٣).

وكذا فيه عبدالعزيز بن مروان قال عنه الحافظ أيضًا: صدوق علمًا بأنه في التهذيب

(٦/ ٣٥٦) نقل توثيق ابن سعد له وكذا النسائي وابن حبان ولم يذكر لهم مخالفًا، والذي يظهر أنه يترجح توثيقهما لكثرة من قال به وعليه يكون إسناد هذا الحديث صحيحًا بل قد صححه الألباني كما في «صحيح سند أبي داود» (٢/ ٤٧٧) رقم (٢١٩٣) والظن أن الألباني لو اختار قول الحافظ فيهما لم يبلغه هذه المرتبة إلاَّ بطرق لم أقف عليها.

**ص(٣٧٤) حاشية (١) حديث: «فأخذ المعول فقال: بسم الله...»**

أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٣) بإسناد فيه ميمون أبوعبدالله وهو ضعيف، وله شاهد بمعناه أخرجه النسائي (٦/ ٤٣) رقم (٣١٧٦٦) وفيه رجل مبهم مختلف في صحبته وهو أبوسكينة وبقية رجاله لا يقلون عن درجة الصدق، وقد ذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٤٥٨) وقال: إسناده حسن.

**ص(٣٩٣) حاشية (٢) حديث: «ما لي لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أتبع»**

أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٣) رقم (٢٩٨٢) من طريق أبي بكر بن عياش عن ابن إسحاق عن البراء بن عازب به. وأبوإسحاق: ثقة مشهور بالتدليس من الثالثة ما في «تعريف أهل التقديس» (١٤٦) كما أنه اختلف بآخره فلا يدري أسمع منه أبوبكر قبل اختلاطه أم بعده.

# الفهـــارس العامـــة

أولاً: فهرس الآيات القرآنية
ثانيًا: فهرس الأحاديث والآثار
ثالثًا: فهرس المصادر والمراجع
رابعًا: فهرس الموضوعات

# أولاً: فهرس الآيات القُرآنية

## ﴿سورة البقرة﴾

﴿سورة آل عمران﴾

## ثانيًا: فهرس الأحاديث والآثار

### (أ)

( ب )

( م )

( ن )

## ثالثاً: فهرس المصادر والمراجع

### (أ)

- أبوحنيفة حياته وعصره آراؤه وفقهه، لمحمد أبي زهرة، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ط الثالثة (١٩٦٠م).
- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار التراث ـ القاهرة، ط الثالثة (١٤٠٥هـ).
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، لوهبة الزحيلي، دار الفكر، ط الثالثة (١٤٠١هـ).
- أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٨هـ).
- أحكام أهل الذمة، لابن القيم، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر العاروري، رمادي للنشر، ط الأولى (١٤١٨).
- أثر الإسلام في تكوين الشخصية الجهادية، لمحمد نعيم ياسين، دار النفائس، الكويت، ط٢، ١٤١٠هـ.
- أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- أحكام الجهاد وفضائله، لعز الدين بن عبدالسلام، تحقيق إياد الطباع، دار الفكر ـ دمشق (١٩٩٦م).
- الأحكام السلطانية، لأبي الحسن علي محمد البصري البغدادي، تحقيق خالد السبع، دار الكتاب العربي، ط الأولى (١٤١٠هـ).
- الأحكام السلطانية، لأبي يعلى، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة الحلبي ـ القاهرة (١٣٥٦هـ).
- أخلاق النبي في القرآن والسنة، لأحمد عبدالعزيز الحداد، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى (١٩٩٦م).
- أربعون حديثاً في فضل الجهاد، لجلال الدين السيوطي، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الاعتصام ـ القاهرة.
- أساس البلاغة، للزمخشري، دار صادر ـ بيروت (١٣٨٥هـ).
- أسباب نزول القرآن للواحدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار القبلة، جدة، ط٢، ١٤٠٤هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، جمعية المعارف ـ مصر (١٢٨٥هـ).

- الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، لأبي الحسن الندوي، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤٠٧هـ.
- الإسلام والحضارة العربية، لمحمد كرد علي، دار الكتب المصرية (١٣٥٣هـ).
- الإسلام عقيدة وشريعة، لمحمود شلتوت، دار الشروق، ط السادسة عشر (١٤١٢هـ).
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة (١٤٠٨هـ).
- الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، لأبي بكر محمد بن موسى الحازمي الهمذاني، تحقيق عبدالمعطي أمين قلعجي، دار الوعي - حلب، ط الأولى (١٤٠٣هـ).
- الإعداد المعنوي للقتال في الإسلام، لفيصل جعفر بالي، مطبعة سفير - الرياض، ط الثانية (١٤١٢هـ).
- الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط٥، (١٩٨٠م).
- افتراءات حول غايات الجهاد، لمحمد نعيم ياسين، دار الأرقم، ط الثانية (١٤٠٦هـ).
- اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى (١٤٠٧هـ).
- الأم، للشافعي، المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق مصر، ط الأولى (١٣٢١هـ).
- أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، لعلي العلياني، دار طيبة، ط الثانية (١٤١٦هـ).
- آيات الجهاد في القرآن الكريم، لكامل سلامة الدقس، دار البيان - الكويت.

( ب )

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر الكاساني، ط مطبعة الإمام - القاهرة.
- بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الكتاب العربي.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، ط الأولى (١٤٠٩هـ).
- البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق أحمد أبوملحم، وزملائه، دار الريان للتراث - القاهرة، ط الأولى (١٤٠٨هـ).
- بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية - بيروت.
- بصائر للمسلم المعاصر، لعبدالرحمن حسن حبنكة، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ.
- بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، (١٣٨٤هـ).

( ت )

ـ تأريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، لجميل عبدالله المصري، مكتبة الدار ـ المدينة المنورة، ط الأولى (١٤٠٧هـ).

ـ تأريخ الجاهلية، لعمر فروخ، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط الثانية (١٩٨٤م).

ـ تأملات في سيرة الرسول ﷺ، لمحمد السيد الوكيل، دار المجتمع للنشر والتوزيع ـ جدة، ط الثالثة (١٤١٦هـ).

ـ التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، تحقيق علي محمد البيجاوي، دار الجيل ـ بيروت، ط الثانية (١٤٠٧هـ).

ـ التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر (١٩٨٤م).

ـ التحفة العراقية، لابن تيمية، تحقيق حمَّاد سلامة، مكتبة المنار ـ الأردن، ط الأولى (١٤٠٨هـ).

ـ التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن جزي، تحقيق محمد عبدالمنعم اليونسي، إبراهيم عطوة عوض، أم القرى للطباعة والنشر ـ القاهرة.

ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الفكر ـ بيروت (١٤٠٧هـ).

ـ تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، مطبعة المنار ـ مصر، ط الأولى (١٣٤٦هـ).

ـ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لأحمد السيد الكوفي، ط١، ١٤٠٢هـ.

ـ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لمحمد أحمد يوسف القاسم، ط١، ١٤٠١هـ.

ـ تفسير النسائي، تحقيق سيد الجليمي، صبري الشافعي، مكتبة السنة، ط الأولى (١٤١٠هـ).

ـ تفصيل آيات القرآن الحكيم، لجول لابوم، نقلها إلى العربية محمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط الثانية (١٩٦٩م).

ـ تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار القلم ـ دمشق بيروت، ط الرابعة (١٤١٢هـ).

ـ التنبيهات السنية، لعبدالعزيز الرشيد، دار الرشيد للنشر والتوزيع.

ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف النظامية في الهند حيدر آباد الدكن، ط الأولى (١٣٢٦هـ).

ـ تهذيب الأخلاق، للجاحظ، دار الصحابة للتراث ـ مصر، ط الأولى (١٤١٠هـ).

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزيّ، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط الأولى (١٤١٣هـ).

ـ تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق عبدالله درويش، الدار المصرية للتأليف والترجمة د. ت.

ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، لعبدالرحمن السعدي، تقديم محمد النجَّار، دار المدني ـ جدة (١٤٠٨هـ).

(ج)

ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٨هـ).
ـ جامع البيان في تفسير القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف ـ مصر، ط الثانية.
ـ جاهليةالقرن العشرين، لمحمد قطب، دار الشروق (١٣٩٥هـ).
ـ جمهرة اللغة، لابن دريد، دار صادر (١٣٤٥هـ).
ـ جند الله ثقافة وأخلاقًا، لسعيد حوى، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
ـ جند الله في معارك رمضان، لمحمد رأفت سعيد، مطابع القوات المسلحة.
ـ الجهاد، لعبدالله بن المبارك، تحقيق نزيه حمَّاد، دار النور ـ بيروت (١٩٧١م).
ـ الجهاد، لمحمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط الثانية.
ـ الجهاد، لأحمد الحوفي، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مطابع الأهرام (١٣٨٩هـ).
ـ الجهاد سبيلنا، لعبدالباقي رمضون، مطابع الشمال الكبرى ـ تبوك، ط الأولى (١٤٠٦هـ).
ـ الجهاد طريق النصر، لعبدالله غوشة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية (١٣٩٦هـ).
ـ الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع، لصالح اللحيدان، دار اللواء للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط الثانية (١٣٩٨هـ).
ـ الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه، لأحمد محمد جمال، نشر رابطة العالم الإسلامي (١٤٠١هـ).
ـ الجهاد في الإسلام، لمحمد محمود الراميني، دار الفكر ـ بيروت، ط الأولى (١٩٦٧م).
ـ الجهاد في الإسلام، لمحمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر ـ بيروت، ط الأولى (١٤١٤هـ).
ـ الجهاد في الإسلام، للركابي، دار الفكر ـ دمشق بيروت، ط الأولى (١٤١٨هـ).
ـ الجهاد في الإسلام، لتوفيق علي وهبة، دار اللواء ـ الرياض (١٣٩٧هـ).
ـ الجهاد في الإسلام، لعفيف البزري، الكرمل ـ دمشق، ط الأولى (١٩٨٤م).
ـ الجهاد في التشريع الإسلامي، لمحمود محمد علي دار الاتحاد العربي، ط الأولى (١٣٩٧هـ).
ـ الجهاد في سبيل الله، لأبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، ط السادسة (١٤٠٣هـ).

ـ الجهاد في سبيل الله، لكامل الدقس، إدارة الشؤون الدينية للقوات المسلحة، ط الثانية (١٤٠٩هـ).
ـ الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته، لعبدالله أحمد القادري، دار المنار ـ جدة، ط الثانية (١٤١٣هـ).
ـ الجهاد في ضوء الكتاب والسنة، لمحفوظ عزام، ملحق مجلة الجندي المسلم (١٤٠٥هـ).
ـ الجهاد ميادينه وأساليبه، لمحمد نعيم ياسين، دار النفائس ـ الأردن، ط الرابعة (١٤١٣هـ).
ـ الجهاد هو السبيل، لمصطفى مشهور، ط١، ١٤٠٤هـ.
ـ الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، لظافر القاسمي، دار العلم الملايين ـ بيروت، ط الأولى (١٩٨٢م).
ـ الجهاد والسلام ومشاهد على أرض المعركة، لمحمد حسن بنجر، مطابع الجامعة ـ جدة.
ـ الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، لمحمد خير هيكل، دار البيارق، ط الثانية (١٤١٧هـ).
ـ الجهاد والفدائية في الإسلام، لحسن أيوب دار الندوة الجديدة ـ بيروت، ط الثانية (١٤٠٣هـ).
ـ الجهاد والنصر، لعبدالحليم محمود، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر ـ القاهرة.
ـ الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، لابن تيمية، تقديم على السيد صبح المدني.
ـ جوامع السيرة، لابن حزم، تحقيق إحسان عبَّاس، ناصر الدين الأسد، دار المعارف ـ مصر.

(ح)

ـ حاشية الروض المربع، لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، ط الرابعة (١٤١٠هـ).
ـ حدائق الأنوار في سيرة النبي المختار، لابن الديبع الشيباني، تحقيق عبدالله إبراهيم الأنصاري، المكتبة المكية ـ مكة، ط الثانية (١٤١٣هـ).
ـ حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ، لمحمد بن بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى.
ـ الحرب والسلام في الإسلام، لعبدالكريم الخطيب، دار الفكر ـ دمشق، ط الأولى (١٤٠١هـ).
ـ حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة البابي، ط الرابعة (١٣٨٤هـ).
ـ الحكومة الإسلامية، لأبي الأعلى المودودي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ترجمة أحمد

إدريس (١٤٠٤هـ).

(خ)

ـ الخراج ثلاث كتب:
١ـ الخراج، للقاضي أبي يوسف.
٢ـ الخراج، للإمام يحيى بن آدم القرشي.
٣ـ الاستخراج لأحكام الخراج، لابن رجب الحنبلي، دار المعرفة ـ بيروت.
ـ خصائص الشريعة الإسلامية، لعمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.

(د)

ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار الفكر ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٣هـ).
ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، دار الجيل، بيروت، لبنان.
ـ دروس في الكتمان من الرسول القائد، لمحمود شيت خطّاب، دار الإرشاد للنشر والتوزيع ـ بيروت.
ـ دستور الأخلاق في القرآن، لمحمد عبدالله دراز، تحقيق عبدالصبور شاهين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط التاسعة (١٤١٦هـ).
ـ الدستور القرآني، لمحمد عزة دروزة، مطبعة عيسى البابي، ط الثانية (١٣٨٦هـ).
ـ الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، عبدالحميد عابدين، إسماعيل النجراوي، مكتبة النهضة المصرية، ط الثالثة.
ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، لمحمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني ـ القاهرة.

(ذ)

ـ ذيل تذكرة لاحفاظ، لأبي المحاسن الحسيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(ر)

ـ الرد على سير الأوزاعي، لأبي يوسف، تصحيح أبي الوفاء، لجنة إحياء المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ـ الهند، ط الأولى.
ـ الرسول العربي وفن الحرب، لمصطفى طلاس، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة ـ دمشق (١٣٩٢هـ).
ـ الرسول القائد، لمحمود شيت خطاب، دار الفكر، ط الرابعة (١٣٩١هـ).
ـ ركائز الإيمان، لمحمد قطب، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا ـ الرياض، ط الثانية (١٤١٧هـ).

ـ روح الدين الإسلامي، لعفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢١، ١٩٨١م.
ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
ـ روضة الناظر عن مآثر علماء نجد، لمحمد بن عثمان القاضي، مطبعة الحلبي، ط٣، (١٤١٠هـ).

(ز)

ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط الخامسة عشر (١٤٠٧هـ).

(س)

ـ سبل السلام شرح بلوغ المرام، للصنعاني، تخريج فواز أحمد زمزلي، إبراهيم محمد الجمل، دار الريان للتراث ـ القاهرة، ط الرابعة (١٤٠٧هـ).
ـ سبيل الدعوة الإسلامية، لمحمد أمين المصري، دار الأرقم ـ الكويت، ط الرابعة (١٤٠٦هـ).
ـ السرايا والبعوث حول المدينة ومكة، لبريك محمد البريك، أشرف عليها أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، ط الأولى (١٤١٧هـ).
ـ سفراء النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب، مؤسسة الريان ـ بيروت، دار الأندلس الخضراء ـ جدة، ط الأولى (١٤١٧هـ).
ـ سنن أبي داود دراسة وفهرسة، كمال يوسف الحوت، دار الحنان ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٩هـ).
ـ سنن الترمذي، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٨هـ).
ـ سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي، عناية عبدالفتاح أبوغدة، دار البشائر الإسلامية، ط الثانية (١٤٠٦هـ).
ـ سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الريان للتراث.
ـ السياسة الشرعية، لابن تيمية، دار الكتاب العربي.
ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، أشرف على تحقيق الكتاب: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٩، (١٤١٣هـ).
ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تخريج عمرعبدالسلام التدمري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط الرابعة (١٤١٣هـ).

- السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط الرابعة (١٤١٣هـ).

- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، لمهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث، ط الأولى (١٤١٢هـ).

( ش )

- شرح السير الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق صلاح الدين المنجد.

- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز، تحقيق عبدالله التركي، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الأولى (١٤٠٨هـ).

- شرح مختصر الروضة، للطوفي، تحقيق عبدالله التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الأولى (١٤١٠هـ).

- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد شاكر، دار المعارف، مصر.

- شهادة الحق، لأبي الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة (١٤٠١هـ).

- الشهيد في الإسلام، لحسن خالد، دار العلم للملايين - بيروت، ط الثانية (١٩٧٨م).

- الشورى العسكرية في عهد الرسالة، لمحمود شيت خطاب، دار القبلة - جدة، ط الأولى (١٤١٣هـ).

( ص )

- الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية، تحقيق خالد عبداللطيف السبع، دار الكتاب العربي، ط الأولى (١٤١٦هـ).

- صحيح البخاري، عناية مصطفى ديب البغا، دار القلم - بيروت، ط الأولى (١٤٠١هـ).

- صحيح مسلم، عناية محمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى (١٤١٣هـ).

- صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض، ط الأولى (١٤٠٨هـ).

- صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض، ط الأولى (١٤٠٨هـ).

- صحيح سنن النسائي، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض، ط الأولى (١٤٠٨هـ).

- صحيح سنن ابن ماجة، لمحمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض، ط الأولى (١٤٠٨هـ).

ـ الصحيح المسند من أسباب النزول، لمقبل بن هادي الوادعي، دار ابن حزم ـ بيروت، دار القدس ـ صنعاء، ط الثانية (١٤١٥هـ).
ـ صور من الجهاد، لزيد بن عبدالعزيز بن فياض، مطابع القصيم ـ الرياض (١٣٨٦هـ).

(ض)

ـ الضوء المنير على التفسير، لابن القيم، جمعه على الحمد المحمد الصالحي، مؤسسة النور بالتعاون مع مكتبة دار السلام.

(ط)

ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر ـ بيروت.
ـ طبقات المفسرين، للداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
ـ الطرق الحكمية، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة (١٣٧٢هـ).
ـ طريق الدعوة في ظلال القرآن، جمع أحمد الفائز، مؤسسة الرسالة، ط الأولى (١٣٩٧هـ).
ـ الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة، لأبي الحسن الندوي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط الثالثة (١٤٠٨هـ).

(ع)

ـ العسكرية الإسلامية وقادتها العظام، لجمال يوسف الخلفات، بهاء الدين محمد أسعد، مكتبة المنار ـ الأردن، ط الثانية (١٤٠٣هـ).
ـ العسكرية العربية الإسلامية، لمحمود شيت خطاب، طبعة خاصة للحرس الوطني السعودي.
ـ العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، لعارف أبوالعيد، دار القلم ـ الكويت، ط الأولى (١٤٠٤هـ).
ـ العلاقات الدولية في الإسلام، لوهبة الزحيلي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط الثانية (١٤٠٧هـ).
ـ العلاقات الدولية في القرآن والسنة، لمحمد علي الحسن، مكتبة النهضة الإسلامية ـ عمّان، ط الثانية (١٤٠٢هـ).
ـ عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى (١٤١٧هـ).
ـ عوامل النصر والهزيمة، لشوقي أبوخليل، دار الفكر ـ دمشق ط الأولى (١٣٩٩هـ).
ـ العودة إلى المنابع، لأنور الجندي، دار الاعتصام.
ـ عيون الأثر، لابن سيد الناس، تحقيق محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، دار

التراث ـ المدينة، دار ابن كثير ـ بيروت، ط الأولى (١٤١٣هـ).

(غ)

ـ الغرباء الأولون، لسلمان بن فهد العودة، دار ابن الجوزي، ط الأولى (١٤١٠هـ).
ـ غزوة أحد عاقبة المخالفة، لشوقي أبوخليل، دار الفكر ـ دمشق، ط الأولى (١٣٠٢هـ).
ـ غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم، لسعود الفنيسان، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا ـ الرياض، ط الأولى (١٤١٨هـ).

(ف)

ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، عناية محمد فؤاد عبدالباقي، محب الدين الخطيب، راجعه قصي محب الدين، دار الريّان للتراث ـ القاهرة، ط الأولى (١٤٠٧هـ).
ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل، مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا، دار الشهاب ـ القاهرة.
ـ فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، تحقيق عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء ـ المنصورة، ط الأولى (١٤١٥هـ).
ـ فتوح البلدان، للبلاذري، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف ـ بيروت (١٤٠٧هـ).
ـ الفريضة المفترى عليها «الجهاد في سبيل الله»، لجمعة أمين عبدالعزيز، دار الدعوة، ط الأولى (١٤١٨هـ).
ـ الفصول في سيرة الرسول (السيرة الصغرى) لابن كثير، تحقيق: سيد عباس الجليمي، دار الصفا، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.
ـ فقه السيرة، لمحمد سعيد رمضان البوطي، دار المعارف ـ مصر، ط الثامنة (١٤١١هـ).
ـ فقه السيرة، للغزالي، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم ـ دمشق، ط السادسة(١٤١٦هـ).
ـ فقه السنة، لسيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، ط العاشرة (١٤٠٢هـ).

(ق)

ـ القاموس المحيط، للفيروز آبادي، تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط الثانية (١٤٠٧هـ).
ـ القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته، لمحمد ناصر الجعوان، ط الأولى (١٤٠١هـ).
ـ القواعد الحسان لتفسير القرآن، لعبدالرحمن السعدي، مكتبة المعارف ـ الرياض (١٤٠٢هـ).

ـ القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ لعبدالله محمد الرشيد، شركة الرياض للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٧هـ.
ـ قيم الحياة في القرآن الكريم، لمحمد شديد، مطبعة الشعب، القاهرة.

( ك )

ـ الكافي، لابن قدامة المقدسي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت دمشق، ط الرابعة (١٤٠٥هـ).
ـ الكشّاف، للزمخشري، تصحيح محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى (١٤١٥هـ).
ـ الكلمات النافعة، لعبدالله محمد عبدالوهاب، شرح محمد مطرجي، دار القلم ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٦هـ).

( ل )

ـ لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، دار إحياء العلوم ـ بيروت، ط الأولى (١٩٧٨م).
ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر ـ بيروت.

( م )

ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوى، دار الأصفهاني ـ جدة، ط الثانية عشر (١٣٩٣هـ).
ـ مباحث في التفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.
ـ مباديء الإسلام، لأبي الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة (١٣٩٥هـ).
ـ المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان، لمحمد الصادق عفيفي، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.
ـ المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، لأكرم العمري، المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي، ط الأولى (١٤٠٣هـ).
ـ المجتمع المدني عي عهد النبوة الجهاد ضد المشركين، لأكرم ضياء العمري، ط الأولى (١٤٠٤هـ).
ـ مجلة البيان، السنة الحادية عشر، العدد (١٠٧)، رجب ١٤١٧هـ، تصدر عن المنتدى الإسلامي، لندن.
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، تحقيق عبدالله محمد الدرويش، دار الفكر ـ بيروت (١٤١٢هـ).
ـ المجموع شرح المهذب، للنووي، تحقيق المطيعي، مكتبة الإرشاد ـ جدة.
ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم وابنه، تصوير،

ط الأولى (١٣٩٨هـ).
ـ مجموعة التوحيد، لابن تيمية وابن عبدالوهاب، دار الإسلام للنشر والتوزيع.
ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، دار النفائس، ط الخامسة (١٤٠٥هـ).
ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله الأنصاري، وعبدالعال إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ.
ـ المحلى، لابن حزم، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار التراث ـ القاهرة.
ـ مدارج السالكين، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط الثانية (١٣٩٣هـ).
ـ مدخل إلى التفسير الموضوعي، لعبدالستار سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط٢، ١٤١١هـ.
ـ مدخل إلى القرآن الكريم، لمحمد عبدالله درَّاز، ترجمة محمد عبدالعظيم علي، دار القلم ـ الكويت (١٤٠٠هـ).
ـ المدخل إلى العقيدة والاسترتجية العسكرية الإسلامية، لمحمد جمال الدين على محفوظ، دار الاعتصام، ط الثانية.
ـ المدينة النبوية، لمحمد حسن شراب، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، ط الأولى (١٤١٥هـ).
ـ المراسيل، لأبي حاتم الرازي، علق عليه أحمد عصام الكاتب، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٣هـ).
ـ مرويات غزوة الحديبية، لحافظ الحكمي، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.
ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم. وبذيله التلخيص للذهبي، دار المعرفة ـ بيروت.
ـ المستشرقون لنجيب العقيقي، دار المعارف، مصر، ط٣ (١٩٦٤م).
ـ المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، لعبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط الأولى (١٤١٨هـ).
ـ المسند، للإمام أحمد بن حنبل، إشراف سمير طه المجذوب، المكتب الإسلامي، ط الأولى (١٤١٣هـ).
ـ المسؤولية، لمحمد أمين المصري، نشر دار الأرقم ط١، ١٤٠٠هـ.
ـ مشارع الأشواق إلى مصارع العشَّاق «في الجهاد وفضائله»، لابن النحاس، تحقيق إدريس محمد علي، ومحمد خالد اسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، ط الثانية (١٤١٧هـ).

ـ معالم في الطريق، لسيد قطب، دار الشروق، ط العاشرة (١٤٠٣هـ).
ـ معجم ما استعجم، للبكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب ـ بيروت، ط الثالثة (١٤٠٣هـ).
ـ معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، لعاتق بن غيث البلادي، دار مكة، ط الأولى (١٤٠٢هـ).
ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ط الثانية (١٣٨٩هـ).
ـ المغني، لابن قدامة، مع حاشية الشرح الكبير، دار الكتاب العربي ـ بيروت (١٤٠٣هـ).
ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محي الدين، المكتبة العصرية ـ بيروت (١٩٩٢م).
ـ المغرب في ترتيب المعرب، للمطرزي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم، زمزم للنشر والتوزيع ـ الرياض، ط الأولى (١٤١٤هـ).
ـ مفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، ط الأولى (١٤١٢هـ).
ـ مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، لأحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي (١٩٨٥م).
ـ مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، تخريج أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى (١٤٠٩هـ).
ـ من فتاوى ورسائل ابن باز، جمع وتحقيق: عبدالرحمن عبدالسلام يعقوب، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ.
ـ المنهاج القرآني في التشريع، لعبد الستار فتح الله سعيد، ط الأولى (١٤١٣هـ).
ـ منهج الإسلام في الحرب والسلام، لعثمان جمعة ضميرية، مكتبة الأرقم ـ الكويت، ط الأولى (١٤٠٢هـ).
ـ المنهج التربوي للسيرة النبوية «التربية الجهادية»، لمنير محمد الغضبان، مكتبة المنار ـ الأردن، ط الأولى (١٤١٤هـ).
ـ منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، دار الشروق، ط الحادية عشر (١٤٠٨هـ).
ـ الموسوعة في سماحة الإسلام، لمحمد صادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط الثانية (١٤٠٢هـ).
ـ ميزان الاعتدال، للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(ن)

ـ النبأ العظيم، لمحمد دراز، تخريج عبدالحميد الخافي، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط

الأولى (١٤١٧هـ).
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط الأولى (١٣٩٤هـ).
- نصب الراية، للزيلعي. مع حاشية بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط الثالثة (١٤٠٧هـ).
- نظام الحكومة النبوية، للسيد عبدالحي الكتاني، تحقيق عبدالله الخالدي، دار الأرقم - بيروت، ط الثانية.
- نظرات في القرآن، لمحمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ط الخامسة.
- نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، لأبي الأعلى المودودي، الدار السعودية للنشر والتوزيع (١٤٠٥هـ).
- النظرية الإسلامية في القيادة الحربية، لمحمد جمال الدين علي محفوظ، دار الاعتصام.
- النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن ومقاومة الجاسوسية، لمحمد جمال الدين، دار الاعتصام.
- النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية، لمحمد جمال الدين، دار الاعتصام.
- النظم الإسلامية نشأتهاوتطورها، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٣٨٨هـ.
- النظم القرآني في آيات الجهاد، لناصر عبدالرحمن الخنين، مكتبة التوبة - الرياض، ط الأولى (١٤١٦هـ).
- النكت والعيون في تفسير القرآن، للماوردي، تحقيق خضر محمد خضر، مطابع مقهوي - الكويت، ط الأولى (١٤٠٢هـ).
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد، محمود الطناجي، المكتبة العلمية - بيروت.
- نواقض الإيمان القولية والعلمية، لعبدالعزيز العبداللطيف، دار الوطن - الرياض، ط الثانية (١٤١٥هـ).
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للشوكاني، مطبعة مصطفى الحلبي وشركاه.

(هـ)

- هداية الحيارى، لابن القيم، خرّج أحاديثه مصطفى أبوالنصر الشلبي، مكتبة السوادي - جدة، ط الأولى (١٤٠٨هـ).
- هذا الدين، لسيد قطب، دار الشروق، ط٨، ١٤٠٣هـ.

( و )

- الوافي بالوفيات، للصفدي، بيروت، ط٢، (١٩٨٥م).
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لسليمان القرعاوي، مكتبة الرشد - الرياض، ط الأولى (١٤١٠هـ).
- الوسيط في القانون الدولي، لمحسن الشيشكلي، منشورات الجامعة الليبية، ط الثالثة.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، حققه: إحسان عباس، دار صادر بيروت.
- الولاء والبراء في الإسلام، لمحمد سعيد القحطاني، دار طيبة، ط الثامنة (١٤١٧هـ).

## رابعًا: فهرس الموضوعات

**الفصل الثالث**

**نماذج من غزواته ﷺ وما فيها من العدل والرحمة منهجًا وتطبيقًا**